

الأمير شكيب أرسلان

في تعريف وتقدريم
وتعليق على حواشي



الدار الثقافية

مكتبة
لسان العرب

أ. علاء الدين شوقي

رابط بديل
lisanerab.com

www.lisanarb.com

أنا تول فرانس
في مبادله

الأمير شكيب أرسلان / تعريب كتاب أناتول فرانس في مبادئه

جميع الحقوق محفوظة

الدار التقدمية

المختارة - الشوف - لبنان

هاتف: ٩٦١-٥/٣١٠٥٥٥ - ٩٦١-٥/٣١١٥٥٥

E - mail: moukhtarainf@terra.net.lb

http://www.daraltakadoumya.com

الطبعة الأولى، حزيران ٢٠١٠

الأمير شكيب أرسلان

في

تعريب وتقديم

وتعليق على حواشي كتاب

أناتول فرانس

في مبادئه

لجان جاك بروسون

الدار التقدّمية

مقدمة الناشر

يُعتبر الأمير شكيب أرسلان، من الأعلام الذين أتقنوا اللغة العربية غاية الإتقان، ودرسوها على مشاهير علمائها، كالشيخ عبد الله البستاني والشيخ أحمد عباس الأزهرى. فالإخلاص للآمة العربية يقتضي عند الأمير شكيب الإخلاص للغتها وعلومها وآدابها وسائر ثمراتها العقلية. غير أنّ عمله الدائب في سبيل أمته وقضاياها الوطنية والسياسية الكبرى، وغيرته على لسانها، لم يمنعه من الانفتاح على الغرب، وتأكيده أنّ العربية لا تجد حرجاً بالدخيل عليها من لغات أخرى؛ لأنّ ذلك من أسباب مرونتها وحياتها. وقد سبق ودخلت في لغتنا علوم الأمم المتمدّنة وآدابها منذ عهدٍ بعيد. فنقل العرب عن الهند والفرس واليونان كثيراً من علومهم وثقافتهم، كما نقل الغرب عن العرب ما لم يبلغوا إليه من شؤون الحياة وأركان العمران، وذلك بواسطة التعريب والاطّلاع على اللغات الأجنبية. يستند انفتاح الأمير شكيب أرسلان في هذا الكتاب إلى واقعيّته وموضوعيّته، وإيمانه بأنّ العالم لا يتقدّم إلاّ باحتكاك الثقافات وتلاقح الحضارات بين الشرق والغرب.

فاختار أمير البيان أن ينقل في هذا الكتاب، أشهر ما جاء في الصحف، وعلى ألسنة مشاهير العصر، في «أناطول فرانس» بعد مماته، لأنه يعتبر هذا الأخير «آية فرنسا الحديثة في فنّ الإنشاء»، ومثالاً لا يزال إلى اليوم، نموذجاً للتهكّم والذوق الأدبي، وذلك في نظر الشطر الأكبر ممّن يكتبون في العالم الجديد.

وقد كان لفرنسا، عبر أناطول فرانس وأقياسه من الأدباء الفرنسيين، الفضل الأكبر على جميع الحركات الأدبية التي قامت في أوروبا وسائر بقاع الأرض؛ ففي النصف الأوّل من القرن السابع عشر، كانت باريس المركز الوحيد للمعارف الإسبانية، ولولا «كورناي» و«موليير» لما فتحت أبواب الشهرة للدراما والكوميديا الإسبانية، وفي القرن الثامن عشر اكتشف «فولتير» للمرّة الأولى سحر الأدب الإنكليزي، ونشره في أوروبا.

وفي منتصف القرن الثامن عشر، شرع الأدباء الفرنسيون يهتمّون بالأدب الألماني، وكان الأوروبيون لا يقرأون من نتاج الفكر الألماني قبل ذلك العهد، إلاّ ما له علاقة باللاهوت والشرع والفلسفة، حتّى إنّ «غوته» نفسه لم يكن معروفاً في أوروبا قبل سنة ١٧٥٠، وقُل مثل ذلك في الأدب النمساوي والبولوني واليوغوسلافي والأسوجي وسواها. كما كان لأدباء فرنسا الفضل

في تعميم أدب أميركا الجنوبية؛ فالأدب البرازيلي، على سبيل المثال، استمدّ عناصره الأولى من الأدب الفرنسي، وبقي المؤلفون الأرجنتينيون زمنًا طويلًا يقلّدون المؤلف الفرنسي وينتحلون أفكاره وصوره.

والأمير شكيب أرسلان، لم يصبح أميرًا للبيان بالموهبة وحدها، وإنما كان له ذلك بفضل تعمّقه في اللغة ومعرفته الواسعة لعلومها وبيانها وأصولها وأساليبها، وإنك لتجده، لا يريد للغة في العالم أن تتقدّم على لغة بلاد العروبة، فهي عنده وعندنا "أمُّ اللغات"!

الدار التقدّمية

في، ٢٩ أيار ٢٠١٠



لم يعهد التاريخ دورًا من الأدوار خلص من علاقة الشرقيين بالغربيين، وخلطة الغربيين بالشرقيين، ونسخ كل فريق عن الآخر واقتباس هذا من ذاك أخذًا وردًا وجزرًا ومدًا حتى في أعرق الأدوار في القدم وأوغل الأطوار في الظلم. وقد عمّ هذا التحاكي جميع أحوال الحياة وأركان العمران من التجارة إلى السياسة إلى الصناعة إلى الثقافة، فكما تناقلوا فيما بينهم البضائع والمتاجر فقد تناقلوا الحكم والخواطر، وكما حمل بعضهم إلى بعض المهن والصناعات فقد حملوا الاختراعات والبراءات، وكما تسلط منهم الأشجع على الأجن والأشك^(١) على الأعزل^(٢) فقد تسلط الأحن^(٣) على الألكن^(٤) والأعلم على الأجهل. إذا أخذ والعطاء بين الشرق والغرب قديمان منذ طلعت الشمس وولي اليوم الأمس، لم ينحصرا في الأمور المادية والحوالات المالية والآثار اليدوية، بل شملا الأمور المعنوية والمسائل العقلية والشؤون الاجتماعية. وما ترقّت في سلم الاجتماع أمة في شرق ولا في غرب إلا كان الآخر عيالاً عليها جادًا في محاكاتها ومتحسّرًا على مناغاتها. فقد أخذت يونان عن مصر، وأخذت بغداد عن يونان، وأخذت أوربة عن الأندلس، ثم أخذ الشرق في جدته الأخيرة عن أوربة. إلا أنه لم يعرف التاريخ فيما مضى، أي قبل ظهور الآلات البخارية والكهربائية، دورًا أثت^(٥) فيه العلائق بين الشرق والغرب، وارتفعت فيه الحواجز على البعد والقرب، وتشارك فيه الناس في تناول كل مادي ومعنوي كما في هذه الأيام الأخيرة التي ألقى فيها الغرب بجرانه السياسي على الشرق، ورأى الشرق أن لا قبل له بمناهضة الغرب على وجه كافل لنجاحه إلا بأن يقاتله بسلاحه، فاضطرّ الشرق إذا أن يأخذ عن الغرب طوعًا أو كرهًا - والضعيف مولع بتقليد القوي - كل ما يتسنى له أخذه من

(١) أفعل تفضيل من شك. ورجل شاك السلاح وشاك في السلاح أي لابس السلاح التام.

(٢) الأعزل: من لا سلاح معه.

(٣) الأفتن والأفصح.

(٤) العبي الثقيل اللسان (الناشر).

(٥) كثر والتفت.

أسباب المدينة كأداة الحرب والمتاع والماعون والعلم والحكمة والقانون مجتهدًا في أكثر الأحيان أن يضمّن هذه العلوم ألسنته الذليقة، ويطلع بها مدينته العريقة، ويلقي على غرابتها ديباجته الشرقية احتفاظًا بقوميته واعتصامًا بأنانيته، لأنّ كلّ أمةٍ نسيّت أصلها ونبتت قديمها وفرحت بجديدها وأنكرت رميمها، فأحرّ بها أن تكون أمة ساقطة عن أمم وأن تُعدّ خلطًا لا تُعرف من بين الأمم. ثمّ لم يكن للشرق أن يحكّم علوم الغرب قائدًا لدنيا اليوم أن ينقلها إلى لغاته وبيئتها في أكنافه ويشني عليها أعطاف ثقافه، إلّا بأن يحفظ لغات الغرب وآدابه ويجرد لمطالعتها هممًا عالية، حتّى يأتي بحقائقها من أعين صافية؛ فكان من الشرقيين من تعلّم اللغة الفرنسية، ومنهم من تعلّم الإنكليزية، ومنهم من مال أخيرًا إلى الألمانية عندما عَظُم شأن ألمانية في العلم والصناعة. لكن لم تزل اللغة الإفرنسية هي التي تمثّل الأدب الغربيّ عند الشرقيين لكونها لسان السياسة العامّ ولأنه إن زاحمتها سائر الألسن في التجارة والعلوم الطبيعية فلن تضارعها في الأدب وفنون الكلام.

فالأدب الفرنسي لا يزال في الغرب والشرق على كمال رونقه مطرزةً مجالس الخافقين برقائه مزررةً محاضرات الطبقات العالية على بنائقه. لا يكاد الرجل يُعدّ أدبيًا تامّ الأداة، إن لم يضرب من الفرنسية، بسهم ولم يحفظ من شعر راسين وكورنايل وفيكتور هوغو ولا مارتين، ولم يكن قرأ كتب فولتير وروسو وشاتوبريان ورنان ومن في نحوهم. وحسبك شاهدًا أن الألمان مع ما في لغتهم من استبحار الأدب ومع أنّ مؤلّفيهم صيّابة^(١) من كتب، ومع العداوة المشهورة التي بينهم وبين الفرنسيين والتي يزداد بها العلم عن كتب تجدهم يستعذبون اللغة الفرنسية ويتدارسون آدابها ويتحسّون شرايها، وإنّ الإنكليز مع ما هم فيه من العنجهية^(٢) التي يصحّ أن تكون مثلاً، ومن التعصّب للغتهم التي لا يرضون بها بدلاً مضطرون أن يدرسوا اللغة الفرنسية درس من يجعل التعبير عن أفكاره بها أكبر همّه ويحاول أن يتكلّم بها كما يتكلّم بلغة أبيه وأمه، لا سيّما من رشح نفسه لمناصب السياسة الخارجية ولمن أراد أن يكون خريجًا في العلوم السياسية والأدبية. فاللسان الإفرنسي طراز المجالس المُعلّم، ووشي المحافل المسهم^(٣)، والذي من علمه تكلم بكلّ نادٍ وتخلّص في كلّ البلاد.

(١) لُبّاب وخيار (الناشر).

(٢) الكبر والعظمة.

(٣) المخطّط.

وما قيل عن حكم اللغة الفرنسية في أوربة هو جار في الشرق المتجدد حذو القُذّة^(١) بالقُذّة، لا بل مع المبالغة التي من العادة أن تكون خصلة الأضعيف متى أراد أن يحذو حذو القوي. فإذا سمر الإنسان مع ناشئة مصرية أو سورية لم يسمعهم يتذكرون معاني المتنبي، ومعالي أنفاس أبي تمام، بلاغة الجاحظ، ورشاقة بديع الزمان كما يتذكرون الرواية الفلانية "لدوماس" أو "زولا" أو "دوده" والقصيدة الفلانية من نظم "هوغو" أو "لامارتين" أو "موسيه"؛ ولو أنهم أقطعوا أساطين لغتهم وعرائن حضارتهم ما أقطعوه أدباء فرنسة وأعظم رجالها من الاعتناء والاحتفال لكان ذلك منهم فضلاً وامتناً وعدوه جمالاً وإحساناً.

وليس المقصود بهذا أن محاضرات العرب بالآداب الأوربية لا تُعدّ من الأدب أو أنها نقص في ناشئة العرب، وأنّ اللغة العربية ضيقة العطن لا تطيق علماً حديثاً ولا أدباً طريفاً وأنها تجرد في صدرها حرجاً من كلّ دخيل، كلاً فقد دخلت في العربية علوم الأمم المتمدنة وآدابها وأمثالها وأقاصيصها من قديم الزمن من الهند وفارس ويونان والرومان، فازدادت بها كمالاً وكسبت بها صقلاً وامتلاً حوض الدولة العباسية بالمعاني الجديدة والمناحي التي لم تكن معروفة عند العرب لدن كانوا منحصرين في الجزيرة، فتأثّل بها للعربية لغة حاضرة بادية مستوفية شروط الحضارة، متمكّنة من أزمّة الحكمة، جامعة بين فصاحة القرائح الفطرية ودقة المباحث العلمية، واكتنزت في خزائن التأليف العربي ثروة بيانية لا تزال تنفق منها إلى يومنا هذا.

وكذلك يكون من تمام محاسن هذه اللغة أن تكون حاويةً من آداب الأجانب الحاضرين وفنونهم وعقائل نظمهم ونثرهم ما إن لم يكفِ ذوي الإخصاء مؤونة درس هذه الآداب في لغاتها الأصلية كان كافياً السواد الأعظم مؤونة المشاركة بها في اللغة العربية نفسها.

والقسط كلّ القسط في هذه المسألة هو أنه لا ينبغي لناشئة العرب أن يعدلوا بهذه الأمّ العربية البرّة أمّاً، ولا يجعلوا لها من بين اللغات ندّاً وأن يجعلوها قطب رحى المثافنة^(٢)،

(١) القُذّة: ريش السهم وحذو القذّة بالقذّة، مثل للشينين المتساويين (الناشر).
(٢) المجالسة.

ويعلموا أنها نعم السند يوم المماتنة^(١)، فلا يرتبوا أفكارهم في لغة قبلها ولا يضلوا في الإبانة عن ذات نفوسهم سبلها، حتى إذا صفت لهم مشارعها وحتت عليهم أجارعها وصارت ملكتها جارية مجرى المهج من نفوسهم نازلة منزلة الأدمغة من رؤوسهم، كان لهم أن يستزيدوا من آداب الغرب والشرق ما شاءوا، وتطالت إليهم عزائمهم، وأن يضموا إلى التلاد العربي القديم طريف البضائع ويضيفوا إلى الإرث العدملي^(٢) الكريم حديث البدائع مشروطًا في نقلها إلى خزانة العربية لأجل تمام المقصد واجتناب الهجنة أن يكون الأسلوب العربي الأصيل ظلها وماءها وديباجة النطق بالضاد أرضها وسماءها وأن تكون لغة الكتاب المنزل على أفصح العرب ألفها وياءها، إذ بدون ذلك تفسد هذه اللغة الشريفة ونكون طلبنا المزيد فوقعنا في النقصان، وأردنا الانتصار فباء قومنا والعياذ بالله بالخذلان.

وسترى ممّا سيأتيك من قصص هذا الكتاب وترجمة صاحبه أناتول فرانس، آية فرانسة الحديثة في فنّ الإنشاء، أنّ أدباء الأوربيين أنفسهم يخافون من تطرّق الفساد إلى ألسنتهم خوف الجبان من المنون، ويحافظون على نقاوة لغاتهم محافظة الناس على أناسي^(٣) العيون، وحسبك أنه لم يوجد في كتاب أوربة كاتب أشدّ شغفًا بالمحدثات العصرية وذهابًا مع النظريات المادية وأقلّ اعتبارًا للعقائد الدينية من صاحب هذه النوادر الذي كان معدودًا في آخر أمره من الاشتراكيين، لا بل من البلاشفة الملحدّين، الذين نصبوا العداوة للدين وعدّوا أهله من المفسدين. ومع هذا فلمّا جاءت المسئلة إلى اللغة رأيت أعض الكتاب بالنواجذ على النسق الفرنسي القديم والأسلوب التدريسي المتين، حتى كان الأدباء لا يميّزون بين كلامه وكلام راسين، الذي عاش قبله بنحو من مائتين وخمسين من السنين. وإنّ ما قلته في الفرنسيين من جهة المحافظة على لغتهم فلك أن تقوله في الإنكليز، عشاق لغة "شكسبير"، والألمان المتولّهيّن بحبّ "غوته"، عماد لغتهم الكبير، فلا يوجد في الشرق ولا في الغرب أمة ترضى بأن تكون آدابها فوضى لا نصاب ترجع إليه ولسانها خليط يضمّ كلّ ما وقع عليه. وأنا ناقل لك عن أشهر الصحف ومصاقع خطباء فرنسة يوم مات أناتول فرانس ما فيه مقنع لمن أراد أن يطمئن قلبه، فأقول:

(١) المباراة والسباق.

(٢) القديم.

(٣) جمع إنسان، وإنسان العين: ناظرها أو سوادها (الناشر).

وفاة أناتول فرانس

وترجمة حاله

قالت جريدة الطان في عددها المؤرخ في ١٤ أكتوبر سنة ١٩٢٤:

«قد ختم الموت أخيراً ذلك النزع الطويل الهادئ الذي بدأ بروح الأستاذ الأعظم الذي كان ذكاؤه الساطع يشعّ في الأرجاء كلّها. نعم، تمّت أنفاس أناتول فرانس بهذه الليلة (ليلة الاثنين ١٣ أكتوبر) في منتصف الساعة الثانية عشرة فكان شيخوخته المتينة النضيرة قد انتظرت آخر يوم من شهر أغسطس حتى تلّبيّ الداعي الذي أهاب بها. فأجابت ذلك النداء، إجابة فيلسوف حكيم. وكان أهل الأستاذ وصاغيته» مع انقطاع أمل الأطباء لم يريدوا أن يقطعوا الرجاء بما كانوا يرونه من صفاء ذهنه وانتظام حديثه واطمئنان نفسه في أثناء النزع، إلى أنه من أربعة أيام غاب عنه حسّه وبدأت تلك الشعلة تنطفئ كالسراج إذا فرغ زيته. وكانت الدنيا بأسرها تتوقع حلول الخطب بالقلق والوجوم وتراقب ذلك النفس الضعيف المتصاعد من فم طالما نطق بألفاظ هي من أعذب ما نطق به البشر. فالأفكار بأسرها مجتمعة على رأي واحد من الإعجاب تحيي الأثر الخالد الذي تركه هذا الرجل المعدود من أعظم كتّاب اللغة الفرنسية.

«وفي الساعة السادسة من صباح أمس غاب الأستاذ عن الرشد غيبة مطبقة وذلك للمرّة الأولى منذ بدء احتضاره. فتوقّفي في تلك الغرفة التي كانت مملوءة أنساً بين هاتيك التحف والنفائس التي اختارها هو بمعرفته، وصعدت من فمه زفرات خفيفة سُمعت في أثنائها لفظة هي أقدس كلمة حنوّ نطق بها إنسان وهي نداؤه «يا أمّاه!».

«وقد طالت تلك المصارعة بين النور والظلمات فردّد المعلّم مراراً جملة «أنا أموت» ومضى عليه يوم بتمامه وهو على هذا الحال، وأهله وأصحابه من حوله يخنقون عبراتهم أمامه إذ كانوا يعلمون أنه لا يريد البكاء. وكانت حليلته والدكتور مينيون يراقبان سير المرض. وفي الساعة الحادية عشرة والدقيقة السادسة والعشرين خرج النفس الأخير. فألبسوه قميص نوم أبيض وجعلوا يديه الواحدة بجانب الأخرى. وأضجعوه على سرير من سُرر عصر لويس السادس عشر» إلى أن ذكرت ترجمة الفقيه، فقالت:

(١) خاصته.

«ولد أناتول فرانس في باريز سنة ١٨٤٤ واسمه تيبولت، وكان أبوه يبيع الكتب في رصفة «مالاكيه»^(١) وكما كانت بداية أميل زولا^(٢) بيع الكتب عند «هاشيت»^(٣) فقد كانت بداية أناتول فرانس بيع الكتب في دكان أبيه. وكان تحصيله العلم في مدرسة ستانيسلاس. وكان في صباه يؤازر في تحرير بعض المجلات مثل «صياد التراجم» و«الجريدة المقفاة»، وسنة ١٨٦٨ أصدر تأليفه الأول «القصائد الذهبية» وتأليفا آخر سنة ١٨٧٦ اسمه «الأعراس الكورنتية»، ثم نشر أسطورة منظومة «القديسة تاييس» وقصائد أخرى. وما عدا ذلك فجميع آثاره صارت نثرًا.

«وفهرس كتبه طويل متنوع المواضيع أكثره من الكتابات الموضوعية بقوة الخيال ومن القصص والأخبار، فمنها: جو كاست والهزّ الهزيل، بلتشر، جرم سيلفستر بونار، رغائب جان سرفين، كتاب صاحبي، تاييس، صدفة اللؤلؤ، آراء المسيو جيروم كوينار، مطبخ الملكة بيدوك، الزنبقة الحمراء، جنينة أبيقور، بيرسانت كلير، دردارة اللعب، زنبيل الصفصاف، حلقة الجمشت، المسيو برجرية في باريز، ييارنورير، التاريخ الهزلي، الحجر الأبيض، قصص جان تورنبروش، النساء السبع، الألهة عطاش، ثورة الملائكة وقصص أخرى كثيرة. وفي أكثر هذه التأليف الخيالية كان يمتزج الخيال بالحقيقة، لأنّ من عادة أناتول فرانس أن يجعل أبطال رواياته تراجمة أفكاره ومبادئه وعواطفه. وكان يظهر دائماً في كتبه، فترى على طائفة من تأليفه شكل تاريخ أو نسق تراجم لا سيّما كتابه «بطرس الصغير» وكتاب «الحياة أيام الزهر» اللذين يصف بهما أيام صباه.

«وكان أناتول فرانس دخل سنة ١٨٧٥ في إدارة «الطان» وأخذ يكتب في القسم الأدبي منه فنشر مباحث ممتعة عن شعراء فرنسة المعاصرين، ثمّ صارت مؤازرته دائمة تحت عنوان «الحياة في باريز» ثمّ تحت عنوان «الحياة الأدبية» ممّا كان له من الرونق ما لا يزال في خواطر الناس إلى اليوم. وقد نشر هذه المباحث الانتقادية في أربعة مجلّدات تحت الاسم الذي كان عنّتها^(٤) به في الطان، ووضع في صدر هذه المجموعة، بمقام ديباجة، كتاباً إلى المسيو أدريان هبرار^(٥)، أحد أعضاء مجلس الشيوخ ومدير الطان، قال له فيه:

(١) Malaquais.

(٢) سيأتي ذكره.

(٣) Hachette: مكتبة أشهر من أن تُذكر.

(٤) عنونها.

(٥) أدريان هبرار Adrien Hébrard.

«اسمح لي أن أقدم لك هذا الكتاب الصغير الذي أنا مديون بوجوده لك لأنه لولاك لم يوجد. فإنك لما دعوتني إلى المؤازرة في الطان لم يكن النقد خاطراً لي على بال. وقد عجبت من انتدابك إياي لهذا الغرض وما زلت مدهوشاً. ويحق لي الدهش من أن أرى فكراً حاداً عاملاً عاماً، متصلاً بكل المسائل وبكل الناس متمكناً من ملكة الحياة ومراغماً دائماً في معمعان الأمور يروقه فكرٌ شامل بطيء الحركة، أليف العزلة، نظير فكري.

ألم تقل يوماً عني لأحد أصحابك وأصحابي؟:

- هذا راهب بنديكتي مخبأ.

من العادة أن المرء لا يعرف نفسه. ولكن هذا التحديد أراه غير بعيد. فإنني أشعر بكوني راهباً فيلسوفاً من رهبان دير تيليم^(١)، الذي قانونه سهل وطاعته غير ثقيلة. وقد يكون الإيمان ضعيفاً ولكن التقوى لا شك فيها.

فالتسامح والسجاجة^(٢) وحرمة المرء لنفسه وغيره هي فضائل مهملة دائماً. وإذا كان ثمة شك، فإن الشك لا يتمشى إلا مع التمسك المتين بالعادات والاصطلاحات. والآداب النفسية هي من الأمور التي اعتادها السواد الأعظم، إنما المتشككون هم الذين يجمعون بين الآداب والواجبات الوطنية. فإن الرجل المتشكك لا يعصي أبداً القوانين، لأنه لا يرجو أبداً أن يرى قوانين خيراً منها.

وأما البحث والنقد فبحسب مذهبي وبما تركتني أنت بالخيار فيه هما نظير الفلسفة والتاريخ من نوع القصص الخاص بالعقلاء ومحبي الأطلاع. وكل كتاب قصص هو لمن أراد التأمل ترجمة الكاتب لنفسه. وإن أحسن المجودين هو من روى أحداثاً نفسه في أعطاف كتبه. فلا يوجد انتقاد خارج عن النفس. وكل من يظن أنه يضع في كتابه شيئاً غير روحه فإنه في ضلال بعيد. فالواقع أننا لا نخرج أبداً من أنفسنا، وهذا من أكبر النقائص التي فينا. ثم قالت الطان:

«وقد عالج أناتول فرانس أن يكون مؤرخاً في الأحيين، لكنه عالج هذا الأمر كقصص أو كعالم بأحوال النفس أكثر مما عاناه كمؤرخ. وقد حاول أن يكون مؤرخاً حقيقياً في «حياة جان دارك»، الكتاب الذي نشره سنة ١٩٠٨، مجتهداً أن يبرز عنها صورة صحيحة».

(١) abbaye de thélème: عبارة أصلها للكاتب الفرنسي القديم رابليه (Rabelais) تُطلق على دير يستجمع أسباب الرفاهة والقصف لا سيما اللذات المادية.

(٢) السهولة واللين.

إلى أن تقول:

«وبقي أناتول فرانس مدّة في خدمة مكتبة السنوات^(١)، وفي سنة ١٨٩٦ انتُخب عضواً في الأكاديمية مكان فرديناند دو لسبس^(٢). ولكنّه كان يأتي المجمع في الندرى. والسبب في زهده في الاجتماع مع الأربعين النفور الذي جرى بينه وبين الكثيرين منهم على أثر دعوى دريفوس. فكلّ أحد يذكر أنّ أناتول فرانس بقي بعيداً عن المعارك السياسية إلى أن ثارت هذه القضية فانضمّ إلى أنصار دريفوس بتلك الحرارة والشدة اللتين ظهرتتا منه على اعتقاد أنّ نصرته دريفوس هي نصرته الشرف والحقّ والعدل. ومن ذلك الحين مال إلى الأحزاب المتطرّفة، وبقي على هذا الميل إلى آخر حياته. ووافق بالقلم واللسان على مبادئ الشيوعية الروسية.

«ونشر أناتول فرانس مقالات، وألقى خطباً عديدة وكتب رسائل كلّها في تأييد المبادئ التي ارتضاها في آخر حياته سواء في الاجتماع أو في السياسة أو في الفلسفة».

«وعند الاحتفال بنصب تمثال أرنست رنان في «تريغيه»^(٣) ألقى خطبة نفيسة، كذلك في الاحتفال بمرور مائة سنة على مولد رنان، أي العام الماضي، ألقى خطبة ثانية وكانت آخر مظاهر حركته في الأمور العامّة».

وفي العدد نفسه ظهرت في الطان مقالة بقلم «بول سوداي»^(٤)، المنشئ للقسم الأدبي في الطان، جاء فيها:

«إنّدرأ القضاء دفعة واحدة على الآداب الفرنسية فأصابها في أعلى قنتها، ففي أقلّ من حول ونصف حول فقدنا بيرلوتي^(٥) وباريس واليوم أناتول فرانس: ثلاث مصائب مؤلمات وثلاث رزايا لا تعوّض. فقد كان هؤلاء الثلاثة خيرة كتابنا ونخبة الناثرين عندنا، وربّما كان سبقهم في حلبة النثر ناشئاً عن أنهم الثلاثة كانوا شعراء. أمّا أستاذنا العزيز أناتول فرانس الذي كنّا نبتهج بشيخوخته النصيرة إلى أخريات هذه الأيام، وكان في مقاومته الشديدة للمرض أشبه بفكتور هوغو، فقد ولد في سنة ١٨٤٤ وأنّم في ١٦ أبريل الفائت ثمانين سنة. ورأى في عيد مرور الثمانين حولاً عليه من مظاهر الإجلال له في الداخل والخارج ما كلّ أحد يذكره. وكان فرانس باريزياً من باريز، نظير فولتير ومولير. فمن لا يذكر أنّ والده كان يتجر بالكتب في رصفة «مالاكيه»،

(١) مجلس الشيوخ.

(٢) فرديناند دو لسبس Ferdinand de Lisseps، فاعج برزخ السويس، ولد سنة ١٨٠٤ وتوفي سنة ١٨٩٤.

(٣) Tréguier.

(٤) بول سوداي (Paul Souday).

(٥) سيّامي شيء من خبره.

وقد حكى هو نفسه قصص حياته وأخبار شبابه في بعض كتب من غرر تأليفه مثل "كتاب صاحبي" و"بيرونوزير" و"بيير الصغير" و"الحياة أيام زهرها"، ومع أنه أفرغ هذه الأخبار في قالب القصص، فإن الروايات في نفسها كانت صحيحة. ومما لا شبهة فيه أن توالي مناظر رصفات السين أيام كانت ناضرة ساكنة لم تذهب بهجتها بازدهام وسائل النقل الحديثة قد رسخ تأثيرها في ذهن ذلك الشاب الذي أوجد فيه طول التأمل في "اللوفر" وفي كنيسة "نوتردام" حب الآثار والحنين إلى الماضي. وفي الشطر الأول من حياته الأدبية لأواخر أيام الأمبراطورية الثانية وأوائل الجمهورية نصّب نفسه للمباحث الانتقادية والتاريخية. وأول تأليف أخرجه هو بحث يتعلّق بالفريد دوفيني (١٨٦٨)، ثم أَلّف تراجم عديدة جمعها فيما بعد في مجلّد اسمه "النبوغ اللاتيني" تكلم فيها على "راسين"^(١) و"برناردين دوسان بيير"^(٢) و"لوساج"^(٣) و"كزافيه دو مايستر"^(٤) و"الاب بريفسوت"^(٥) و"سانت بوڤ"^(٦) و"شاتوبريان"^(٧) و"برنار باليسي"^(٨) و"سكارون"^(٩) و"بنيامين كونستان"^(١٠) و"لافونتين"^(١١)... إلخ، وكتب مقدّمة على ترجمة "فوست" تأليف "غوته"^(١٢) بقلم "كميل بنوا"، فكانت أيام شبابه وعهود استكمال أدواته مع اتّهامه نفسه بالفتور وحبّ الراحة ملأى بالأعمال. ثمّ دخل إلى مكتبة مجلس الشيوخ وتلاقى فيها مع "لوكونت دوليل"^(١٣)، وهناك لقّبه "أدريان هبرار"، مدير الطان، بالراهب البنديكتي

(١) راسين (Racine) يأتي ذكره في حواشي الكتاب.

(٢) برناردين دوسان بيير (Bernardin de Saint - Pierre)، كاتب إفرنسي شهير، له كتاب "بول وفيرجينيا" و"الكوخ الهندي" و"مباحث الطبيعة"، وهو ممّن كانت لهم اليد الطولى في إدخال المباحث الطبيعية في الأدب الإفرنسي، (ولد ١٧٣٧ ومات ١٨١٤).

(٣) لوساج (Le Sage) سيأتي ذكره.

(٤) كزافيه دو مايستر (Xavier de Maistre)، كاتب إفرنسي حار النكته، له كتاب "سياحة حول غرفتي"، (١٧٦٣ - ١٨٥٢).

(٥) الاب بريفسوت (L'Abbé Prévost)، قصاص إفرنسي معروف، (١٦٩٧ - ١٧٢٣).

(٦) سانت بوڤ (Sainte - Beuve) سيأتي ذكره.

(٧) شاتوبريان (Chateaubriand) سيأتي خبره.

(٨) برنار باليسي (Bernard Palissy)، كاتب إفرنسي، عالم كيمائي، صناع اليد، هو الذي أتقن في فرانسة صناعة الخزف بالتصوير، ولد سنة ١٥١٠ وتوفّي في حبس الباستيل سنة ١٥٨٩ قيل إنهم اعتقلوه لكونه دان بالبروتستانتية.

(٩) سكارون (Scarron)، شاعر ناثر، خفيف الروح، غلبت عليه النكته، وذكر المثالب وقضى حياته عليلاً يشكو الدهر، وأمر أن يُكتب على قبره بعد موته أبيات هذه ترجمتها:

"الراقد الآن هنا كان أجدر بالشفقة ممّا هو بالحسد وقد ذاق الموت ألف مرّة قبل أن مات".

"أيها العابر لا تكدر صفاء سكونه بضجيجك ودعه ينام لأنها هذه أول ليلة عرف فيها سكارون المسكين المنام"، (١٦١٠ - ١٦٦٠).

(١٠) بنيامين كونستان (Benjamin-Constant)، مؤرّخ متخصص بتراجم الناس، (١٨٤٥ - ١٩٠٢).

(١١) لافونتين (La Fontaine) سيرد ذكره.

(١٢) أكبر شعراء الألمان وسيرد شيء عنه، وفوست اسم رواية شهيرة تمثيلية له.

(١٣) لو كونت دوليل (Le Conte de Lisle) سيرد خبره.

المتخفي. وكان يندو كثيراً عند «لومير»^(١) حيث «البارناس»^(٢) العصري. لأن أناتول فرانس كان شاعراً حتى في النظم^(٣)، لا بل كان شاعراً مطبوعاً وحفظ سبب سليقته الشعرية حبّ الجمال السوري. وكانت تتألق على كلامه ديباجة الأولين لا سيما ديباجة «أندري شينيه»^(٤) و «جان راسين»، فلهذا يقال عن أناتول فرانس إنه كان في وقت واحد أعظم المجددين والمقلّدين في كبار كتابنا. ولم يختلف اثنان في استيلائه على الأمد الأقصى من حسن الإنشاء، وما كابر في هذه المزايا سوى «برونتير»^(٥)، الذي كان يقول إنها محاسن مقتبسة بكلّ عناء. وما كان بروننتير أستاذاً في فنّ الأدب. وبالعكس كان يقول «باريس»^(٦)، الذي يختلف مع أناتول فرانس اختلافاً كبيراً في السياسة والفلسفة، فالبرغم من هذه الهوى العميقة التي تفصل بينهما بقي بارس معجباً به. وقيل له مرّة إنّ فرانس يريد أن يهدم كلّ شيء، فأجاب: يكفي أنه حافظ على اللغة.

«وكان مبدأ شهرة فرانس عند نشره كتابه الموسوم «بخطيئة سيلفستر بونار»، فقد وُصف هذا الكتاب وصفاً مستوفى، وأولع الناس بمطالعتة، وطُبعت طبعات مكرّرة لا تُحصى، منها بالنسخ الزينة ومنها بالنسخ البسيطة. وعمّ الاعتماد على هذه القصّة في كلّ المدارس التي يدرّس فيها اللسان الفرنسي في الخارج، وقد حفظنا جميعاً عن ظهر القلب كثيراً من فقر هذا التأليف وصفحاته التي هي غاية الغايات في المؤاتاة والتناسب وحسن النسق، فقد تلاقت فيه الدعابة المتناهية في الدقّة مع الشعور البالغ شأو الرقّة «بارك الله فيك يا حنّة أنت وبعلك إلى أقصى ما

(١) لومير (Lemerre).

(٢) Pamasse: جبل الشعر عند اليونانيين ويراد به مجمع الشعراء.

(٣) بعض النثرين يكونون شعراء في نثرهم ومنهم أناتول فرانس، والكاتب يريد أن يقول إنّ المترجم كان شاعراً في نظمه أيضاً. وقد يجد القارئ هذا التعبير غريباً إذ كيف يكون المرء ناظماً ولا يكون شاعراً؟ والجواب أن كثيرين ينظمون وليسوا في الحقيقة شعراء، بل كما قال واحد:

«فقل أنا وزانّ وما أنا شاعر».

(٤) أندريه شينيه (André Chénier)، شاعر إفرنسي عظيم ولد في الآستانة ١٧٦٢ وله قصائد شوارد، وكان مذهبه حفظ نقاوة اللغة وإبداع طريف المعاني تليد الألفاظ، فلم يكن أجراً منه على توخي الجديد من المعنى ولا أثبت منه في التمسك بالقديم من اللفظ. وحذا كثيراً حذو شعراء يونان الأقدمين. ومن شعره هذا الشطر:

«لننظم طريف الفكر في تالد الشعر».

انضمّ في الثورة الفرنسية إلى رجال الانقلاب ثمّ لمّا تجاوزوا الحدّ في أعمالهم انقلب عليهم بنحت من أثلتهم فقتلوه (سنة ١٩٧٤).

(٥) بروننتير (Brunetiere)، أديب فرنسي، نقاد، كان مذهبه إدخال مبادئ النشوء والارتقاء في الأدب، ولد في طولون سنة ١٨٤٩ وكانت وفاته سنة ١٩٠٦.

(٦) بارس (Maurice Barrès)، من أدباء الفرنسيين في هذه الحقبة الأخيرة كان كاثوليكياً محافظاً، قيل له مرّة في أناتول فرانس وميله إلى هدم كلّ قديم، فقال لهم: قولوا ما شئتم إلاّ أنه حفظ اللغة. مات بارس قبل فرانس بقليل.

يكون من ذريتكما“، وكان ”جول لومتر“^(١) لا يقرأ ذلك الخطاب النهائي الذي في هذه القصة من دون أن يجهد بالبكاء. وكان بعضهم يتهم أناتول فرانس بالفتور بعض الشيء في مقام العواطف، ولا ينكر أنه كان يذهب إلى حفظ المائة التي رآها آباؤنا أليق بنا. وأنه كان قبل كل شيء كاتباً مفكراً. مع هذا كانت له مواقف في الحماسة إما عن رحمة وإما عن أنفة. فكان إنساناً تاماً. وربما كان في قنة مجده متألماً من كون الناس لم يعرفوا له هذا الخلق حق المعرفة“.

ثم عدَّ بول سوداي تاليف المترجم تماماً لا حاجة إلى إعادته، وأفضى إلى مؤازرته في الطان، فقال:

”ولبت نحو عشر سنوات يقوم بحرفة نقد المؤلفات في الطان بعلم وإصابة نظر وحلاوة عبارة تُتعب كل من أتى بعده. ولا جرم أن جمًّا من فصوله في هذا الباب تُعدّ من طرف فته. وأن كتبه القصصية الكبرى هي من أمودجات القصص الفرنسي. وقصة ”تاييس“ هي التي حاكى فيها أسلوب فلوير“^(٢) أكثر من الجميع. وإنما قيس فرانس إلى رنان أكثر من غيره. ولا مشاحة أنهما يتشابهان في أمور كثيرة، إلا أن رنان أعرق في السلتيّة^(٣) وأناتول أميل إلى الأسلوب اليوناني و اللاتيني. وكذلك كان فرانس شديد النزوع إلى أفكار فولتير، يتجلّى فيه هذا المشرب في كتابه ”الحجر الأبيض“ و كتابه الآخر ”ثورة الملائكة“ حيث ”الأسيال“ يخطب في التاريخ العام خطبة هي من اتّساع النظر والرونق بمقدار ما كانت خطبة بوسويه^(٤) في التاريخ العام ضيقة مجال النظر قليلة التوفيق“.

”وكان فرانس منكرًا للوحي قائلًا بدين الطبيعة. وكان يرى أن سلسلة التمدن انخرمت بظهور النصرانية على حسب ما كان يقول ”جول تليه“^(٥)، وأن مدينة الأولين إنما عادت

(١) جول لومتر (Jules Lemaître)، من أشهر أدباء فرانسة المعاصرين، كان من أساتذة الأدب وجهابذة النقد لا سيما في فنّ التمثيل، ولد سنة ١٨٥٣ وتوفي سنة ١٩١٤، وكان صديقاً لأناتول فرانس. وقد ذكر نيقولا سيغور (Nicolas Ségur) في كتاب جمع فيه محادثاته مع فرانس طبع في هذه السنة وسيأتيك تلخيصه أن ”جول لومتر“ و”موريس بارس“ و”مرريا“ و”الشاعر كوبي“ كانوا ممن ينتابون ”مغنى سعيد“ وأنهم انفصلوا عن فرانس بسبب دعوى دريفوس. وأما مغنى سعيد فهو منزل كان لأناتول فرانس بظاهر باريز.

(٢) فلوير (Flaubert)، قاصّ مجيد نزاع إلى الحقيقة دون الخيال، كثير التنقيب في إحناء النفس، باهر الخصال في الإيجاز وسلاسة النظام، ولد في ”روان“ سنة ١٨٢١ ومات سنة ١٨٨٠.

(٣) الشعب السلتي Celte هو أحد الشعوب الهندية الجرمانية لا يُعرف مبدأ هجرتهم إلى أوربة وإنما يُعرف كونهم أوطنوا أثر ذي أثير أواسط تلك القارة ثمّ تقدّموا إلى بلاد الغال أو جليقية ثمّ إلى إسبانية وإنكلترة وإيرلندة، وإن أهالي بريتانية من شمالي فرانسة وأهل الغال وإيرلندة هم سلتيون وأثار لغتهم باقية إلى اليوم.

(٤) ستاتي الإشارة إليه في الحواشي. وهذه الجملة هي غمزة من أناتول فرانس لبوسويه.

(٥) جول تليه (Jules Tellier).

فَاتَّصَلت بِالْآخِرِينَ بِوَأَسْطَةِ عَصْرِ التَّجَدُّدِ^(١)، وَأَنَّ الْقَاضِي الرُّومَانِي الَّذِي لَمْ يَحْفَلْ بِمَار بُولَس فِي رُومَةٍ كَانَ عَلَى حَقِّ. عَلَى أَنَّ نَظْرِيَّةَ فِرَانَسِ هَذِهِ لَمْ تَمْنَعِهِ مِنْ أَنْ يَصِفَ صُورًا مَسِيحِيَّةً كَثِيرَةً يُوَدِّعُ فِي تَصْوِيرِهَا مَتَهَى الْإِبْدَاعِ مِنْ "تَاييس" الْوَصِيفَةِ الْمَتَدِينَةِ إِلَى الْأَبِّ "لَانْتَانِيَه" الَّذِي كَانَ يَرْتَاخُ إِلَى مَحَادَثَتِهِ.

"وَكَانَ بِرِغْمِ ضَرْبِهِ بِسَهْمٍ فِي التَّشَكُّكِ مَتَمَسِّكًا بِمَقَالَتِهِ هَذِهِ لَا يَحِيدُ عَنْهَا. وَقَدْ دَخَلَ أُخِيرًا فِي الْإِشْتِرَاكِيَّةِ وَالشِّيُوعِيَّةِ وَالْبَلْشَفَةِ...إِلْخ، وَلَكِنْ كَانَ هَذَا مِنْهُ تَحَوُّلًا نَسْبِيًّا لَا غَيْرَ. فَقَدْ كَانَ يَرَى أَنَّ التَّقَدُّمَ فِي الْغَلْوِ هُوَ ضَرُورِيٌّ لِمُقَابَلَةِ التَّأَخُّرِ بِالتَّلَوِّ. وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ فِرَانَسٌ اعْتَقَدَ تَحْقِيقَ هَاتِيكَ الْمُنَازَعِ، وَإِنَّمَا هِيَ عِنْدَهُ وَاسْطَةُ لِلتَّعْدِيلِ وَالْمُوَازَنَةِ. ثُمَّ إِنَّ فِرَانَسَ كَانَ يَكْرَهُ إِرهَافَ الْحَدِّ، وَفِي كِتَابِهِ "الْأَلْهَةُ عَطَاشٌ" شَدَّدَ الْوَقِيعَةَ بِحَقِّ غَلَاةِ الثُّورَةِ الْفِرَنْسَوِيَّةِ "الْيَعْقُوبِيِّينَ"^(٢)، مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَلِكِيًّا لَقَدْ أَجْمَعَ النَّاسَ عَلَى مَعْرِفَةِ فَضْلِ هَذَا الرَّجُلِ، وَلَكِنْ لَمْ يَخُلْ الْأَمْرُ مِنْ خُرُوجِ أَنَاسٍ مِنْ هَذَا الْإِجْمَاعِ. فَبَعْضُ الْعُلَمَاءِ لَا يَرُونَهُ مِنْ ذَوِي الْقِرَائِحِ الْمَوْلَدَةِ، أَيِ الْآتِينَ بِبِدْعٍ جَدِيدٍ. وَذَلِكَ لِأَنَّهُ أَتَى بِمَا أَتَاهُ غَرْفًا مِنَ الْيُنَابِيعِ الْقَدِيمَةِ. وَالْحَقُّ، أَنَّهُ فِي هَذَا الْمَعْنَى عَلَى خَطَّةِ رَاسِينَ وَفِيرَجِيلِ وَشَكْسِيرِ^(٣) وَغُوتِه^(٤)، وَحَسْبُهُ بِهَؤُلَاءِ مَثَالًا. وَقَالَ قَوْمٌ: لَا يَزِيدُ عَلَى كَوْنِهِ مَنَشَأًا. وَيُرَدُّ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ اخْتَرَعَ أَشْخَاصًا فِي أَقَاصِيصِهِ كَالْأَبِّ "كُوَانِيَار" وَالْمَسِيوِ "بِرَجْرِيَه"، يَسْتَدَلُّ مِمَّا تَحَدَّثَ بِهِ عَنْهُمَا أَنَّهُ كَانَ مَنَشَأًا مَبْدَعًا مَخْتَرَعًا.

"وَبِالْإِجْمَالِ فَقَدْ كَانَ كَاتِبًا كَبِيرًا جَدًّا مَعْدُودًا فَيَمْنُ لَهُمُ الْيَدُ الطَّوْلَى بِزِيَادَةِ ثُرُونَتِنَا الْبَيَانِيَّةِ. فَلِهَذَا نَحْنُ نَحْيِي قَبْرَهُ بِمَزِيدِ الْخُشُوعِ وَالْأَسَى."

(١) La Renaissance وهو العصر الذي تجددت فيه الآداب والعلوم والفنون الجميلة في أوربة مرجوعًا فيها إلى النصاب اليوناني واللاتيني، وصادف اختراع المطبعة فازدادت سهولة نشر الكتب وطبعت تأليف الأولين وأطاق الجميع اقتناءها وكذلك سهلت النقاشة اقتناء تحف الفن. وهذا العصر يمتد من القرن الخامس عشر إلى القرن السادس عشر وكان بدء هذا التجدد في إيطاليا.

(٢) Jacobins قيل لهم كذلك لأنهم كانوا يندون في دير الرهبان اليعقوبيين في شارع "سانت أونوري" وفرطوا الجميع في الشدة والعسف وليشوا إلى الآخر متمسكين بروبسيير.

(٣) شكسبير (William Shakespear)، أكبر شعراء الإنكليز ومن أكبر شعراء العالم. هو في شعره أحد فتوحات إنكلترة العظيمة وقد تمتع الإنكليز بفصاحته وشوارده فصائده كما تمتعهم ممالكهم الواسعة، حتى قال بعض أدبائهم: إن شكسبير أعز علينا من الهند. أطاعت الإحاطة بجميع أهواء النفوس التي قال المتنبي عنها: "لهوى النفوس سريرة لا تعلم" وذلك لشدة خفاء مدارجها وتلوي شعاب مسالكها معنى من المعاني المتخلجة في الرووس ولا شهوة من الشهوات المتبذبة في النفوس إلا أوسعها إبانة ووصفاً وبلغ منها الأمد وأوفى من غزل وحماسة، ورقة وجزالة، ولطف وسخبط، وطرب وحزن، وجد وهزل، وحكمة وسخف، ونفور وعطف فكان في كل ذلك البحر الذي لا ينزح والغاية التي لا تدرك، ولهذا بلغ هذه الشهرة التي لم يبلغها أحد. وكان مولده سنة ١٥٦٤ وتوفي سنة ١٦١٦.

(٤) هو شكسبير الألماني وسياتي نياه.

انتهى كلام الطان. وهالك ما جاء في جريدة "لاكسيون فرانسز" الملكية بقلم "شارل موراً"، من الكتاب الأدباء المعدودين الذين بينهم وبين فرانس في المبادئ ما بين الأرض والسماء:

"إنَّ الكتاب الذي قال: إنَّ فرانس هو حقبةٌ في تاريخ الآداب الفرنسية مستقلةٌ بنفسها، قد أخطأ بقدر ما يستطيع الإنسان أن يُفطر في الخطأ. فإنَّ فرانس هو بالعكس تتمّة هذه الآداب وديمومتها وسيرها المطرد المتصل. ولقد استشهد "شارل ديرين"^(١) "أمس في جريدة "بونسوار" بذلك الدعاء اللطيف الذي في "سيلفستر بونار"، وهو: "أيتها النجوم التي تلالأت فوق رؤوس جميع آبائي الغابرين من رصين وخفيف" أفتحسّ هذا أمداً أو حداً؟ لا يقدر الإنسان أن يفهم شيئاً من أمر هذا العلم، إلا إذا علم أنه قبل كل شيءٍ شئنة ممثلة وعننة"^(٢) مجسّمة. ولا يعاب أكثر ممّا يعاب "أندرى شينيه" أو "مونتانيه" أو "باسكال" في الإقتداء بالأوائل والتحدّي بأستاذة الصناعة الذين كان أناتول فرانس كأنّما يستخرج ما عندهم بالمناقش، وإنني أشير على أدبائنا بقراءة الفصل الذي حرّره "غبريال هون" على انطباع أسلوب فرانس بأسلوب جان راسين فإنَّ الذي يقرأه يفهم كيف أنَّ الشاعر والكاتب والباحث، الذي هو أناتول فرانس، كان يتنفّس ويحسّ في جوّ أفكار راسين؛ وكيف كانت لغة راسين، ومخيّلة راسين، وشهوة راسين هي مجال آدابه ومصدر أفكاره وأساس منطقته. ولا شيء أبدع ولا أصفى من هذه الموارد التي عوّل فرانس عليها وأقام عندها ينسج على منوالها ويأخذ عنها ويبدع بواسطتها. وقد يقال إنَّ الصور التي كانت بديعة مشرقة في أيام شبابها تنصل وتخلق بتوالي الأزمان وكر العشيّ، والجواب أنَّ إسداءها من جديد وتطبيقها على الحوادث الحاضرة والتجارب الأخيرة ويكسبها زيادة رونق ويعيد إليها شبابها، فالشعور يزداد بالذكرى قوّة إلى قوّة... إلخ".

وجاء في الجريدة المذكورة في عرض نقلها ما قالته الجرائد عن أناتول فرانس:

"قال المسيو ديكاف في جريدة الجورنال"^(٣): إنَّ هذا الفقيه العظيم هو بأجمعه ملك خالص للأدب، وليس لغير الأدب نصيب فيه. وكانت فيه روح النظام والمحافظة على القديم سليقة".

وقال "هنري بيدو" من جملة تأبينه:

"تقرأ له من الجمل ما لا يتناهى في الحلاوة والطلاوة، فإذا دنوت منها تدقق فيها لم تجد إلاّ السهولة التامة إنما هي السهولة التي لا تدرك ولا تحدّد".

(١) شارل ديرين (Charles Drennes).

(٢) الشئنة الخلق والطبيعة والعادة، والعننة قول الراوي في روايته "فلان عن فلان عن فلان" (الناشر).

(٣) Le Journal، جريدة من الجرائد الكبرى معتدلة المشرب.

وقال المسيو «بيلي» في جريدة «الأوفر»^(١):

«لنهتني أنفسنا على أن أناتول فرانس لم يمدَّ إلى صناعة الإنشاء رأيه في «الحرب» الضرورية»، بل وجد حبَّ المحافظة فيه من هذه الجهة الركن الأعظم للغة، وبه آسق له هذا الفوز وعلى يده نجت اللغة الفرنسية من ترشُّح الأسلوب الغونكوروي^(٢) والطريقة الرمزية^(٣). نعم به وبأسلوبه وتأليفه وبقوَّة سحر بيانه، التي لا يقف في وجهها شيء نجت اللغة الفرنسية فلم يُمت أناتول فرانس إلا وقد شهد تجدد الإنشاء الإفرنسي الكريم كما بدا، ولا يوجد من عهد شاتوبريان رجل كان لكتاباته من التأثير ما كان لتأليف أناتول فرانس. ثمَّ أفاض الكتاب في ذكر مبادئ فرانس ومنازعه وآرائه في الفلسفة، وخاضوا في تحليل سرِّها، فقال بيدو:

«ينبغي لنا حتَّى نأتي بصورة أناتول فرانس مطابقة لحقيقته أن نصوِّر اجتماع هذه الخصال في روح أديب سريع الانفعال قريب الانطباع يتلقَّى الشيء وضده، وإذا عنَّت أمامه فكرة لم تذهب بدون أن تجذبه إلى ناحية في أثناء طريقه. فترى فرانس عدوًّا للنصرانية طورًا وطورًا ملتحمًا بها^(٤) وتجده يبدي ويعيد في ذكر غباوة الناس، ثمَّ هو لا يقنط من هيئة اجتماعية تكون أحسن من هذه. وهو من جهة يرثي لحالة الطبع البشري، ومن جهة أخرى يسكر طربًا بأثار العبقرين من البشر». أمَّا «مورًا» فإنه يرى في تناقضات نفسية فرانس عللاً أخرى، فيقول: «إنَّه محافظ على القديم بميل فطري مركز في خلقته، وإنَّه منشئ ماهر متناه في دقة اللحظ وثقوب الفكر كاره لسفاسف الهيئة الاجتماعية الحاضرة. فإذا قيل له إنَّه «أريستوقراطي» أجاب: لا بل هو «شيوعي» وكلا الحالين فليس من الطبقة الوسطى أي طبقة الأهالي»؛ وعلَّل هذه الحالة المسيو «أندري شوميه» في جريدة «الغولوا»^(٥) بما يأتي: «ما من مرية أن الناس وجموا عندما رأوا الأستاذ الأعظم في هذه الأيام الأخيرة باذلاً قوَّة مكانته في نصره أشدَّ الفرق، غلوا ناصبًا

(١) L'oeuvre، جريدة منسوبة إلى الحزب الشمالي لكنَّها استعمارية.

(٢) نسبة إلى غونكور (Goncourt) وهو اسم يتسبب إليه أخوان أحدهما إدمون غونكور المولود في نانسي سنة ١٨٢٢ المتوفى سنة ١٨٩٦ والآخر جول المولود سنة ١٨٣٠ المتوفى سنة ١٨٧٠ وكانا قاصين يذهبان في القصص مذهب الحقيقة لا الخيال وهو ما يقال له R alisme أو الأشياء على ما هي عليه.

(٣) الطريقة الرمزية في البيان هي طريقة قام بها بعض الشعراء في فرانسة للتعبير عن المناسبات الخفية التي بين الواصف والموصوف ويسمونها Symbolisme وهي خلاف طريقة البارناسيين التي تعتمد على الأسلوب القصصي في الشعر أو الشعري في القصص.

(٤) قالت جريدة «ليرنوفيل» L' re nouvelle يوم مات فرانس: إنَّه أحرز رأسه عقلية مطلقة قامت عندنا مقام هاتف الغيب وذلك بجمعه بين مزاي العقل والقلب فكان يضم بين جنبيه نفس تولستوي إلى نفس فولتير وينظم بين هذين الوجدانين الكبيرين، أمَّا الأول فيأيمانه المطلق بالعميقة المسيحية وأمَّا الثاني فبانوار عقله المؤدبة إلى الرب. وكان أناتول فرانس يتابع تولستوي في قوله «من فهم كل شيء غفر كل شيء».

(٥) Le Gaulois، من جرائد الأشراف والمحافظين.

«أرييل»^(١) لخدمة «كالبيان»^(٢) موسكو. فكلّ عمله وأثره مخالف لهذه العاقبة. وما أحسن ما قال «شارل موراً»: إن أثر الأستاذ من الأول إلى الآخر سالم لا شائبة فيه لولا هذه النهاية. فالقارئ يجد في كتب أناتول فرانس أشدّ الانتقادات وأقسى الأحكام على الثورات والانقلابات، لا بل على الهيئات الديمقراطية، ولا يفتأ أناتول فرانس يقبح خطة أولئك الذين يتوخّون العجلة في كلّ عمل. وإذا فحصت مبادئه وجدتها تنحصر في تصوّره الإنسان رجلاً حكيماً متواضعاً حراً في مباءة بسيطة يفكر في الأمور العامة ويقدم أحكام العقل على كلّ شيء، وتصوره المرأة بجانب الرجل خلقاً كلّه حسّ يمثّل الطبيعة ويملك قوى هائلة ساذجة ويمثّل الجمال. فأما الشاب الناشئ المتخبط الذي يعتمد على الألفاظ ويظنّ الهيجان نشاطاً، ويريد أن يقبض على مقاليد الإدارة وأن يسنّ القوانين وأن يرمّ الشعث، فهو يتراءى لأناتول فرانس رجلاً كلّه ادعاء فارغ ويرى فيه قوّة مظلمة توقع الخلل في نظام العالم القديم»، وقال المسيو «بوري» في جريدة «الإكلير»^(٣):

كانت الوطنية وحبّ النظام من الأمور القائمة في أصل فطرة أناتول فرانس، وعليهما تدور دائماً حركاته أول وهلة. وكلّنا نذكر المقالات الجياد التي كتبها في بداية الحرب الكبرى. لكن لما تمطت الحرب بصلبها، وأبطأت النصر في الورود وكان يتشكك في مقدرة الرجال العسكريين والمدنيين في فرانسة خالجه في الظفر وزرع الشكّ حواليه. ولم يوقع فرانس على المنشور السلمي الذي قدّمته له «سيفرين»^(٤) إلا سنة ١٩١٧، وكان مصدّقاً كلّ ما جاء فيه.

وقال المسيو «رويلارد» في جريدة «باري سوار» أي باريز عند المساء، ما يأتي:
«إنّه وإن كان انتهى بالشكّ هذا الرجل الذي تغدّى بكلّ العلوم والفنون فلا يمكن إنكار ما جاء في كلامه من اليقين، فهو الذي يقول: إن الإيمان الذي لا يقترن بالعمل فليس بإيمان».
وقال المسيو «جورج مارتين» في جريدة «بتي جورنال»^(٥) أي الجريدة الصغيرة، ما يأتي:
«إنّ طبقة إنشاء «خطيئة سيلقستر بونار» و«الزنبقة الحمراء» و«تاييس» و«مطبخ الملكة»، ونحو من عشرين مصنّفاً تجعل هذه الكتب في طبقة تحف الفنّ النادرة ومن الأوابد الباقية على الدهر».

(١) Ariel: كلمة معناها أشبه بالشیطان.

(٢) Caliban: شخص اخترعه شكسبير في روايته «الزوبعة» لتمثيل رجل متوحش نائر على قوّة أعلى منه.

(٣) L'Eclair: جريدة جمهورية صاحبها المسيو بوري (Buré) تتكلم كثيراً بلسان المسيو بريان.

(٤) سيفرين (Severine)، كاتبة فرنسية شهيرة من حزب الاشتراكيين.

(٥) Petit Journal: جريدة إخبارية قومية المشرب.

وقالت جريدة «الإيكو دي پاري»^(١) أي صدى باريز:
«تور، في ١٣ أكتوبر.

مات أناتول فرانس في الساعة ٢٣ والدقيقة ٢٦.

نعم، قد مات أناتول فرانس، فالיום كلّ من في البلدان المتمدّنة يحبّ الجمال ويعتقد
بسلطان العقل المبين لابس ثوب الحداد. ويكفي أن نتأمّل في إطباق الناس أجمع على هذا الأمر
لنعلم عظمة الرزيئة التي حلّت بنا. فإنّ أناتول فرانس هو الكاتب الذي أبعد ما شاء في شأو
الإبداع، وقد كان أشهر المنشئين بلغتنا وأحسنهم في هذا العصر بها جرية قلم وكسبت له مهارته
العظيمة وعبقريته الساحرة مكانة سامية في عالم الأدب لا يشاءيه^(٢) فيها أحد اليوم، فانطفاء هذه
الشعلة المتوقّدة وخمود هذا الذكاء الوهاج هما من المصائب التي نفهم الآن سعة مداها. وأنّ ممّا
يزيد في أعيننا نفاسة ذلك القلم المفرد المنقطع النظير أنه قد انقطع عمله إلى الأبد.

«وماذا يستطيع الكاتب أن يكتب عن عظمة هذا العمل الذي مهما قال القائل فيه بقي
متأخراً عن شأو الوفاء؟ وماذا عساه أن يصف من قيمته وتأثيره وأخذه بمجامع القلوب؟ وماذا
يمكن أن يقال عن هذا الرجل العظيم ممّا ليس معروفاً عند القاضي والداني؟ لا نقدر في فصل
واحد أن نأتي على ترجمة هذه الحياة السنية، وإنّما نجتهد أن نشير إلى بعض حدودها ونذكر
فاتحتها وخاتمتها وبعض مواقفها العجيبة».

«طلالما قصّ لنا أناتول فرانس قصّة شبابه إذ كان في الحقيقة هو بطل أكثر الروايات التي
حبرها. وهكذا يعرف رجال المستقبل أنّ أناتول فرانس ولد في ١٦ أبريل سنة ١٨٤٤ الساعة
السابعة صباحاً، وكان والده يسمّى «فرانسوا نويي تيولت» بائع كتب على رصفة «مالاكيه»،
وعند ولادة أناتول كان أبوه في سنّ الثامنة والثلاثين، وكانت أمّه «أنتوانيت غاللا» في سنّ الثانية
والثلاثين (إلى أن يقول):

«وسنة ١٨٦٧ دخل أناتول فرانس في مطبعة «لومير» وصار يؤازر في تحرير بعض المجلّات
ويهاجم الحكومة الإمبراطورية، مع أنه في حداثة سنّه كان بونابارتيّاً. وبعد حرب السبعين دخل
في مكتبة السنات حيث كان «لوكونت دوليل» مديراً، ثمّ بدأ ينشر قصائده المسماة «بالمذهبات»
و«بالأعراس القورنتية» ولم تكن من ذلك الشعر المرقص أو المسكر الذي ينسى به المرء نفسه

(١) L'Echo de Paris: جريدة معدودة من الجرائد المحافظة.
(٢) يسابقه (الناشر).

أو يخلع له جلبابه، ولكنّها كانت آية في سلاسة النظام ولطف الانسجام وبها تجلّت روحه البيانية التي رافقت آثاره إلى الآخر. وكانت نزعة أناتول فرانس وثنية كأنه لم يكن سلالة شجرة مسيحية عريقة وإنما كانت نزعته هذه غير مشوبة بتكلّف، وإلحاده في الدين غير مقرون بشيءٍ من العدوان وحبّ الانتقام. ومن جملة أقواله: "مَنْ نظر إلى التقوى بغير نظر الأتقياء فليس له نصيب من معرفة التناسب". ولم تطلّ شاعرية فرانس كثيراً، بل تجرّد من بعد نشر تلك القصائد لكتابة القصص، فمنذ صدرت أوائل كتبه عُرفت بنقاوة اللغة ورشاقة الأسلوب وأقبل الناس على قراءة تأليف هذا الشاب وسماع صوته الذي عليه جلاله القدماء. وإنما كان فنه فنّ مَنْ اكتفى بقراءة الأوائل، وتصويره تصوير مَنْ انقطع في غرفته لا يفتح نافذة ولا يطلّ منها ليرى المارين في الشوارع؛ فإذا كان فرانس أبرع كتاب عصره فلم يكن أدقّهم شعوراً ولا أعلمهم بمواقع أهواء النفوس. لم يكن من القاصّين الذين أوسعوا هذا الفنّ بمذاهب جديدة وأوغلوا في البحث في دخائل القلب البشري لكنّه وُفقٍ لما هو خير من ذلك بأن حفظ اللغة الإفرنسية من الفساد والتدنّي وأعاد إليها دولة النظام والجلال. ونظنّ أنّ رجال المستقبل يؤثرون من تأليفه "الحياة الأدبية" و"النبوغ اللاتيني" و"جثة أبيقور"^(١) و"الآلهة عطاش"، وهو الكتاب الذي يضاهي أبدع ما كتبه بلغاء القرن الثامن عشر. وكلّما أراد الناس أن يقيسوا بلاغة أناتول فرانس نسبوها إلى بلاغة أزهر أعصر البلاغة والأدب. ويخيّل للمرء أنّ موت أناتول فرانس ختام مدنيّة كانت تستقي في مواردها من اليونان واللاتين الأوّلين. وإذا نظرنا ما يتهيأ أمامنا وما يحيط بنا وما يتهدّدنا، نقول: إنّه بموت أناتول فرانس قد مات الإسكندري الأخير.

(١) أبيقور (Epicure)، فيلسوف يوناني يقال له أبيقوروس الكلبي منسوبة إليه فلسفة الشهوة ومتابعة الحواس. وكلّ مَنْ ذهب هذا المذهب يقال له أبيقوري. ويقال إنّ هذه النسبة لأبيقور بأنه لم يكن يقول إلاّ بالحسّ غير صحيحة. وإنّ الصحيح منها هو كون اللذة ينبغي أن تكون هدف الإنسان من هذه الدنيا. وليس المراد باللذة هو الشهوة البهيمية، بل اللذة هي في ثقافة العقل وممارسة الفضيلة. وقسم أبيقور الفلسفة إلى ثلاثة أقسام: الأول الفلسفة القانونية وهي نوع من التمهيد للدخول وبها يعلم الإنسان كيفية الفهم وصحة التصوّر، والثاني علم الطبيعة وبه يتعلّم الإنسان أسرار الكون حتّى يتحرّر من الأوهام ومن الخوف، والثالث الأخلاق وبها يعلم الإنسان ما يجب أن يأخذ به وما يجب أن يتركه ليكون سعيداً. وكان أبيقور ينكر الوثوق بمعارف المرء بحجّة أنها آتية عن طرق الحواس وأنها تخدعه. وكان يقول بقدّم العالم وإنّه لا يفنى شيء ولا يزداد شيء. وإنّ العالم مركّب من ذرّات متناهية في الصغر لا تنقسم ولا تتغيّر وإنّ هذه الذرّات فيها قوّة الحركة التي تتلاقى بها وتتركّب بعضها مع بعض وتؤلّف أجساماً. وكان يُظنّ أنه بهذه النظرية يُستغنى عن الاعتقاد بالذات الواجب الوجود. وأنه إذا كان الله موجوداً فإنّه تارك الكون بسير على أنظمة ثابتة لا يتدخل هو بها. وكان أبيقور يقول بالمصلحة، أي أنّ الإنسان يجب أن يتخذ من مصلحته الشخصية واقياً يقيه من المداحض ومن الأخطار التي قد يقوده إليها ضعفه. وكتب أبيقور إلى "منيسي" "أنا عندما نقول إنّ سعادة الحياة ينبغي أن تكون مرمى همّة المرء لا نريد بهذه السعادة لذّة البدن كما يظنّ بعض مَنْ لم يفهموا طريقتنا". ومع كلّ هذا فالشائع عن مذهب أبيقور هو متابعة اللذة أينما كانت وعدم الامتناع عنها إذا خيف من الإفراط فيها الوقوع في الحرمان منها. وكان هوراسيوس إذا أراد أن يتكلّم عن رجل لا همّ له إلاّ في بطنه أو فرجه يقول: هو خنزير من قطع أبيقور. وولد أبيقور بقرب آثينا، وقيل في ساموس، سنة ٣٤١ ق.م. ومات سنة ٢٧٠ ق.م.

«وإذا كان الأمر كذلك وكان هذا الرجل شديد التمسك بأحكام العقل وبالنظام فلماذا رأيناه في آخر عمره ينزع إلى ما هو على تناقض تام مع أدبه وطبيعته؟ فقد يجوز أن عالمًا جديدًا يتولد وأنه لا مفرّ من مجيئه فهو سيظهر ويقوى من بعد مخاص شديد وأنّ هذه هي عقيدة فرانس في هذه الحركة. لكن الناس إلى هذه الساعة لا يزالون يرونها نوعًا من البربرية ويجدون انعطاف أناتول فرانس نحوها مخالفًا لما سبق من رأيه في المدينة». انتهى بتصرّف

وقالت جريدة «البتي باريزيان» أي الباريزي الصغير، وهي أوسع الجرائد الفرنسية انتشارًا، يقال إنّه يطبع منها كلّ يوم من مليونين إلى ثلاثة ملايين نسخة، وذلك ما يأتي:
تور، ١٣ أكتوبر.

«أمّ أناتول فرانس أنفاسه مساء الأحد في نحو منتصف الساعة الثانية عشرة تحيط به حليلته وأصحابه. وكان من أول ذلك النهار بدأ التنفّس يصعب على الفقيده ويتخلّله زفرات متصاعدة (إلى أن يقول بعد ذكر تفاصيل نقل الجثّة والمأتم والتعازي والاحتفالات) ما يأتي:

«موت أناتول فرانس غابت أكبر صورة بيانية في هذا العصر وأشدّها تأثيرًا على الأفكار وأغربها لدى العقول، ومات الكاتب الأتمّ الأكمّل. وسيبقى على مائدة آلهة الشعر اليوناني مكان فراغ أبدًا. نعم، كان فرانس يستوحى من آلهة الشعر اليوناني واللاتيني كمال إنشائه بهذه اللغة الإفرنسية التي تجدها تحت قلمه أظهر ما كانت عرقًا وأصفى ماءً وأفعم إناءً، فتأليف هذا الأستاذ ستبقى بقاء أمثلة الأدب التدريسية.

«وكأنّما أناتول فرانس أشار إلى إنشائه وتكلّم عن أسلوب نفسه عندما وصف النسق البسيط أو الإنشاء السهل الممتنع في جنة أبيقور»، فقال:

«أقول إنّه إن لم يكن في الدنيا سهل ممتنع فإنّه توجد كتابات ظاهر عليها أنها من الأساليب السهلة الممتنعة وإنّ مثل هذه الأساليب مقضي لها بالشباب والبقاء. فإذا بحثنا الآن من أين تأتيها هذه المظاهر السعيدة، نجد أنه ليس كونها أقلّ مادّة وأعدم تنوعًا هو السبب في تفوقها، بل لكون الأقسام فيها مستوية استواءً يتعدّر معه تمييز بعضها عن بعض. فالإنشاء الحسن أشبه بهذا النور الذي يدخل من نافذة غرفتي في أثناء ما أنا أكتب ويتولّد تألؤه الصافي من شدّة امتزاج الألوان السبعة التي هو مركّب منها. والسهل الممتنع يحكي البياض الناصع الذي هو في الواقع مركّب تركيبًا لكن تركيبه غير ظاهر فلا يبدو منه إلاّ صورة مرئية، وبعبارة أخرى السهولة المطلوبة في الكلام ليست إلاّ مظهرًا من مظاهر الانسجام والاقتصاد التام في الأقسام».

”فهذا الوصف الذي لا يقدر الإنسان أن يزيد عليه شيئاً وإنما هو وصف لأناتول فرانس بقلم أناتول فرانس. ولقد جمع بيانه المحاسن كلها فكانه مخزن عظيم لجميع بضائع الخيال والعقل والحس، وهذا هو سبب ما يرى في هذا البيان من تموج الأشعة الآخذ بالأبصار، فإن هذا المعلم كان من المتشككين، وكانت فلسفته قائمة على أن الأشياء غير ثابتة وأن في كل مسألة قولين كل منهما يجوز أن يكون الصحيح. وكان ينظر بأنظار متعددة الوجهات، فلهذا لم يكن في تحوله من رأي إلى رأي مناقضاً لنفسه بنفسه. ومذهبه أن الحياة شاقّة جدّاً على المخلوق لولا الأمل والخيال، ومن جملة السائرة ”إن أحسن ما في هذه الحياة الفكر الذي عندنا بأنها ستمنحنا ما ليس فيها“.

(إلى أن يقول):

”كان أناتول فرانس مع ظواهر الرهبانية التي تلوح عليه من أجر الناس على نقض القواعد التي كانت قُدمتها عنده غير كافية في حرمتها. فقد كان يقول ”كل قاعدة بحثت في أصلها وجدت تحتها شيئاً ولم يطل الأمر حتى علمت أنها لم تكن قاعدة“. وهكذا كان يسير مع فطنته الوقادة الشاملة المتسعة لكل شيء فكان معنّاً متيحاً^(١) بالمعنى اللغوي.

”وبقي فرانس مدة طويلة نظاراً متأملاً متجنباً الدخول في المعامع إلى أن أذنت شمسهِ بالمغيب. ففي أواخر حياته أظهر مشربه السياسي وأراد الدخول في المعركة الاجتماعية في صف الصعاليك. وربما جاء ذلك عجباً من رجل مثله، هو من الطبقة العقلية العالية المتميزة، فلعلّ جرائم هذه النزعة كانت فيه عندما قال ”كلما فكرت في هذه الحياة رأيت الاستهزاء بها والثناء لها أجدر بأن يكونا شهودها“، فكان كثير الهزؤ بهذه الحياة وكان يقول ”ما صار الإنسان إنساناً إلا بالرأفة“، وغير عجيب أن عقلاً واسعاً مترامياً كهذا العقل لا يتقيّد بوحدة مطلقة وأن ينتهي أمره بأن ينظر إلى الدنيا هازئاً ماجناً أسفاً كاسفاً. ومع شدة غرامه بالعدل لم يكن ممن يؤسس وينبي، بل القوة السالبة عنده أكثر من الموجبة“.

(ثم ذكر مؤلفاته وعدّد مزايا أكثرها، وقال):

”ثم فارق أناتول فرانس المرصد الذي كان يراقب منه صور هذا الوجود المنعكسة في دماغه وخاض في غمرة دعوى دريفوس التي أخرجت كثيراً من الكتاب من أبراج العاج التي كانوا منقطعين فيها. وكانت حركته هذا أشبه بانتفاض من عوارض الشك التي كانت غالبية عليه. فمن خطب على قبر ”إميل زولا“ وفي عيد ”ديديرو“ وعند نصب تمثال ”رنان“. ومن

(١) المعن: الذي يعرض في كل شيء، والمتيح، بكسر فسكون ففتح: كثير تنقل القلب.

نشر تأليف نظير « الآراء الاجتماعية » و « الحزب الأسود » و « الكنيسة والجمهورية » ومع بقاءه متمسكاً بهذه الآراء التي كانت غلبت على نحيزته^(١) الأصلية رجع إلى الكتابة وأخذت تعادّه^(٢) المبادئ الأولى، وجاء في كتابه « الآلهة عطاش » بما يدهش الذين شاهدوا تحوُّله إلى الاشتراكية وذلك من شدة الوقعة بالغلاة من رجال الثورة الفرنسية. وكتب تاريخ جان دارك مجرداً عن الخوارق والكرامات. وعاد يقصّ أيام شبابه وعِدَّان^(٣) صباه. والرابط الوحيد الذي يضمّ هذه التصانيف بعضها إلى بعض أنّ هو إلّا النزول على حكم العقل الذي يجب تصريفه في تخفيف آلام البشر. وكان من شدة انقياده لكلّ ما يعنّ له قد أعلن ذات يوم « إذا أردت أن تخدم الخلق فاطرح كلّ أحكام العقل كما يطرح العبء الثقيل وطِرْ بجناح الحمية لا غير »، وهكذا كان سحر هذا المؤلف مستفيضاً في جميع ما يحبره... إلخ، انتهى باختصار.



وكما أننا لا ننقل هنا إلّا رواميز ممّا قالته أمّهات الجرائد التي يحرّرها فحول الكتاب ليرى فيها القارئ الشرقي خلاصة أفكار الفرنسيين في أديبهم العصري الكبير فإننا سننقل أيضاً بعض شذرات من خطب عظماء تلك الأمة وجهابذتها يوم ماتمه العظيم.

ملخص خطبة المسيو فكتور باش باسم جمعية^(٤) حقوق الإنسان

«إنّه في هذه النياحة التي قامت في العالم المتمدّن لفقد أناتول فرانس والتي تتمثّل فيها جميع القوى الحيّة في هذه الأمة لا يمكن القوّة الأدبية الكبرى التي تأسّست منذ ستّ وعشرين سنة تحت اسم جمعية حقوق الإنسان إلّا أن تأخذ بنصيب. وذلك لأننا منذ وُجدنا كان هو منّا. وإنّه لما اجتازت فرانسة سنة ١٨٩٨ تلك الأزمة الوجدانية الكبرى التي تسمّى بدعوى دريفوس، انضمّ إلى إميل زولا الذي أبته عند وفاته أجمل تأبين وإلى جان جوريس الذي كان يرى فيه العبقرية

(١) طبيعة (الناشر).

(٢) عادّه بالتشديد: عاوده ويقال في المرض.

(٣) عهد (الناشر).

(٤) جمعية حقوق الإنسان في فرانسة لا ينكر أحد حسن نية القائمين بها، ولكنّها إلى هذه الساعة لا تزال في ضمن حدود النظريات نظير جمعية عامّة هي أكبر منها وأغنى وأقوى وهي عصبة الأمم التي لم تحقّق شيئاً مذكوراً من المقاصد السلمية والمبادئ الإنسانية التي تأسّست من أجلها. وذلك بطمع القوي في حقّ الضعيف. قصدنا أن ننبّه على هذه المسئلة ليعلم القارئ الشرقي أنّ الأوربيين يلقون كثيراً من الجمل الطنّانة، وأنّ بينها وبين العمل مساوف سحيقة، فليكن عارفاً بما هنالك حتى لا يقع في خيبة الأمل.

العليا والإنسانية المتمثلة بشراً تاماً وإلى زمرة قليلة من أبطال الحقّ الذين نيزوهم^(١) بلقب "مفكرين" ونعم اللقب. وأعلن يومئذ أنّ الحياة بدون عدالة لا تستحقّ أن يحيها الإنسان. ثمّ إنّه بعد إن أحقّ الحقّ وأصلح الخطأ لم يرجع أناتول فرانس إلى القبوع في برج عزله والتلذذ ببدايع الفنّ، بل أقام معنا وصار عضواً في لجنتنا المركزية.

"فهذا الشاعر الراسينيّ الرقيق والمفكر المرتاب في صحّة الأشياء بعد أن أطاف سجيّة تطلّعه حول جميع الأمور من عالٍ ودانٍ لم يكشف منها مبدأً واحداً راهناً لا يقابله الإنسان بتلك الابتسامة التي قابله بها فولتير ورنان والتي هي أحدٌ من كلّ نصل رهيف. وقد وجد فرانس في برنامج جمعيتنا الموسومة بعصبة حقوق الإنسان ذلك الجزم التامّ البات الذي لم يكن يعتقد إنفاذه. فقد كان يهوى أن لا يقتصر على نقشه على مدخل البناء، ولم يلبث أن وجده بهمة نخبة القوم ومضاء الشعب حقيقة ثابتة مقرونة بالفعل.

"وإذ كان يعلم أن الحقّ الأول لكلّ كائن هو حفظ الحياة، فقد آذن الحرب بحرب لا صلح فيها. ولم يبال بما كان يرمى به من العمل بالخيالات المحضّة، بل اعتقد إمكان منع الحروب بتوحيد كلمة العملة من كلّ الشعوب. وكذلك نصب نفسه قرناً للنضال عن الأمم الضعيفة التي استبدّ بها الأقوياء والمستعمرون."

"وإذ علم أن الحرّية السياسية غير مستطاعة بدون الحرّية الاقتصادية، وأنّ الحرّية الاقتصادية غير مستطاعة بدون المساواة، فقد وضع يده في يد جوريس سائراً إلى الاشتراكية على سواء. وحمل نفسه على فهم الصور الفنيّة الجديدة واعتيادها مع منابذتها لذوقه القديم اللطيف تفادياً من أن يتعرّض لمس ذلك "البهاء المجهول" كما حدا نفسه على فهم الآراء الاجتماعية الجديدة الفارطة مع بعدها عن مشربه القائم بالرفق والتؤدة خشية أن يجهل شيئاً من مجاهيد البشر النبيلة. وهكذا رأينا هذا المتفنّن الرقيق قد انقلب خشناً فظاً في مقاومة الكذب والرثاء، يقول "إنّه يستحيل التزام الاعتدال في شأن الكذب والغدر"، "وإنّه يجب أن يحفظ الإنسان للآثام القديمة عداوة هي أبداً جديدة".

"فهل هذه منه تعريجة عن الجادة التي يزعم حزب اليمين أنه وجد بفطرته متّبعا لها أو خيانة منه لمذهبه الذي نشأ عليه؟"

(١) النيز: التلقب بما يقيد صنعة (الناشر).

«لا نظنّ ذلك. فليس ثمّة فرانسان أحدهما غال والآخر معتدل. أحدهما مرتاب والآخر راسخ العقيدة الديمقراطية. أحدهما بديع الصنعة والآخر وطني قويم. فالجمال والحقّ والعدل ليست عناصر يناقض بعضها بعضاً، بل هي كلّها مظاهر عقل واحد أزلي. فليس من باب الاتّفاق والمصادفة خروج أناتول فرانس من عزلته واندماجه في الدهماء، بل إنّ نزل إلى ذلك الميدان مليّاً ضميره الحيّ»... إلخ باختصار.

وقال المسيو جوهر بأسم مجلس جماعة العملة:

«إنّ طبقات الفعلة يتذكّرون أبداً أنه في الأيام العصيبة من تاريخنا السياسي والاجتماعي حملت أناتول فرانس استقامة فكره وجرأة جنانه على ترك مقعد مجده العالي والنزول إلى المعمعة».

«كان أناتول فرانس مع شمول معارفه وعظمة مقامه العلمي كريماً موظماً الأكناف نصيراً للحقّ على الباطل وللحرية على الجور وللعدل على الاستبداد وللعمل الحرّ الراضي البهج على الاستغلال المذلّ القاهر. فدكلة^(١) العمّال التي تُنصب كلّ يوم لإدامة الحياة وترقية الفنون لا تنسى أناتول فرانس، كونه نزل إلى ما بينها وفهم غاياتها وتجرّد للنضال عنها»^(٢).

«وكان يعظّم شأن العمل ولا يهمل شيئاً من الوسائل التي يراها كافلة لإسعاد البشر. وقد صرف أناتول فرانس في سبيل إغاثة الضعفاء جميع قوّة فنه. ولما كان هو أستاذ المعنى والمبنى معاً أخذ على نفسه أن يجنّد مقدرته البيانية في نصرة العقل والعدل والحقّ. وهو الذي قال في كتابه «ثورة الملائكة» إذا تسنّى لنا هدم الجهل والخوف فقد هدمنا الطاغية المستبدّ لنا، فالحروب والآفات الاجتماعية التي تُهلك البشر وتستعبد العملة وتقيّد الحرية بأجمعها إنّما هي عواقب الجهالة والمخافة»، انتهى باختصار.

ملخص خطبة المسيو بلوم، نائب باريز ورئيس الحزب الاشتراكي

«يخشى أعداؤنا يكون ملكوت العدل بين الناس عهداً للجهل والبربرية، وجوابنا لهم الإشارة إلى هذا الشاهد الحالي الخالد الذكر. فبعد جان جوريس عندنا أناتول فرانس. كان

(١) الدكلة: في اللغة الجماعة لا يطيعون السلطان من عزهم وهذا الوصف يلائم حالة العملة الذين هم في نزاع تامّ مع الحكومات الحاضرة. (٢) Touhaux، أحد أعضاء مجلس الشيوخ ومن كبار زعماء الحزب الاشتراكي وهو الذي أنفذته الحكومة الفرنسية في وزارة هريو إلى تونس للنظر في مطالب أهلها ونقص أحوال العملة من الأمة التونسية ودرجة اتّحادهم مع عملة الفرنسيين. فلم يعمل بشيء من هذه المبادئ التي قعر لها هذه الأنفاظ الآن ولم يقصر في خلاصة تحقيقاته عن أحد من غلاة الاستعمار والاستغلال وهذا تماماً يجب على الشرقي أن يعلمه حتّى لا يفتنّ بهذه القمات ويتذكّر قوله تعالى «ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألدّ الخصام، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحبّ الفساد».

فرانس أكمل وأصفى رجال الفنّ في عصره، وهو الذي جدّد في العهد الحديث ما كان عند الأولين من نيقّة^(١) وطلاوة وحكمة. وهو الذي جمع بين جنبه أعظم قوّة فكرية إلى أطف ملكة فنيّة، نظير "مونتانيه" و"ديديرو" و"لابرويار" أو نظير "ميشله" و"أرنست رنان" في العصر الحاضر. ومع هذا فقد كان منّا. وهو بلا مرء الصديق الأعظم لملايين من العملة في فرنسة وفي سائر الأقطار^(٢).

"لا نقسمنّ حياة أناتول فرانس إلى شطرين ولا نجتهدنّ أن نبين كون دعوى دريفوس هي مبدأ نزعتة الحرّة. نعم، إنّ تأثير جوريس كان لا يقف أمامه شيء سوى بعد الشقّة. لكن أناتول فرانس كان من أصله على صراط مستقيم. وما كانت الشكوك التي تعتريه إلا شكوك المفكرين الذين لا ينزلون إلا على حكم العقل. وهو الشكّ الأصولي. وما كان فرانس يقول إلا بسُلطان العقل المبين، وما كان يقاتل إلا السوادين: سواد الجهل وسواد الظلم. وذلك ليقيم مكانهما صورة العدل البيضاء الناصعة التي كان يرجو لها الظفر الأخير. وكان يذهب إلى أنّ ملكوت الحقّ الذي يقبض فيه كلّ إنسان ثمن تعبته يعيد العالم أركى ريعاً وأصفى وأجمل وأكثر استعداداً لحرث العلوم والفنون والأخلاق. وعليه، نقول إنّه لم يكن في أدنى تناقض مع نفسه، بل كان في أشدّ الاتّفاق معها ولهذا انتظم في سلك الذين يرشّحون الإنسانية لمصير أسعد من حالها الحاضرة. ولا ننسّ ما قاله أمام تابوت زولا، وهو: أنه يذكر له أبداً جميل إقدامه على جعل مجده سلماً للحرية وطريقاً إلى التجدّد. وأنه كان كلّما ازداد صوته قبولاً لدى الخلق ازداد به جرأة في الحقّ. وكانت روح فرانس قريبة إلى الدهماء بسذاجتها ونزاهتها، وكان يقول إنّ الملكات العقلية واللطائف الفنيّة المتناهية تجد أحسن مباءاتها في النقائب البسيطة الميمونة. وأحبّ الصنّاع والمهّان، وقال إنّ على الأديب المؤلّف أن لا يهمل بلاغة لغة العامّة، وذكر أنّ الأعمال اليدوية هي أعرق أعمال هذا العالم وهي أقدم أريستوقراطية. وما هفا قلبه إلى دور أعزّ عليه من الدور اليوناني أو دور التجدّد الطلياني لأنّ الأفكار كانت منطلقة فيهما من عقالها والأعمال كانت خالصة. لقد فقدناه بعد جوريس بعشر سنوات، الأول عاثراً في ميدان قوّته والثاني ضاحكاً باسمًا منتقلاً انتقالاً لا تكاد تفرّق فيه بين الحياة والموت. وكانا خليلين متصافيين. ونحن لا نفرّق بينهما في هيكل الحرمة والتعظيم ونرجو أن نجعل قبريهما متجاورين"^(٣).

(١) اسم من تنوّق في الشيء إذا أحكمه وبالغ في إتقانه (الناشر).

(٢) يشير إلى نقل رفات جوريس إلى البانطيون وما يرجونه من نقل تجاليد فرانس إليه.

خلاصة خطبة المسيو بول بانلفه، الذي كان يومئذ رئيس البرلمان،

والذي هو اليوم رئيس الوزراء

«إنه وإن كان أنا تول فرانس استوفى من العمر قسطاً مديداً مجيداً وانطفأ نوره هادئاً في وسط هالة مجده وكان أمر الموت واقعاً لا محالة، فلا يوجد إنسان مفكر إلا وقد رجَّ أرجاء قلبه هذا الخبر «أنا تول فرانس أصبح غير موجود». نعم، ذهب ذلك الدماغ العجيب الذي كانت تصدر عنه الأشكال اللامعة والخطرات الشقافة والواردات السماوية طائرة كتحلٍ من ذهب. نعم، انتهت تلك الفكرة التي كانت تدور مع الحق كيف دار ملائمة سيرها المستقيم مع تعاريج الأحوال الدنيوية متناولة مرةً واحدة كل ما في أثناء هذا العالم الكثيف من قبسات نور وخلجات عطف وإحاطات حصة^(١) بحيث يحق لنا في هذه الساعة أن نتذكر عبارة «لامارتين»^(٢) وهي «أن سوي العقل البشري قد انحط هذه الليلة».

«هذا ما شعر به جميع أمم العالم المتمدّن، وما تشهد به البرقيات التي لا تحصى واردة من أقسام الأرض بأسرها. فهذا الكاتب الفرنسي الصميم المعرق والحارس الأمين المتين لهذه اللغة الذي كانت جملة السيالة أشبه بنفثات سحر هو سليل مديّات البحر المتوسّط، وعلى فصاحته لمعات شموّس شواطئه التي ولدت عليها الفكرة اللاتينية ولم يكن كاتب العصر الذي انحصر تأثير أدبه في الأم اللاتينية وحدها، بل عمّ الأم بحذافيرها برغم اختلاف لغاتها وأنواع تهذيبها.

وإن هذا المؤرّخ الحافظ لسير القديسين المولع برقائق نسك القديس فرنسيس وأمثاله هو نفسه ذلك العالم الجازم بالأمر الوضعية، المقاتل للخوارق والخرافات، القائل: «ليس في الطبيعة شيء غير طبيعي» تراه من جهة يروض فكره بالنظر إلى مرمم الدمى القديمة ومن أخرى يسعد بغروب شمس المديّات العتيقة وينظر بالإجلال والإعظام إلى دكّلات العملة والصنّاع الذين بدأوا يفكّرون وشرعوا يحلّون ويعقدون. وهو على ثقة بأنه كما كان التخيل مصدر تخطيط أول مدينة في المعمور فسيكون هو الذي سيختط المدينة المستقبلية.

يقول بعضهم إنَّ هي إلا تناقضات وإنَّ هو إلا شكّ واتباع لكل ما يعنُّ وليس الأمر كذلك. فما كان الرجل قبضة ورفضاً^(٣). ولكنّه واسع الإدراك يشمل نظره كل شيء إنساني. فما من

(١) عقل أو رأي (الناشر).

(٢) لامارتين (Alphonse Lamartine)، أحد أفذاذ شعراء الفرنسيين ورجال السياسة عندهم، من أعضاء الأكاديمي ومن أعضاء الحكومة المؤقتة ومن أعضاء الجمعية التأسيسية، له تاليف عديدة وقصائد سائرة. ولد سنة ١٧٩٠ وتوفي سنة ١٨٦٩.

(٣) يقال رجل قبضة رفضة أن يتمسك بالشيء ثم يتركه (الناشر).

جمالٍ إلا وقد صبا إليه قلب أناتول فرانس، وما من عقيدة ولا فلسفة إلا وقد حنا عليها، ولا من زهرة من زهر الحضارة إلا وقد تنشقها. لقد أتيح لي أن أخالط فرانس في تلك الأيام التي خرج فيها إلى طور ظنّه البعض جديداً بعدم تبطنهم الأسرار وبحصر نظرهم في الظواهر. فقد كانوا يرون فيه رجلاً أبيقورياً، مسترسلاً إلى النعمة، منتظماً في اللذات، متمتعاً بوافر اطلاعه ونادر إحاطته بجميع ما في هذه الحضارة من صور وأشكال وخطوط، عاكفاً على كل ما يصادف فيها من أزاهير ورياحين سواء في العالم الحسي أو العقلي. فما هو إلا وقد نزل إلى ساحة الجمهور وأخذ وأعطى في سوق المشاحنات الاجتماعية. وهذا يوم الخلاف الأعظم الذي تمزقت فيه ضمائر الأمة الفرنسية بين موجب وسالب. فخاض أناتول فرانس في هذه المعمعة بكل قوته من بعد إمعان الروية، وأدهش بذلك كل من لم يفهموا ومن لا يزالون يجهلون أنه إنما أطاع بذلك دواعي وجدان صادر من أعماق كيانه. نعم، لم يفهموا أن قوانين الجمال والأخلاق والعقل تتلاقى في جذر واحد، وأن رجلاً مثل أناتول فرانس بلغت ملكته في الإتيقان والإبداع تلك الدرجة العليا لا يرى الجمال جمالاً إلا إذا ازدان بالعدالة وأنه يجد في الظلم والعسف الشناعة التي لا تطاق. وهو الذي قال: "لا يوجد في الدنيا إلا مملكة واحدة يمكن أن تتم فيها هذه الأمور العظام". فما أعجب هذه السجية العالية التي عند أمتنا! حقاً، إن فرنسة هي وطن العقل المزيّن والفكر الكريمة ومنبت القضاة العادلين والحكماء الرحماء. ولم يكن كتاب من كتبه خالياً من ذكر الرحمة والعاطفة، ووصف "ما في آلام الإنسانية من الجمال المقدس"، وكان أكره الأشياء إليه الأهواء والأحقاد العمياء وحب الذات الغاشم والقواعد الضيقة القاسية التي تحكي دخول السيف في اللحم الحي. وكذلك أكره الناس إليه آلهة الدماء الذين لا تجدهم أبداً مرتوين من علها ونهلها^(١). فكان يهتف لمقاتلة هؤلاء الأعداء بقوله: "على مثل هؤلاء ثوري آيتها الزوابع المشتهاة"^(٢).

خلاصة خطبة المسيو فرانسوا ألبير، وزير المعارف الفرنسية

إن جميع ما يمكن أن يقال من العبارات والألفاظ في هذا المآتم الذي هو أعظم مآتم الآداب الإفرنسية لا يشفي غليلاً، ولا مناص من أن يبقى فاتراً ضئيلاً مهما تخلله من الحسرات

(١) النهل: أول الشرب. والعلل، والعلل ثانياً (الناشر).

(٢) لا شك في أنه لو كان أناتول فرانس اليوم حياً لكان من أكبر أصدقاء تورط فرنسة في حرب الريف وسفكها دماء عساكرها ودماء الريفيين وتدميرها قرى الريف بقنابل الطيارات على الأطفال والنساء والشيوخ العاجزين واستعمالها الغازات السامة. فأما صاحب هذه الخطبة المسيو بانفله، العالم الرياضي الشهير، والذي يزعم أنه من زعماء الحزب الشمالي الحر فهو الذي بنفسه يتولى اليوم كبر هذه الحرب الطاحنة ويزيد الدماء تفجيراً حال كونه قادراً أن يحقنها في أي وقت شاء بقبول الصلح مع عبد الكريم. والحقيقة أنه ممن تعجبك أقوالهم ولا تنطبق عليها أفعالهم. أو أن السياسة تُفسد كل شيء كما قال المرحوم الأستاذ الشيخ محمد عبده.

والزفرات. فإنَّ الذي أضجعه تراكم السنين في قبره بهذا اليوم كانت قد تقطعت من حوله مناظرات الحساد وخرست بإزائه دعاوي الأنداد، فلم يثقل على أحد أن يلقيه بالمعلم. وإنَّ من أعظم الخصال التي جعلته بين الأفاضل المشار إليهم بالبنان ما اجتمع في معالي أفكاره من عرفان الحق والغرام بالجمال متلازمين متحالفين حتى جعله ذلك من الطبقة النادرة الخالصة النسب من صناع اللغة الفرنسية. كان يقال إنَّ أناتول فرانس يملك سحر البيان، وهو صحيح إذا أريد بسحر البيان استرقاق الأذان بخلاصة النطق وعضوبة الإنشاء والأخذ بمجامع القلوب بالصور الجاذبة المستطرفة بدون أن يصادم ذلك شيئاً من أحكام العقل الذي مع طلاوة الكلام وتناسب النظام يمج كل ما ليس من الإمكانيات البشرية. وعلى كل حال قد أدار أناتول فرانس بكأس فصاحته هذه من سلافة عصره على معاصريه شراب الحقائق الأبدية التي أخذ يبشّر بها منذ ثلاثين سنة. ملأ أناتول فرانس دماغه اطلاعاً وقتل أدوار المدينة المختلفة علماً وتعقّبها من العصر اليوناني القديم إلى العصر الإسكندري إلى القرون الوسطى إلى دور التجدد إلى الدور الفولتيري بشغف متساو في استقصاء الأخبار وتبطن الأسرار، مقيماً لكلّ حالة وزناً ومؤدياً لكلّ فضل حقاً، وقد ذاق لذّة الاستمتاع بكلّ حسن والتأمل في كلّ سرّ والتفهّم لكلّ ما تكوّن منه هذا التاريخ البشري العابس المتجلّي في مظهر الجلال. وكشف الستار عن الأباطيل التي كانت تخفيها فخامة الظواهر عن أعين المتأمل الذي لا يرى إلاّ الأمور السطحية، فأبرز من ورائها وجه الأدوار الماضية على ما هي عليه، وأنزل الناسك الذي يدعي القربى مع السماء إلى سويّ الطبيعة العامّة. وأحسّ بألم جان دارك التي زاد في فضلها أنها كانت تقاتل فطرتها المسكينة ولحمها وأعصابها^(١). وجمع تحقيقات رنان إلى هزؤ فولتير بالعقيدة ووضع ابتسامة الفلاسفة الآثنيين على شفاه مفسّري التوراة المتشنّجة ولم يكن غريباً عن شيء من كلّ ما أكنهه العقل البشري أو حاول إكناهه. فقارب بقدر استطاعة البشر عتبة الكمال التي لم يقيّض دوسها لهذا النوع الإنساني الضعيف. فهل ظنّ أحدٌ أنّ حكيماً نظيره يختار الخروج من جنّة عبقر^(٢) التي تسامره فيها آلهة الشعر في طيّ الخفاء، وأنّ هذا الصانع الماهر المغرم بالتناسب والحسن يلبي في يوم من الأيام نداء الحركة المغربية بتعدّي الخطوط؟

نعم، قد شهد الناس هذه الأعجوبة بدون أن يفقد ذلك الحكيم شيئاً من حكمته العذبة. وذلك أنه تحت ظاهر علمٍ محيطٍ متساوية لديه الأشياء مائل بعض الميل إلى الأريستوقراطية كان

(١) أي لم يكن قيامها بوحى كما كانوا يزعمون.
(٢) موضع كبير الجنّ (الناشر).

يخفق فؤاد رقيق لطيف الشعور مملوء رحمة، فإن ثقوب الذهن لا يكفي وحده لإعلاء النفس إلى هذه الدرجة إن لم يصطحب الحنان ورقة القلب. فالأستاذ الأكبر في سعة علمه قد حفظ في صميم قلبه طراوة شعوره وغراضة^(١) شبابه، وهو الذي يقول في كتابه "جنة أيقور": "كلما فكرت في الحياة وجدت الضحك والبكاء أحسن شهودها. فإن الهزؤ والرثاء ناصحان رفيقان أما الواحد فإنه بالابتسام يحبب إلينا الحياة، ومآ الثاني فإنه بالبكاء يجعلها لدينا مقدسة. والهزء الذي أعنيه ليس بهزؤ غليظ فهو لا يتوجه إلى الحب ولا إلى الحسن وإنما يسكن سورة الغضب ويعلمنا التهكم بالأشرار والحمقى الذين لولا هذا الهزؤ ربما كنا نقع في معرة بغضائهم" وهو الذي يقول "كما أن التلخيص يأتي من بعد التفصيل فالعواطف الشريفة يجب أن تتوج كمال المباحث العقلية لتنشر الحركة في أعمال الحياة" ومن كلامه "أن للقلب وحده القدرة على إيجاد الشوق فهو الذي يفيض الحياة على كل ما يتصل به. وبالعواطف لا بغيرها تلقى زريعة الخير في الأرض ومن أراد أن يخدم الناس فلن يستطيع ذلك إلا إذا طار بأجنحة الهيام".

وليس بصحيح أن أناتول فرانس هدم كل الهياكل القديمة وزرع الفوضى في الأخلاق، بل هو الذي استقى من العلم الطبيعي الذي كان عند الأولين مصاص ديانة دان بها طول عمره بإيمان راسخ وهي "ديانة السعادة البشرية" وكان يبينها على هذه القاعدة وهي "أن الإنسان أشودة إلهية لطيفة، فمن أتبع مجرى الطبع الحسن فهو السعيد الجميل وبمجرد الحياة يكون قد مجد صانع الأشياء المطلق" فالسعادة طاهرة والسرور مباح. وبهذه العقيدة أبطل فرانس ما كان شائعا من تشككه. ومن قوله "بعض الأخلاقيين يقولون لكم إنه لا يجوز السير مع دواعي السرور في هذه الحياة فانبذوا كلامهم"^(٢). فإن تعليما دينيا قديما لا يزال يلقي علينا بعاعه^(٣) مآله أن الألم والحرمان والشظف هي أشياء مستحبة وأن قهر المرء نفسه وحمله إياها على خشن العيش من أفضل الفضائل. فما أبعد هذا القول عن الحقيقة، فلا تستمعوا كلام الذين يعلمون أن التقشف محمود، فإن السرور وحده هو المحمود".

ثم إن الحقيقة لم تكن عنده كلمة فارغة تقال ولا يعمل بها. نعم، إن روح التسامح التي بدونها لا تمكن سكنى هذه الكرة توجب حرمة حق كل إنسان أن يعتقد ولو الباطل. ولكن جعل الباطل عقيدة رسمية تخدمها الأمة وتسعى في ركابها الدولة مع أن الحقيقة بإزائها غير مستمدة

(١) طراءة (الناشر).

(٢) القرآن الكريم أحل الطيبات من الرزق ولم يجعل في طيبات العيش من حرج على شرط التزام الحلال وعدم الإسراف المقوت في كل شيء. قال الله تعالى: "يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان أنه لكم عدو مبين". وقال تعالى: "يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون".

(٣) كل ما فيه (الناشر).

قوة الحكومة لا يقرّ عليه ضمير حيّ ولا عقل سليم. فهذا ما كان يذهب إليه. وبينما كان كثيرون يظنّونه متّيحاً^(١) هائماً في كلّ وإدٍ إذ به أبصر أنّ القوّة الغاشمة لا تجتزئ بتعيين معالم الحقّ، بل تطمع أن تكون وحدها الناطقة بالصدق^(٢) بحيث أوشكت الحقيقة أن تفقد حقّ الوجود. ففي تلك الدقيقة رأى هذا الحكيم الحليم أنّ السكوت أصبح إثماً وأنه لامحيد من إقامة الحواجز في وجه هذه القوّة القاسرة، وأيّ حاجز يقدر أن يصدّها خير من إرهاف الأسنة العقلية، وهنا تحوّل العالم عاملاً والحكيم وطنياً مجاهداً ناصراً للقوّة الأدبية في وطنه.

خطبة جبرائيل هانوتو^(٣) باسم الأكاديمي الفرنسيّة

أنا تول فرانس هو الكاتب الأكمل أشدّ الكتاب صراحة فرنسية وأقواهم توليداً وألطفهم وأظرفهم حكمة. وقد أوتي منذ حدائته ما أوتيّه جميع قصّاصنا المجيدين من موهبة إبداع الحقيقة في الخيال. إذ ما الحقيقة إذا كانت مملّة ثقيلة، وما عسى أن يكون من تأثيرها في النفوس؟ وكذلك يستحبّ لأجل اقتياد النفوس والعمل فيها أن يكون للأشياء رنة عامّة تجمع بينها على إيقاع واحد مختلط بالأنفس تتفاهم به جميعاً. فهذا الإيقاع الواحد العامّ المشترك بين الجماعات هو اللغة التي يتعلّمها الأولاد من شفاه الأمّهات. وفي زماننا هذا كان أنا تول فرانس وارث اللغة الفرنسية وولي عهدها.

فهذه اللهجة الباريزية النقيّة الغريضة اللطيفة كانت لغته المحكية ولغته المكتوبة وتلقاها في صغره حافظاً أميناً، ودافع عنها في كبره حارساً متيناً، وبواسطته امتزجت بقلوب ناشئة عصرية بأسرها وبواسطتها انتشرت في جميع أقاليمنا وزادت في فتوحاتنا البعيدة. وهي لغة السهولة والراحة والمناسبة والضبط والصراحة - صراحة فرانس التي كان روسكين^(٤) يضرب بها المثل - فكلّ ما كان يجذب ويسحر ويقنع قد جعل منه أنا تول فرانس في تعبيره مثلاً وحيداً ممتنعاً على غيره.

(١) يعرض فيما لا يعينه (الناشر).

(٢) نظير ما أجبرت الدول الغالبة الدول المغلوبة بعد الحرب العامّة على الاعتراف بأنها هي وحدها المسؤولة عن الحرب التي تولّت كبر إيقادها واقتسروهنّ بقوّة السيف والحصر على هذا التصديق. فهذه هي القوّة التي لا تكفي بالاستيلاء على الممالك حتّى تظنّ أنها تستولي على الحقيقة والتاريخ.

(٣) هو الذي وقعت المناقشة بينه وبين أستاذنا الإمام الشيخ محمّد عبده، رحمه الله، وهو من أعضاء الأكاديمي ومن الوزراء السابقين ومن أعضاء الهيئة الفرنسيّة بجمعية الأمم اليوم.

(٤) (Ruskin) جون روسكين، كاتب إنكليزي، نقاد أدبي اجتماعي، ولد سنة ١٨١٩ وتوفي سنة ١٩٠٠.

وإنني أكون قصّرت في الواجب إن لم أذكر أين انتهت بأناتول فرانس تلك العبقرية، فأقول: إن هذا الهازل العظيم كلّمًا توغّل في حبّ الطبيعة وعشق الإنسانية تقرب إلى المسائل الاجتماعية. أنجبه الشعب فأراد أن يبقى من الشعب على حين أبهاء^(١) القصور تخنّو له رؤوسها. وكان معظم ألمه أن أذرعه لم تتسع لعناق البشر كلهم. وكأنّ البشر علموا حقيقته فوجدتهم بأجمعهم نادبين فقدوه. وكان فرانس قائلاً بالتجريد الأصولي القديم فلم يكن غرضه إنساناً، بل النوع الإنساني.

ما تذكر براءة فرانس الفائقة إلاّ أوردت على خاطرك أسماء "رابليه"^(٢) و"مونتانيه"^(٣) و"فولتير"^(٤) و"لافوتتان"^(٥) فإنه منهم وإنهم منه. وما كانت تأليفه إلاّ أنشودة لهم ومنهم، فهي تحتوي كلّ ما ترشح إليه من عبقرية الأوائل والقريحة الفرنسية. وإنّ هذا الباريزي التامّ والراوي المنقطع النظير والمحبّ الصميم والأديب الساحر، عاشق الكتب مداعب الأطفال صديق الضعفاء. انظروا المكان الذي اختاره ليموت فيه. قد اختار الموت في "توران"^(٦) قلب الوطن على ضفة "اللووار"^(٧) الذي يجرّ في تموجات مياهه كلّ ما في البلد الجليقي القديم من حلاوة ولطافة.

خلاصة خطبة المسيو جورج لكونت، رئيس جمعية رجال الأدب

كانت قريحة أناتول فرانس عصارة البراعة الفرنسية ولبابها تلخّصت فيها وتمثّلت بها. وضوح في الفكر وانتظام في النسق ولطف في المأخذ ودقّة في النظر وتسوية بين الأقسام وسلامة في الذوق وبلاغ في التمييز. هذا مع وفرة الاستشهاد بدون تنطّع، وعمق الغور بدون إبهام ولا تحيّر، وجيش في الفكر بدون طغيان، وحرارة في النكته بدون إساءة، وشدّة في النفس بلا غلظة. لا إفراط ولا إسراف، بل التوازن في كلّ شيء والمناسبة التامة بين المادّة والصورة. وبالإجمال فكان يدري ما يقول وما يجب أن يقول وكيف يقول.

(١) جمع بهو وهو المعروف بأسم "الصالة" (الناشر).

(٢) سيأتي ذكره في الحواشي.

(٣) فيلسوف إفرنسي أخلاقي شهير كان يميل في فلسفته إلى الشكّ في قدرة العقل الإنساني على الجزم المطلق ولكنّه كان كريم الطبع صفوحاً عن السيئات عاذراً للناس في ضعفهم. وله كتاب اسمه "الباكورة" موضوعه الأخلاق وهو يهيم فيه بكلّ وادٍ بدون برنامج ولا خطة. وقد كان يعتمد في فلسفته على "لوتارك" و"سينيكا" ويمتدح زهد سقراط اليوناني وكاتون الروماني.

(٤) سيرد مجمل ترجمته.

(٥) سيأتي الكلام عليه.

(٦) Touraine: اسم المقاطعة والمركز هو "تور" وسيأتي ذكرها بمناسبة المعركة الحاسمة التي وقعت فيها بين العرب والإفرنج.

(٧) Loire: أطول نهر بفرنسة يطوف بأكثر مقاطعاتها وطوله ٨٩٠ كيلو متراً.

قرأ أناطول فرانس كثيراً واصطبغ بالصبغة التدريسية الفرنسية القديمة، وكان من فطرته شاعراً بارناسياً^(١) فذاق فنّ الوصف والتصوير صغيراً وأتقنه كبيراً. ولم يكن أسهل من ذلك الإنشاء الذي يلدّ العقل والأذن معاً، ويراه الإنسان مرتجلاً مطبوعاً إلا أنك إذا حاولت تشريحه وتفكيك أجزائه وفحصته عن قرب لم تجد أمنع منه عن التقليد.

وهذه هي مزية الصنّاع النوايغ أن يظهر كلامهم سهلاً ولا يلقي بمقاليدته إلى أحد. وإذا كان تعريف الكاتب البارع الذي طالما حيرّ المعرفين هو الذي بيانه يعرب تماماً عمّا يلقي في روعه ويجد عند الحاجة الكلمات اللازمة أو الكلمات الوحيدة التي تعبّر عمّا يريد أن يقوله، فإنّ أناطول فرانس هو راموز الكتابّ البلغاء الكاملين.

ولنحذر من أن نظنّ براعته مقصورة على تنميق الألفاظ وإجادة الوشي وكونه استخدم اللغة كلوحة مصوّر يتوكأ عليها ونشد في حسن ديباجتها ما شاء من لونٍ ولحن. كلاً، بل هو بتعمّقه في علوم اليونانيين على اختلاف مشاربهم وعلوم اللاتينيين سواء أهل الرصانة منهم أو أهل الخلاعة، ودرسه علوم فلاسفة القرن الثامن عشر من الفرنسيين (هؤلاء هم الذين استقى من كتبهم على ما يظهر) كان قد اتخذ لنفسه فلسفة خاصّة به رسم حدودها وأنعم فيها الفكر وجعل قائدها الريب ورائدها الضحك وهي فلسفة ترجع إلى مبادئ أبيقور ولوكريتيوس^(٢) وإلى الناموس الطبيعي والمنطق والعقل. ولم يكن أناطول فرانس يخضع إلاّ لأحكام العلم.

فمات فرانس عن مجد كامل وفلسفة عظيمة هي زبدة أفكار حقب عديدة وخلاصة فنون أعصر مديدة. انتهى باختصار.



وجاء في جريدة "جورنال دو جنيف" السويسرية يوم نعي أناطول فرانس ما يأتي ملخصاً:
"أسال موت أناطول فرانس أقلام الفرنسيين على اختلاف المشرب في وصف براعته

(١) نسبة إلى بارناس، وهو جبل في يونان القديمة، علوه ٢٤٥٩ متراً كانوا يقولون إنّه وطن آلهة الشعر، وقد سبق ذكره.
(٢) لوكريتيوس (Lucretius)، شاعر لاتيني مولود في رومة سنة ٩٨ ق.م.، كان من دعاة الفلسفة المادية المنسوبة إلى أبيقور وقد بثّ هذا المشرب بفصاحة خارقة للعادة وله قصيدة اسمها "أمور الطبيعة" في ستّة كتب أهداها إلى صديقه سميوس وهي شرح مذهب أبيقور. واختلف العلماء في حقيقة اعتقاد لوكريتيوس كما اختلفوا في عقيدة المعري فذهب قوم إلى أنه جاحد منكر لوجود الواجب الوجود وقال آخرون إنّه كان يعتقد بالصانع تعالى وبأنه قوة مستورة لا يدرك كنهها العقل ولكن من المحقّق أنه حمل على الوثنية والخرافات والتعصّب حملة شديدة، ويقال إنّه مات منتحراً سنة ٥٨ ق.م.

والاعتراف بأنه من نوابغ اللغة الفرنسية. وأنه يتعذّر ولو على وجه الإجمال نقل أبلغ ما كتب من تأبين المعلّم الأكبر الذي عرف أن يحلّي قلمه بهذه المزايا كلّها حتّى يمكن أن يقال إنّ اللغة الفرنسية لم تعهد لنفسها إلاّ في النادر الأندر قوالب بهذا الجمال الرائع وأمثلة بهذا البهاء الرائق وصوراً بهذه الدرجة من الجلاء والصقال. فإذا جاء الإنسان يتذكّر تأليفه لا يجد في الأدب أخلص منها لغة فرنسية ولا أطبق على الأسلوب الأصولي“.

وذكرت هذه الجريدة في مكان آخر من عددها المؤرّخ في ١٥ أكتوبر سنة ١٩٢٤:

”إنّ أناتول فرانس في عصرنا هو أصفى مثال للنعنة الكبرى اليونانية اللاتينية وتتمّة للقرن الثامن عشر الفرنسي. وهذا سرّ قوّته. ولم يكن يعلم شيئاً من أفكار أهل الشمال ولا من آدابهم ولا كان ممّن يشاطر الأنسيكلوبيديين^(١) آمالهم وخيالاتهم فلا كان يذهب إلى جودة نوع الإنسان ولا إلى الترقّي غير المتناهي ولا إلى إمكان السعادة على ظهر هذه الكرة ”سيارة الجوع“ التي يبلو فيها الناس ما قيضوا له من المحن. وكانت بشاشة فرانس وضحكه للعالم من قبيل ضحك فولتير ورنان معلّميه. فقد كان رأي فرانس في العالم سيّئاً وكان التشاوم عليه غالباً ولم يكن عنده أمل في إصلاح حال العالم الذي لم يكن يرى من عامل فيه إلاّ قوّة السيف“.

وكان فرانس يقول:

”إنّ البشر في حالة يرثى لها. ولست ألوم على ذلك الطبيعة لأنّ الطبيعة غير عاقلة لتكلّم معها. ولا فرق بين أن تطبّق طبيعة البشر على مجتمع البشر وأن تطبّق طبيعة النمل على مجتمع النمل“.

ولكن مع معرفة فرانس بكون أمر هذا العالم محزناً يقول إنّ منطوق على أمور تستحقّ النظر. فالأولى بنا أن نأخذ الدنيا بجهاتها المطربة. وأيّ فائدة لنا في الحسرات ما دمنا لا نقدر على شيء. فما تيسّر من السرور فلنأخذه قبل مروره لأنه قصير الأمد. ولم يكن أناتول فرانس مع هذه الحالة السلبية سيّء السريرة، بل كان قلبه ملائحاً وكان نتاج قضاياها أشبه بنتائج قضايا ”كانت“^(٢) والفرق بينهما أنّ ”كانت“ كان يقول بالواجب الأدبي وأنّ فرانس كان لا يعتقدّه وإنّما يقول بحركات القلب وعواطفه“.

(١) يعنون بالإنسيكلوبيديين العلماء المؤلّفين الذين كتبوا موسوعات العلوم وهيأوا الثورة الفرنسية الكبرى وهم دالمبرت وفولتير وروسو ومونتيسكو وديديرو. وكانت إدارتها بيد دالمبرت وديديرو، ولدالمبرت عليها مقدّمة فيها تلخيص فلسفة القرن الثامن عشر.

(٢) الفيلسوف الألماني المشهور وسيأتي ذكره. وقد نقل نيقولا سيغور حديثاً لفرانس عن نظريّات ”كانت“ في الفلسفة الأخلاقية، فقال: ”إنّ السماوات فاضية وهذا الفضاء يحزن الإنسان ولكن الإنسان كشف شيئاً أفضح من خلاء السماوات وهو كونه غير مجهّز التام لمعرفة الحقيقة، وأنه ما قدر أن يرى ولن يقدر أن يرى شيئاً راهناً أبداً، فهذا الإدراك الذي وصل به إلى معرفة الفراغ المحيط به هو نفسه إدراك =

وذكرت جريدة "جورنال دو جنيف" كيفية نشوء فرانس وأنه اختار لنفسه اسم وطنه^(١) ونقلت عنه هذه الجملة:

"إن كان أتيح لي أن أشعر بلذة ولادتي في مدينة الأفكار الكريمة فما يكون ذلك إلا عندما أطوف على هذه الرصفتين بين قصر "بالي بوربون" وكنيسة "نوتردام" حيث الحجارة تكاد تحدث بقصة من أجمل القصص البشرية وهي تاريخ فرانسة القديمة والحديثة".

وجاء في جريدة "لا سويس" ^(٢) "السويسرية ما يأتي من مقالها عنه:

"إن فرانس في تطوافه بالأفكار كلها نبذها واحداً بعد واحد ولكنه كان بالعكس من جهة اللغة. فبينما كان اللسان الفرنسي قد بدأ يفسد جاء أناتول فرانس فأقامه على بوانيه. وفي هذا المقام كان شديد المحافظة فلم يشأ أن يخترع شيئاً. وكتب ما لم يكتبه أحد لكنه حرص أشد الحرص لا على زيادة التدقيق والتحجير في اللغة، بل على هذا الإنشاء الأصيل الذي هو حرى بأن تكتب به بدائع الأدب. وبهذا عدّ من حافظي اللغة الفرنسية، وأن الذين ينكرون أفكار فرانس كفيلسوف لا يستنكفون أن يقتدوا به ككاتب".

وأما جريدة "الديبا" ^(٣) فقد وصفت أناتول وصفاً لم تجمجم فيه فكرها كجريدة محافظة فقالت من جملة كلامها عليه:

"كان يذهب إلى أن الشرّ شرط في الخير ويصرّح بهذا بحرية تامّة في كلّ مكان ويبيح كلّ الخلاعات وكسر القيود إلا في أمر اللغة فإنه لا يعهد أحد بلغ مبلغه من حرمة العنعنات التدريسية".

"وكان كلما تقدّم في السنّ ازدادت أبيقوريته وضوحاً وأخذ تشكّكه شكلاً أكلاً عبوساً،

= قاصر لا يستطيع أن يعتمد عليه وأنّ هو إلا تخيلات واردة من قبيل الحواس. بقي شيء يقال له الوجدان. فالفيلسوف كانت وغيره من الفلاسفة يؤكّدون أنّ في أنفسنا دعوات جازمة مخلوقة في فطرتنا تهيب بنا إلى الواجب وتوحى إلينا الآداب وتعلّمنا أنه لا يجوز أن نضع بالآخرين ما لا نريد أن يصنعوه بنا. ورنان كان مصرّاً أيضاً على حكاية المثل الأعلى، ومن بعد أن جحد وجود أقلّ أثر للنية الإلهية في العالم حفظ القول بالوجدان النفسي الذي هو في الحقيقة مستلزم للاعتقاد بوجود الصانع، ومثله هذا أشبه ببعض المسيحيين من علماء الفلك الذين لا يزالون مصرّين على الاعتقاد بالدين وممارسة شعائر الكنيسة، وبينما هم يؤكّدون لنا أنّ النور يقضي مليون سنة حتى يصل من بعض الكواكب إلينا وأنّ الشمس وتوابعها تسبح في الفلك منذ مليارات من السنين فإنهم لا يزالون يقولون مقالة ذلك اليهودي القديم التي معناها أنّ الله خلق الكون في سبعة أيام وأنه أدار الشمس حول الأرض وأنّ مبدأ الخلق هو من سبعة آلاف سنة لا غير". ومن هنا يعلم القارئ سبب اشتها فرانس بمذهب الشكّ أو الإلحاد. ومراده باليهودي القديم الذي كتب التوراة.

(١) France

(٢) La Suisse

(٣) Journal des Débats

المباحث الأدبية.

من الجرائد الوطنية الشهيرة، هي أميل في صبغتها إلى المحافظة ولها المقام الأول في حسن الإنشاء ودقة

وصار يستشهد بأقوال الدكتور "برنيه"^(١) الذي كانوا يسمّونه في القرن السابع عشر بـ "الفيلسوف الحلو" والذي كان يكتب إلى "سانت أفرمون": "من أعظم الآثام أن يحرم الإنسان نفسه من لذة" وفي كتاب "ثورة الملائكة" هزأ أناتول فرانس كثيراً بالنوع الإنساني وكأنه يقول ما قاله فولتير: "قد صفع النوع البشري صفعات كثيرة ونحن نزيده على ذلك عدّة كسعات"^(٢) ومما قاله أناتول فرانس: "إنّه ليست العناية الإلهية، بل الشيطان الرجيم هو المحرك الأول لكلّ حركة رقيّ في العالم".

وقد قام كاتب كاثوليكي شاب اسمه "هنري ماسي" فأظهر ما في "ثورة الملائكة" من المرامي التي يسمّيها اللاهوتيون "روح الخبائثة" وأثبت ما ينطوي بين السطور من نية إفساد الأخلاق وإن كان مشهد الحياة الحقيقي يفوق في الفساد كلّ ما جاء في مجانات الخلعاء. وهنا يقدر أناتول فرانس أن يجاوب بجاوب "موريس بارس"^(٣) في "بستان برينيس" وهو "نعم، يا سيّدي إنني قد اتّخذت المجون سبيلاً لأفكاري".

على أنّ "هنري ماسي" لا ينكر أنّ أناتول فرانس مع هذا كان يمثّل في الخارج لباب لغتنا وروح صفاتها ورقة شمائلها، ولم يعمل أحد عمله في استرجاع مكانتنا العقلية في أوربة".

ثمّ ذكرت "الديبا" في عدد ثانٍ تحت عنوان "راسين وأناتول فرانس" ما يأتي مترجماً بالحرف: "كلّ من له سكة في الأدب يقرأ بشوق مباحث "غبريال ده هون" في مجلّة "أساتذة القلم" وهي التي يريد أن يثبت بها تأثير أدب راسين في أناتول فرانس أو ما يسمّيه نوعاً من سحر أناتول فرانس ببيان راسين. وقد كان يظنّ أنّ فرانس قد تغدّى بأدب فولتير، ولكن المقاربات العديدة التي أوضحتها "ده هون" تثبت بما لا مجال معه للشكّ أنّ راسين هو الذي كان معبود فرانس. فلم يكن يستظهر كلام راسين عن ظهر قلبه فحسب - وهو الذي يخبرنا بذلك - لكن العبارات وروابط الجمل والأساليب تجدها في كلامه كلّها راسينية. فراسين هو في الحقيقة مثال فرانس في الإنشاء كان يحفظه غيباً ويعيده على لسانه ويلتمس عنده كلّ يوم سرّ الخواطر الصائبة والكلمات الصافية.

(١) برنيه (Bernier)، سائح فرنسي طوحت به طوائح الزمن إلى الهند، وكان طبيياً فاتّخذه السلطان أورنغزيب، إمبراطور الهند، سليل تمولنك طبيياً خاصاً له، وأقام بالهند ١٢ سنة وكانت ولادته سنة ١٦٢٥ ودخل الهند سنة ١٦٥٤ وفي طريقه إلى الهند طاف بسورية ومصر وبعد رجوعه إلى أوربة زار إنكلترا. وكانت فيه دعابة وحسن خلق وكان له أصحاب كثيرون من جملتهم الشاعران الكيران لافونتان وبوالو. وهو ممّن اشتغلوا بالفلسفة وله فيها تصانيف. ولكن أشهر كُتبه رحلته إلى الهند تعدّ رأساً في التمهيص. ومات الدكتور برنيه سنة ١٦٨٨.

(٢) الكسع ضربك دبر الإنسان بصدر قدمك. وفي الأصل الفرنسي: coup de pied dans le derrière.

(٣) موريس بارس (Maurice Barrès)، الكاتب المعروف الذي مات قبل فرانس بقليل، وكان من الكتاب الكاثوليكين المحافظين، وقد مرّ ذكره.

فما عمله "ده هون" من جهة راسين يمكن عمله من جهة كتاب آخرين، وعند ذلك يظهر للملأ أن الإنشاء في الحقيقة هو حفظ بدون تذكر. ولا يجب أن يحمل ذلك على السرقة. فالسرقة كلمة نافهة ليس لها معنى فيما إذا كانت الصورة وحدها هي موضوع البحث، وصنعة أناتول فرانس إنما هي امتلاء خزانة محفوظاته مع حسن النسق كما هي صفحة "اللوثر" أو بلاط فرانسوا الأول.

فلا تجد أناتول فرانس يضع كلمة في محلّ يكون وضعها فيه داعياً لتوقف أو تردد لأنّ المعاني التي يعطيها كلماته كلّها قد استخرجت من متون لغتنا القديمة. ولك أن تقول إن أناتول فرانس لم يكن مبتدعاً من جهة اللغة كما هو شأن بعض الكتّاب الذين يبدأون بإدهاش قرائهم بما يبتدعون من الصيغ الجديدة. وكان راسين نفسه لا يعطي الألفاظ إلاّ معانيها اللغوية الاشتقاقية ويبحث عن تلك المعاني في كتب الأوائل. فيجب أن لا يخلو الزمن من كتاب محافظين على الأقلّ في المباني لأجل حفظ كيان اللغة. وعدا هذا فقد يكون الإنسان مبدعاً في موضوع أخذه من هنا ومن هناك. وقد حدثوا أنه في حريق حصل في "قورنثية"^(١) ذابت مواعين كثيرة من معادن متنوّعة وامتزج بعضها ببعض فنشأ من هذا المزيج نوع أسموه فولاذ قورنثية لم يكن للناس عهد بمثله في النفاسة. فبيان أناتول فرانس هو شبيه بهذه القصة والمسبو "ده هون" يبيّن لنا أحد مآخذه المعولّ عليها. ولهذا لم تكن لغة أناتول فرانس المحصّلة من مطالعة الأوائل طراز مجالس لا غير، بل الأشخاص الذين اخترعهم فرانس في قصصه كانوا يتكلّمون جميعاً بلغة عالية^(٢) لا تشبه كلام المعاصرين، فالمسيو "برجرية"^(٣) إنّما كان يتكلّم بلهجة العصر الكبير^(٤).

وإذا كان أناتول فرانس مديناً لراسين بكثير من رقة بيانه، وهو ذلك المعين العذب و"أحسن الشعراء وأعزّهم عليه" فذلك في نثره لا في شعره. إنّ أناتول فرانس تعاطى القريض في أول عمره ولكنّه لم يكن بحسب قوله ممّن يدرك يومئذ حقيقة راسين. وله في هذا المعنى خطاباً لراسين "كانت عيوني يومئذ أضعف من أن تنظر في عين شعاعك" فهذه الكلمات تحقّق ما ذهب إليه "ده هون" من أن راسين كان عند فرانس إله البيان". انتهى

(١) إحدى مدن يونان الكبرى كانت تناظر أثينا وسبارته.

(٢) ستجد في هذا الكتاب كلاماً لفرانس يذكر فيه اعتراض بعضهم على علو لغة أشخاصه وجوابه عن ذلك.

(٣) من أشخاص فرانس وهذا الاسم Bergeret كان يعنى به نفسه.

(٤) عصر لويس الرابع عشر.

كتاب نيقولا سيغور * على أناتول فرانس

وضع هذا الرجل مولفًا يصف فيه فرانس وما عرفه من حقيقة أمره ويأثر عنه كثيرًا مما سمعه من آرائه في الحياة والخلق والعلم والسعادة والشقاء وغير ذلك من المواضيع الاجتماعية والفلسفية وسمّاه "محادثات مع أناتول فرانس" أو "هواجس العقل"^(١).

فلم نشأ إغفال هذا الكتاب من بين التراجم التي قرأناها لأناتول فرانس علمًا بأن أحسن التواريخ وأوثق التراجم ما كان عن مشاهدة بالعيان وسماع بالأذان. وانتخبنا منه الخلاصة الآتية: بدأ هذا المؤلف بالقول إن كثيرًا من الناس يظنون أنهم عرفوا مؤلف "تاييس" والحقيقة أنهم لم يعرفوه لأنه كان يخاطب كل إنسان على قدر عقله ويقبل أيًا كان في منزله فلا يتوخى أن يجعل كل من دخل منزله مجرّسًا^(٢) يتحدث إليه بدخيلة نفسه.

كان فرانس دائمًا تحت تأثير غيره سريع القبول سلس القياد بسبب سعة صدره ورقة قلبه وشدة طاعته لعادته، فلم يكن يرى أضعف منه إلا في قضية واحدة وهي: رأيه. فلم يكن أحد ليزحزحه عنه، وقال لسيغور إحدى المرات:

"إنني لأذهل عندما أسمع بعض الناس يصفون أحد بكونه أبله. فإنني أنا أجد الناس طرًا ألباء أي متساوين. وإن وجدت بينهم فروقًا فهي من الدقة بحيث لا أشعر بها. على كل حال لا أرى أشد الناس بلها هم الذين يظنّ أنهم كذلك".

وقال مرّة أخرى:

- فقدت كل أمل بأن أتعلّم من أحد شيئًا جديدًا، ولست أعثر على شيء جديد إلا في كتاب قديم.

قال سيغور: كان فرانس نسيج وحده فذًا في نوعه بسبب حدة ذكائه وشفوف فكرته. فقد كان شفاف البصيرة إلى الدرجة التي نغصت عيشه وسمّت صفوه. ولم يكن مالكا عادة

* نيقولا سيغور (Nicola Ségur)، من كتاب الفرنسيين، له عدة كتب في القصص ويظهر أنه كان صديقًا لأناتول فرانس.

(١) ومعناه "محادثات مع أناتول فرانس" أو "بلابل العقل" Conversations avec Anatole France, ou, Inquiétudes de l'intelligence.

(٢) فلان مجرس لفلان أي يستأنس بالحديث إليه.

الانخداع بالأعيب الطبيعة. جاء إلى هذه الدنيا ليكون ذا حظّ في لعبها فحسرت له عن وجه
لعوب طائشة مكشوفة السرّ. وعرف أنّ الناس إن هم إلاّ عبيد القدر محكوم عليهم بأن يحيوا
محيّ لا يعرفون له مبدأ ولا معاداً. وأنهم غير قاطعيه إلاّ بالألم والبكاء. ولم تعتم إن افتضحت
أمام عينيه أكاذيب الاجتماع الإنساني وخُدع الحواس التي منها تتولّد مسرّاتنا المحزنة والأمانا
المضحكة، فظهرت له المخلوقات كما هي عليه وتجلّت له دائماً لا بصورها الخلابيّة، بل بما هي
مجهّزة به من الميول والشهوات وسرعة الوقوع في الخطأ. ورأى الناس يعيشون بدون عقل
منطقي ولا نظر في العواقب جهلاء متهورين سدّجاً فخورين قساة مفترسين لا يبرحون جياغاً
أو مترفين، وكان كأن شعاعاً فوق الطبيعة يجعل أمامه الحياة والإنسان أبداً بصورة قفص عظام.

وإذ أردنا تعريف عمله لم نزد على أنه بحث نظار إلى أعظم مسائل الكون من جهتها
السلبية. فكان شغله اللهو بهذه الأشباح العظيمة التي أطربت الإنسانية أو أرهبتها. وكانت أمانى
الوصول إلى الحقيقة وسرّ العدالة العميق وكنه الفضيلة المشوبة بالرثاء وحلم خلود النفس
وقواعد الحبّ الواهية ووساوس العقائد هي المواضيع التي قضى حياته في تشريحها وهدمها.

وهل يوجد بلاء أعظم من عجز الإنسان عن الرؤيا اللذيذة؟ كلا، فإنّه لا سبيل إلى مذاق
طعم السعادة إلاّ بقبول الستر الذي تتلقّف به الأشياء.

وأناتول فرانس لم يستطع ذلك أبداً لأنه لم يكن يقدر أن يتغذّى بالكذب فبقي طول عمره
جائعاً.

لم يذق لماظاً من السرور إلاّ في أيام صباه. ثمّ لم يكن أسرع من فقدّه قوّة النسيان وشهوة
العمل التي تقتضي هدفاً مقصوداً لهذه الحياة فعاش بدون نسيان ولا سلوان حاملاً في نفسه
فكرته العظيمة المذبية كما تحمل الثمرة في وسطها الدودة التي تقرضها.

لم يكن مجبوراً ولا حزيناً. ولما رأى نفسه منفصلاً عن الحاضر حاول أن يخدع نفسه
بمراجعة الماضي. وكانت تأليف البشر تبدو له حقيرة ملأى بالغلط والهوى والأمانى فلم يجدها
لائقة بأن تروق الرجل الحكيم، وإنّما كان يسلي نفسه بقراءتها التماساً للذهل وكانت صواجه
الموحيات إليه هي خوالج الرثاء وخواطر الاستهزاء، أمّا الرثاء فلكلّ ما تتحمّل هذه الإنسانية من
الألم والبؤس، وأمّا الاستهزاء فبما في هذه الدنيا من الكذب والسخف. وبالجملّة لم تدع له
مرسوماً وغاية مقصودة ولا أن يترقّب ملكوت الإنسان الأكمل. كلا، لم يكن ممّن يقدر أن
ينحت الأصنام.

خوى باطنه من كل شيء وتساءل ما يشعب به عقله فلم يجد، فلم يقدر أن يشمل بما يشمل به سائر الناس. قيل إن السجن الذي كان "سرفانت" يكتب فيه قصة الدون كيشوط^(١) قد فاق حمراء غرناطة^(٢) وقصر الأسكوريال^(٣) بما كان يملأه من قوة الخيال. أما المكتبة البديعة التي كان فرانس ينشئ بها قصصه فكانت غاراً مظلماً من حقائق أحوال الدنيا تختلج فيها الأشباح الباطلة التي يتمثل بها هذا الوجود المحزن. فالعبرة التي أوتيتها فرانس هي التي هدمت كيانه، فقد أعطته من بعد النظر ولطف الشعور ما صيرت الحياة له عذاباً. ولكنه كما أن الطير إذا حبس في القفص ازداد حنينه وشجنه وبذلك ازداد تغريده، فإن هذا الرجل في قفص عزلته الروحية أتى بأشجى الأنغام التي يتصورها البشر. عرف أن معاشرته للناس لن تكون إلا سطحية، فالتجأ في أكثر الأحيان إلى الأشباح جاعلاً حياته نوعاً من السياحة في القرون الماضية، ناثراً قوة بيانه الساحر وطبعه الشاعر على العلم والتاريخ، مؤثراً من المواضيع أغمضها، متبطناً من العقليات البشرية أبعدها وأقدمها، عائنساً مع الآباء الأولين ينبغي في الاختلاط بهم تتبّع سير الحركة الفكرية في العالم. ولم يكن التجاؤه إلى الماضي على ظن أن الماضي كان أسعد من الحاضر، بل لأن البعد والإنقضاء وفقد التفاصيل وتعذر الجزم خصال تُظهر الماضي بمظهر شيء من الجمال.

ولم يكن تعاطيه حرفة الأدب إلا نتيجة انقطاع أمله من كل شيء، فصار القلم عنده أداة لهو ومعزف تطريب يلتمس به الرويحة مما هو فيه من الألم وينشد السلوى عما يلح به من السأم وكأنه من قبيل الأفيون الذي يخرج فيه المرء من ضيق عزلته ويندر من دخلة نفسه.

فهذا كان سلاحه الوحيد في مقاتلة ما كان يساوره من الهموم، ولهذا كان يميل إليه ميلاً واحدة فيظهر جوهره في تأليفه وأحاديثه في مجالسه بما يحير العقول أحياناً. فمن يسمعه يتكلم عندما يكون شيطانه هائجاً يظن نفسه مسحوراً ويشعر من تأثير خطابه أكثر مما يشعر من تأثير كتابه. فكان ساحراً عليمًا ينثر الأنوار على الكائنات ويفسّر الحوادث والرجال بتفاسير مبتكرة.

(١) سيأتي ذكرها.

(٢) قصر الحمراء الذي هو من مفاخر الحضارة العربية الباهرة الآثار، بل من مفاخر الدنيا لا تزال السياح من أطراف العالم تقصده إلى اليوم، وهو في الحقيقة عدة قصور يكاد يكون بجملته مدينة. ومركز الحمراء على رأس ربوة مشرفة على غرناطة ووراءها جنة العريف الذي يقول لها الإفريخ برطانتهم "جناليف" وهو قصر تحف به حدائق وجنان فيحاء، وفي الحمراء عدة قاعات تأخذ بالأبصار أشهرها قاعة الأسود التي فيها اثنا عشر أسداً وقاعة بني سراج. وفي ترجمتنا لرواية آخر بني سراج تأليف شاتوبريان، وخلاصة تاريخ الأندلس التي جعلناها ذيلاً للرواية، كلام طويل على الحمراء. وأول من بنى الحمراء محمد بن يوسف بن نصر، المعروف بابن الأحمر سلطان غرناطة. وسميت بالحمراء نسبة إلى هذا البيت المنسوب إلى الخزرج الأنصار. ويقال إن بناءها انتهى في سنة ١٣٣٨.

(٣) Exuriel: قصر بناه فيليب الثاني، ملك إسبانية، سنة ١٥٦٧ بقرب مادريد وفاء لنذر نذره في حربه مع الفرنسيين ولم يتم بناؤه إلى سنة ١٥٨٤ وهو قصر ملكي وكنيسة ودير قيل إن فيه ٢٢ ساحة و ٤٠ ألف نافذة وثمانية آلاف باب وإن الكنيسة فيها ٤٠ مذبحاً وإنه كان في الدير ٢٠٠ راهب.

لا عهد للناس بها ويسخر لإرادته الفكر والصور ويلعب بالأشياء لعب الرُّقاة والمشعوذين. وفي مثل تلك السويغات فقط كانت تتجلّى لك روح أناتول فرانس.

وذكر "سيغور" من خاطرات رحلتهم إلى أثينا نوادر عديدة من جملتها المحاضرة الآتية التي تدلّ على أنّ القائلين بأنّ أناتول فرانس كان وثنيّ المشرب عدميّ المعتقد لم يكونوا مبالغين. نُقل عنه عندما كانوا في الأخربة التي بأعلى أثينا L'acropole:

"كنت أودّ أن أعرّ هنا على الحجر الشهير المقدّس بأسم الإله غير المنظور وهو الذي فاضت له كل ذلك الفيض فصاحة مار بولس. حقّاً، كانت ساعة في منتهى الفكاهة تلك الساعة الجليلة المضحكة التي وقف بها ذلك القديس الصغير ينادي عابري السبيل وحكماء أثينا بأنه هو قد عرف الإله المجهول. فلم يستمع قوله أحد. وكان الأثينيون يرون من قبيل صدى البوم أن يحدثهم الإنسان لا سيّما بهذه النغمة المنكرة عن إله جديد. فكانوا يهزأون به قائلين "سنسمع البقية غداً" فانصرف من أثينا خزيان آسفًا. ولكن هذا اليهودي الصغير كان حاملاً بيده المستقبل، فإنّه لم يزل حتّى نصب إله العبرانيين القديم وأدونيس فلسطين الحزين^(١) بمكان آلهة يونان المشرقة".

فقلت له:

"أمّا في الدين فلم أر اليونانيين أتوا بشيء يُذكر، فإنّ تصوّراتهم الدينية بعيدة عن الطهر، وإنّ هؤلاء الآلهة نراهم في شهواتهم شرّاً من البشر".

فقال:

"إنّك لم تزد على ذكر ما يكرّره الأغبياء من قديم الزمان تملّقًا وتلدّدًا بالخيال. يريدون أن تكون عقيدتنا خيرًا من الوثنية فيؤمنون بما يشتهون. أفلا ترى أنّ عجز اليهود عن تمثيل الطبيعة المختلفة للناظر بالرموز المختلفة الأنواع هو الذي قادهم إلى هذا التوحيد الذي كان يطريه المسيو رنان. ولعمري، لا أفهم لماذا يجب إطراؤهم إلى هذا الحدّ على كونهم لم يخترعوا إلاّ إلهاً واحدًا. بل أرى اليونانيين أوسع فهمًا للألوهية بتصوّرها في جميع مظاهرها، فقد جعلوا رمزاً

(١) أدونيس (Adonis)، شابّ يوناني كان في أساطير يونان رمزاً للجمال التام. وهو هنا يقصد به السيّد المسيح، صلوات الله عليه وسلامه. وما نظنّ أناتول فرانس عدا ميله إلى الوثنية اليونانية إلاّ محباً للمعارضة والناقصة والآف أيّ مقايسة تجوز بين ما أتى به عيسى، عليه السلام، والمعتمدة التي لا تراها الأبصار ولا تفهمها البصائر "يا صاحبي السجن أرباب متفرّقون خير أم الله الواحد القهار" فإن كان أناتول فرانس يرى تعدّد الآلهة أنّها في الخيال وأحلى في التصوير، فالدين شيء والفنون الجميلة شيء آخر، وما خرجت الأساطير مع حلاوتها عن كونها أساطير.

للريح التي تهبّ ورمزاً للطير التي تغرد ورمزاً للسماء المزينة بالكواكب ورمزاً للجمال، وهلمّ جراً. وكلّ شيء ذهلت له عقولهم تصوّروا له مثلاً حياً^(١).

”وأحسن ما يعجبني منهم أنهم خلّقوا آلهة فاسقين متخبّطين في أعمالهم قاسطين متهورين، أي آلهة مخلوقين على صور البشر. فأظهروا بذلك أنهم على أتو^(٢) شديد. وكانت آلهتهم مقبولة محمولة. حال كون الإله الذي نعبد فطرنا على الشهوات وأوجد فينا كلّ هوىّ ثمّ أمرنا بأن نكون متطهّرين^(٣) ثمّ أنذرنا بأننا إن اقترنا الإثم يكون ماوانا جهنّم أو المطهر^(٤) مع أنه سوى كلّ شيء ليجعلنا صائرين إلى هناك لا محالة“.

”أمّا اليونانيون فلم يخلطوا الفضيلة بالدين ولا أدخلوا الأخلاق في الدين - وهي أشياء اخترعها البشر من تلقاء أنفسهم ليزدادوا راحة في التعايش والتعاشر - وإنّما اخترعوا ”أولنباً“^(٥) يأوى إليه آلهة فائقون للبشر في الجمال والقوّة - وهما من الصفات البشرية - لا فائقون للبشر في الفضائل والآداب وهي من الأمور الاصطلاحية التي تواطأ عليها الناس حال كونها خلاف الطبيعة“.

وقال ”سيغور“:

طالما تردّدت على ”مغنى سعيد“ حيث كان العلماء والأدباء والكتّاب والصحفيون والساسة ورجال الدولة يتردّدون ويقصفون ويأكلون ويشربون، وكانت كلّ يوم أربعا عند فرانس مادبة يدعو إليها نفرّاً من أصحابه ويسمع الناس منه أحاديث وحكايات قلّما يحسن مثلها

(١) علّل بعض علماء أوربة توحيد الساميين بأنه نتيجة وحدة المناظر لأنّ أكثر بلادهم صحارٍ وياضٍ يشبه بعضها بعضاً، وأنّ إشراك اليونانيين وتعدّد الآلهة عندهم السبب فيها اختلاف المناظر التي وقعت عليها أبصارهم من برّ وبحرٍ وجزرٍ وخليجٍ مما لا يحصى عدده، فأوجد فيهم عقيدة تعدّد الأرباب. ويرد على هذا كون تعدّد الآلهة وجد في الشرق وعرفه الساميون وأنّ اختلاف المناظر ثابت لكثير من مساكن الأمم السامية. فالاستدلال بقضية المناظر على التوحيد وعدمه ضعيف. ولكن علماء أوربة مولعون بالتعليل مهما كان، وقد ينتهي الأمر بمنّ يكثرون التعليل إلى أن لا يعلّلوا شيئاً.

(٢) طريقة (الناشر).

(٣) نعم، إذ لولا قابليّة الشهوات لما كان هناك فضل في التطهير ولكانت العقّة أمراً طبيعياً لا يستحقّ صاحبها الثواب. وغير صحيح أنّ الأهواء التي جُبِل عليها الإنسان لا بدّ من أن تهوي به في الإثم، فإنّ الغلبة في هذه المعركة وإن كانت صعبة فليست بمستحيلة. لا سيّما أنّ الشرائع جعلت من الطيّبات الحلال ما فيه مندوحة عن الحرام. وأمّا برهان أناتول فرانس هنا فهو من نمط كلمات العشاق المستهترين، مثل قول القائل:

وتأمرنا بغضّ الطرف عنه كأنك ما خلقت لنا عيوناً
إلهي ليس للعشاق ذنب فإنّك أنت تبلو العاشقين

وهي نكات شعراء لا براهين حكماء. وقد حذفنا كثيراً من الألفاظ التي استعملها في هذا المقام.

(٤) المطهر عند الكاثوليكين هو مكان يمحّص به من لم يستحقّوا الخلود في النار.

(٥) Olympe: سماء آلهة يونان.

أحد، فلبث سامعه مبهوتاً مأخوذاً بسحر كلامه. وكما يقال عن بعض السحرة أنهم يعزمون على الجن فيستحضرونهم، يقال عن أناتول فرانس أنه يستحضر رجال الماضي وينشر النوايع الغابرين وكبريات السيّدات والقديسين المعروفين أو المجهولين وعلماء دور التجدد^(١) في إيطالية ومصوّري الطليان المتميّزين وجميع دهاة القرن السابع عشر وأدبائه المتفوّقين. وكان يعزم أيضاً على يونان البعيدة ورومة القديمة والشرق النائي ويلبس كلاً من الأشخاص الذين ينشرهم ثوباً غريباً وزياً قشيباً ويجعله للناظرين، فكان ينفق من خزانة فكر ملأى من الصور الشعرية بعبارة لا يدنو وصفها لقلم واصف مهما أجاد وأبدع في لطف النسج ودقة الخيط. وكنت تسمع منه ما لم تجد به قريحة أديب من الكلمات الخلابّة والألفاظ الطريفة والمقاييسات القريبة والكنائيات المطابقة مع عمق الغور وسطوع اللون، وهو ينشر فوق هذه البدائع كلّها ديباج دعابته ومزاجه. وكان حبّ المخالفة عزيزاً على قلب فرانس^(٢) فكان ينظر إلى الحقائق من أفق أعلى من الأفق الذي ينظر به سائر الناس ولا يشقّ غباره في هذا المجال. ومرة خاطب أمامي "بول هرفيو"^(٣) في أمر الاشتراكية، فقال:

"لا أمل أن يكون للاشتراكية في زماننا دور طويل لأنّ الاشتراكيين كثيرو العدد حال كون ذوي رؤوس الأموال فئة محدودة، وهذه هي قوتها فإنّها تقدر أن تجتمع وتتفاهم وتحلّ وتبرم بدون أن يعرقل عملها الأعمار الثقلاء. وهي تعمل في السرّ صابرة مفكّرة بدون ضوضاء ولا جراهية^(٤). والقوم الملاء^(٥) ينافحون عن ثروتهم وعن كلّ ما يملكون فتراهم مستبسلين في المعركة، يرصّون صفوفهم ويصرّون بأسنانهم حال كون الشعب الصعلوك لا يخسر إلا ما ليس في يده فيعوزه النظام ويقا تل بمهجه عن أحلام وأمانى ومقال جرائد وآمال مستقبلية لا عن أوراق بنوك. ولا عن حجج تملّك ولا عن مساكن ولا عن حلي ولا عن حظايا حسان ولا عن سيّارات كهربائية... فحرارته تسرع إلى الفتور ومجرّد الجلبة لا ينفعه.

وجرى مرّة ذكر "دافنيس" و"شلوي"^(٦)، فقال:

"هو ذا لصّ أدب مقبول فقد نسب تأليفه إليه بسبب نسخه إياه فيما يظهر، والحقيقة أنّ

(١) La Renaissance: وقد جرى ذكر هذا الدور.

(٢) هذا الذي يتجلّى من أكثر كلام هذا الرجل وهو مخالفة ما عليه الجمهور والاستدلال بالحقّ وبالباطل والاستعانة بالأساليب الخطابية، على كون ما اعتمده الناس إلى اليوم على أنه هو الواقع أو الواجب لم يكن كذلك، فكان غرامه إنّما هو في حلّ الأوضاع ونقض القواعد.

(٣) بول هرفيو (Paul Hervieu)، قاصّ مجيد ومؤلف روائي قويّ المعارضة جليّ البيان له عدّة تاليف ممتعة، (١٨٥٧ - ١٩١٥).

(٤) جلبة (الناشر).

(٥) الملىء: الغنى القنندر، وجمعه ملاء ككرام وملئاء ككشرفاء وملئاء كانبصاء وقد اخترتها بمقابلة لفظة Bourgeois الفرنسية أو Buirger الألمانية.

(٦) Daphnis et Chloé: قصّة رعائية لكاتب يوناني اسمه "لونفوس" (Longus)، من رجال القرن الرابع ق. م، أفرغها في قالب ساذج عذب لكأنّه لم يتجنّب فيها المجون الصريح المقشّر.

كتابه يجب أن يكون غُفلاً. لأنَّ "لونغوس" شنَّ الغارة على جميع شعراء يونان الذين انقطعت أخبارهم وجمع من كلامهم هذا الكتاب فجاء سلسلة سرقات وفيسفساء اختلاسات من هنا ومن هناك. فلنهنَّته على ما فعل إذ كم كانت تفقد لطائف وتنطوي لذات لولا هذا اللص".

ثمَّ التفت إلى "هرثيو"، فقال له:

"أليس كذلك يا هرثيو؟ أفليست قضية السرقات التي جاءنا بها القرن التاسع عشر من المحالات؟ فقد كانت المواضيع في الماضي ملكاً مباحاً للجميع يأخذ كلٌّ منها ما يشتهي. نعم، كانت السرقة معروفة لكن كان يقال سارق لمن يسرق ولا يحسن السرقة^(١) أو لمن يسرق تحويل الصورة. ولهذا أقول إنَّ "كورنايل"^(٢) لم يكن سارقاً في أخذه أفكار "غويلهم دو كاسترو"^(٣) وابتكاراته وإعطائها رونقاً وجزالة لم تكونا لها. كذلك "موليير" الذي أحبه أنا أكثر من كورنايل لم يزد على أن مسخ كتاب "البورلادور" تأليف "تيرسو دو مولينا"^(٤) وجرّد منه شخصاً سُخَّرَ.

"والحقّ أننا بأجمعنا سُراق إذا أردنا أن نأتي بشيء مستجد. فإننا لا نقدر أن نبرز فكرة جلييلة لامعة ولا أن نعبر عن حالة راهنة بدون أن نسرق من أحد على علم أو بدون علم. وإنما الفرق هو في صنعة الاستراق. فلا شكّ أنّ "ساردو"^(٥) يقال له "سارق" وأنَّ "شكسيير" لا يسمّى

(١) العرب من قبل أناتول فرانس قالوا: من استرق شيئاً وقد استرقه فقد استحقّه.

(٢) سيأتي ذكره.

(٣) غويلهم دو كاسترو (Castro)، كاتب تمثيلي إسبانيولي من بلنسية - بلد الحافظ ابن الأبار القضاعي البلنسي، الفقيه الأديب الشهير. كتب كتاباً اسمه "شباب السيّد" ولا يخفى أنّ السيّد هو لفظة عربية أُطلقت على الذريق دياز بن دياغو بن لاين نوناز بن لاين كالفو. من رؤساء مملكة قشتالة ومن أعظم أبطال الإسبانول الذين قاتلوا المسلمين أشدّ قتال وأفحشوا فيهم التكايات لا سيّما مع ما اشتهر من تخاذلهم وقيام بعضهم على بعض. وكانت بلنسية من المدن التي افتتحها السيّد فقد حصرها عشرين شهراً ولمّا لم يبقَ فيها مئة على الدفاع عوّل أهلها على الصلح ودخلها السيّد صلحاً وكان واليها القاضي أبو أحمد بن حجاف، وقيل لا بل كان واليها القاضي أحمد بن جعفر المعافري. وقد استعهد من السيّد أن لا يضرب بالبلد، والسيّد أخذ بذلك العهد على نفسه فلم تكذ خيله تطأ البلد حتّى أحرقتها وعات فيها وآخذ حجة لذلك كونه طلب من القاضي أن يدلّه على ذخيرة كانت للقادر بن ذي النون فماطله في تسليمها أو الدلالة عليها. وأحرق السيّد كثيراً من أهل بلنسية، منهم أبو جعفر بن البناء، الشاعر المشهور، وأحرق القاضي نفسه الذي تجنّى عليه بأنه لم يدفع إليه تلك الذخيرة. وارتكب السيّد فظائع كثيرة في بلنسية وغيرها. ومع هذا اتّخذ الإسبانول علماً للبطولة والفروسية وعلو النفس، وألّف "كاسترو" هذا المتوفى سنة ١٦٣١. كتاباً ترجم فيه مناقب السيّد وأخذ عنه "كورنايل" في روايته الموسومة بالسيّد. وأكثر ما نحلوه إياه من الفضائل كذب وبهتان. ولقب السيّد عند العرب القنطور تحريف الكميديور. وكان حرقه لبلنسية سنة ٤٨٨ هجرية.

(٤) تيرسو دو مولينا (Tirso de Molina)، عالم إسبانيولي مؤلّف روايات تشخيصية، ولد في مجريط أو مادريد سنة ١٥٨٥ وصار قسيساً سنة ١٦٢٠ وله تآليف كثيرة روائية لم يتحاشَ فيها المجون ولكنّه أبدى فيها براعة تامّة ومن جملة كتيبه المشهورة "بورلادور إشبيلة" الذي يشير أناتول فرانس إلى أنّ موليير حوّله عن أصل ما وُضع له. ومات تيرسو دو مولينا سنة ١٦٤٨.

(٥) ساردو (Sardou)، مؤلّف روائي فرنسي مولود في باريز سنة ١٨٣١ وكانت وفاته سنة ١٩٠٨ وله روايات مضحكة ومأس كلّها مستحسن.

سارقاً مع أنه أسرق من ساردو بكثير. وهذا بالنظر إلى فقد ساردو المهارة فيما يستعيره. أمّا شكسبير فكان يغير على كلّ الناس ولكن بحذق ولباقة“.



وروى ”سيغور“ أنّ سيّدة من جنوب أميركا من أجذب الحسان ملامح وأملكهنّ للقلوب دخلت على فرانس وهو في مكتبته في ”مغنى سعيد“ وكان الفصل ربيعاً والوقت ضاحكاً، فقام فرانس وتناول يدها وقبلها بحرمة زائدة ولكن بإمعان زائد أيضاً. وكانت تدّعي الأدب وأناتول فرانس يتظاهر بأنه يقدر قدر فصاحتها، والصحيح أنه لم يكن يهتمّ منها سوى حلاوة عينيها. وكانت ترتضخ في الفرنسية لهجة أميركية فيها جفاء الأميركيين القدماء. فأخبرتنا ذلك النهار بأنّ شاباً صحّ له أن ينفرد بها وأنه عند ذلك خلا من التوقير اللازم تجاهها وأتى بحركات تدلّ على أنه من ذوي الإقدام...

فهتف بها فرانس قائلاً:

- آه يا سيّدي، لماذا لا تتركين لنساء العالم القديم هذه الأوهام؟ فأيّ توقير وحرمة للجمال أعظم من اشتهاه؟ اسمحي لي أن أروي لك ما كانت تقوله سيّدة إسبانية كانت منذ مائتي سنة وقد فهمت أكثر منّا قضايا الحبّ. فقالت لإحدى صواحباتها مرّة إنّها لو وجدت وحدها مع رجل بدون ثالث بينهما ولم تجد هذا الرجل تهالك عليها طامعاً فيها لعدت ذلك منه غضاضةً من قدرها وطعته بخنجر. ولسوء الحظّ كانت مربّيها دائماً معها لا تفارقها فلم تلح فرصة لأحد أن يبدي لها الحرمة الوحيدة التي كانت تراها لائقةً بجمالها. فأنت يا سيّدي لماذا أنت حريصة كلّ هذا الحرص على الحرمة والتوقير؟ رويدك، فإنّ هذا الوقار الذي تشدينه سيأتيك بعد مائة سنة - لأنّ جمالاً كجمالك سيعمرّ على الأقلّ مائة سنة^(١) - فإذا مضى على جمالك هذا العدد من السنين انثال عليك التوقير من كلّ جهة وذقت حينئذٍ مرارة هاتيك الحرمة... أمّا الآن فدعي الناس يشتهونك، فإن وجدت الشبان مفتونين بك فارأفي بهم وبعنونهم. أفظنت أنّ الطبيعة أعطتك هذه اللواظ الدعج وهذه الجبهة الوضّاءة وهذا الثغر الذي يلتقط القبل وهي طائفة لأجل مجرد الحرمة والحشمة؟

فنظرت إليه الأميركية حيرى، وقالت:

- أفلو كنت متزوّجاً كنت ترضى أن تكون امرأتك محلاً للحرمة بهذا الشكل؟

(١) من هنا تعرف أنّ الأستاذ يمزح.

فقال لها:

- أكون أشدّ غيرةً من الإمبراطور بطرس الأكبر؟

والثفت نحوي وقال: أفلا ترى أنه لا يمكن المرء إمبراطورياً أكثر من الإمبراطور ولا أغير على الحرّيم من قيصر الروسيّات كلّها؟ أفتعلم ماذا فعل بطرس الأكبر في حادثة تشبه هذه؟ سأقصّ عليك. كان عند بطرس الأكبر في حاشيته مُجلّوز^(١) بريتوني يقال له "فيلروا" فكان مرّة معه في لهو وقصف وأراد أن يرسل إلى زوجته الإمبراطورة كاترينة خبراً مهماً مستعجلاً فاختار للرسالة هذا البريتوني، وكان فيلروا قد كرع مقداراً من العرقي فامتطى جواده وقصد القصر الإمبراطوري وأخبر على الباب أن معه كتاباً محرماً من الإمبراطور إلى الإمبراطورة، فاضطروا أن يوصلوه إلى الإمبراطورة، وصادف أنها كانت مضطجعة على سريرها فلما دخل فيلروا وكان العرقي قد دار في دماغه وشعر بحرارة الموقد وشمّ الطيب الذي يفوح عادةً في غرف السيّدات ووقع نظره على ذلك الجسم المنيف الناعم، وكانت كاترين كما هو معلوم ربّياً الخلق شطبة^(٢)، فنسي فيلروا المهمة التي جاء بها ونسي الدنيا بأصبارها ووقع كأنما غاب عن الرشد. ولما بلغ الإمبراطور ما أصاب فيلروا، قال: لا عجب أن يجنّ الإنسان وقد رأى كاترين، فلو كنت محلّ فيلروا لأصابني ما أصابه، وقد أمر بوضع فيلروا في الحبس محافظة على الظاهر وما مضت بضعة أشهر حتّى أطلق سراحه^(٣).

"فكوني يا سيّدي إنسانةً ولا تخشي الإهانة إلّا من الأيام". انتهى بتصرّف

وذكر "سيغور" كثرة من كانوا ينتابون "مغنى سعيد" فقال إنّه كان لأناتول فرانس غاشية لا يكادون يفارقونه. ثمّ يأتيه من غير هؤلاء عدد من السيّدات العقائل الرصينات ومن الغواني النواعم، ثمّ كثير من الصحفيين القدماء والشبان الأدباء والمرشّحين للأكادمي والقصاص والقاصّات والشعراء والشواعر والجراحين المشهورين والفلاسفة النفسيين وأصحاب المطابع وصدور الرسّامين وفرسان النقاشة وترى شاباً متخصصاً في علم الميكروب وآخر من الإخصائيين في الآثار الأثرورية.

وعدا هؤلاء كان يأتي الفينة بعد الفينة^(٤) من المشهورين أضراب "جوريس"^(٥) و"طومسون"^(٥)

(١) المجلّوز: الذي يخفّ بين يدي الأمير.

(٢) الشطبة، بالفتح فسكون: الطويلة الحسنة.

(٣) لقبه الفينة بعد الفينة أي مرّة كل مدة.

(٤) زعيم الاشتراكيين الفرنسيين له ترجمة في محلّ آخر.

(٥) عالم إنكليزي.

و«كليمنسو»^(١) و«بريان»^(٢) و«لوتي»^(٣) و«سولي برودوم»^(٤) و«لودفيك هاليفي»^(٥) و«ميشل بريال»^(٦) وكان لودفيك هاليفي شيخاً رقيق الحاشية خافض الصوت يحدثنا بحكايات مطربة عن أيامه الماضية وكذلك اللغوي «بريال» كان شيخاً أقوس كبر حتى كأنه قُفّة ولم يبق فيه شيء، حديد سوى بصره فكان يخبرنا عما كشفه من تاريخ القصاصد الهوميرية.

فحدّث ولا حرج عمّا دار في ذلك المغنى من الأحاديث المستعذبة والأقاول المستملحة والمحاضرات العالية إذ كان مجمّعا يندوه سلاطين الأذكياء وفرسان الكلام ممّن امتاز بالظرف الباريزي الأخلص أو بالظرف على الإطلاق. ولا أظنّ مجلساً آخر يعوّض من هذا المجلس الذي كان أبهى مشرق لشعاع الذكاء فيما عرفنا.

وكان مؤلّف «تاييس» يتكلّم بدون انقطاع ويلدّه أن يتحدث بما يعنّ له من الخواطر بدون انتباه إلى السامعين. وكان يجول في ميدان السياسة والفنّ والأدب والتاريخ ويأتي فيها بالمخالفات التي لا تجيء في بال أحد ويحشو محاضراته بالنكات والنوادر.

وإنّي لأتذكّر عشاءً كان فيه كليمنسو وقد جرى فرانس في حسن المحاضرة وروى لنا قصصاً

(١) كليمنسو (Clemenceau)، من أشهر رجال السياسة وأقوام عارضة وأسرعهم بديهة وأحماهم أنفاً وأصلبهم عوداً، ترأس مئة مدينة حزب الراديكال في المجلس ودخل في الوزارة رئيساً لها وثاني مرة كانت رئاسته سنة ١٩١٧ أثناء الحرب الكبرى. وتمّ انتصار الحلفاء في أيامه فكتّوه في فرنسا بأبي النصر. وهو الذي مثل فرنسا في مؤتمر الصلح. ولكن رشّح نفسه لرئاسة الجمهورية بعد انتهاء مئة بوانكاره فمال أكثر رجال البرلمان والسنات إلى المسيو دشانل للين عربكته وملاءمته لرئاسة الجمهورية أكثر من كليمنسو الذي كانوا يرون صلاحته التي أفادت في الحرب قد تضرتّ في السلم. وكان كليمنسو في أول مرة ووسطه مفرطاً في السياسة اللادينية وعدواً لحزب المحافظين إلا أنّ سيرته أثناء الحرب استمالت إليه هذا الحزب فرضوا عنه. وكانت ولادة كليمنسو في مقاطعة «فاندي» وقد بلغ اليوم من العمر السادسة والثمانين.

(٢) من أشهر وزراء فرنسا وأذكي أذكيائها وأفصح خطبائها وأعقل سواسها وأكثرهم حنكة تولّى رئاسة الوزارة ستّ مرّات. وسنة ١٩٢٢ أراد أن يتفق مع لويد جورج على طريقة لتأمين فرنسا من هجوم الألمان في المستقبل، فرأى الفرنسيين يومئذٍ وجه الاتفاق الذي قرّره بريان غير واف بالمراد ونحوه من الوزارة وجاءوا ببوانكاره. وبعد ثلاث سنوات من ذلك التاريخ عادوا يلتمسون على يد بريان ما كانوا رفضوه من قبل. وهو اليوم يعالج هذه القضية مع إنكلترة بما فيها من المشكلات التي لا تتحلّ من جهة إلاّ تعقّدت من أخرى. عرفت بريان في جنيف في العام الماضي.

(٣) لوتي (Pierre Loti)، اسمه الأصلي جوليان فيو، و«بيار لوتي» اسمه التأليفي. كان ضابطاً في البحرية، ولد سنة ١٨٥٠ وهو من أكتب كتاب الفرنسيين وأرقهم شعوراً وأبدعهم تصويراً وأبعدهم مدى فصاحة لا سيّما في الأشجان وشفف الحبّ وذكرى العهد وكان في أسلوبه هذا لا يباريه أحد. وصادف أن البارحة التي كان فيها رست مئة في الأستانة فتعرّف إلى الأثراك ومال قلبه إليهم وأحبهم حباً جمّاً بقي عليه إلى أن توفّي وذلك منذ ستين. وحمله هذا الحبّ على النضال عن الأثراك في جميع معاركهم السياسة وله في ذلك كتابات لا يليها الجديان. وكان يميل إلى الشرق وإلى السلام أجمع. ونقلت جريدة الطان عنه أنه في أوان احتضاره سئل: أيّ الشعوب أحبّ إليه. فقال: العرب، لأنهم من آلاف السنين لم يتغيروا.

(٤) سولي برودوم (Sully Prudhomme)، شاعر إفرنسي كبير، ولد سنة ١٨٣٩ ومات سنة ١٩٠٧، وكان القول مدلولاً له في وصف خوالج النفس وعواطف القلب وتضمّن شعره كثيراً من الفلسفة.

(٥) لودفيك هاليفي (Ludvic Halévy)، أديب إفرنسي مؤلّف قصص وروايات هزلية عذبة، كان عضواً في الأكاديمية، (١٨٣٤ - ١٩٠٨).

(٦) ميشل بريال (Michel Bréal)، عالم لغوي إفرنسي له تحقيقات جلييلة في أصول اللغات وفي علم الأساطير اليونانية، (١٨٣٢ - ١٩١٥).

سياسية وحكايات صحفية في غاية الحلاوة وحدثت عن "كارلسباد"^(١) والخلائق التي تختلف إليها. وأتذكر عشاء آخر على أثر تغلب اليابان على الروس أشار فيه فرانس إلى الخطر الأصفر. وقال إنَّ الصين هي في دور انتقال وما دام الصينيون يحكّون أنوفهم عند السلام ويلبسون الأبيض للحداد ويؤدون إلى الطبيب الأجرة عن السنين التي لا يكونون فيها مرضى، ويأكلون أعشاش الطيور من دون الطيور ويعملون كلّ الأمور بالعكس فنحن في أمان ولكن متى ارتفع استعمال الحصير من الصين فقد دنا أجل أوروبا".

فأهابت به السيّدة العقيلة وكانت تكره ذكر الأخطار البعيدة والقريبة، وقالت له: إنك تخلق أشباحاً من العدم. أفلا ترى كيف أن شرذمة من الأوربيين على أثر خطبة حماسية ألقاها غيلوم^(٢) دخلوا بكين برغم الملايين والملايين... إلخ. فقال لها:

- إن أحسن الأشياء لا بدّ أن تنتهي إلى أجل يا سيّدي. وإنّ مدينتنا قد بهرت عقول الصفر فتراهم يتحرّقون حتّى يصيروا مثلنا، فإذا صاروا مثلنا تذكروا "جنكيز خان"^(٣) و"تمرلنك"^(٤).

(١) Carlsbad: بلدة لطيفة يقصدها الناس من أطراف الأرض للاستحمام، كانت من مملكة لنمسا وهي اليوم تابعة تشيكو سلوفاكيا.
(٢) غيلوم (Guillaume II)، إمبراطور الألمان وملك بروسيا ابن فريدريك الثالث ابن غيلوم الأول والألمان يقولون له ويلهلم. وكانت والدة ويلهلم الثاني ابنة فيكتوريا، ملكة الإنكليز. وولد سنة ١٨٥٩ وتولّى الملك سنة ١٨٨٨ ونزل عن العرش في أواخر الحرب سنة ١٩١٨ على أثر ثورة الاشتراكيين والشيوعيين في برلين، ولاعتقاد رجال الحكومة الألمانية وقتئذٍ أنهم بإقصائه عن الملك يخفّفون من حدة الخلفاء الغالبين ويهوتون شروط الصلح. فخاب أملهم هذا فيما خاب به الأمل من برنامج ويلسون وعصبة الأمم وغيرها. وأمّا الإمبراطور فأقام بهولاندة وبدا للخلفاء مرة أن يأخذوه من هولانده ويحاكموه فعرفوا أنّ الحكومة الهولاندية تأبى تسليمه بعد أن التجأ إليها فلهدأ وغيره تركوا هذه الفكرة.

(٣) مؤسس السلطنة المغولية الأولى، ولد سنة ١١٥٤ ومات سنة ١٢٢٧ وقيل ولد سنة ١١٥٥ وقيل سنة ١١٦٢، وكان من أمراء التتر أي المغول وكان أبوه قائداً هماماً وعند موته كان جنكيز في الثالثة عشرة من عمره ولكن منذ الصغر لاحت عليه مخايل الذكاء والبأس وصار قائداً من قواد ملك ملوك الصين ثمّ انتقض على مولاه وزحف بخيل كالجراد المنتشر فاستولى على بكين عاصمة الصين سنة ١٢١٢ وبعد أن استوسق له الأمر غزا آسيا الوسطى فدوخها كلّها إلى حدود سلطنة خوارزم، ثمّ قصدت جيوشه محموداً، سلطان هذه المملكة، واستولت على بلاده وطاردته إلى المازرندان والعراق العجمي، ثمّ دخلت القوقاس وفرّ من وجهها كلّ من هناك من الأهالي الجركس والقبجاق وانهزم أمراء الروس في واقعة دنبير سنة ١٢٢٣ ومات محمود، سلطان خوارزم، شريداً في جزيرة ببحر الخزر وخلفه ابنه جلال الدين وأتخن في المغول مراراً لأنه كان بطلاً مغواراً إلا أنه اضطرّ أخيراً أن يفرّ إلى البنجاب والهند. واستولى جنكيز على قسم كبير من مملكة الصين ومات في حصار عاصمة "هيا" وكان قسم المملكة بين أولاده الأربعة "تشتوشي" و"جغطاي" و"أوقوطاي" و"تولوي" وأوصاهم أن يكملوا فتح العالم. أمّا الخلقوات التي أبادها في غزواته والأمصار التي دمرها والعمران الذي نقضه فعمّا لم يرّه الرءاؤون ولا رواه الراوون. وكانت عساكره تتأصل العاصي والطائع بدون استثناء. وهو الذي أختنى على أكثر مدنيّة الشرق ولا يحمد من أمره إلا إعطاؤه الحرّية للأديان وتنظيمه شرطة شديدة الضبط في داخل سلطنته.

(٤) ويقال له تيمور من النمط عينه وهو سلالة جنكيز من جهة النساء، ولد سنة ١٣٣٥ ومات سنة ١٤٠٥، دخل أولاً في خدمة سلطان كاشغر ثمّ فتح بلاد ما وراء النهر بعد حروب أثبت فيها إقدامه وحزمه وأصيب في إحدى الوقائع برجله فأصبح أعرج، وسنة ١٣٧٠ بويع بالسلطنة في محفل من أمراء التتر ووضع هو التاج على رأسه بيده وجعل عاصمته سمرقند ثمّ استولى على خراسان سنة ١٣٨٠ ثمّ أغار =

فقال له السيِّدة:

- أتخاف المدينة إلى هذا الحدّ؟.

فقال لها:

- لا أخافها وإنما أقول إنّها الصاحبة الأمانة للحرب. ولا يوجد أم غير محاربة إلاّ الأمم الساكنة الغافلة، فإذا بدأت الأمة تهتف بالتقدّم لم تلبث أن تتناول السلاح. فالحضارة والحرب شيان متلازمان.



وكنا عنده مرّة وقد حضر الاجتماع كثير من السيّدات فأخذ يتدقّق كالبحر، ومن جملة ما قال: «إنّ سرّ الكون هو الحبّ. فهو أساس الفنون والآداب ولأجله وجدت الحرب ونيل المجد وهو الذي زين هذا العالم. فإنّ الطبيعة في ذاتها لا حسنة ولا قبيحة، بل هي كما هي. وإنما حواس البشر هي التي تخلع عليها الحسن والقبح. فنحن ننظر إلى الأشياء بحسب حالتنا النفسية، فأحياناً نشاهد أنواراً مشرقة وأحياناً ظلالاً مظلمة على لوح الطبيعة وهو باقٍ على جموده وعدم شعوره. فمتى احتاج بنا الشوق أو متى كنا في عنفوان الشباب وأخذ هذا السيل المغناطيسي يصدر عن المرأة فتتغش له قلوبنا، ظهر الكون لأعيننا لامعاً جذاباً غريصاً محبوباً جديراً بأن نرغب فيه، بل أن نتعشّقه».

قال هذا ثمّ التفت إلى الزائرة الحسناء، وقال:

«ولمّا كانت المرأة هي التي بيدها زمام التصرف بالقلوب فالمرء هو طوع يدها لا يملك معها مجيئاً ولا ذهاباً. فالرجال هم بطبيعتهم عبيد النساء. فأنا مثلاً أراني منبوذاً بالعراء مهملاً مُقَمَّحاً مُنظَّراً وأنت لا تبالين بي يا سيّدي».

= على فارس واستولى على أصبهان وشيراز وتبريز وقارص وتفليس، وقهر القبجاق وبلغ جبال الألتاي في الشمال واجتاز الأورال وطارد «طوقتاميش»، سلطان القبجاق وعاد إلى سمرقند. ثمّ انتقضت عليه فارس ففتحها ثانية ودخل القوقاس وسار بأربعمائة ألف مقاتل في أثر طوقتاميش فغلبه وأمعن في الغزو إلى موسكو وأرسل حفيده محموداً لغزو بولونية ودوخ جنوب روسيا وخرّب استرخان وبحجة إظهار الإسلام - لأنّ جنكيز كان مسلماً شيعياً - غزا الهند وبعد أن افتتح جانباً منها عاد إلى فارس والأناضول واستصرخه ملك القسطنطينية على دمشق وبعليك وألهمه الله الإبقاء على حلب وسنة ١٤٠٤ عاد إلى سمرقند ونهياً لفتح الصين ففاجأته المنية وخلفه الله شاه رخ. فانت ترى أنه لم يقصر في الفتح والغزو والقتل والتدمير عن جدّه جنكيز، بل ربّما زاد عليه.

فهتفت السيدة الزائرة وقد اعترأها الدهش:

- ماذا تقول؟ أنت تعلم عظيم حرمتي لك وأنني نذرت لك محبتي كلها.

فأخذ الأستاذ يدها ورفعها بكل وقار وقبلها طويلاً، وقال لها:

”محبتك كلها؟ إنَّ محبة المرأة كلها هي بالنسبة إلى المرأة نظير ما يعطي روتشيلد قطعتين من البطاطا“.

ثم عاد فرانس، فقال لي:

”كلاً، يا سيدي ليست الغلطة^(١) هي سرّ الكون. وما سرّ الكون إلاّ الألم. فالألم هو مدار هذه الحياة الدنيا ونحن نصنع منه كلّ يوم بدون انقطاع فلماذا هو بلاؤنا وجحيمنا ولكنه علاؤنا ونهوضنا. فإذا كان الإنسان يجيد فلا يجيد إلاّ بالتعب والبكاء. فلو وُجد سعيداً لم يصنع شيئاً. فلو وُجد موفّقاً لما تقدّم إلى الأمام. وكلّ مخلوق في الدنيا لا بدّ له من قاعدة يدوس عليها ليرتفع. وهذه القاعدة هي الألم. فالديانة المسيحية التي وجدت هذه العبارة الساحرة ”طوبى للحناء“ قد استولت بها على جميع البائسين، أي على العالم. أمّا الغلطة فهي مِيارَة^(٢) عظيمة للألم. وليس ذلك بقليل“.

ومّا قاله لنا في مجلس آخر:

”الجمال هو من جملة الاشراك العديدة التي تنصبها لنا الطبيعة لتحملنا على طاعتها. وهو السبب الأعظم الذي يتألأ به لعلع الحبّ. فلا يجب أن نحدّره إذ لو احترزنا منه فيماذا نثق يا ترى؟ فالواجب هو أن نلقي بمقاليدنا إلى الجمال ونلتمس عنده ديناً وطريقة ومنهجاً للسعادة. فهناك هي النجاة إذ هناك هو السلوان. لا جرم أنه ليس بسهل خروج المرء من نفسه. ولكن إن كان من أمل في الوصول إلى هذا الأمر فلن يكون إلاّ بالجمال الذي بالنظر إليه ننسى الحياة وما فيها. فالجمال هو الأفيون الأعلى وهو ينبوع الفنون والآداب ومصدر كلّ ما أنشأه الإنسان من عظيم وبديع وما يحقّ له أن يفخر به. فالجمال إذاً هو ثمن العالم. إنّ الذي أوجد خيال الحياة وألقى بنا هنا قد جعل لنا الجمال إقطاعاً ومكناً من أن نحلم ونعشق ونهيم، وبهذا عاضنا ممّا عنتنا^(٣). وإن أمكن كشف غاية الوجود في يوم من الدهر فلا تكون إلاّ غاية عائدة إلى الحسن والتناسب“.

(١) الغلطة: أن يغلب المرء شهوة وهي تقابل volupté.

(٢) جالبة الميرة أي الطعام (الناشر).

(٣) أي ممّا لقينا من الشدة والمشقة (الناشر).

وكنّا مرّةً عنده على غداء في منزله بشارع "هوش" فبعد إنّ طعم الأضياف أحاطوا به إحاطة الهالة بالقمر وشرعوا يستنبطون غوره والحديث شجون فسألوه: لماذا الكنيسة ترتاح إلى التّقشّف وقهر النفس؟

فقال:

"إنّ الكنيسة في الحقيقة قد أدّخت خزائن العفو للخاطئات كمريم المجدلية وتاييس... إلخ، وليس ذلك بداعٍ إلى العجب. فالكنيسة لا تكره عمل البدن وإنّما تكره التلذذ به. ومن الثابت أنّ كثيراً من الغواني لا يتعاطين البغاء لمجرد اللذّة، بل لضرورة المعيشة وللفرار من الانتحار. وقتل النفس أعظم من الفسق. ثمّ إنّ البغيّ تمارس فضيلة التواضع وناهيك بها من فضيلة. وتتصدّق بكلّ ما تملكه ولا تبخل بشيء، وهل من إحسان فوق ما تحسن به؟ وهي توقع الآخرين في الإثم فتجعل لهم سبيلاً إلى الندم. فالكنيسة لا ترى في مثل هذه عدواً"^(١).

ثمّ قال أحد الحاضرين:

- لماذا تكره الكنيسة اللذات؟.

فأجاب الأستاذ:

"لأسباب عديدة. فإنّ الديانة لا محلّ لها لولا العذاب والشقاء، وإنّ أكثر جيش المتديّنين مؤلّف من البائسين الذين ألحّت بهم الآلام وأطرحتهم الأرض وجفتهم المسرّات. وهذا عدا كون عقيدة الصليب ظهرت في زمان كانت أنواع الآلام برّحت فيه بالعالم قبيل سقوط السلطنة الرومانية. فكان أشدّ الناس رغبةً فيها العبيد والفقراء الذين فاتتهم الدنيا فانتظروا الآخرة. ثمّ إنّ جميع آلات الكنيسة تدور على محور الخطيئة. فهي حجر الزاوية في الدين. وسواء كان الدين المسيحي أو غيره من الأديان، فقوام الجميع التطهّر والتوبة. فيجب أن يكون للإنسان خطايا حتّى يتطهّر منها ويغفر له فعند ذلك يذهب مضطراً إلى الكنيسة ويحتاج إلى رجالها ويصلّي ويؤمن. من جرّاء هذا أعلنت الكنيسة أنّ كلّ ما يستهوي قلب الإنسان يستغويه. وكانت الديانات الأخرى قبل النصرانية قد فهمت هذه الضرورة وصاحبي "سلمون ريناخ"، الذي هو بمكان من الألمعية، لا بل من النكر والمكر، قد قرّر أنّ الديانة الأولى^(٢) كانت مبنيةً كلّها على بعض نواهٍ وتحريمات. فالوصايا العشر كلّها: لا تفعل هذا ولا تصنع هذا... إلخ.

(١) وهنا منزع من منازعه المعروفة في مناقضة ما عليه الرأي العام.

(٢) يشير إلى شريعة موسى، عليه السلام، وأمّا صاحبه ريناخ فيهودي.

فلا يخالط الإنسان قلب الكنيسة إلا متى لم ينته بنواهيها. فيجب أن يكون المرء خاطئاً قبل أن يكون مسيحياً وإلا كان قديساً. وإذا كان قديساً لم تهمة الكنيسة. فالكنيسة لا تعيش بالقدسين وإنما تعيش بجيش الخطاة العديدين. وإن الشيطان الرجيم هو المجد الأكبر بين يدي الكنيسة^(١).



وتكلم مرة أخرى أيضاً عن الأديان، فذكر المذهب اليزيدي الذي فيه عبادة الشيطان، فقال: - أخذت تفاصيل هذه العقيدة عن سائح إنكليزي كان ينقب عن الآثار في بابل القديمة^(٢) فقال إن أهلها أهدأ وأودع أقوام آسية وإن أطوارهم ملكية ولو كانوا يعبدون الشيطان. وقد سأل الإنكليزي الكاهن الأكبر للمذهب الشيطاني: لماذا يعبدون الشيطان من دون الرحمن؟

فقال الكاهن، والله درّه: لأن الله رحمن رحيم كريم فلا يصدر عنه الشرّ. ويكون صدور الشرّ عنه مخالفاً لجوهر طبيعته، بل هو موجود للكرم والرحمة والعفو. فلا حاجة بنا إلى أن نصلي له، إذ لا نخاف ضرره. بخلاف الآخر، فإنه خناس متترّع^(٣) إلى الشرّ سيء النية فلا يصطلىح إلا بكثرة الخضوع والبكاء والرجاء.

ولهذا تجد هؤلاء القوم المستبصرين يضحون له بالقرابين ولا يلفظون اسمه. وسها السائح الإنكليزي مرة أمام الكاهن فلعن الشيطان في حدة اعترته، فما أتم كلمته حتى وقع الكاهن مغشياً عليه وخيف أن يصعق. وإن هذه العادة بعدم ذكر أسماء المعبودات، هي قديمة جداً عند جميع الأمم، مما يؤكد لنا أن أصل الديانات هو الخوف. انتهى

قال سيغور:

وذهبنا مرة إلى قصر فرساي وكان الأستاذ ومعه السيّد العقيلة، فصرنا نطوف بالأبهاء والمقاصر ونتأمل ونتذكر فالتفت فرانس وقال: «إن سيغور يريد أن يهدم الخرافات القديمة بشرط أن لا تمس الخيال الشعري فإنه شاعر قبل كل شيء. وأيضاً هو يحب الحقيقة والحسن. أما أنا

(١) قرأت في قاموس الإنسيكلوبيدي لغريغوار (L. Grégoire) الذي أتممه موريس فال (Maurice Vahl) ما يفيد أن أتباع هذا المذهب منهم في كردستان التركي وكردستان الفارسي وأرمينية الروسية، وأن منهم في الصين وفي جزيرة العرب وأن مجموعهم خمسون ألفاً.
(٢) متترّع (الناشر).

فبدون ترددٍ أوثر الأساطير على التاريخ. لأنَّ الأساطير ليست أعرق في الوهم من التواريخ^(١) ولأنَّ الأساطير مرتبة محررة بشكل يعجب السامع أكثر من تاريخ الوقائع^(٢).



ثمَّ ورد ذكر لويس الرابع عشر، فقال فرانس:

«ماذا كان في الحقيقة ذلك الملك العظيم؟ لا أتعمد الغضب منه ولا أذكر إلغاءه أمر نانت^(٣) إذ لست مرثياً وأعلم أنه تابع في ذلك وقته. وإنما أقول عن هذا الملك العظيم إنَّه هو إلا رجل صغير شديد الهوى فخور الطبع، ليس فيه من مزية سوى كونه قد فهم قوّة التقاليد، فأظهر الجلال ليحمل الناس على الإجلال.

ولكي تقدس الرعية أمر الملك بدأ هو نفسه بالتقديس. وإذا تروى المفكر في أمره رآه قديم العهد نائي العصر جدًّا، كأنما هو معاصر لشارلمان من وجوه عديدة^(٤).

وبينما نحن نطوف وصلنا أمام الأعمدة القورنتية التي أمام قصر «تريانون»^(٥) الصغير، فقال مؤلف «تاييس»:

«إنَّ ما عمله «ميرابو»^(٦) و«روبيبير»^(٧) بتقاليد المملكة لا يُحسب شيئاً في جانب ما خرّبه هذا الفلاح الصغير «روسو»^(٨) من أبنية الأدب. فإنَّ غارة الكتابة القصصية كانت أشدَّ وأهول من كلِّ صرخات الثوار، لا بل النظام الاجتماعي بعد الانقلاب بقي كما هو تقريباً، أمّا نظام الأدب اللغوي فقد انحلت أوضاعه.

فإنَّ روسو بسط أماننا عيوبه ونقائصه الشخصية وطفق يحدّثنا بنفسه عن نفسه. وهذا الجفاء البري الذي أخذه روسو من منبته القروي والذي يفرّ منه راسين مذعوراً ويقنّع منه وجهه كورنايل حياءً، صار هو الطريقة المتبعة في كلِّ أوربة. ذهبت طريقة القرن السابع عشر المهذّبة التي لا شأن لها في زيد وعمرو، بل في الإنسان من حيث هو وحلّ محلّها طريقة هؤلاء

(١) يبالغ في التنظير بين الأسطورة والتاريخ لما يعلمه من كثرة دخول الأكاذيب في التاريخ.

(٢) الذي حظر بالغائه وجود البروتستانت في فرانسة.

(٣) Trianon: اسم قصرين في فرساي، أحدهما يقال له تريانون الكبير بناه لويس الرابع عشر والثاني الصغير بناه لويس الخامس عشر.

(٤) سيأتي ذكره.

(٥) سيجيء مجمل خبره أيضاً.

(٦) جان جاك روسو، وفي حواشي هذا الكتاب كلمة عنه وعن ابتداعه طريقة القصص المسماة بالرومانتيسم مخالفة للأسلوب المدرسي الصحيح.

المحدثين، الذين يريدون أن يخبرونا بحالات أنفسهم. وأغرب من هذا أن الناس يظنون أن أصحاب هذه الطريقة المحدثة هم أشد شعورًا وأحيا نفوسًا من الأصوليين المدرسين، ذلك لأن المحدثين أشد صراحةً وأكثر إشارات وأنهم يحدثون بأسرار حياتهم ويفضون بعجرهم وبجرهم.“
ثم قال:

”ليس بجفاء الصوت وكثرة الحركات بلا انتظام يتم الإعراب عن درجة شعور الزمن الذي أنت فيه. وإنما تقاس درجة الشعور بدرجة التناسب والانسجام في البيان. فالقرن التاسع عشر بشاتوبريان وهوغو^(١) قد فقد عنعنة الإحساس البشري الحقيقي. وهي وحدها التي تصلح أن تكون مادة للأدب اللغوي، كما أنه فقد عنعنة اللفظ أيضًا.“

فقلت له: يظهر لي أن شاتوبريان كان منشئًا. فتبسم وقال:

”ما أحد عرف في القرن التاسع عشر أن يكون منشئًا، والذين يظن أنهم سروات الكتاب هم أذناهم. فإن هؤلاء متعلمون متكلفون، تجدهم بعيدين جدًا عن عصر راسين، بل عن عصر فولتير. ومزية اللغة الفرنسية في الدور الجيد هي السهولة والإبانة. فالكاتب المعدود من الطبقة الثانية من القرن السابع عشر يكتب ألف مرة من جهة اللغة أحسن من شاتوبريان. وليس مرادي بهذا أنه لا يوجد أدنى براعة في عصرنا، فأنا من أهل هذا العصر ولا يجوز لي أن أحقره. وإنما أقول إن بيننا وبين الماضي هوة سحيقة.“

فأردت أن أبين أن اللغة تتغير في ضمن التغيير العام. فلم ينتبه لكلامي على عادته بعدم الانتباه لكلام من يتحدث معه. ثم قال:

”إن تاريخ اللغة الفرنسية بسيط. فهي لغة متغذية بمخ اللاتيني واليوناني وفي دور التجدد الأوروبي، أثمرت أحسن شماريخها بكتابات ”رابليه“ و”مونتانيه“^(٢)، وكانت يومئذ أوفر مواد وأكثر أنواعًا في التعبير وألسس قيادًا تحت اقتضاء تفتن المواضيع. لكنّها لم تكن رست على أصل ولم تكن لها هوية معينة، بل كانت عيالًا على الينابيع التي تستقي منها. فالقرن السابع عشر جردها وشذب أغصانها الملتفة وأعطاهها شخصية معروفة وأفرغها في قالب التناسب واللطافة. أما القرن التاسع عشر بثورته فلم يحسن أن يردّ عليها المادة التي خسرتها وإنما أدخل فيها ألفاظًا طئانة وقعاقع بدون أن يقدر على إدخالها في جهازها العضوي... إلخ.“

(١) واردة ذكرهما في موضع آخر.

(٢) سيرد ذكرهما.

وسنة ١٩٠٣ كان الاحتفال بنصب تمثال رنان في وطنه وخطب فرانس خطبته الشهيرة، وبينما نحن هناك أمتع بأحاديث كثيرة. فسألته مرة: هل عرفت رنان كثيراً يا سيدي فرانس؟ فقال:

«لم يكن من السهل معرفة رنان كثيراً لأنه كان متواضعاً جداً وغائباً غالباً. وإنما تلاقيت معه كثيراً. لم يكن رنان يحفل بالأدب وكان يظن أنني أحسن غير هذا الطرز ويرغبني في المباحث التاريخية. وأظن أنه لم يكن ليقوم وزناً للفوج الجديد. فكان ينظر إلينا نظره إلى أولاد طاشين. والذي أمدحه في رنان هو استقامته ونزاهته وحرمة للعلم ودروس العلم. كان يبحث وينقر عن مفتاح السرّ الأعظم وهو يعلم أنه لن يجده. كان حكيمًا تاماً.

كنا نستغرب أطواره إلى حدّ أن «لومتر» هذا المجنون كان كثير المداعبة له وأشبهه بتلميذ ذي جرأة على معلّمه. مع أن لومتر كان في نفسه مفتوناً برنان». ثمّ قال:

«إن رنان كاتب سيعيش ذكره بحسن إنشائه وسحر بيانه وطور معيشته الفلسفية. أمّا متانة بنائه التاريخي فلا أعتقد بها. فالتاريخ هو كما وصفه رنان مجموع افتراضات والافتراضات تتجدّد دائماً. فكتاب «حياة يسوع» يشيخ من يوم إلى يوم ويفنى من جهة موضوعه. ولكنني واثق بأنّ الناس سيقراون أبداً «حياة يسوع» كما يقرأون خطبة «بوسويه» في التاريخ العام، وكلاهما مقصود من أجل البلاغة لا من أجل التاريخ».

ثمّ سكت هنيهةً، وقال:

«إنّ ما لا أحبه كثيراً في رنان هو شدة يقينه في العلم، فهو أكبر ممثّل للقصاص العلمي الذي تعلّقت به آمال كثيرين من بني عصره. وهي فتنة كريمة في نفسها لكنها لا تخرج عن تبدّل الخيال بالخيال. فإنّ العلم ليس إلاّ صورةً من صور جهالتنا. وهي أحسن الصور التي نعلم بها أننا لا نعلم شيئاً. وليس له ثمرة سوى إعطائنا نظارات مكبرة يتّسع لها نظرنا إلى سعة الجهل الهائل، الذي نجعله لما حولنا من العوالم. فالعلم لسوء الطالع لا يقدر أن ينشر شعاعه إلاّ على العالم الذي تملكه في أنفسنا. وهو العالم الوحيد الذي يقع تحت حواسنا. أمّا العوالم التي نجعلها والتي تحيط بنا فستبقى أسرارها غامضة علينا إلى الأبد. فالعلم لا يزيد على أن يكون جانباً من أوهامنا والسلام.

وقد وقف رنان موقفاً حميداً بإزاء المعجزة. فهو يرفض الاعتقاد بها ويصيب المرمى بذلك ولكنه يدحضها من جهة التجربة والعلم وليس هذا بيت القصيد. فالمعجزة ليست معجزة إلاّ بكونها تخرج عن قانون العلم ولا يمكن تعليلها. وليس من العدل إنكار وجود الظلّ لأنه يغيب

بمجرد انتشار النور. وبعد فقد يكون إنكار العلم للمعجزة بسبب كون علمنا ناقصاً. وربما وُجد في الماضي علم طبائع يعين على بعض الحيل ويُري الشيء بغير صورته وهذا العلم قد انقرض. خذ لك مثلاً: تحوّل الحشرات الذي من جهل ناموسه عدّه من المعجزات. فالدودة التي تصير فراشة يوقع شأنها الناظر في الحيرة حتّى يتفهّم الناموس الطبيعي في هذا التحوّل. ولنفرض أنه بعد ألف سنة انقرضت مدينتنا الحاضرة - وليس ذلك بعجيب نظراً لتزايد الغباوة يوماً فيوماً - وسمع أحفاد أحفادنا بأنه في الماضي، أي اليوم، كان آباؤهم يتكالمون من باريس إلى نيويورك بسلك من معدن فلا شكّ أنهم يحسبون الخبر خرافة. فيكون أحفادنا على هذا التقدير مخطئين. وهذه الأعجوبة الكهربائية صارت اليوم غير عجيبة ولكنها أيام "كالفاني" (١) كانت من الأعاجيب التي تسبي العقول.

فقلت له: إذا أنت تعتقد بالمعجزات، فقال: كلاً، لا أعتقد بها، ولكنني لا أفتخر بردها. وأرى عدم الاعتقاد بها ليس بشيء. وأظنّ أنّ المسيو رنان كان لا يخلو من شيء من البأو (٢) في قضية إنكارها.



قال سيغور:

"وكان فرانس تحوّل من مدّة طويلة اشتراكياً وقبل هذه الدعوة بكلّ إيمان وإيقان. فإنّه كان يضطرب كثيراً لعذاب البشر ولعذاب العجماوات وللعذاب على الإطلاق.

ومع كلّ ما كان يظهر عليه من السكون والفتور ومن كونه لا يستطار لشيء كان ينقلب ناراً حمراء في منع الضرر ومعالجة الألم، فلم أعهد أرقّ منه قلباً ولا أوفر حناناً مستوراً. وقد تبلغ به الرحمة أن لا يقدر على رؤية المرضى والبائسين فيفرّ من مشاهدتهم. وقد يحيك في قلبه تصوّر الظلم ومصائب الناس فتفيض عيناه بالدمع.

وعلى هذا، أخذ يذب عن الاشتراكية ويعضد دعوتها. ولكنّه بسعة إدراكه لم يكن يخفى عليه صعوبة تطبيقها كما يهوى أتباعها فيقع له أن يتولّى هو الاعتراض على بعض مشكلاتها.

(١) كالفاني (Galvani)، حكيم طبائعي طيب، ولد في بولونيا من إيطاليا سنة ١٧٣٧ وقفه الاتفاق على مبدأ الكهربائية بأنّ أحد تلامذته شاهد مرّة ضفدعاً مقتولاً يتخبّط كثيراً بقرب قطعة من حديد فقتلوا عدّة ضفادع ووضعوها في طنف من حديد وسلكوها بسفانيد من نحاس، فلحظوا أنّ هذه الضفادع كانت ترتعش بصورة مدهشة كلّما احتكّت أطرافها بالحديد، ومن هناك انتبهوا لوجود الكهربائية في الأجسام.

(٢) الفخر (الناشر).

وكان فرانس يحبّ فرانس جوريس كثيراً وجوريس يحبه. وعندما قتل جوريس حزن عليه فرانس حزناً شديداً. وطالما شهدت مجالسهما الممتعة، فأتذكر أننا كنا مرة عند العقيلة وكان جوريس مدعوّاً. فتناول فرانس بحث الاشتراكية، فقال:

«الاشتراكية توجب العمل وتجبر كلاً أن يأتي بكلّ ما يقدر عليه، أمّا فيما سوى هذا فلا مناص من الملاءمة بحسب الضرورات. والهيئة الاجتماعية المستقبلية هي بين أمرين، فإما أن تموت وإما أن تعدل عن الحرّية والمساواة. فإنّ الحرّية ليست في الطبيعة، ولا مفرّ من أن نحسب حساب الضعف البشري. وإذا استمررنا على المطالبة بالمساواة التامة، فقد جعلنا هذه المساواة حجر عثرة في طريق المجتمع الآتي». ثمّ التفت إلى جوريس، وقال: «ويجب عليكم أن تفكروا في إيجاد مركز للتفوّق العقلي والنبوغ في مدينتكم المستقبلية».

فقال جوريس:

«بعد أن تصير الأرض مطبّقة كلّها بالعمل وتصبح الحياة سمحة بإلغاء عهد المظالم، فالسعادة تساعد الناس على حرمة النبوغ وتفوّق العقول ولا يكون هذا التفوّق ثقيل الوطأة».

فقال فرانس:

«نعم، إلا أنّ هذا الأمر ليس سهلاً. فإنّ الأمة ليست في الحقيقة إلا عبارة عن أفاذ معدودين. وأنّ أوربة كلّها ليست إلا عدداً محدوداً من الرجال، يفكّرون ويفعلون أكثر من الباقين. وقد ذهب رنان إلى أبعد من هذا فقال: ليس السواد الأعظم إلا كالأرض القابلة للنبات التي تنحصر فائدها في حفظ الأشجار الباسقة. وقد أرتنا الطبيعة أنها صانع غير صناع اليد، فإنّها تقدّم لنا ألوفاً من النسخ لا فائدة فيها ولا محلّ لها من الإعراب إلاّ السبيل لوجود مثال متقن من ألوف».

ثمّ عاد فنظر إلى جوريس نظر من يقصد مداعبته، فقال:

«من البين أنّ تحوّل الأنواع الحيّة لا يطابق المساواة. فنظرية «داروين»^(١) في الانتخاب التي هي مفتاح التاريخ الطبيعي أو التاريخ بالإجمال، كلّ اعتمادها على الفروق. والمخلوقات لا

(١) داروين (Darwin)، عالم طبيعي إنكليزي، ولد سنة ١٨٠٩ هو صاحب كتاب «أصل الأنواع بطريقة الانتخاب الطبيعي»، ظهر هذا الكتاب في لندرة سنة ١٨٥٩ وترجم في مدّة قريبة إلى جميع اللغات، وقد أبرز هذا المذهب إلى قرآء العربية الفيلسوف الدكتور شبلي الشميل. وزبدة نظرية داروين أنّ النوع الذي يدخل عليه التغيّر بيد الإنسان يكون إذا بطبيعته قابلاً للتغيير. وأنّ ما قدر المرّبي أن يعمله تقدر الطبيعة أن تعمل تحت تأثير علّة هي الاختيار الطبيعي. وأنّ الحيوانات والنباتات تظهر بصورة لا محيد فيها من التنازع على البقاء، فالذي يبقى هو الأصلح، وهذا الأصلح الأمّن يورث سلالته الخواص التي ضمنّت له الفوز على نظرائه وهكذا يتكوّن ما يسمّى بالنوع. وكتب داروين كتاباً عديدة. وخالفه فلاسفة كثيرون ووافقه آخرون. ومذهبه مشهور في الشرق، وقد سبق للعرب أنهم أشاروا إلى مبادئ هذا المذهب، فابن خلدون يذكر أنّ أرقى أفق في الجماد متصل بأدنى أفق من النبات وأرقى أفق من النبات مختلط بأدنى أفق من الحيوان، مما يؤدّي إلى كون المخلوقات سلسلة. ومات داروين سنة ١٨٨٢.

ترقى إلا بالبُعد عن المساواة. ثم متى خرجت الحياة من دور الاختلاط خلقت أشخاصاً يزدادون كمالاً بالامتيازات التي يحصل عليها أقواهم وأصلحهم وأقدرهم على التوليد. وفي توفيقها الأخير الذي هو ظهور الإنسان على الأرض كانت سنة الانتخاب التي تسمى سنة الأفراد بإزاء الجماعات هي سبب الارتقاء، وإنَّ في تاريخ الهيئات الاجتماعية وتواريخ الفنون والآداب والاختراعات براهين على أنه لا سبيل لوجود شيء عظيم إلا بوجود المتفوقين والأمثليين، فالمتفوق هو نقيض التساوي وهو مفتاح البناء. وربما كان هذا هو منشأ السائق الوجداني الذي يحفز الإنسان الوارث لعدم المساواة من أدوار طويلة، على أن يحاول التملص منها دائماً.

فقال جوريس وقد عيل صبره من كثرة ما سمع:

”يا مسيو فرانس، ليست المسئلة مسئلة تسوية الأشخاص وإنما هي تسوية الحقوق وتسوية درجات الرفاهية وتوزيع العدل بالسوية وإتاء كل أحد قسطه من الهناء“.

فقال فرانس:

”لست في الحقيقة ناظرًا إلا إلى الأدب والفن وأنه ليقلقني مستقبل العقل في الهيئة الاجتماعية الاشتراكية. وربما كانت الناس أسعد حالاً كلما قلَّ بينهم الكتاب والمفكرون“.



قال سيغور:

كنت مدعوًا مرةً عند فرانس فانفتح حديث الرقي، ولما كان الأستاذ من طبعه محباً للمعارضة أخذ يشرح ما كان من التناسب ومن الانتظام في الأيام الغابرة“. ثم قال:

”نعم، كلما ترقينا ضعفت فينا قوة الصبر ومنة الجلد على النوائب، فإن المدنية لا تساعد الإنسان على الأمل ولا على تحمّل المصائب، لأنها تظهر الواقع بجميع مكارهه. فأنا أتمسّر على الماضي لأننا برغم اختراعاتنا ومعارفنا المتعددة وطيّاراتنا ورعاداتنا⁽¹⁾ وتلغرافنا لا نجدنا في الجهة الأدبية اعتضنا بما كان عند آبائنا. كانت عند الأولين وسائل مدهشة لاستجلاب المنافع ودرء المضار وبلاسم يضمّدون بها جراحات الدهر، ولم يكن الأمل والوقار قد فارقا هذه الدنيا. ولا

(1) في الأصل Torpille وهو نوع من السمك مسطح له في مغرز رأسه آلة كهربائية لها نزوات قوية تقتل بها سائر الأسماك وتخدّر بها يد من يحاول مسكها من البشر، وفي العربيّ يقال لهذا السمك الرعاد، قال في لسان العرب: والرعاد ضرب من سمك البحر إذا مسه الإنسان خدّرت يده وعضده حتى يرتعد ما دام السمك حيّاً. وقد استعار الإفريخ لفظة توربيل هذه للسفن الحربية الصغيرة التي تقذف بالرميات المحرقة.

شك أن آباءنا كانوا يعلمون أن الحياة الدنيا مشوبة بالأكدار ولكنهم اعتقدوا أن وراءها حياة سرور أبدية، فكان النكد عندهم علامة على الاصطفاء والموت مجازاً من دار الظلمة إلى ساحة النور. وكانوا إذا شخّصوا بأبصارهم في الصلاة يوقنون بأن بصرًا آخر من العلى ملاقي بصرهم. وأيُّ عزاء أعظم من أن نعتقد بأنه سينفخ يوماً في الصور فنقوم من قبورنا وأن الخالق تعالى سيتجلّى علينا ولو لأجل أن يلعنا. وكذلك أحب أن أعتقد أن الأرض خلقت متعلقةً بالسماء بجنود مجنّدة من الملائكة وأنها هي مركز الكون“. فقلت له:

أنت آسف على انتشار أنوار العلم؟ فقال:

”حاشا أن آسف على شيء مما جرى إلى اليوم ولا أريد الرجوع القهقري. ولكني أقول: آه ما ألدّ الوهم عند الشدائد! فالיום عرفنا أن كرتنا هذه أن هي إلا نقطة من وحل في الأوقيانوس المجهول غير المتناهي. وأن الإنسان لم يكن المخلوق الذي اختاره الله، بل درجة صغيرة من سلم الكوائن وما حياته سوى شكل حركة شمسية أو نوع من ظاهرة كيماوية. وقدّمنا كتنا نريد وكان ذلك يلقي شيئاً من الوقار على أعمالنا. أمّا اليوم فلا نريد لأننا نعلم أن الإنسان غير مختار. وما حركاتنا إلا نتائج لحركات أخرى تقدّمتها. وقد شرحنا أعصابنا فعرفنا من أين يأتينا الألم. أمّا أجدادنا فلم يكونوا يعرفون مصدر الألم وكانوا يرجون عليه ثواباً في الآجلة“.



ومن الكلمات التي أثرها سيغور عن فرانس، ما يأتي:

”المجد! العبقريّة! لا تثق بهذه الأشياء يا صاحبي، فلو اطّلت عليها لوليت منها فراراً ومُلئت منها رعباً. ففي هذه الدنيا لا شيء أقلّ ثباتاً ولا أكثر اضطراباً من صيت أعظم الرجال. فكم من رجل عظيم نسيه قومه لسوء بخته لا لقلّة فضله. فنحن نحبّ ”رونزار“^(١) وبعد أن دفننا ذكره نشرناه حال كون شاعر عصر رونزار كان ”دو بارتا“^(٢) وهذا هو على الأقلّ رأي

(١) رونزار (Ronsard)، شاعر فرنسي شهير من شعراء القرن السادس عشر يقال إن جدّه مجري أو بلغاري وإن أباه كان خادماً عند فرنسوا الأول، نشأ في خدمة البلاط الملكي الفرنسي وترقى في المملكة حتى صار سفيراً ووالياً ثم أصيب بالصمم ففترغ للأدب ونظم القصائد الطنانة وطار ذكره في الأقطار ونال الحظوة عند الملوك لا سيّما شارلس التاسع، ملك فرانسة. وما زال جدّه في صعود إلى أن مات سنة ١٥٨٤ وفي أثناء حياته كان رابليه يناظر ويظعن فيه. ثمّ له بعد وفاته بمدة طويلة أي في أواسط القرن السابع عشر انحنى عليه مالييرب وبوالو بالظن والإزراء وبقي مهجوراً إلى القرن التاسع عشر إذ نهض الأدباء لا سيّما سنت بوفي وأعادوا لرونزار حرمة ومكانته. وكان ملاحظة الذوق الخاصّ بالفرنسيين.

(٢) دو بارتا (Du Partas)، شاعر فرنسي معاصر لرونزار.

«غوته» الذي كان معجباً جداً بـ «دو بارتا» والذي يظن أن عنده من الذوق بقدر ما عندنا. ثم إن الذين كسبوا الصيت لا يحفظونه دائماً، بل مصفق القيم الأدبية يظهر لي أشد اهتزازاً صعوداً ونزولاً من مصفق القيم النقدية. وربما هزأ جيل مما كان جيل آخر يعبده^(١) وكم قرن بقي متحيراً مما كان قرن آخر يعمله. وكثير من الأسماء العظام تصير فيما بعد أسماء فارغة ما أنزل الله بها من سلطان^(٢). وقد نستمر أحياناً على تعظيم ما عظمه آباؤنا ولكن بحسب الصورة الظاهرة أو لأسباب غير التي دعت آباءنا للتعظيم. والصحيح أن كل فكرة تموت مع الوقت الذي تلد فيه^(٣).

وما من شيء سخرة أكثر من قضية الكتب الشهيرة بأنها من طرف الدهر فما أشد اختلاف الأنظار فيها.

تأمل لو نشر «دانتي»^(٤) ورأى مقدار التفاسير والحواشي التي خنقوا بها كتابه «الهزيلي الإلهية»، أو «هوميروس»^(٥) قد ردّ إلى الحياة وأطلع على هذه السخافات المحبرة التي فضدت فوق، «الإلياذة» أو «شكسبير» قام من قبره وقرأ شروح الناس على كتابه «هامليت»^(٦) لا جرم أنهم كانوا أصيبوا بالجنون.

وأكثر الأوقات تجد هذه الشروح من عمل المعجبين بأنفسهم المتبجحين الذين يذهبون في التفسير مذاهب غريبة ويجعلون لما في المتن معاني بعيدة، مما يزيد في أعمار تلك الكتب ويجدد من شبابها.

(١) ما أصدق هذا القول. أفلا نهزأ نحن بالأصنام التي عبدها آباؤنا في الجاهلية؟ بل كم هزأ أناس من الصحابة بما عبدهم هم أنفسهم قبل الإسلام.

(٢) كلالات والعزى ومناة الثالثة الأخرى.

(٣) وقد نسي أناتول فرانس أن يقول: وللكلمات والألفاظ أحياناً أعمار كالآراء والأفكار.

(٤) دانتي (Dante Allighieri)، أكبر شعراء الطليان، ولد في فلورنسة سنة ١٢٦٥ في ٨ مايو ومات في رافين سنة ١٣٢١ وله دواوين ومنظومات جمة أشهرها «المهزلة الإلهية» هي ثلاثة أقسام الجحيم والمطهر والنعيم. وقد جمع في هذا الديوان المعارف والمذاهب التي كانت في عصره. وكان دانتي من أبناء البيوتات ونشأ يتيمًا لكن على حشمة وسراوة ثم صار من رجال الجمهورية الفلورنسية وانقسم أهل وطنه في حادثة وقعت فكان دانتي من الفئة التي لم يساعدها الوقت وقضي جانباً من حياته في الغربة والنكبة.

(٥) أكبر شعراء يونان تنازعت سبع مدن منها شرف ادعاء نسبه وقيل إنه كان أعمى مثل بشار بن برد يطوف بالبلاد وينشد قصائده وقيل أنه لم يوجد، وإن الإلياذة لم تكن إلا قصائد لشعراء متعددين ومثلها «الأوديسي» وقد رُتبت فيما بعد وعزيت إلى اسم هوميروس. وقد ترجم الإلياذة إلى العربية نظماً الطيب الذكر العلامة سليمان أفندي البستاني، من أعلام الشرق، وجعل لها مقدمة هي من أحسن ما كتب في هذا العصر. أما الإلياذة نفسها مترجمة إلى العربية فلها مزية تاريخية.

(٦) أو المتنبّي وقرأ الأربعين شرحاً التي قيل إنها علقت على ديوانه.

وكيف يثق المرء بالبراعة عندما يرى «بوتشيلي»^(١) نسيًا منسيًا والشهرة كلها لأبناء «كاراش»^(٢) و«ألبان»^(٣).

ولنعد إلى الإنشاء فنقول إن أرقى الأعصر فكرًا وهو عصر فولتير، هزأ بشكسبير ودانت وهو مير، ونبز شكسبير بأنه فلاح جلف.

فلهذا، لا يجوز الكلام إلا على شهرة قريبة الزوال مبنية إما على اتفاق أو على أوهام أو على مهارة في اكتساب الذكر. ولما أردت الدخول إلى الأكادمي قال لي «لودفيك هاليقي» إنه يجب معاملة الرصفاء بحرمة زائدة لأنهم يستحقون الإعجاب والإعظام لمزيد حذقهم وتميزهم على غيرهم باللباقة بحيث صاروا من أعضاء الأكادمي بدون أن يكونوا علماء. أي بلغ من حذقهم أن صاروا علماء، أي بلا علم.

نعم، وإن ستاندال الذي لم يكن باقعة لكنه على جانب عظيم من دقة اللحظ وحدة الذهن، بقي مدة حياته خامل الذكر لإعوازه فن كسب الشهرة. فالمجد يأتي من يناديه. وإنني لأعجب بمكاني من الجهل بهذه الأمور وتور الهمة عنها، كيف عرف الناس مكاني! ولحسن الحظ رُزقت أصحابًا مثل «كاتول منديس»^(٤) و«كوبي»^(٥) وغيرهما كانوا يشيدون بذكري، ومن البداءة وقفت إلى بعض مقالات ملائمة كمقال «لومتر» وهكذا قطعت العقبة التي من سدّد إلى قطعها صار أمتع من أن يمضغه الحمقى وأن ينازع في مجده. أما إذا كنت تظن أنني مغتر بدرجة فهم أبناء عصري فتكون واهلاً. فإن كتبي لا تستحق هذا العدد العظيم من القراء الذي لا يتهج به إلا الطابع لكتبي. ثم قال:

«ما أحد فهم أحدًا. والعادة أن الذين يفهمهم الناس أقل من غيرهم هم الذين يندفع الناس في مديحهم أكثر من غيرهم. فهذا هو السرّ الأليم للمجد الذي يلتحف به «سوفوكل»^(٦) و«دانتى» و«شكسبير» و«إيبسن»^(٧). المجد الذي يُعطى بمجرد التواطؤ أناسًا نالوا الشهرة وقدسهم الخلق بدون أن يفهموا لماذا. والحقيقة، أن الناس قلما يقرأون تأليف هؤلاء العظام».

(١) بوتشيلي (Botticelli)، مصوّر طلياني، ولد في فلورانس، (١٤٤٧ - ١٥١٠).

(٢) كاراش (Carrache)، اسم لثلاثة مصوّرين طليان من بولونيه لويس وأغوسطين وأنيبال، وأشهرهم الأخير.

(٣) ألبان (Albane)، تلميذ لأبناء كاراش المذكورين، كان يُلقب بمصوّر الطلاوة.

(٤) كاتول منديس (Catule Mendès)، شاعر إفرنسي مولود في بوردو سنة ١٨٤١ وكانت وفاته سنة ١٩٠٩ وقد اشتهر بالنقد والتمحيص والكتابة التمثيلية.

(٥) كوبي (François Coppée)، شاعر المساكين، أجاد في وصف أحوال الطبقة الدنيا، وكان من أعضاء الأكادمي، (١٨٤٢ - ١٩٠٨).

(٦) سوفوكل (Sophocle)، شاعر يوناني روائي اشتهر بنظم المأسى وتجويدها وإدخال النغمة الطبيعية فيها. ولد سنة ٤٩٥ ق.م. ومات سنة ٤٠٥.

(٧) إيبسن (Ibsen)، كاتب نورفيجي، ولد سنة ١٨٢٨ ومات في كريستيانيا سنة ١٩٠٦ له روايات تمثيلية معروفة سلك فيها مسلكًا فلسفيًا.

ثمّ قال لي، ولا تخلو كلمته هذه من مكر:

«مَن يدري إذا لم يكن في كلامي شيء من النفاسة عندما حملت في إحدى مقالاتي على «جورج أونيه»^(١)، فهذا الرجل كان بالفعل حقيقاً بالمجد وكان يعرف مشرب الجمهور ويدري كيف يرضيهم ويعطي كلّ أحد حقّه.

إنّ الناس لا يكثرثون لشيء أقلّ من اكرائهم للوقائع البشرية العظيمة التي يرويها نوابغ البلاغ. وإنّما تعجبهم القصص الدنيوية التافهة التي يطرّزها الكتاب الأذكاء، من مسائل مالية أو غرامية أو وقائع جنائية. فلا يوجد واحد من عشرة من القراء يفهم «هامليت»^(٢) أو يستعذبه. أمّا «سكريب»^(٣) فهو من مفاهيم جميع العقول فلا يتعنى أحد حتّى يرتفع إليه، بل هو على سويّ الجميع».



ثمّ عاد إلى ديدنه المعروف في التشاؤم بحالة أوربة الفكرية الذاهبة بزعمه هبوطاً، فقال:
«عندما أقول لك إنّ العبقرية شيء غير محقّق يكون كلامي عن الغابر، لأنّ هذه المزية هي ثمرة التهذيب والثقاف اللذين عهدا في الأعصر المعروفة بالقوّة والتفوّق. ولكن غمرة الجهل والمادية المسلوقة^(٤) وغلبة حبّ التوصل التي تغمر أوربة لا تبقي مجالاً للتكلم في العبقرية في الزمن الحاضر وربّما في المستقبل. فالكتابة صارت فنّاً يملكه كلّ أحد لأنه لا يقتضي سوى الحدق. أمّا الكاتب الذي يقدر الخلق أن يتّخذوه مرآة عصره والذي يستمرّ زمنه به والنابعة الذي هو وجدان الغابر ومنار الآتي فأصبح متعذّر الوجود».



وكنا مرّة عنده في مجلس حافل فجاء ذكر الحياة، فقال:
«إنّني أرى الحياة شيئاً كريهاً. ولم أجد أمراً أبعد عن فهمي من قول رنان إنّه يرضى أن يستأنف هذه الحياة مرّة أخرى ويعود إلى هذه «المسخرة». فدهشت أنا والحاضرين لهذا الكلام.

(١) جورج أونيه (Georges Ohnet)، قاصّ إفرنسي معروف، ولد سنة ١٨٤٨ ومات سنة ١٨١٨.

(٢) Hamlet، من أشهر تأليف شكسبير.

(٣) سكريب (Scribe)، كاتب إفرنسي روائي له روايات تمثيلية كثيرة، (١٧٩١ - ١٨٦١).

(٤) في الأصل Nivelé.

وقلت له إنني ما فكرت قطّ في أنه هو ممّن يثور على الحياة. وهو الذي خرج له القدر الملقى في أزلام الحظوظ. وعرف كيف يجمع في نفسه الواحدة عالمًا ويتمثل الأدوار الماضية ويجالس الحكماء والشعراء من كلّ عصر. وهو الذي أوتي أن يكون مرآة عصره وأن يحرك مادة العالم المعقول بأسره. فقال لي: أتبغني أن تقول إنني مالك قوّة الفهم؟ أفتظنّ هذا مساعدًا على الشعور بالسعادة؟ ألا أنّ العقل هو الذي يحول بين المرء وبين السعادة^(١). ومع هذا فلم أكن ذلك الدراكة الذي تصفه لأنّ الحكيم فعلاً يتزوي في الحال فأراً من خدع الطبيعة التي تحفّزنا على قبول هذه المعيشة المعدّبة.

لكنك عشت سعيداً.

«ما عرفت طعم السعادة طول عمري إلا ما كان في أيام حدائتي. فمّن شاء أن يعيش سعيداً وجب أن ينسى نفسه ويفقد الشعور بأنه موجود. وهذا ممّا لم أفرّ به».

وجئت مرّة أخرى إلى مغنى سعيد فلم أصبر أن راجعته في هذا الموضوع لما رأيته فيه من السأم. فوجدته هذه النوبة أقلّ غلواً، ولكنّه قال:

«أتسمّي أنت سروراً ما هو سمّ قاتل للسرور؟ أتريد أن ننظر إلى وجه السعادة الحقيقي؟ أنه يجب للسعادة جهل كلّ شيء ما عدا الحاضر. فإن كان هذا لا ينال فيجب الاختلاط بالناس والتفاهم معهم أو التناسي بالاسترسال إلى الشهوات، فهذه هي أشرط السعادة إن كانت ممّا يتاح لبني آدم. وهذا ممّا لم أذق منه شيئاً طول حياتي. فسواء كان السبب هو العقل الذي أردت أن تنحلني إياه ذلك النهار أو كان شيئاً آخر فإنّي لم أقدر أن أختلط بالناس إلا اختلاطاً سطحياً. وأمّا الحواس فإنّي لم أعرف هذه الشهوات التي تحصل بها الغيبوبة عن الحسّ والتي تقوم مقام الخمر أو الأفيون».

فحاولت أن أفنعه بكونه عرف اللذائذ وشعر بجمال النساء وذاق حلاوة الفنون الجميلة واستمتع على مذهب أبيقور بالجمال الصوري والمعنوي. فقال لي:

«نعم، ولكن ليس بهذا تستضيء حياة الإنسان. إنّ بي كثيراً من الأهواء الغالبة عليّ وأرى نفسي عاجزاً عن مقاومة هذه الشهوات التافهة التي هي السلوى في الصغار واللذّة في الكراهية. وما هذه الغلطة البدنية لو تأملنا فيها...». ولكن في الحبّ لذائذ أخرى.

(١) قال المتنبّي من قبل فرانس:

ذو العقل يشقي في النعيم بعقله

وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

«كلّ هذا كما يستحقّ الرثاء. ولقد وصفت في كتابي «الآلهة عطاش» كيف أنّ ذلك الأيقوري القديم شعر بأعظم لذات البدن عندما أغشي عليه من اللغوب وفقد الحسّ واضطّجع على قليل من التبن في مكان ملوّث بالقاذورات. هذا أحسن وصف وصفته لحقيقة الغلّمة. وهو الإغشاء والفناء، لا يوجد غيره».

ولذة الفكر؟

ولذة الفكر! وما زلتّم تكرّرون ذكر لذة الفكر! ألا أنّ الفكر هو الذي يعرفك سعة هذا الفراغ المنفوق^(١) الكريه الوحشي الذي تجده في الناس وهذه الحالة البائسة التي أنت فيها. وأيّ الأفكار لعمري هو اللذيذ؟ أترأه الفكر الذي نعلم به أننا لا نعلم من أين جئنا وإلى أين نذهب^(٢) وأنّ الحياة التي هي عبودية طبيعية ولغز مستغلق، وأنها أسفل وأسرع زوالاً وأقلّ ثباتاً من كلّ ما نراه؟ أهو الفكر الذي يرنح له الإنسان عندما يفكّر أننا نسكن قطرة صغيرة من نهر المجرة العظيم الذي هو أيضاً لا يزيد على كونه جدولاً صغيراً من جداول الكون، وأنا سنذهب في لحظة^(٣)، ونحن والنوع الإنساني معاً وأنّ سائر المواكب النجمية سائرة، ربّما تتريّث قليلاً ثمّ تأتي نوبتها في الهلاك؟

أيّ فكر؟ أهو الفكر بكون الإنسان باقياً بقوة الصراع لا يرى غير نفسه. يكره نفسه وهو ظانّ أنه يحبّها. يعيش في بحبوحة الجهل والخوف. غافلاً في أيام شبابه، عاجزاً في أيام هرمه. تساوره بدون انقطاع ألوف من الأخطار وتنتابه ألوف من الشرور. وهو مجهّز للموت منذ ولادته وميت بأمله قبل أن يموت بجسمه.

أيّ فكر؟ أهو التفكّر بماضي البشر المظلم بالعبودية والأسر، الحافل بالغيلان، القائم بعضهم في وجه بعض يتناهشون ويتهاشون، عائشين بثمن الدموع والدماء، مصدّقين ألوفاً من الخزعبلات والأباطيل؟ أم فكرة المستقبل الناهض بدون مقصد عال، منصرفاً إلى المنافع الخسيسة والمطامع الوبيئة. هذا المستقبل الذي سيعيد التوحّش الماضي والذي بالآته الفظيعة واختراعاته المخالفة للإنسانية ونظاراته التي يسمّيها علماً، وليست تزيده إلاّ سعة اطلاع على الشرور التي هو فيها، سيردّ الناس في الحافرة^(٤) ويدخلهم عوداً على بدء في القرون الوسطى. وهذه القارّة الأوربية

(١) التسع (الناشر).

(٢) كأنه يتكلّم بلسان أخيه المعري:

أما الجسوم فللتراب مالها وعييت بالأرواح أني تسلك

(٣) يشير إلى أنّ عمر الأرض هو لحظة من الزمان لو عمّرت ملايين من السنين.

(٤) أي فيما كانوا عليه (الناشر).

الموضعة في الفتن المتكبرة المتجبرة المتفجرة المنتنة بالمطامع الدنيئة، التي أصبحت لا تمسك بأصابعها البارزة العظام سوى قطع النقود، سوى نحاسات الدراهم، سوى أوراق البنوك المملطخة بالدماء^(١).
- إيذن لي أن أقول إنه يوجد لذة اطلاع على الأشياء الجديدة، وأنه توجد مادب الحكماء البديعة، ومن وصف هذه أحسن منك؟.

- «نعم، إن أنتجاف^(٢) شيء جديد والإتيان بفكرة غير مسبوقه وتركيب عبارة متناسبة ودرس تراجع الماضين للتلهي عن الحاضر بمراجعة أخبار سالفه أو نشر دماغ يتبحث عنه الإنسان ليعلم ماذا كان فيه أو يصوره على مثاله! والإيجاد والاستغراق في عمل ينسيك ما أنت فيه، هذه أشياء لا تخلو مما قلت. ولكنها نوع من المسكنات والمخدرات العقلية ولذات قليلة البقاء، وإذا اتبه المرء من نشوتها كان أكثر استرخاءً وفتوراً.

كلاً، لا قيمة للوجود إلا بسهو المرء عما هو فيه أو بقدرته على كشف ما لا يتناهى في نفسه أو بإمكانه أن يخدع نفسه بنفسه. أمّا الإيمان والحب، فهما من الألفاظ الخلابة التي صرت أرتعش عند سماعها. وإنني كثيراً ما أعاني سبر ما تعنيه ولا يتهياً لي ذلك لتعذر ذهولي عن نفسي.

أمّا الشعور الذي يغلب عليّ فهو الرأفة. رأفتي بالشقاء البشري. رأفة شديدة بنفسي وبالناس. ولست أجهل الروابط التي تربط الناس بعضهم ببعض - لا أعني بها روابط الفكر والحس، فإني لم أجتمع مع أقراني بروابط كهذه - بل العلائق التي يصير بها الناس إخواناً وهي الأعصاب التي تتألم جميعاً والرغبات التي تلحّ بنا جميعاً والمسارّ القليلة والأوصاب الكثيرة! فهذا هو الذي حداني أن أكون اشتراكياً وأن أبسط يديّ إلى الفقراء وإن كنت لا أرتاح إلى الرثاء الذي تتضمنه الصدقة. وهذا ما أسأل من عيوني دموعاً سخنةً وجعلني أنظر بعاطفة وحرمة إلى هؤلاء الكلاب الصغار، رفاقي في الهيام الذين ليسوا بأشدّ تحيراً مني في هذه الهزئلي التي نحن فيها من الوجود^(٣).

وسمعت منه كلمات أخرى رقيقة وهو في «تور» سنة ١٩١٩، وكنت ذهبت إليه من أجل المقدمة التي وعد بأن يحبرها على أحد كتبي القصصية بعد أن قرأه وراقه.

فوجدته في بهوٍ أشبه بمعرض صغير من كثرة ما فيه من المتاع والصور والخُرثي^(٤) إذ كان يفرّ من الضجر إلى هذه الأشياء ويأتيه بها التجار والأصحاب والمحترفون بها فكان يملأ منها بيته وإن لم تكن بالحقيقة كلّها تحفاً.

(١) ليتأمل القارئ الشرقي أنّ هذا هو وصف أوربة الحاضرة من فم ابنه، كاتب عصري في فرانسة، وهو الواقع القائمة عليه الأدلة المحسوسة كل يوم.

(٢) استخراج (الناشر).

(٣) الخُرثي: أثاث البيت أو أردا المتاع (الناشر).

فتلقاني ضعيفاً ضئيلاً واجماً قلقاً على صحته التي كانت أقصى همه. وكان عنده المسيو...
أحد أخلاته وكان طبيياً أديباً فدار البحث على مسألة الإحاطة بالمعلومات البشرية بعد الآن.

فذهب فرانس والطبيب المذكور إلى أن توسع المعارف لا سيما العلوم الطبيعية والتاريخية
سيؤدي حتماً إلى الإخضاء. وأن نبوغ علماء محيطين أو مشاركين في كل علم وفن نظير "لبنيتز"^(١)
مثلاً، أصبح مستحيلاً.

وفي ذلك اليوم لم يكتب المقدمة وضرب لي موعداً في اليوم التالي فوافيته وتكلمنا في
الأدب والطب وكان بحث الأمراض في الآخر غالباً عليه. ولم يكن يعتقد بالأطباء وإنما كانت
له بهم ثقة ظاهرة سطحية أشبه بثقة الناس قديماً بالعرافين. ثم ركبنا سيارته الكهربائية الحمراء
التي كانوا يتحدثون عنها كثيراً في تور وذهبنا نطوف، من مكتبة إلى مخزن أثاث إلى دكان
خُرثي إلى دكان كتب قديمة إلى مخزن عاديّات، كما هو شأن أناطول فرانس. وفي هذه الدورة
جرى ذكر الشعر، فقال:

"سألني الدوقة... وهي من شواعر الوقت، عن رأيي في أحد شعرائها. فتحيرت في
الجواب وأخيراً قلت لها إن رأيي فيه حسن. أفلا يجب حسن الظن في القريب؟ والصحيح أنني
لا أعرفهم ولا طاقة لي بالجلد الذي تستوجهه قراءة كتبهم حتى أفهم معانيها. والشعر مسألة
شباب فنحن معشر الشيوخ، علينا أن نفهم أننا أصبحنا لا نفهم هذا الشعر الجديد".

ثم وصلنا في الحديث إلى أدباء الأجانب، فكان فرانس قليل الاحتفال بهم إلا "غوته" فإنه
كان لا يضع فوقه إلا كبار القدماء المدرسين، ولكنه قال:

"لا يعجبني من غوته كتابه "تورغاتو تاسو" وموضوعه أجمل من موضوع "فاوست"
فإن إيضاح مصيبة التفوق الذي لا يزال سراً مغلقاً وتحديد مسحة العبقرية التي هي مسحة البلاء،
لأنها تفرد صاحبها عمّن يحيطون به وتزويه وتجعله في غاية الاستكراه. هذا كله مقام عظيم.

(١) لبنيتز (Leibnitz)، فيلسوف ألماني، ولد في لايبسيغ سنة ١٦٤٦ ومات في هانوفر في ١٤ نوفمبر سنة ١٧١٦، وكان من أفراد الدهر في
الإحاطة بجميع العلوم، وله تاليف لا تحصى. واختلف في هل هو أم نيوطن وضع قواعد الحساب المسمى بالحساب الفرقي، وأثبت بعضهم
هذا الكشف للبنيتز وآخرون لنيوطن، وتعارف لبنيتز بنيوطن في سياحته إلى إنكلترا وذهب إلى باريز وتلقى مع الوزير كولير وقدم له
طريقة حسابية وافقت عليها جمعية العلوم بباريس، وعمل للويس الرابع عشر خطة لغزو مصر. وفي سنة ١٧١٠ نشر كتاباً في علم الكلام
اسمه "إظهار وجود الله في آثاره" أيد فيه القول بالنعناية الإلهية. وله كتاب آخر في الفهم البشري ومن رأيه استمرار المخلوقات على خط واحد
عام، وأن الظفرة محال في الطبيعة. وكان يرد فكرة الخلاء المطلق ويقول بوجود تشابه قديم سابق بين الروح والجسد هو سبب اتحادهما.
ومن أقواله ما يشبه "ليس في الإمكان أبدع مما كان" وقد كان فولتير يهزأ بهذه العبارة. وأسس لبنيتز جمعية العلوم في برلين وصار لها رئيساً
وكانت له منزلة عالية عند ملوك الألمان سنة ١٧١١ تلاقى مع بطرس الأكبر، صاحب الروسية، وأجرى عليه وظيفة وأطلق عليه لقب
مشاور العدل. سنة ١٧١٣ قوبل بمقابلة حسنة في بلاط فينا، ويقال إنه كان يريد التأليف بين الكاثوليك والبروتستانت. وكانت له مراسلات
مع بوسويه في هذه المسألة.

ويجب إظهار فضاة السكون الذي يحيط بمثل "تاس" (١) و"ميلتن" (٢) فإن أصوات مثل هذين ترتفع عن مفهوم الدهماء فتصبح غير مسموعة. وضروري تبين هذا العجز الفاضح الذي يقع فيه العبقريون، حتى تجدهم يموتون من الفقر فإنهم من كونهم فوق البشر يصيرون من غير البشر.

ثم حملق نحوي بعينه الواسعتين، وقال:

"التفوق! والتبوغ! أتريد أن أحدد لك بعض مظاهر التفوق والتبوغ. هذا نوع من النور الباطني يتجلى على المرء فيريه العظام حيث يرى غيره البدن الناعم ويضع تحت عينيه حركات الأعصاب العريانة بكل كراهتها حال كون الآخرين يرون هناك الثغور البواسم، لا بل نور أقوى منه، يُري العظام وحركات الأعصاب ويكشف الفضاء الواسع الذي حول الرجل ويقطع كل صلة بينه وبين أقرانه ويلقي به في عزلة قائمة".

فكنت أسمع كلماته هذه وصدري منقبض، لأنه لم يكن يفتأ يعيد هذه النعمة ولأن هذا الموضوع المحزن كان يخالجه أبداً، فهو نفسه لشدة ما فاق البشر بنفوذ نظرتة صار كأنه ليس من البشر. ثم قال:

"إذا أردت أن تفهم بليّة العقل وجب أن تعلم أنه يلاشي القوى التي تثبت بها الحياة، أعني بهما الإرادة والعمل. فالإرادة كلمة لها عمل ساحر فيما لو نظر إليها بنسبتها إلى الأشياء البشرية الحقيمة. فكل تقدم في الدنيا الأصل فيه الإرادة. فكلما ازداد فهم الإنسان ضعفت إرادته. ومتى توصل الإنسان إلى أن يفهم كل شيء لم يرد شيئاً.

وبالجملة، فالإرادة هي النظر إلى غرض معلوم بدون ألتفات إلى غرض مقارب أو مخالف. أي أنها نوع من الاختيار الواقع. وكيف يختار الإنسان وقد رأى أمامه كل شيء موجباً للحيرة جالباً للتأمل. وكيف يقدر الإنسان أن يرجح بين هذه الحوادث والرغائب والأهواء التي تعرضها الطبيعة في هذا العالم غير المتناهي. لا جرم أن الإرادة هي محرّك العمل وهي ضد أعمال الرويّة الذي هو شأن الحكماء".

(١) تاس (Torquato Tasso أو Tasse)، شاعر طلياني عظيم، له ديوان "أورشليم المنقذة" وهو كتاب خالد رفع صاحبه إلى مصاف أعظم شعراء التاريخ بعلو الأفكار وسلاسة النظام وسمو التخيل. وكان تاسو شديد الخنزائرة وقد نغم على أمراء وطنه قلة الوفاء وسوء العهد، ومات فقيراً حزينا، (١٥٤٤ - ١٥٩٥).

(٢) ميلتن (Milton)، شاعر إنكليزي عظيم، ولد في لندن سنة ١٦٠٨ وتوفي سنة ١٦٧٤ وكان في مبدأ أمره كاتب سرّ كرومويل، فلما مات هذا انقطع للتأليف وكف بصره وأخذ يملي على امرأته وعلى ابنتيه ديوانه "الفردوس المصاع" وهو كتاب فيه أبدع بدائع الشعر في جانب كثير من الأغلاط سواء في المادّة أو الصورة. وله كتاب آخر "الفردوس الملتقى". ومات ميلتن فقيراً مسكيناً.

ثمَّ قال لي:

”من شدّة ما أفهم أصبحت عاجزاً عن الحياة. أقول هذا لك فيما بيننا. فإنَّ الفهم والاطّلاع هما مرضان من الأمراض. وإنَّ أدعاء الوقوف على أسرار جميع الحوادث ليس مرضاً فقط، بل هو انحلال في تركيب الطبع. فالفكرة المستمرّة تجرّد صاحبها من كلّ وسائل المقاومة. لم يكن نابليون وقيصر والقديس فرنسيس ويسوع ممّن يطيلون الفكرة. وبهذا أمكنهم أن يريدوا ويعملوا ويملكوا. لقد كانوا أقوىاء فتولّوا المدن والأرواح. ولو أنهم أعملوا عقولهم في الفكر بدلاً من العمل لكتبوا هم أيضاً أجلاًداً ضخماً“.

فقلت له:

”تكلّم يا سيّدي فرانس في العبقرية كأنها مجردّ العقل والذكاء. والحال، أنك أنت قلت لي مرّة إنّها ليست العقل والذكاء فحسب. وإنَّ أكابر الواضعين في العالم لم يكونوا أذكاء.

فبتّسم، وقال: ”نعم، إنّ العبقرية ليست العقل وحده، بل هي بخاصّة رقة الإحساس. فلهذا العبقرية والعذاب مترادفان. فكلّ الناس يرون أشباحهم في العقل الكليّ وكلّ شيء يرجع له صدى في الأعصاب والدماغ، كأنّ هذه الأعصاب وهذا الدماغ هي منتهى ألم الدنيا ونصبها وشقائها.

إنَّ رقة الشعور هي البلاء الأعظم^(١). وإنَّ رقة الشعور تخلق للعقل أسباباً جديدة لسبر غور شقائنا وقياس هذا الفراغ الشامل، فيجب أن نتمكّن من تبيين حقيقة هذا الإحساس الذي هو موحى الألم، وكيف أنّ أدقّ الخواطر وأخنس الهواجس وأتفه الحوادث تنقلب به منبعا للغموم والأشجان“.

فقلت له:

- تأذن لي أن أقول لك يا مسيو فرانس إنّ الأشخاص الذين يمثّلون الحكمة والفهم والإدراك في كتبك ليسوا عابسين، بل نجدهم ضاحكين إلى الحياة.

- ”نعم، هم يضحكون لها رافة ورقة. ثمَّ إنّ هذا يا صاحبي صنعة بيانية. فأنا أصوّر ”كوانيار“ سكران باغي بنات سارقاً حجيرات ريمة. وأمّثل ”برجره“ في مواقع ضعفه من حبّ المجد وشهوة المعافسة^(٢). وما ذلك إلاّ لأنهم كيّسى مألوفون والواجب عليهم أن يخفوا عن الخلق

(١)

فاوردتما قلبي أمرّ الموارد
من البغي سعي اثنين في قتل واحد

تمتّعما يا ناظريّ بنظرة
أعينيّ كفا عن فؤادي فأنه

(٢) المداعبة (الناشر).

دخلت أنفسهم حتى لا يعود الفراغ الذي في طي أفكارهم غير محمول، أشبه بهيكل العظام الذي كان المصريون القدماء يضعونه أمامهم وهم على الموائد.

وبعد، فما الفائدة من الشكوى؟

فقد يمكن أن يركب الإنسان بإزاء هذه الشدائد مركب اليأس ويقترح على حد ما قال واحد لا أتذكر اسمه من تلاميذ شوبنهاور^(١) اقتراحاً هو الانتحار العام. وهذا أيضاً خيال كاذب لأنه لا فائدة من الثورة على هذه الحال، بل هو دليل على وجود أمل واعتقاد. والحال، أن الذي يعلم أن السماوات فارغة وأن الطبيعة صماء وأن لا أمل بإصلاح شيء فإنه يسكن غضبه ويتبسم ويجتهد أن يلقي رداءً على عري هذه الحياة وأن يجد غطاء لهذه المأساة العقلية. انتهى ملخصاً

خلاصة الكلام على هذا الرجل

إن الزبدة التي تمخضها مطالعة هذا الكتاب المجموع من تأليف "نقولا سيفور" وتأليف "جان جاك برسون" وأقوال كبريات الصحف الفرنسية، هي الأمور الآتية:

أولاً- أن أتاتول فرانس هو صدر كتاب الفرنسيين وقريع عصرهم، هذا الذي انعقد على تفضيله الإجماع وعلت رأسته عن النزاع لا سيما في الأسلوب السهل الممتنع الذي جمع فيه نقاء اللغة وتعديل الأقسام وطلاوة النسيج وتوزيع القسط بين المعاني والمباني، مما أفاض كتاب الفرنسيين في وصفه كما رأيت.

ثانياً- أنه كان أشد المحافظين على الأسلوب الأصولي التدريسي المسمى "كلاسيك"^(٢) المستمد من الأدب اليوناني والأدب اللاتيني وإنشاء فحول القرن السابع عشر حتى أقر له الفرنسيين بأنه الذي حفظ اللغة الفرنسية وحرس بستانها وأنه لولاه لتكررت معالمها وتكدرت مناهلها.

ثالثاً- أنه مع شدة محافظته على القديم من جهة اللغة كان مفرطاً في مخالفة القديم من جهة الفكر. فكان مقلداً في اللفظ مجتهداً في المعنى. فأودع الآراء الحديثة والأنحاء العصرية قوالب ليست من المعاصرة في شيء، بل عليها كلها مسحة القرن السابع عشر.

(١) شوبنهاور (Chopenhauer)، فيلسوف ألماني بنى فلسفته على الإرادة وكان متشائماً جداً، تقرب مبادئه من مبادئ الديانة البوذية. وله مؤلفات عديدة وكان يناقض آراء "فيشته" و"هيجل" و"شلينغ"، ولد شوبنهاور في دانتسغ في سنة ١٧٨٨ ومات ١٨٦٠.

(٢) قال الفيلسوف رنان وكان مع الفلسفة أستاذ صناعة الإنشاء في وقته: التعليم الأصولي المدرسي هو علم العقل، وبدون العقل لا يوجد لا من هذه الجهة ولا من الأخرى إلا ظلمات ومهالك.

رابعاً- أنه كان رجلاً متشككاً في أمر الكائنات معدّياً بما يخالغ ضميره من حسّ الخلاء وما يهفو به من قلة الإيمان بالغيب، وأنه أميل إلى مذهب الأبيقوريين الذين لا يرون إلا اللذة سواءً البدنية أو العقلية. وأنه لم يكن يجد فيها إلا مخدرًا.

خامساً- أنه كان سيء الرأي في المدينة الأوربية الحاضرة، عظيم السخط على غشم الاستعمار واستثمار القوي للضعيف وابتلاع الكبير للصغير وتكالب أوربة على المال دون غيره، وما أشبه ذلك مما كان الباعث الأهم له على دخوله في الاشتراكية ومسايرته للشيوغية.

سادساً- أنه كان مولعاً بالمناقضة، نزاعاً إلى القول بما لا يقول به الجمهور ولو لم يكن في نفسه جازماً بما يدافع عنه. وأنه كسائر الأدباء تغلب عليه النكتة وتستهويه النادرة، فكثير من كلماته هو من هذه الطائفة.

الغرض من نشر هذا الكتاب بالعربية

أمّا الغرض الذي توخّيته من نشر هذا المجموع فيشتمل على عدّة مقاصد:

الأول- لما كان قد استفاض البحث في القديم والجديد ورأينا أعناق بعض المحدثين عمداً أو غفلة، تشرب إلى أحداث بدع سيئة في اللغة العربية وتطمع أن تعمل بها عملاً يأتي عليها من القواعد وذلك بحجة وجوب التغيير والتبديل، وبأن الارتقاء يقتضي التجدد وبأن التجدد لا يجب أن ينحصر في الأفكار، بل يجب أن يتعدى إلى القوالب، وكان مذهبنا أخذ الأحسن من كل شيء وأن مثل الفصاحة الأعلى لهذه اللغة هو دور السلف من الجاهلية إلى صدر الإسلام إلى الدولة الأموية إلى أوائل الدولة العباسية، ولم يكن أحد ليطمع في طرز أبداع من طرز القوم في هذه الأدوار ولا في لغة أنقى من لغتهم ولا في ديباجة أنفس من ديباجتهم، وكان ما بعد ذلك كله تدنياً وكان العدول عن الفصيح إلى الركيك وعن الأصيل إلى الدخيل مجرد حبّ التجديد هبوطاً وتردياً، وجب أن ننسج في بياننا على منوال السلف كما نسج أناتول فرانس، وهو عصري الأفكار على منوال الأعصر السالفة وعدّ له الفرنسييس ذلك أعظم فضيلة.

الثاني- أنه يتحتم على الناشئة العربية السير مع العصر الحالي في كلّ ما يتمحّص من الحقائق الكونية وتتقرّر فائدته من المناحي الاجتماعية على شريطة أن لا يخلّ ذلك بوحدة اللغة وصفاتها ونصابها الذي حفظه لها القرآن الكريم، وأن لا يمسّ ذلك روح العروبية، التي ينبغي أن تكون هي الغاية القصوى ويكون ابتداء الطريف خادماً لها لا عابثاً بها. وقد رأينا أن أناتول

فرانس وغيره، ممّن مرّ ذكرهم في هذه الكتاب، قد عرفوا أن يجمعوا الطريف إلى الشريف، ويودعوا الحديث في القديم.

الثالث- رأينا الذين لهم في الشرق نصيب من الأدب الأوربي هم الذين يحسنون اللغات الأوربية ولا سيّما الفرنسية ويطالعون مؤلفاتها القديمة والحديثة وينقلون إلى العربية سواءً ضمن المجلّدات أو في الكراريس أو في الصحف السيّارة كثيراً ممّا يستعذبونه منها مع أنّ الذين لم يساعدهم الوقت على درس هذه اللغة يكادون لا يفقهون منها حديثاً ولا يذوقون شيئاً ممّا ينقله لهم أولئك المترجمون لخلوّ أذهانهم من المعارف الضرورية لفهم تلك النكات. فقصدت بنشر هذه الخلاصة عن أكبر أديب إفرنسي أو أوربي في هذا العصر أن أقوم ببعض الخدمة للمتأدّبين الشرقيين الذين لم يحسنوا اللغة الفرنسية أو لم يتضلعوا في أدبها مع اختلاطها بالأدب الشرقي وكثرة العلاقات العلمية والاجتماعية بين الشرقيين والغربيين ممّا أشرت إليه في صدر هذا الكتاب.

الرابع- ورد في كلام أناطول فرانس من حدثوا عنه ذكر جمّ غفير من أعظم رجال الأوربيين وأعلامهم المشهورة والمسائل الاجتماعية والآراء الفلسفية المتداولة عندهم ممّا هو حرى بكلّ أديب عصري أن لا يفوته علمه، فوضعت لهذه الأشياء التفسير اللازم لها في الحاشية: إذ كان إغفال تفسيرها مخالفاً للغاية التي انتحيناها كما أنّ الإفاضة في هذه التفاسير لم تكن ممكنة، إذ لو سلكتنا فيها مسلك الإطالة لاستغرق كلّ منها كتاباً. فاجتزأنا فيها بما ينقع الغلة ويشدو القارئ الشرقي منه البلغة ويكفي من القلادة ما أحاط بالجيد^(١).

هذا ولم نقدر أن نطرد الترجمة الحرفية في جميع المظان، بل اقتصرنا في مواضع كثيرة على ما يعني الشرقيين. ففي الصفحة ٣٦ والصفحة ٣٧ من كتاب بروسون فصل عن "كورنايل" طويناه على غره لأنه لغويّ صرف فيه انتقاد عبارات من جهة اللغة لا حاجة للقارئ العربي بها. وطوينا من الصفحة ٣٨ إلى ٤٢ لأننا لم نجد ثمة ما يفتقد فوته. وطوينا من الصفحة ٥٤ إلى ٥٦ لأنها تفاصيل زيارة لم نجد فيها طائلاً. وفي الصفحة ٦٨ فصل عنوانه، الهيجان والغلمة، تركناه لأنه لا يليق. ومن الصفحة ٧٨ إلى الصفحة ٨٥ كلام كثير عن طريقته في تصحيح مسودّات الطبع لم نجده ضرورياً. وفي الصفحة ٩٤ أشياء تأباها الفضيلة والعفة، والكتاب قد يقع في أيدي الأحداث والعداري. ومن الصفحة ١١١ إلى الصفحة ١١٥ تفاصيل ليست بذوات بال.

(١) بمناسبة الحواشي يخلق أن نورد هنا نكتة للأستاذ اللغوي المحقّق إسعاف أفندي النشاشيبي تاج أدباء فلسطين، فقد أهديته مؤخراً كتاب "حاضر العالم الإسلامي" للعلامة ستودارد الأميركي وعليه الحواشي المطولة التي زادت على المتن إضعافاً، فكتب إليّ، حفظه الله، بما يأتي. ذكرتني هذه الحواشي بقولين لإمامين. قيل لأبي الخوارزمي عند موته، ماذا تشتهي؟ قال: النظر في حواشي الكتب. وقال أستاذ الدنيا جار الله: الزيت مع الزيتون والحواشي مخخة المتون.

كذلك في الصفحة ٣٢ تحت عنوان "مدفع العفة" ما لا يصحّ نشره بقلمنا. ومثله فصل "الحياة نقص في الخلق" في الصفحة ١٣٦، ومن الصفحة ١٥٢ إلى ١٥٦ تفصيل زيارة لا فائدة فيه. ومن الصفحة ١٦٦ إلى ١٦٨ قصة لا تُروى ولا بالمعارض. ومن الصفحة ١٩٣ إلى الصفحة ١٩٨ تخيل رواية على المرزح على ولادة الدوقة "دوبري" (١) وفيه ما فيه. ومن الصفحة ٢٦٦ إلى ٢٦٩ ما يستغنى عنه. ومن الصفحة ٢٩٠ إلى ٣٠٢ تحت عنوان "درس في جدول الضرب" فصل متزايد الخلاعة. ومن الصفحة ٣١٨ إلى ٣٢٨ أشياء لا تعني كثيراً قراء العربية. وفي الصفحة ٣٣٦ إلى الصفحة ٣٣٧ ما لا يرضاه أهل الديانة، ولا بدّ من مراعاة الزمان والمكان فأسقطناه. ومن الصفحة ٣٤٦ إلى ٣٤٨ قصة مساومة بين أناتول فرانس وبين تاجر خرثي رومي على آنية قديمة. والصفحة ٣٥٧ فيها ذكر فراقه لصاحبه. والصفحة ٣٦٣ إلى ٣٦٦ فيها ما يتجاوز الحدّ في المجانة وما يعجز التلميح والتلويح عن ستر هجنته.

وقد يحار بعض القراء لكثرة ما ورد من المجون في كلام فيلسوف كهذا ممّا ينزله إلى مستنّ العشاق المستهترين. والجواب عن هذا، أنّ الراجح كما قلنا كون فرانس أيقورياً بالمعنى المعروف. ومع هذا نظنّ الأحاديث التي أفضى بها إلى "بروسون"، كاتب سرّه، كانت أحاديث تبدّل وكلمات كان يرميها على عواهنها، لا لتُنشر وتؤثر، بل ليسرّي بها عن نفسه، وما زال الأدباء بعد عناء الجدّ يروّحون من همومهم بالفكاهة والمزاح، فالتقط بروسون كلّ هذه الممازحات ونشرها وكشف عورات أستاذه وأطلع الخلق على عُجره وبجره. فلهذا استهجن كثيرون ما أتاه، ومن الجملة جريدة "الطان"، فقد اتهمت بقلم "بول سوداي" جان جاك بروسون بخبث النية. وقد كتب إليّ الأستاذ علامة العلماء الدكتور يعقوب صرّوف، أحد صاحبي "المقتطف"، بأنّه لو كانت بينه وبين بروسون معرفة لما تأخّر عن لومه فيما شوّه به سمعة أستاذه. ولكن هؤلاء الناس في أوربة صار الغالب عليهم حبّ الكسب والاقتراش وهم يعلمون أنّ الكتب التي تشتمل على أنواع الخلاعة وأحاديث الغلمة والغرام هي التي تزداد رواجاً وتنفق منها مئات الألوف من النسخ، فلا يهمّ الواحد منهم أن ينقص أدبه إذا ازداد نشبه. وأمّا الشرق فمع كونه عرف مثل هذه الأدوار قديماً لا يصحّ فيه اليوم ما يصحّ في الغرب الذي بلغت فيه حرّية التهنّك مبلغاً دعا

(١) دو برّي (Duchesse de Berry)، ابنة فرنسوا الأول، ملك نابولي، تزوّجت بالدوق دو برّي سنة ١٨١٦ وكانت محبوبة في فرانسة بسبب مزاياها الكثيرة ولما قُتل زوجها ظهر منها جرأة زائدة، وولدت ولدًا كان مناط أمل البيت الملوكي. ثمّ لما نُفي الملك كارلوس العاشر لحقت به وأقامت برومة وهناك تزوّجت سرّاً بالكونت "لوشيزي بالي"، وسنة ١٨٣٢ انسلت من إيطاليا إلى فرانسة خفية قاصدة أحداث ثورة في مقاطعة "فاندي" فلم يتمّ لها ما أرادت واختبأت في "نانت" حيث أخبر عنها رجل يهودي متنصر اسمه "دوتز" فقبضوا عليها واعتقلوها في قلعة "بلاي" تحت نظر الجنرال بوجو. ووقعت الحكومة الفرنسية في حيرة من أمرها وأجبرتها أن تعلن زواجها السري في إيطاليا. وفي ٢٢ فبراير سنة ١٨٣٣ أعلنت الدوقة كونها متزوّجة في إيطاليا. وفي ١٠ مايو ولدت ابنة وسيقت بعد الولادة بشهر إلى حدود إيطاليا. وهذا موضوع الرواية التي كان يريد أناتول فرانس تحريرها.

عصبة الأمم في جنيف أن تبرم قراراً بمنع الكتب المفسدة للأخلاق. واللغة العربية وإن عرفت التصريح في هذه المواضيع ووجدت فيها كتب أبعد مدى في بذاءة الألفاظ من روايات أناتول فرانس فإنّ أدباء العرب الخيرة كانوا دائماً يشمئزون من قراءة مثل هذه الخلاعات في الأغاني وألف ليلة وليلة وأشباههما، كما يشمئزّ كثيرون من رؤية الصور المعرّاة والتماثيل المجردة من كلّ ستر في متاحف أوربة وقصورها. ومن عادة الناس سواءً في الشرق أو في الغرب الإقبال على هذه المواضيع أكثر من سواها، كأنّ الإنسان وقد خلُق ضعيفاً يتأسى على ضعفه بأخبار ضعف غيره. وقد أصاب ابن خلدون في قوله إنّ الخلق بطبيعتهم متهافتون على أخبار العشق وقصص المجنون. وليس هذا بمبرّر لإبراز الكتب الفلسفية والاجتماعية في القوالب التي تثير الشهوات وتفسد طهارة الفتيان والفتيات لا سيّما أنّ الجميع تقريباً صاروا قارئين وقارئات. وقد ذهب بعض المفكرين إلى أنّ الحجر في هذا الموضوع لا يفيد شيئاً وأنّ الأولى عدم كتمان شيء حتى يفسد من فسد عن بيّنة ويعفّ من عفّ عن بيّنة. وهي طريقة روسية. وقال بعضهم إنّ الاقتصاد في هذه المعلومات والمواربة في أخبار الحبّ والتماس التخفيف بالتمويه، هذا أشدّ خطراً من الصراحة التامة. وهذا أشبه بما يقوله ابن المقفّع من أنّ المرء إذا رأى المرأة متلقفة متحجّبة صور لها في قلبه الجمال وهام في أثرها، فإذا حسرت له عن وجهها قد يقع منها على أقبح القبح وأدمّ الدمامة. فالكتب التي يتعمّد أصحابها التغطية والتورية قد تزيد هوس القارئ في معرفة طيات الخبر. وذهب آخرون إلى وجوب المنع البات وقالوا إنّ كلّ هذه المطالعات مضرّة ومفسدة وأنها لغوٌ يجب أن يعرض عنه. وسئل الكردينال "دوبوا Cardinal Dubois"، رئيس أساقفة باريز اليوم، عن رأيه في هذه القضية، فقال: "لا يجوز للشابّة أن تقرأ كتب القصص التي فيها الوله كثير في الحبّ. فإنّ مثل هذا لا يخلو من إدغال أفكارها، ولا شيء أسرع انطباعاً بالخير والشرّ من روح الأنسة". إلا أنّ الكردينال استدرك، فقال: "على أنه يجب تنبيه الشابّة إلى حقائق الحياة حتّى تقدر أن تتجنّب ما يعن من الأخطار في طريقها". وقالت الأميرة "لوسيان مورا Princesse Lucien Murat": "إنّ البكر العاقلة يجب أن تكون من نوع السمك الذي يمرّ بلهب النار ولا يحترق بها. فيباح لها أن تقرأ بعض الشيء بحيث لا تُفسد".

ويظهر أنّ فقهاءنا أميل إلى هذا المشرب عندما يقولون: "لا حياء في الدين" ويشرحون بعض ما لا بدّ من معرفته من القواعد. وهذه الطريقة هي عندي ألف مرّة أقلّ خطراً على أخلاق الأوانس من قراءة القصص المغطّاة أفاعيها بالأزهار والتي لا تزيد النفوس إلاّ تطلّعاً، لا بل الطريقة الفقهية هي أسلم عاقبة من الجميع، لأنها تبرز في القالب الذي يزيد الحشمة والانقباض أثناء تقرير الحقيقة. وما الآفة إلاّ خلاصة القول وسحر البيان.

ولم أجد بدءاً من إبقاء بعض الشيء من المواضيع التي أشرنا إليها في أقوال فرانس لتعلقها بالفلسفة ولكون الكتاب مجرداً منها بتمامها يخلو من أروق ما فيه للمتفكّهين، فاضطرت فيها إلى استعمال الألفاظ التي تلتف عن الصغير ولا تجفو عن الكبير. وصنعت بكتاب "سيغور" ما صنعت بكتاب "بروسون"، فحذفت منه بعض ما تثقل وطأته على مسامع رجال الأديان وما ينبو عن آذان الذين يكرّثهم تهذيب الشواب والشبان وإن كان ما في كتاب سيغور من هذا النمط أقلّ جداً مما في محفوظات بروسون.

وقد جرت في كتاب سيغور التفاصيل التي يطيل فيها الأوربيون على عاداتهم من وصف الدخول والخروج والقيام والجلوس وملاحظة الأشياء المادية التي يمرّ بها الكاتب مما يعرفه من عانى كتبهم واقتصرت فيه على لبّ أقوال فرانس وأطايب أحاديثه. فجاءت منه ومن كتاب بروسون ومن أقوال الجرائد الكبرى صورة مطابقة وترجمة صادقة لذلك الأديب العظيم.

وقد وافقت هذه الترجمة أياماً عدتني فيها عدوّاء الأشغال عن إبتاء التنقيح حقّه وإبلاغ التمحيص شأوه، بل كنت أنقله من النصّ الإفرنسي رأساً إلى المسوّدّة المعدّة للطبع بدون تبيض حتى أخرجته كلّ في ثلاثة أشهر لا غير. وأنا أتمنى لو كان في الوقت متّده أوسع، فأبذل فيه أكثر مما بذلت من الجهد وأراجع عليه النظر كرّة بعد كرّة حتى لا يلتوي فيه شيء عن القصد، ولكنني رأيت مشاده^(١) الزمن كثيرة وعوادي الأيام مستطيرة والوقت لا ينتهي من ضيق إلا إلى أضيق والاستيلاء على أمد الإتيان غاية لا تدرك ولا تلحق وليس المرء بحاكم على الزمن، وجاء في مثل إفرنجي "الأحسن عدوّ الحسن" فافتنعت بما تيسّر لي وأبرزته بهذه الحلة وأنا أستخير الله فيما عملت وأرجو بلوغ بعض المرام مما أملت، والله وحده حسبي وعليه توكلت.

شكيب أرسلان

مرسين، في ١٥ يوليو سنة ١٩٢٥

(١) مشاغل (الناشر).

كتاب جان جاك بروسون نحو من المقدمة

كنا متغذين عند "لابيروس Laperouse" مع السيدة^(١). وكان الأستاذ ذلك اليوم عابسا بين الانقباض بسكوته المقصود وإفراطه في أدب المجاملة. فكنت تراه يقدم ألوان الطعام بكيس ظاهر التكلف "عليك بالعودة إلى هذا الدجاج يا صاحبي لأنه من الطراوة بمكان. هو يصلح لك. هل تمنّ عليّ بأن تناولني الخردل؟" وهلمّ جرّاً. وكانت تصحب هذه التقعرات منه على الطعام حركات تعظيم وانحناء تخطر ببالك صلوات ما بعد الظهر. وكانت الزوبعة محلقة في سماء تلك القاعة المزينة بشجيرات صناعية من دور نابليون الثالث.

ولما صرنا إلى الحلواء كانت السيدة تشير إلى ما حصل في هذا الزمان من التحوّل. فأما الأستاذ فكان يتكلّم كلاماً مطّرداً على إيقاع واحد بدون قطع نفس، نابراً بجمل قصار زواجر جوازم، كأنها صلصلة منبه عند الصباح قد حلّ وقته.

قال الأستاذ: يظهر يا ولدي أنك ماسك سجلاً بكل ما أقول.

فأجبت: بكل ما تقول يا مولاي.

- وأنت تريح في المساء ما سمعته في النهار العقيلة.

- هذا غير جائز.

فقلت: لما كنت جالسا على أفخر سفرة ملوكية أحببت أن ألتقط بعض الفتات لأجل الفقراء الذين في الخارج ولأجل الأعقاب الآتين. فهذه الكلمة جعلت شيئا من الزرقة في تلك السماء التي كانت متلبدة الغيوم.

فقال الأستاذ: لأجل الأعقاب. لأجل الأعقاب! من هم الأعقاب؟ هم أنت وأنا والسيدة العقيلة. لا بدّ من كون كل إنسان عقبا لآخر.

- أنا أصنع لك أيها الأستاذ ما صنع "فلوريانيه Florianet لثولتير".

- لست بثولتير، وأما أنت ففلوريانيه.

(١) وفي الأصل "مادام" وهي سيّدة يظهر أنها كانت متزوجة ولكنها كانت تروق الكاتب العظيم فشغلت قسما من حياته. وقد مرّت الإشارة إليها في ترجمة كتاب سيفور.

- لست بفلوريانيه وأما أنت فقولتير. أو قل ما صنع الأب ليديو (l'Abbè Ledieu) لبوسويه^(١).
 - أنت تفوق في الورع الأب ليديو حال كوني أنا لست بنسر "مو" ثم أي لذة تجدها في التقاط أحاديث ملقاة على رُسَيْلاتها، سائلة على طول لحيتي البيضاء؟ ولا جرم أن هنالك زيفاً كبيراً. على أنه إن كان هذا يلد لك...! ثم من يقدر أن يمنعك؟ وغاية ما أتقدم به إليك يا ولدي هو أن لا تنشر شيئاً من كل هذا ما دمت أنا حياً. لا سيما أنه ليس عليك أن تنتظر طويلاً. فإنك إن فعلت أوقعتها بيني وبين كثير من الناس. فمتى صرت مضطجعاً تحت البلاطة فاجعلني أقول كل ما تشاء^(٢). ثم التفت إلى العقيلة وقال: الآن آيتها الحبيبة يعد ذلك خلقاً مديعاً، وأما فيما بعد فعدّ علماً واطلاًعاً.

شباب من الأقاليم^(٣) يأتي إلى باريس

في تلك الأيام قدم إلى باريس شاب من أهل المقاطعات غض الأهاب حديث العهد بإكمال التحصيل محتقياً محفظة صغيرة مكتظة بالشهادات والكتب الخطية كان يعيش منزوياً في كن صغير من شارع "سربانت" ويقضي وقته منكباً على التنقيب في خزائن الكتب، إجابة لمن يكلفه ذلك من كبار القوم الذين لهم عناية بالآثار القديمة، هذا إلى أن تكون اتسقت له المطبعة والمجد.

ففي صبيحة يوم انتدبه أحد رؤساء طائفة الهوغنوت^(٤) وكان كلفه ببحث تاريخي عن مذبحه سان بارتلمي^(٥) فقال له هكذا: أنا تول فرانس ينتظر ك صباح غد الأربعاء الذي هو نهار مقابلاته، فتدفع إليه هذا المكتوب، فإنه محتاج إلى مؤازر في تأليف كتابه على جان دارك^(٦).

(١) بوسويه (Bossuet)، أشهر من نار على علم، ولد سنة ١٦٢٧ وتوفي سنة ١٧٠٤، وكان مطراناً على بلدة مو (Meaux) فلُقّب لفصاحته ولبوغه بنسر "مو" واتفق أدباء فرنسا على أنه أفصح من ارتقى منبراً في وقته.
 (٢) وقد سمع بروسون رجاءه فما كاد أناتول فرانس يغمض عينيه حتى نقل عنه ما لا يخطر على بال.
 (٣) في الأصل الفرنسي provincial ومعناه إقليمي أي من سكان المقاطعات لا من سكان العاصمة، وهذا كما يقال بمصر: من أهل الأرياف. وكما كان يقال بالعراق: من أهل السواد. وكما يقول الأثراك: طشره لي. والمراد بهذا الشاب هنا نفس صاحب الكتاب.
 (٤) لقب للبروتستانت الفرنسيين.

(٥) ليلة ٢٣ أغسطس سنة ١٥٧٢ في أيام شارل التاسع، ملك فرنسا وبامره. قيل إنه لما تزوج هنري الرابع، قبل أن تولّى الملك بمارغريت، أخذ شارل التاسع، وقد جم غفير من أمراء البروتستانت إلى باريس لحضور الفرح. فألحت على شارل أمه بقتلهم فأجابها: إن كنت تريد ذلك فليقتلهم ولكن فليقتلهم جميعاً. فاندراً الكاثوليك يقتلون البروتستانت أينما تفوهم وأذنت أجراس الكنائس بالغير، فكانت أفجع مذبحه عرفها التاريخ، ذهب فيها النساء والأطفال مثل الرجال وعم الذبح جميع فرنسا واستمر عدة أيام، وكان كثير من أمراء البروتستانت ضيقاً على الملك في اللوفر. فدخلوا عليهم واحداً بعد واحد وجردهم من أسلحتهم ثم جزروهم جزر الشيا، والملك ينظر من النافذة. (ونجد تفاصيل هذه الفاجعة التاريخية في "رواية باردليان، ترجمة الأستاذ طانيوس عبده"، الناشر).

(٦) قهرمانه فرنسوية معدودة في صف أبطال الدهر، ولدت في دومريمي (Domremy) سنة ١٤١٢ وكانت على جانب عظيم من الاعتقاد، حتى كان يخيل لها أنها تسمع أصواتاً أكثرها من القديس ميخائيل والقديسة كاترين. وفي أيامها كان الإنكليز استولوا على قسم من بلاد فراسة فكانت تسمع أصواتاً توحى إليها بأنها تذهب وتنقذ فراسة من أيدي الإنكليز. وما زالت حتى تمكنت من الدخول على الملك شارل =

لا حاجة إلى وصف الدهشة التي استولت على هذا الشاب القروي النابت في أرض غالية رومانية، يحفظ المتون العلمية كلها، لكنه يجهل الآداب العصرية. وما كان يعرف أناتول فرانس إلا بسبب كونه أستاذًا أصوليًا، بل خاتمة الأساتذة الأصوليين المدرسين.

فقضى الشاب ليلة نابغية، لم يكتحل فيها غامضًا إلا قليلاً عند الفجر وطافت على خياله جميع صور المقابلات ونهض من الفراش الساعة التاسعة، مع أن ميعاد الملاقاة كان الساعة الحادية عشرة. فكانت سفرة يقال في مثلها: إلى الشيطان العظيم *vau vert* ^(١).

فمن شارع سربانت إلى مغنى سعيد ^(٢)، مسافة ستة كيلومترات عزم الشاب القروي أن يجتازها ماشيًا على رجليه، لا على سبيل الاقتصاد فقط، بل بعامل الخشية الذي استولى عليه. ومن العجيب أن هذا الشاب كان يتحرق لمشاهدة الكاتب الأكبر ومن جهة أخرى كان يملأه الفرق من أن يتمثل في حضرته. وفي طريقه كان يعوج على بيوت الزرايين ^(٣) التي يشرب فيها العامة وقوفًا أمام دكة الحساب، كأنهم حول مائدة القربان، فكان يشرب من القهوة التي الطاسة منها بنحاستين ويحسو أقداحًا أخرى من المنعشات لتشد من قلبه. وماذا عساها تنفع الأنبذة في معالجة الهيبة.

فلما انتهى إلى مغنى سعيد رانت عليه جلاله المكان، فظن أنه أضاع المكتوب الذي دفع عليه والصحيح أنه لم يقع منه إنما تغبى عليه بين الأوراق من شدة دهشه. فالتا بالارض أمام الأسكفة وألقي في روعه أن الأستاذ قد يخرج، فيقول له: "ماذا تصنع هنا يا عزيزي الشاب، أنت هو الذي أرسله إليّ المسيوم؟" فتكون القضية في غاية البساطة. وهكذا أجمع أن يبقى أمام العتبة إلى المساء. فلم يخرج أحد من ذلك البيت الأبيض. وإنما أقبل بعد مدة شبان غرائق جذبوا الجريس بدون أدنى تردد كأنهم من آلاف المكان. وجوه مشرقة وقدود ممشوقة وحركة مرسله على سجيتها. فجاء غلام ساكن الطائر ^(٤) عبل الجسم ساجي العينين، بقل عارضيه أشبه بالصوف، تشتم منه رائحة خادم دائرة رسمية أو وافه بيعة ^(٥)، نصفه كناس والنصف الآخر

= الثاني عشر أثناء حصار أورليان وأقنعه بصحة دعواها وسارت تقود جيشًا صغيرًا فاضطرت الإنكليز إلى الرحيل عن أورليان ثم كسرتهم في باتاي (Patay) وتوجت شارل الثاني عشر في ريمس. ومازالت تجالذ حتى وقعت أسيرة في أيدي البورغونيين فباعوها من الإنكليز خلفاتهم فأحضرها أمام محكمة دينية حكمت عليها بالبدعة وبالحرير. فحرقوها حية. وأظهرت شجاعة خارقة للمعادية.

(١) مثل عند الفرنسيين *Au grand diable vauvert* وهو كقولك: في داهية.

(٢) الأصل الفرنسي *Villa Saïd* وهو منزل أناتول فرانس الذي توفي فيه. ومعنى كلمة "فيلا" البيت الذي في البرية فاخرنا له كلمة مغنى لأن المغنى هو البيت الذي ينزل به الإنسان أحيانًا.

(٣) اخترناها لكلمة *Bars* التي أصل معناها محل بيع المسكرات ولكونها واردة في كلام العرب.

(٤) أي حلیم هادئ وقور (الناشر).

(٥) الوافه: قيم البيعة.

كنسي. ففتح الرجاج وتناول قبّعات الزائرين ومن جملتها قبعة الشاب القروي. فلم يبقَ على هذا إلا أن يوطن نفسه على اقتحام المأزق، فسار في أثر أولئك الشبان الأمايلد الذين لم تكن منهم إلا ثلاث أو أربع قمصات حتى صاروا في ذروة السلم المحاط بالأمّعة القديمة والتصاوير والصلبان. وفي القسم العليّ الأعلى من القصر بناء أشبه بالبرج له رواق أشبه بأروقة القرون الوسطى، مملوء بالذخائر والدمى وصور القديسين أيضاً. وفي السقف زوايا من الجلد القرطبي في منجور من خشب السنديان. وكيفما أدت لحاظك وقعت على الخزائن والأسفاط، تلمع وراء زجاجها التحف والنفائس الغريبة. أمّا الكتب هناك فلا نهاية لها.

ولمّا صار الزائرون رهطاً فيه البركة تجلّى المعلم في مظهر قدسه. وكان في بذلة^(١) الغرفة، في رجله خفّ من صوف وعلى رأسه قلنسوة حرير وفي يده صورة ونظارة مكبرة. فسلمّ سلاماً خفيفاً مجملاً على الحضور وجلسوا. فاندسّ الشاب الإقليمي وراء درج المكتبة يشاهد أناتول فرانس عين عنة^(٢).

قال أناتول فرانس: قد جئتم في حين الحاجة، فما أنذا أبغىكم تحكمون في قضية: أترون من الواجب أن المصوّر الذي يصنع التصاوير الدينية يكون معتقداً بالدين؟ فقد اشترت منذ أيام هذه الحمراء البكر من تصويره بوشه^(٣) من عند صاحبي بروته^(٤) فالبكر ليست مثلاً للعفاف كما ترون. وربّما كان المصوّر قد مثل في هذه الصورة حليته أو ولده. أفلم يكن رافائيل، مصوّر البابوات، يأخذ مثلاً لجسم مريم العذراء من أجسام الشبان الغرائيق؟^(٥) وقد اطلعت له على مبدأ تصويره كان فيها غلام طلياني بغاية الجمال حاملاً بيده عيبة ثياب. فقد عاد سانزيو^(٦) على هذه الصورة بعد أن بدأها فألقى على الغلام حجاب الحياء وأكبر حنجرتة وهياً من مجموع تلك القراطيس ببراعة قلمه الرصاصي ذلك الطفل الأقدس ضاحكاً من فحصة ذقنه.

فالشاب الإقليمي كان حائراً مبهوتاً حينما كان يسمع الكاتب العظيم يتكلّم على أمور تتعلّق بالفنّ الجميل، لأنه لم يكن حكّ في صدره وهو في قريته أن رجلاً من نوابغ الكتاب

(١) البذلة: من الثياب ما يُلبس في البيت والمبادل كذلك.

(٢) رأته عين عنة أن أراه ولا يراني.

(٣) بوشه (François Boucher)، مصوّر فرنسي، مات سنة ١٧٧٠ ترك رسوماً في منتهى الذوق واللفظ ولكنّه كان يميل في تصويره إلى الخلاعة.

(٤) بروته (Prouté).

(٥) جمع غرنيق أو غرنوق أو غرناق وهو الأبيض الجميل.

(٦) اسم رافائيل، وهو المصوّر الأشهر الذي مع ميكال أنجلوس يمثّل نبوغ هذا الفنّ في العالم. لم يعيش طويلاً إذ ولد سنة ١٤٨٣ ومات سنة ١٥٢٠ وكانت عبقريته قائمة برشاقة الحركات ووضعها في محلّها وتناسب الخطوط مع تنامي الألوان في اللطافة. ولم يكن أحد من بعده يقدر أن يشقّ غباره في تصوير العذراء بشبابها ونعومة أهلها مع سيماء طهرها.

يكثر بالتصوير. وكان أثناء الحديث يحدج أناتول فرانس ببصره بتحديد شديد. فرآه طوال القامة عبلاً، مائل الوجه إلى الطول. وكان يظنه أقلّ شيخوخة لأنه كان يراه من خلال بلّور إنشائه ريان من الحياة. ومع هذا فقد كان يلوح على الأستاذ أنه لا يريد أن يتمشيخ ولا أن يتهازم ولكّنه يريد أن يعيش معيشة البطاركة. وفي آخر المجلس دنا إليه كثير من الجماعة بقصص لهم، فلمّا شاهد الشابّ القروي ما هناك، من التماس التواصي والشفاعات ومن استكتاب الرقاع، جن عن إخراج المكتوب الذي معه وأبلس هكذا، لا يدري ماذا يصنع وراء درج المكتبة التي كان قابلاً عندها. وتقوّض المجلس ولم يبقَ فيه سوى رجل دميم أعور، قصير القامة، كثير الحركة، غاسقونيّ الطبع^(١)، ألقى على الأستاذ بعاعه^(٢) وحبسه مدّة وهو يسرد له قصّته. فمدّ فرانس يده إلى جيبه وأخرج منه محفظة استلّ منها ورقة بمائة فرنك ناولها ذلك المُلحِف ثمّ ضمّه طويلاً إلى صدره وقذف به شديداً صوب الدرج. ولمّا سمع صكة الباب صاح من عن قرص الدرج: جوزيفين جوزيفين أنا لا أقدر أن أتحمّل أبداً هذا العفريت. إنّ هذا إلا ملك الشحاذين.

ثمّ دخل أناتول فرانس إلى غرفته فقام الشابّ القرويّ على رؤوس أصابعه وانصرف وقد طار قلبه شعاعاً. ولمّا صار إلى الشارع مزّق الكتاب الذي كان أخذه واسطّطه للقبول وأخذ ينظر إلى قصاصاته وهي تتطاير تطاير الهوام. نعم، نبا به الإقدام وكان في الحادية والعشرين من عمره فهو حرٌّ بالغ، إلاّ أنه كان منذ التاسعة من عمره قد وُضع في مدرسة داخلية.

ثمّ بينما هو في البيت وجد على مائدة غرفته التي كانت من خشب أبيض رسالة وصلت إليه بالسريع بخطّ الكاتب الأكبر نفسه رقعة يقول له فيها:

- "انتظرتك الصبيحة بطولها فلم تجئني. أفتراني أخيفك؟ سأكون في مغنى سعيد متفرّغاً لك غداً صباحاً. أناتول فرانس". ففي النهار المعين حاولت الخادم عبثاً أن تمنعه من الدخول، لأنّ الفتى الإقليمي وضع لها أنفها كتاب الأستاذ فقهرها. ودخل فوجد الأستاذ في المكتبة ودار بينهما الحديث الآتي:

- كم يؤدي إليك المسيو فلان... على الذي تجمعه له؟

- لا شيء.

- إذا أنا أضاعف لك راتبك.

ثمّ شرح له ما يبغى منه وهو أنه منذ عشرين سنة يشتغل بسيرة جان دارك. وكان قد أضرت

(١) نسبة إلى بلاد غاسقونية، والفرنسيس يقولون غاسقوني للخفيف أو للهبال.
(٢) ألقى ثقله.

بإتمام قصة هذه العذراء التنقل من بيت إلى آخر والتحول من حال إلى أخرى، فضاعت الوثائق والشواهد التاريخية فهو الآن يتوخم أوثق الروايات وأبدعها وأعلمها وأجزلها بركة ليخيط أفواه الذين يقولون إنه لم يكن إلا رجلاً قصاصاً.

«أفلا يأتي عن ذلك ورقٌ» كثير؟ ولا جرم أنه يأتي عنه أيضاً ورقٌ كثير!«.

أيتها الطبيعة احفظيني مما وراء الطبيعة

ثم سألني فجأة:

- هل أنت مُعتق؟^(٣).

فتحيرت بما أجاب وأغلق عليّ. فإني لم أفقه ماذا يعني بقوله «معتق» هل يريد أنني طليق من الخدمة العسكرية، أم ماذا؟

فقال وأوضح:

- هل أنت معتق من العقائد الدينية. أعلم أنه ليس في هذا السؤال شيء من الخفة، بل أنا أقول لك هذا كما لو قلت لك:

«هل لك معدة قوية؟ أو هل تشكو من كبدك؟ فإن الإنسان يولد مؤمناً أو غير مؤمن كما يولد صلب الشرايين أو كما يولد مسلولاً أو مُصاباً بالسرطان. ولا تنفع الدعوة والإرشاد من بعدها شيئاً. أظن أنه يوجد ملحدون اليوم، أكثر مما كان يوجد في القرن الخامس عشر؟ لا أظن ذلك. وإنما في ذلك الوقت كانوا يخافون العذاب فيتظاهرون بالتقوى. فمن يولد واهن العقيدة يبقى طول حياته واهن العقيدة، والعكس بالعكس. إن فاقد الإيمان ناقصاً فيه العضو اللازم لقبول الوسواس. فهو أشبه شيء بالخصي بالنسبة إلى السماء.

إنني أنا مصاب بهذا النقص وإن شئت فقل بهذه الموهبة. ولهذا تراني أسألك عن هذا الموضوع باهتمام. وأرى أن علماء التشريح سيجدون في يوم من الأيام مكان العقيدة من أعضاء الإنسان والعلّة في وجودها. ولا أعلم شيئاً أشدّ على المعتقدين من فكر ألبرويار^(٤) في فصله - المتأهم في الضعف - على العقول القديرة.

(١) ورق بالفتح: القراطيس.

(٢) ورق بالكسر: الدراهم.

(٣) في الأصل الفرنسي libéré.

(٤) لبروير (J. de la Bruyère)، أحد حكماء الفرنسيين والفلاسفة الأخلاقيين، ولد في باريس ومات سنة ١٦٩٦ وكان معلماً لحفيد البرنس كوندي (Condé) الشهير، وهو معدود رأساً في علم تصوير الأخلاق. وجرى منه كلام جريء مدهش بالنسبة إلى عصره على المظالم الاجتماعية وحمل على تفاوت درجات المعيشة بين الأغنياء والفقراء وعلى فقد المساواة بين البشر، وأشار إلى تمتع كثير من الكبار بنعم الحياة من دون استحقاق، وله كلمات تجري مجرى الأمثال.

ثم تناول كتاباً من كتب لابرويار عن مكتبته وأخذ ينوّه بفضل المطبعة التي صدرت عنها هذه النسخة وأنها أشرف المطابع. ثم وصل إلى محلّ الشاهد الذي يريده فقرأ: "يحصل الشك للإنسان في ذات الله وهو في حال الصحة فإذا استمصلت كرشه مرة ترك حظيته ونادى القسيس". قال أناتول فرانس: "نعم، في الغالب يكون استدعاء الكاهن مصاحباً لاستدعاء الطبيب، لأنّ التياث الجسم يحدث اختلاط النفس وما كان الاعتقاد والإيمان إلاّ أمراضاً وهي في أكثر الأوقات تماماً ينتقل بالوراثة. وقد يعيش معها الإنسان طويلاً من دون أن تشتدّ مشاقتها كما يعيش طويلاً مع السلّ ومع تصلّب الشرايين ومع السرطان. ولكن إذا أذف موعده التقاضي فسرعان ما يعكف الإنسان على الله وعلى العقاقير. وبالاختصار، فبضعة غرامات من السكر تزداد في بول من كنت تعهده واهي العقيدة وإذا به ذهب إلى القدّاس". ثم عاد إلى لابرويار عذيقه المرجّب وقرأ: "حقاً إنّ الموت أمرٌ عظيم" فأطبق الكتاب باشمئزاز وأخذ يهزأ قائلاً: "ما هذا التخليط! لعمرى، ليس الموت بأصعب من الولادة. وإنّما هو منزع قوس وغلوة مرمى ينجح ببلوغ غايته كلّ الناس على السواء. وهذا الخطّ قد يكون أطول أو أقصر وأميل أو أقوم، والنهاية يخرج الإنسان من الرحم ويدخل في بطن الأرض التي يبلى فيها^(١).

المعلّم

دعوته مرّة بـ "يا معلّم" فدهني قائلاً:

"هل جحدت إيمانك يا صديقي الفتى؟ عهدتك قد غذيت بالأسفار المقدّسة، فهل عصفت بها ريح المعاصرة وكنسّتها من دماغك؟ إنك لتذكر من الإنجيل هذا النصّ الذي لا مساغ فيه للاجتهاد: لا تدعو أحداً يقلّ لكم "ربّي" لأنّ واحداً أحداً هو ربّكم وكلّكم أخوان. وأنا قد دعوت أيضاً بـ "يا معلّم" أناساً من الأكاديميين^(٢) لعهد حدثني. وأعلم ماذا يراد بذلك. فالمراد من هذه الكلمة ليس المفهوم اللغوي أي "أستاذ" أو أنك تساوي ثلاث مرّات واحداً مثلي أو ثلاث مرّات سائر الناس، بل المراد من النداء بها "أنك أنت يا معلّم المدرسة المسكين الهرم

(١) وما الكون إلاّ أرحام تدفع وأرض تلبع.

(٢) أعضاء الأكاديمي academie وهي كما لا يخفى الجمعية العلمية الفرنسية الكبرى وهي تُطلق على خمس جمعيات. الأولى الأكاديمي الفرنسية التي أسسها الكردينال ريشليو سنة ١٦٣٤ وهي مركّبة دائماً من ٤٠ عضواً ومهمتها تحرير معجم اللغة. والثانية جمعية الآغار الكتابية والآداب الظرفية أسسها كولبر سنة ١٦٦٣ ومهمتها المباحث التاريخية والآثار الحفرية، وأعضاؤها ٤٠ أيضاً. والثالثة جمعية العلوم الأدبية والسياسية وهي كذلك أربعون وتُمنى بالمسائل الفلسفية وبالاقتصاد السياسي وبعلم الحقوق والتاريخ العام أسستها الجمهورية بعد الثورة. والرابعة جمعية العلوم المطلقة أسسها كولبر سنة ١٦٦٦ للدرس الرياضيات والكيمياء والطبيّيات، وأعضاؤها ٦٨. والخامسة جمعية الفنون الجميلة، وأعضاؤها ٤٠ كلّهم من الرسّامين والنقاشين والنحاتين والموسيقين الذين نبغوا في عصرهم وقد تأسست في سنة ١٧٩٥ وكلّ هذه الأكاديميات يدخل الإنسان إليها عضواً بالانتخاب.

الماج^(١) "السائل اللعاب أكثر من إناء خردل أنك تتطرح ذات اليمين وذات الشمال تطرح شيخ كبير فان وتردد الكلمات بعينها. وكأنك تطمع أن تكون إلها. فلا تترث كثيرا بعد في هذه الحياة الدنيا فقد طال مقامك وأن الأوان أن تترك المحل فارغاً للشبان".

نعم، يا عزيزي هذا ما يفكر به المجرمون الصغار، الذين يبخرون بقوة أولئك الأصنام الكبار الذين بلغوا من الكبر عتياً. لا تحتج على كلامي! فقد كنت مثلك، وأنا أتذكر الزمن الذي كنت أقول فيه لرنان^(٢): "يا معلّم. وسيأتي يوم تصير فيه مثلي ويقال لك فيه يا معلّم. نعم، نعم، أنت أيها المعلّم بروسون! وتصل إلى هناك بأسرع مما تظنّ، عندما تكون أستاذتي صارت طعام الدود.

ولكنني على شاطئ نهر جهنم أكون حككت بيدي وعند ذلك أكون أخذت بثأري".

الصباح حبيب آلهة الشعر

"نعال غداً صباحاً لنشرع في الشغل"، قال هذا وهو يومئ بيده إلى سقف غرفته المزين برموز إيطالية: إحدى آلهات الشعر، مضطجعة على فراش ناعم من حَمَل السحاب، بيدها لوح وخنجر مثلث النصل ولها منظر يأخذ بمجامع القلوب. وقد لعبت حولها عادة رعبوب مرخاة الذوائب. وفي زاوية من تلك الصورة خيل الإله فيوس^(٣) وهي تشبّ به ذاهبة بإله النهار إلى مروج السماء. وثمة رؤية مكتوب عليها: Aurora Misis Amica أي الفجر حبيب آلهة الشعر.

فقال: يا عزيزي اجعل برنامجك هذه الحكمة: الفجر هو أحبّ حبيب إلى آلهة الشعر. فأت غداً صباحاً في أي ساعة أردت وكلّما بكّرت كان ذلك أحسن. فإني أبغي الخلاص من قصة هذه العذراء جان دارك وأنا لا أنام إلا غراراً ولا أنام بجملاء عيني، فأهلاً وسهلاً بك في أي وقت جئت.

ففي صباح اليوم التالي كنت في الساعة السابعة في مربع سعيد فجذبت بيد مرتجفة النحاسية الحمراء التي من زيّ القرن السادس عشر المتصلة بالجريس الكهربائي. فإذا بهذه الهنة الفلورانسية الأصل غير شديدة الملاءمة للاختراعات العصرية. فحرن الجريس ولم يجب. وكأنما كان نائماً

(١) الماج: في اللغة الشيخ لا يقدر أن يسك ريقه من الكبر، وفي الأصل الفرنسي baveux.

(٢) لرنان: رنان الفيلسوف الشهير، صاحب كتاب "حياة يسوع" و"أصول النصرانية" وغيرها من التأليف التي أحدثت ثورة عظيمة في الأفكار. وكان كاتباً سحراراً ومؤرخاً بلغ ما لم يبلغه غيره من الإحاطة، فانفرد بنظريات جريئة وصار في وقته نسيج وحده، (١٨٢٣ - ١٨٩٢).

(٣) فيوس (Phæbus Apollon)، ويقال له أبولون هو إله الشعر والطب والفنون ورعاية المواشي والليل والنهار في أساطير اليونان والرومان.

مع سائر أهل المنزل. فجذته كرة أخرى فلم يجب أيضًا: وكانَّ المنزل كان كلّه ميّلاً حركة له. ففي المرّة الثالثة شددت الجذب بعض الشيء وتذكّرت ساعتئذٍ أيام الحداثة، عندما كنت أفرع الجرس لصلاة الفجر تذكّاراً جميلاً ولكن ربّ هذا البيت لم يتجلّ أصلاً. فماذا العمل؟ قعدت أتأمل في الباب فرأيته أشبه بكوة غير نافذة يساعد منظره على التفكير، فكان مرصعاً بتمائيل عتيقة: امرأتان من نحاس أصفر عليهما الخوذ "بلون" (١) و"مينيرفا" (٢) هما فيه مقبض اليد والمسامير وصفائح الحديد وعنق القفل كلّها قديم في قديم. جذبت الجريس مرّة أخيرة فلم أجد إلاّ السكوت فحينئذٍ جثمت على الدرج التي أمام الباب وفغرت فمي وصرت أنظر نظر المبهوت.

وكان ذلك في شهر يونيو، والجوّ بديع الصفاء ونسمات الربيع تهبّ على وجهي من نواحي غابة بولونية. وكانت في ذلك الوقت المخارف المؤدّية إلى مربع سعيد مخضرة بالعشب سائداً عليها السكون كأنها صحن دير - بُني فيها بعد ذلك فنادق باذخة - وكانت ثكنة (٣) من العصافير الدارية الوقيحة تعيش في ذلك المكان وتثر ذرافها. وكان الوقت بدأ يمرّ وأنا أشعر بهروبه.

وإذ بغلام بائع زبدة، على رأسه طاقة يهزّ صحافه مختالاً قد أقبل فطارت العصافير ذعراً، وجاء هذا الطامث وعلّق صحيفة اللبن برأس مينيرفا. فجذبت الجريس جذباً مديداً وعوّلت على أنه إن لم يبرز أحد أغادر تلك القرية الأسطورية التي هي من قبيل الحسنة في الغاب النائم (٤). وبينما أنا في هذا الفكر إذ سمعت كطلق مرزح (٥) صرير الحديد من فوهة السقف وتلا الصرير صوت حدّ خالٍ من اللطف خارج من بين جدائل الشعر.

- ماذا تصنع هناك؟

ظنوني سائلاً أو سائحاً.

(١) بلون (Bellone)، آلهة الحرب عند الرومان.

(٢) مينيرفا (Minerve)، آلهة الحكمة والفن، وهي ابنة جوبيتر.

(٣) الثكنة: السرب من الطير.

(٤) هذه إشارة إلى قصة من حكايات القصص الفرنسي بيرلوت (Perrault)، وهي أنّ جنية نامت مئة سنة ثمّ استيقظت وتزوجت بأمر صبح الوجه فولدت ولدين الفجر والنهار وعاشت سعيدة بالرغم من سوء خلق حمايتها.

(٥) أنا لا أعتقد أنّ المرشح هو مقلوب المسرح ولذلك لا أصحّحها بمسرح كما جرت عادة الكتاب في تعريب "التياترو"، بل أقول إنّ المرشح هو تحريف مرزح وهو ما اطمأنّ من الأرض، وبعبارة أخرى الساحة، ومعلوم أنّ الألعاب كلّها إنّما تكون في الساحات ومن ذلك قيل للمكان الذي يجري فيه اللعب أو التمثيل مرزح وحرّفها العامة مرشحاً كما يحرّفون كثيراً من الزاي إلى السين ومن السين إلى الزاي.

فمسكت قبعتي بيدي واعتذرت، وبعد أن حملت جوزيفين فيّ قليلاً عرفتني، وقالت

لي:

- أهو أنت الذي يعمل هذه الجلبة؟ ماذا أصابك، أسقطت رأساً عن سرير النوم؟
- الأستاذ أعطاني موعداً الساعة الأولى.

- الساعة الأولى؟ وهل يعلم ماذا يقول؟ الساعة الأولى هي الساعة التاسعة في باريس، وأنت ابن بلدك. فانتظر أن أفتح لك، ثمّ انحدرت وهي تزمجر. وفتحت ذلك الرتاج الغيور الضيق الصدر. ولما شرعت تفتح شيئاً بعد شيء عرفنا كمّ يحمي رقاد الأستاذ من عوارض حديدية وسلاسل فولاذية وإقفال بضعها فوق بعض. فولجنا في الدهليز، فما هو إلا صومعة كنيسة. فأول ما يستقبلك مستديراً العمود الذي يحمل الدرج عمال العذراء حاملة الطفل الإلهي.

وكانت جوزيفين قد هدأ روعها، فقالت لي:

- هل طعمت شيئاً أم لا تزال على الريق؟

- لا أزال على الريق.

- أمجنون أنت؟ فالإنسان في مثل سنّك يجب أن يعتني بأن يقيم صلبه وليس من شيء

أضرّ من الخروج بدون غداء. وإذا أصابك السلّ الرئوي...

وإن كنت تريد أن تنتظره فنأتيك بسخن تشربه.

- من هو الذي تعنين؟

فوضعت جوزيفين إصبعها على شفيتها غاضة من صوتها، وقالت:

- اصمت، هو لا يزال راقداً.

- الأستاذ؟

فاستفزت لفظة "الأستاذ" جوزيفين وردّدت:

- الأستاذ، الأستاذ، وأنت أيضاً أستاذ. ماذا أصابهم جميعاً حتى يقولوا له دائماً أستاذ؟ أيّ

أستاذ يا عزيزي؟ أستاذ المرق الذي يأكله؟ وليته يعرف أن يأكله؟ مسكين هذا الأستاذ! لولاي

ما كان يقدر أن يلبس سراويله.

ثمّ ألقت السمع، وقالت:

- هو يتركنا بسلام إلى الساعة التاسعة لأنه غريب العقل ولا يعلم ماذا يريد. وبينما هي

تقول هذه الكلمات أشارت إلى رأسها ودقته بأصبعها في موضع الإيماء إلى ضعف عقل الأستاذ. ثم دخلت إلى الطبقة السفلى من الدار حيث كانت تنبعث رائحة الخبز المحمص والشوكولاتة. فلبثت أنظر إلى متاع الدهليز. وكان في مبداء الدرج نحو من عشرين مفتاحاً معلقة صفاً كما في فندق منتظم. وقد نيطت إلى حلقة محفور عليها Nisi Dominus custodierit domum أي أن لم يكن سيد البيت حارساً...

وكانت تلك المفاتيح الجميلة رومانية ولاتينية وقوطية وكان أحدثها عهداً ابن ثلاثمائة سنة بالأقل. فهناك آلهة يونانية تتبسم نحو العذراء. وهنا على متاع ألماني بين مرفعين قطعة من سفلى مرسلية القديم تتدلى منها عناقيد العنب والدراقن من لامع الخزف.

ثم عادت جوزيفين ويدها جفنة فيها كوب يتصاعد منه عثان الشوكولاتة المتحركة وصحن من الشواء من تلك الصحف المنسوبة إلى شركة الهند. كما أن نصاب السكين الذي توضع به الزبدة على الرغيف هو من عهد شركة الهند أيضاً. وكذلك السكرية وسائر أدوات السفرة إلى ملعقة الفضة الصغيرة ذات الرسوم كلها من الصناعات العُدُملية القديمة وكلها في غاية من سلامة الذوق.

فوضعت جوزيفين الجفنة على سهوة⁽¹⁾ (أسكملة) وأخرجت من جيب مئزرها قينة من هذا الخمر الطيب الذي فيه من الكولا المقوي للأعصاب المنبه للقلب مما اعتاد أعظم رجالاتنا أن يتغوثوا بخواصه المنعشة. فملأت نصف قدح وأفرغته في فمي إفراغاً.

- يلزم قتل أسود.

ثم صبت فوق قدح واحتست هي جملة أقداح، وقالت:

- هذا لا يكلفه شروي نقير فليس إلا أن يكتب كلمتين، فتأتيه صناديق مسقطة ولما أخذ منها الشرب مأخذه أبانت لي عن ذات صدرها فرأيت روحها ملأى هياجاً وحسرات.

- أتظن أنه من الأمور التي تلذ المرأة أن تعيش في وسط هذه الشيخوخة؟ وأخذت تدل على هذه الأمتعة العتيقة.

- ثم رشفة أخرى. إنك لمخطئ. فإن هذا مما يقويك.

ثم قالت: إذا هكذا ستكون كاتب سره. لا جرم أنه لا يمضي عليك قليل حتى تبرم لأنه لا يوجد أغرب منه عقلاً، أه لو لم أكن أنا هنا...

(1) السهوة: ثلاثة أعواد أو أربعة بعضها على بعض فيجعل فوقها مكان لوضع المتاع.

قل لي: ألك خطّ جميل؟ واحسرتاه على ولدي الذي كان يمكن أن يكون كاتبًا موافقًا، فقد كان خطاطًا بديعًا حاز في المدرسة جوائز الخطّ المدوّر والقوطي^(١) وذي الأوصال المستديرة. وكان أرفق من في المدرسة يدًا. وهو الذي كان ينمنم التقارير التي تقدّم للمعلّم. ومتى انتدحت الفرصة أطلعك على الرسائل التي كان ينمّقها لي في عيد رأس السنة. وكان الناس يقصدونني ليأخذوا رفاعًا من خطّه.

ثمّ أومات هكذا بيدها مع شيء من الاستخفاف إلى الطاق الذي ينام فيه الأستاذ، وقالت:
- أمّا هذا فكلّ عمله تخليط ومجمجة^(٢)! آه لو تعلم ثقل يده وكم يقضي من الوقت في التمريق والإعادة. آه شتان ما بين خرمشته^(٣) وبين خطّ ابني ساريك مكاتبه.
ثمّ شرعت تبكي بملء مآقيها، ثمّ قالت:

- مات وهو ابن ثماني عشرة سنة. وكان مستقبله بسامًا. ولو كان بقي حيًا ما كنت أنا هنا. فاعلم أنني لم أكن طول حياتي بائسة، بل إنني سليلة بيت معروف كان والدي من أكبر تجار الجوخ في جنيف، وكان في عرسي ثلاثة أختان شرف، لكن مات بعلي وترك لي تركة معقّدة فاضطررت الأمر إلى أن أكل خبزي من عند الآخرين.
وإذا بالساعة التاسعة قد دقّ جرسها.

فقلت لي: خذ البريد. فإنّه صار يلزمني أن أوقظه من رقادته. فإذا لم أكن هناك فهو لا سيقظ أبدًا هذا الذي تلقّبونه بـ «الأستاذ».

وتناولت الجفنة وكانت الشوكولاتة قد جمدت وصعدنا معًا السلم، وهي سلّم تحف بها من جانبيها صور القديسين والذخائر الدينية والمباخر والصلبان، ولما صرنا إلى الطاق الأول الذي فيه غرفة منام الأستاذ وخزانة الكتب قرعت جوزيفين الباب. فخرج صوت فيه أنه ضجر مع شيء من الغنّة يقول: ادخلي.

ووراء هذه الصوت دندنة تأوّه:

- كنت ظننت أنك متّ وكنت تسلّيت بذلك، فقد أهملتوني كأنني لم أكن شيئًا.

ثمّ زبحت السجوف فأشرق الضياء على الغرفة الغربية الشكل وظهر من تحت مظلة

(١) القوطي: يقال لما هو غير روماني أشبه بالعجمي بالنسبة إلى العربي.

(٢) التخليط في الخطّ: هو المجمجة، وفي الأصل gribouillage.

(٣) إفساد السطور يقال له خرمشة، وفي الأصل barbouillage.

مريشة فوق سرير نسوي رجل مكنتل سوداوي معتم بقطعة حرير مرقوم من الوشي الهندي
نصفه الأعلى محزّم بأصواف لا تُعدّ ولا تُحصى. خلقه تخطر ببالك المريض الوهمي. ولكن ما
لبت الأصواف أن أخذت تتقلّص فظهر من ورائها الشعر الأبيض الفضي سائلاً فوق شقق الخز:
وبدت أرنية أنف محدّدة تهزأ وتنخر.

- ما هي حال الجو؟

- جو الفصل؟

- لا تريد أن تحملي مسؤولية شيء. ومن هذا الذي هناك؟

- المسيو بروسون.

- سامحني يا صديقي الشابّ على أني حمّلتك رؤية مكارهي. أتعلم كيف قضيت ليلتي؟
مثل المحكوم عليه بالسجن المؤبد، إذا دخل المطبق. فالحمّي لم تمهلي ساعة واحدة فأخذت أتلهي
بقراءة تأسيت^(١) وكازانوفا^(٢) فإن دام هذا فأنا تقريباً في المقبرة.

فاعترضت جوزيفين:

- لا تصدّق ممّا يقول ولا كلمة. فقد سمعته من غرفتي التي هي في الطاق الأعلى يغطّ
غطيطاً كأنما ينفخ في الصور.

وكان على مائدة صغيرة، من زي لوييس الثالث، عشرة مجلّدات في وسطها مقاريض
ورق غريبة الشكل. وقنيّة ماء معدني مجاورة لدواة من قصدير ومسرجتان من مسارج
الكنائس عليهما شموع من النوع الأصفر، قد فني نصفها وهي شموع لا توجد إلا في الكنائس.
ولا شك أنّ جوزيفين كان ينبغي لها أن تقصد مخازن مخصوصة لشرائها فلم يكن ينقص
عندها إلا القدّاس، وكانت أنوارها الدينية تضيء ما هناك من صور كازانوفا^(٣) الطبيعية.

وبينما صاحبنا يشكو تلك الحالة السيئة التي قضى عليه فيها بالضعف والهرم والعجز
والموت إذ رأته نطح الزاد بحماسة شديدة فلا الشوكولاتة ولا الفطائر ولا الشواء بقي منها
شيء. فكانت حرارة معدته دامغة تكذب ما سبق من شكواه. وكان مع ذلك يقول: أنا شيء
تافه. قل لي بعيشك ماذا أصنع هنا؟ وبلايتهم يتركونني براحة، بل جميع مزعجي الدنيا تعاطوا
كلمة واحدة وهي أن ينفصوا عيشي.

(١) جاءت هكذا في النص، والمقصود هو تاسيت، وهو مؤرّخ روماني بليغ العبارة طائر الذكر.

(٢) كازانوفا رحالة من البندقية، كان قصاصاً لطيفاً ولكنّه كان ماجناً خليعاً.

(٣) هذا أخو كازانوفا الأول، وكان مصوراً ماهراً للرياض والطبيعة.

المغطس الجنى

ثمّ أشار بملل زائد إلى البريد الملقى على اللحاف. وبين اللقمة واللقمة جمع ما هناك من مكاتب وجرائد ومجلاّت وكتب وانتهى من النظر إليها. ثمّ قال وهو يرمي الكتب إلى الأرض.

- إلى المغطس، إلى المغطس!

فلما رأني عجبت من ذكر المغطس في هذا المقام، قال:

- هناك على جنب هو الحمام. وفيه مغطس كسائر المغاطس لكنّه مغطس مسحور. مغطس جنى. أراك تضحك أيها الشقيّ الصغير! فإذا قلت لك إنّ هذا المغطس هو أكبر من الحمام نفسه لم تصدّقني. ومع هذا فهذه هي الحقيقة. لا شك أنّ المهندس الذي هندس هذا الحمام كان ذا عبقرية قائمة بذاتها. فقد أراد أن يوفّر من المساحة فأحدث هذه الطرفة البديعة: حمامًا لطيفًا إلاّ أنه يستحيل الاستحمام به لضيقه. ولما كان لا بدّ من أن يكون لكلّ شيء فائدة في هذه الدنيا فقد جعلت هذا المغطس الذي لا يسعني أدخل فيه لوضع الكتب التي أرشّق بها. فإذا امتلأ الحوض وقال قطني، جاء أحد تجار الكتب العتيقة فاشترى ما فيه. والسعر محدود. فمهما كانت الكتب وأيا كان مؤلّفوها وسواء كانت نظمًا أو نثرًا فالسعر خمسون فرنكًا. وأول مرّة جاء الكتيبي وساوّمته على الصفقة كنت أرتجف قليلاً. وكنت أقول في نفسي لو تقاضاني خمسين فرنكًا، بل مائة فرنك على أن يرفع هذه الأكمة من هذه السفاسف لما كان كثيرًا، وإذا به هو قد أخرج ورقة بخمسين فرنكًا وناولني إيّاها: هذا، ثمّ انتهى من الكتب إلى الجرائد والمكاتب فوضع على حدة «الأومانيتيه»^(١) و«الأكسيون»^(٢) و«الفيغارو»^(٣).

ثمّ قال لي: يا حضرة الناموس^(٤) خذ هذا البريد. فإنّ صاحب السرّ ينبغي كما لا يخفى أن يكون حافظًا أسرار سيّده. هذه الأسرار العظيمة التي هي في هذه الأوراق! فأنا أعتد على أمانتك في حفظها. والحقّ أنه لا يجوز الاعتماد على أمانة أحد فأقذف بهذه الكناسة كلّها في النار فيكون أقرب طريقة.

(١) L'Humanité: جريدة الاشتراكيين الكبرى والآن هي لسان حال الحزب الشيوعي.

(٢) L'Action: جريدة كان أناتول فرانس يكتب فيها.

(٣) Le Figaro: جريدة شهيرة بحسن الإنشاء، تميل إلى حزب اليمين.

(٤) الناموس: صاحب السرّ.

فلما رأني ترددت قليلاً في القذف بها ندهني: في النار! في النار! إلا إن كنت تريد أن تجاوب على جميع هذه المكتوبات، فهذا شغلك إن كنت تريد.

انظر إلى نفسك

على أنه أنقذ من النار مكتوباً واحداً، قال عنه: أما هذا فإني أقرأه. هو من مجنونة تكتب لي كل يوم، داعيةً إياي أن أنظر إلى خلاص نفسي. تطلع إلى الغلاف فإنه محرر عليه بالوان مختلفة، فـ "مسيو" هي بالأزرق و"أناتول فرانس" بالقرمزي و"من الأكاديمي الفرنسية" بالأخضر ولا أعرف هذه الملمومة^(١)، وإنما أشكرها على اهتمامها هذا كله بخلاص نفسي. وعلى فرض أنها ملموسة، فليست بأشدّ جنوناً من كثير من بنات جنسها. ولاحظ أنها تغريبي بإنقاذ نفسي، مما يدلّ على أنّ قضيتي ليست مما لا تقبل فيه التوبة. لا جرم أنّ رسالة رنان كانت أشدّ قسوةً فقد كانت تكتب إليه كل يوم: "اعلم أيها السيد أنّ هناك جهنم" آه أيتها الملموسة عندنا الأرض فهي كافية.

ثمّ قفز أناتول فرانس عن سريره برشاقة الشباب وأخذت جوزيفين تعاونه على لبس سراويله التي من نوع سيقان الفيل وتناوله قباءه الناعم وكانت وهي تعقد له زماماته تقويه قائلة له:

من تراه أشدّ منك عضلاً وأنت لا تزال تشكو وتتننّ، مع أنك تنام نوم القطط وتأكل أكل الذئب.

ثمّ أتخذتني شاهداً.

- قد رأيت ساقيه؟ يظنّ الإنسان جسده جسد غلام من شدة غدنه، فهو أبيض مثل شحم الدجاجة. لكثير من الشبان يشتهون أن يكونوا مثل السيد.

فهذا التقريظ لم يغيظ الأستاذ، فقال لها بصوت رقيق:

- جوزيفين، أنت امرأة جيّدة وأنا مسرور جداً بوجودك عندي لأنك ذات قيمة عظيمة لي.

يا لها من كُمة

فأتت جوزيفين بسلة صغيرة ملأى بأصناف الكُمم^(٢)، فصار الأستاذ يأخذ الواحدة

(١) الملموم: الذي به لَمَم أو طَرَف من الجنون.
(٢) جمع كُمة، وهي للقلنسوة المدوّرة لأنها تغطي الرأس (الناشر).

ويجسّها ويتقلنس بها ثمّ ينزعها ويرمي بها ويأخذ غيرها. وكان هناك ما يستحقّ التردّد لكثرة الكمم وكون كلّ منها أحسن من الأخرى. فمنها من الحزّ ومنها من القطيفة ومنها من الكتّان ومنها ما ينزل إلى ما فوق الأذن، مثل قلنسوة البابا وبعضها كقالب السكر يشبه الطربوش. فاختر في الآخر قلنسوة من نسيج جوي^(١) ولبسها، وقال: الآن سنشتغل. فما لبث أن تكاثر الزوّار.

حامية المنزل

التجّاناً في هذا الصباح إلى المكتبة الكبرى بإزاء غرفة النوم. وكان فيها موقد كبير على شكل قفص من حجر وسجّادات مقلوبة تجعل ما وراءها أشبه بممتدّ عذلة. وفي الخزائن، وراء ألواح الزجاج تماثيل من تناغرا^(٢) وآنية أترورية^(٣) وآنية مصرية. وفي خزائن أخرى مجلّدات عليها رسوم وشارات ومداليّات، وإلى جانب النافذة مائدة واسعة من خشب السنديان. وبالإجمال فهذه الغرفة كسائر هذا القصر أشبه بدار التحف المنسوبة إلى فيكتور هوغو. وقبل أن يجلس على الكرسي التي فيها، من طراز لويس الرابع عشر، أخذ أناتول فرانس يرثي تماشال الزهرة^(٤) المهشّم المنصوب على قاعدة متحرّكة ثمّ شرع بواسطة ملوى بيده يدير تلك الآلهة ويجسّها لها بطنها وحقوقها.

- انظر ما أجملها! هذه حامية المنزل، اشتريتها من رومة لكنّها من بلاد اليونان في الأصل، تعرف ذلك من شكلها ومن جنس المرمر. فلنضع نفسنا تحت حمايتها قبل أن نبدأ بشغل العذراء (جان دارك).

أتظنّ أنها كانت حقّاً بكرّاً؟ فلتكن كذلك من سوء حظّها. لو تعلم كم عانيت حتّى تمكّنت من أخذ زهرتي هذه من رومة، فإنّ الحكومة الإيطالية كانت تمنع إخراج التحف من رومة ولكنّي تعرّفت إلى الأب فلان الفرنسي الذي كان من حاشية البابا. وكان في الوقت نفسه أشبه بمدبر مصلحة أثرية. ومن غريب أمره أنه يتوسّط للناس بمقابلة البابا ويأخذ ذخائر مقدّسة وبنيل رخص زواج وطلاق وألقاب شرف ومداليّات وتماثيل الزهرة وغانميّد^(٥) ولم يكن فاتحاً دكّاناً

(١) Jouy بقرب فرساي.

(٢) Tanagras من بلاد اليونان، كانت في الغابر موصوفة بصناعة التماثيل.

(٣) بلاد أترورية، هي ما يقال له اليوم توسكّانة من إيطالية، أهلها من الجنس الآري أصلهم من آسية الصغرى، تفوّقوا على سائر أهل إيطالية بالعلم والتهديب وكانت لهم في القرن الخامس عشر قبل المسيح اثنتا عشرة جمهورية متحالفة فيما بينها. ويُنسب إلى أترورية أجمل الآنية الخزفية. وأنقنوا كثيراً من الصناعات كالبناء والحفر والترصيع مما نقلوه من الشرق وأخذوه عن اليونانيين.

(٤) آلهة الجمال في أساطير اليونان، وُجدت من زبد البحر ويصوّرونها دائماً خارجة من بين الأمواج تشي ذواتها.

(٥) غانميّد (Ganymède)، أمير طروادي، في الأساطير أبوه "تروس" وأمه الجنيّة "كالبروهة"، آخذ المشتري مرّة شكل نسر فاخطفه وجعله ساقياً عند الآلهة.

علنا ولكنه كان يترقب السياح عند ورودهم فيدلّ على باعة الآثار العتيقة وعلى الشريف الروماني الذي مسّه الفقر فصار يتخلّى عن بعض التحف النادرة. وكان الأب المذكور يأخذ العمالة من البائع والشاري. جاءني إلى الفندق وبيده جدول آلهات وعناوين وكان يطري بضاعته أيما إطراء.

مخطوط جان دارك

جذب أناتول فرانس جرساً صغيراً كنسياً فجاءت جوزيفين، فقال لها: هاتي الكيس. فذهبت وأتت بكيس يكاد يكون طنفسة، فقال: ضعيه على السجادة.

”أتعرف يا صديقي الشابّ ما هذا؟ هذا مخطوط جان دارك. تجد هناك نحو ستين كيلو من الورق، فهي كلّها لك فاحرق ومزّق واطلس^(١) ما شئت، أصبحت لا أريد أن أضع هناك أنفي. فإنّ هذه العذراء قد أعيتني. فقد مضى عليّ عشرون سنة وأنا أدور حولها. فلا أعلم من أيّ طرف أمسكها وكيف ما أراد أن يقصّ قصّتها الإنسان وجد ساخطاً أو معترضاً. فأهل الاعتقاد يرموننا بالزندقة وأهل الإلحاد يتهموننا بالراء. والعقيلة^(٢) لا تريد أن تسمع بقصّتها، وتؤثر التواريخ العصرية. إنّ حياة جان دارك يجوز أن تكون كـ ”حياة يسوع“. أفلا ترى أنهم جادّون في درج جان دارك في صفّ القديسين؟ فيجب أن نكمل بناءنا الجمهوري الحرّ قبل أن ينصّ القسيسون جان دارك على مذابحهم. فحيهاً بهذه المخطوطات ولا تضع الوقت.“

فككت هذه الدفاتر التي كانت ملزوزة بملفّ مربوط بدبابيس من دبابيس المرضعات، فتناثرت على البساط المكاتب والغُلف وبطاقق الزيارة والمناعي وبشائر الأفراح وقصاصات الجرائد ورقاع الباعة وتذاكر من كلّ نوع.

”إنّك لم تكن تنتظر يا حبيبي القرويّ الصغير هذه البلبلة كلّها: فاعلم أنني أنا أشتغل في محاطّ السكك الحديدية وعلى الطرق، لأنّ السيّدة العقيلة عندها هوس السفر فلا تستقرّ بمكان. ففي القبيظ كيبرون^(٣) وبريتانية^(٤) وفي الخريف الجيروندي^(٥) وقصور اللوار. وفي كلّ يوم على

(١) طلس الكتابة محاها ثمّ كتب محلّها.

(٢) Madame هي التي سبق ذكرها في أول الكتاب.

(٣) من سواحل فرانسة.

(٤) ولاية ساحلية أيضاً.

(٥) جهات بوردو.

الأقل ثلاث كنانس وخزانتا تحف وعشرة دكاكين عاديات هذه تبغي أن تطوف بها. وإنما هي ترضى بباريز أيام الشتاء، حتى إذا بدت تبشير الربيع لزم أن نقمص من قطار إلى قطار ونطوف بين رومة وفلورنسة و نابولي. فأنا جوال في الآفاق. وليس هذا بعائق لمن يعاني تحرير التواريخ العصرية أو جمع النوادر ولكنه لم يكن ليلائم من يعاني جان دارك. إن ثمة فقراً كثيرة منسوخة عن كتب لم أعد متذكراً لها. ولكنك ريان من الاطلاع والصبر وميعة الشباب. فأنا أفوض أمري إلى محبتك. ومن باب الرأي عندي توزيع العمل، فإذا قسمنا الأبواب فالكتاب كله يصير في ذهني وأظنه سيكون مجلدين. ويجب أن نجد قسمتهما بحيث يكون الأول آخذاً برقة الثاني. ومن اللازم الاعتناء باستدراج القارئ، لأن هذا - وقد لحظت ذلك أكثر من مرة - عندما يبدأ بالجزء الثاني من كتاب يكون قد شبع من الأول وأجم^(١) الزيادة. فتفادياً من أن تقل رغبة القراء في الجلد الثاني علينا أن نوكل هذا جيداً.

ثم فتح كتاباً مجلداً بأديم مراكشي مقروظ اسمه "قوانين الأساقفة" فتصفحه فلم يجد فيه شيئاً، فغضب وقال:

"هذه هي دائماً الحال بعينها. جوزيفين. جوزيفين. (ثم قرع الجرس). وقال: لا يمكن أن تعرف كم هذه المرأة، التي لا مزية لها بشباب ولا بجمال، هي ماهرة في تهيئة أسباب منعي عن الشغل. كان هناك عدة كفوف من الورق الجيد المتين الصالح للغلف. فلا أرى منها ولا ورقة! ربما تكون عملتها للف الشعر أو اتخذت منها أغطية لقوارير الحلواء. جوزيفين. جوزيفين. (ثم يقرع الجرس ثانية). ويقول: أعلها ماتت. أفتراني أحييها بدق الجريس؟ فلنعمل ظروفًا من هذه الجرائد".

فعملنا الظروف ولم يبق علينا إلا أن نضع الأرقام عليها.

وكان على المائدة العريضة متاع عظيم من أبداع ما يوجد ومن أندر ما يتصور العقل وكتيبة من المحابر من جميع الأعصر وجميع البلدان، منها قصدير ومنها رصاص ومنها خزف ومنها صيني وكلها ناشفة ناضبة.

فما زال يدق الجريس حتى جاءت جوزيفين.

- هل السيد مريض؟

- كلاً، لست مريضاً ولكنني غضبان.

(١) كره ومل (الناشر).

- على مَنْ؟

- عليك. لأنه لا يوجد نقطة حبر في كل البيت.

- ماذا أصنع بالحبر، أشربه؟

ثم هبطت من السلم وصعدت وبيدها قنينة. وما انتهينا من الحبر حتى جئنا إلى الأقلام. فإن جميع المحابر كانت مراشة بأبدع ريش الأوز ولكنها بأجمعها تصرّ وتحرن عند الكتابة. وثمة أقلام لطيفة ولكنها كلها تبقّ الحبر. فأرجأنا إكمال الظروف إلى اليوم التالي.

قُبَل غير مطبوعة

عثر على كتاب "القُبَل والمراثي" لجان سكوند^(١) وأخذ يشرح أسماء الأبواب والفصول فوصل إل فصل يقول فيه "ملحق ببعض قُبَل غير مطبوعة" لتيسو^(٢).

فقال: يا للحماقة! يجب أن يكون ساذجاً مَنْ يعتقد أنه يوجد في هذا الموضوع المضطرب شيء غير مطبوع يمكن العثور عليه. فمنذ أول يوم من تكوين العالم بعد أن تلاقى آدم وحواء في جنة عدن بساعتن أو ثلاث عرف كلّ منهما من هذا الأمر بقدر ما عرف سكوند وتيسو. وإني لا أتق كثيراً بهذه القُبَل الرسمية.

(ثم أورد ملاحظات غير منتظرة على قهرمانات پول بورجه^(٣)).

ثم قال: ألا تحبّ الملامسة؟ أمّا أنا فإنني شديد الظمإ إلى المعافسة. أتسامح في كلّ شيء: العمر والحسن ودرجات المعيشة... أميرة أو سُبروته^(٤) هذه كلّها رسوم لا طائل تحتها. فأنا على دين أشدّ ملوكوناً غراماً وهو لويس الخامس عشر الذي كان يقول لوصيفه "لوبل Lebel": "فلتكن مَنْ كانت ولكن خذها في الأول إلى الحمام ثمّ إلى طبيب الأسنان". فهذا الملك كان رجلاً عظيماً ولو قالوا فيه ما قالوا فهو يستحقّ بأن يُلقّب بالملك المحبوب. الحمام وطبيب الأسنان، فكلّ شيء هو هناك. فالحمام وحفظ الصحة هما أدب الحبّ. إذ يلزم أن يكون الجسم كلّه متهيئاً. ولا أظنك أنت من شخوص الجفصين الذين إذا قبلوا الحسان قبلوهن بهذا النوع

(١) جان سكوند (Jean Second)، شاعر لاتيني هولاندي، ولد في لاهاي سنة ١٥١١ ومات في ١٥٣٦.
(٢) تيسو (P. Tissot)، أديب فرنسوي، ولد في فرساي، له مباحث متمعة على فيرجيلوس (١٧٦٨ - ١٨٥٤).
(٣) پول بورجه (Paul Bourget)، من أعضاء الأكاديمية الفرنسية، ولد في مدينة أميان عام ١٨٥٢، له تاليف متمعة ومباحث دقيقة في علم النفس البشرية.
(٤) Soubrette ومعناها الخادم وهي تشابه في اللفظ سبروته التي معناها صعلوكة بالعربية ولعلها منها.

البيسط على خدودهنَّ كأنَّما يقبلون ذخيرة مقدَّسة أو حقًّا كنسيًّا، فأنا أبتغي الزُّهرة بأجمعها. أمَّا الوجه فهو للأهل والأصحاب والزوج والأولاد. ولشدة ما يتكرَّر هذا الاستعمال تتولَّد في الحدود خشونة وشثونة. فالعشاق لهم الحقُّ في المواضيع غير المطبوعة، أو إن جاز لنا القول لهم الحقُّ في الطبقات الأولى. لقد عرفت بطلان جميع المباحث التي قام بها البشر وفهمت كم قرأوا ما لا طائل تحته وكم حرَّروا معلومات ثقيلة باهظة على حياة متناهية في القصر تنقضي في وسط الجهلاء. فيا ليت شعري ما معنى هذه الحمولة كلَّها إذا كانت المرحلة إلى هذا الحدِّ قصيرة؟ يعجب الناس بسعة اطلاعي وأمَّا أنا فما عدت أريد أن أكون واسع الاطلاع إلا في مسائل الحبِّ. فالحبُّ قد أصبح اليوم هو مبحثي الوحيد الخاصِّ. وعلى الحبِّ أريد أن أحبس ما بقي من حرارة قريية الخمود. ولا أراني مليًّا بنصِّ كلِّ ما يُقدَّف في روعي من هذا الموضوع. فروح الطهر والصيانة أصبحت غالبية على آداب الدرس. إنَّ المرأة صارت عندي كتابًا يُقرأ وليست كتابًا مفسدًا كما قلت لك. ولا بدَّ لكثير التصفُّح فيه أن يسقط على موضع منه يجد فيه مكافأته على أتعبه. فأنا أتصفُّح وأتصفُّح كثيرًا يا حبيبي... ومتى أظفري الله بمخلوقة من مخلوقات الله فإنني أطالع هذا الكتاب البديع سطرًا فسطرًا ولا أجوز منه نقطة ولا شكلة وقد أضيِّع فيه أحيانًا نظراتي.

الكياسة والذوق

كان الغداء يومًا عند السيِّدة العقيلة^(١)، فوصلنا عند منتصف الساعة الثانية بعد الظهر. فقالت: كُنَّا قطعنا الأمل منكم. وقال زوجها: "ظننتك تترأس إحدى حفلات الثورانيين. مع هذا هؤلاء يأكلون كسائر الناس وربما أكلوا أكثر من سائر الناس".

(١) يظهر أنه كان لفرانس علاقة مع سيِّدة يقال لها "مادام س...". Madame de C... ولم يتعرَّض بروسون لتسميتها باسمها كما لا يخفى من وجوب التكتيم في مثل هذه الأسماء وإن كان مرَّ ذكرها كثيرًا في كتابه وظهر من سياق الكلام أنها كانت مالكة لقلب أناتول فرانس. ولكن المسيو نيقولا سيغور في كتابه الذي قيَّد فيه كثيرًا من أوابد أناتول فرانس على غمط بروسون قد أشار إلى هذه السيِّدة بمناسبة سفرها إلى أثينا مع فرانس وكان سيغور معها فأطرى سرعة خاطرها ورجحان عقلها وعلوِّ همَّتها وكرم طبعها وقال إنَّ الغريب كان يمكن أول وهلة أن ينخدع في أمرها، إذ لا تظهر له حقيقة خلقها إلا بالمعاشرة. وذكر أنها كانت نافذة الكلمة على أناتول فرانس تقوده كيف شامت وأنَّ نفاذها عليه وقع في مصلحته لأنها كانت تدفعه دائمًا إلى الأمام وتستوري زنده بلا انقطاع، حريصة على أن يبقى لها وحدها دون غيرها ولكن حريصة أيضًا على أن يزداد صيتًا وعلوِّ منزلة وسعة عيش ورخاء لب.

ويقال إنَّه قبل استيلائها عليه كان قليل المبالاة بالسمعة كليل الحدِّ، تمضي بضع سنوات بين الجلد والجلد من تأليفه، فما زالت هذه العقيلة تتداوله وتساوره حتى أرهفت حدَّ نشاطه ورغبته في أن يواصل التأليف ويوالي أسباب الشهرة وهي التي حببت إليه كتابة القصص الطويلة بعد أن كان مقتصرًا على قصار الأخبار وسرد الأحاديث وكذلك هي التي أنزلته في ميدان السياسة وحفزته على الجراهمية برأيه في دعوى دريفوس. وكانت تفتخر بأنه لولاها لم تكتب "الزنيقة الحمراء" ولا كان "الحجر الأبيض" ولا "مطبخ الملكة بيدوك" إلا صفحات قلائل. وهي التي حملته على كتب أخرى لولاها لم تتجلَّ عرائسها ولا برزت نفائسها وكانت هذه السيِّدة بريتونية من وطن أرنتس رنان.

ثمّ قال البعل:
- قرأت مقالتك في «الأكسيون»، يظهر أنك غادرت «الأومانيته» هكذا يراءى لي. أعلّك
تركتها حيث رأيتها أملت. لم أفهم من مقالتك في هذا الصباح شيئاً.
- لم أعجب من ذلك لأنني أنا لا أكتب لمثلك.
جيد. تراني أبلد من أن أفهم آياتك! فإذا كان الإنسان أحمق بليداً إلى هذا الحد فلا يأتي
الناس ويتغذون عنده منذ عشرين سنة.

أنا تول فرانس:

- هذا ما أقوله لنفسي منذ عشرين سنة.
فوبّخت السيّدة كلاً من الاثنين وقالت: تذكّرا أنّ هنا سيّدة.
فقال لها فرانس:
- حاشا أن أنسى ذلك. ثمّ انحنى ومسح شفّتيه وسبّلتيه بمنشفة السفارة وقبل يدي السيّدة.
ثمّ التفت صاحب البيت إلى أنا تول فرانس، فقال:
- أقرأت في جريدة «الغولوا» مقالة فلان؟ هذا جواب في محلّه (والعبارة بالفرنسية ca.c'est tapé)
وضرب بيده على المائدة.

فقال له أنا تول فرانس: ^(١) c'est tapé! c'est tapé! وردّها.

- هذه اللفظة تقال لبعض الفواكه كالكمثرى المسطّحة المجفّفة بالفرن.

السيّدة:

- ها هم أولاء عادوا إلى السياسة.

السيد:

- على كلّ حال هذه المقالة مقالة رجل وطني وفرنسوي جيد.

فقال فرانس:

- ألا أنّ هؤلاء الفرنسيين الجيادات لا يكتبون أبداً بالفرنسي.

(١) Tapé تأتي بالفرنسية بمعنى جواب في محلّه، وتأتي بمعنى مجفّف مرّق بالفرن، فالأول استعمالها في المعنى الأول والثاني صرفها إلى المعنى الثاني.

ثمَّ إنَّهما عندما وصلا إلى الشواء أخذوا بالمناصحة أحدهما للآخر في أمور الصحَّة. فقال صاحب البيت لفرانس:

- يا حبيبي فرانس إنَّك لتخطئ في الإكثار من المرق والصَّبغ فإنَّ الشحوم لا تصلح لك ولا شكَّ أنَّ كبِدك تؤذيك وهذا ظاهر على وجهك فقد جتتنا بهذا الصباح بوجه كقرص العجين.
فرانس:

- ما هذا التغيّر فيك فتوشك أن تصير أهتم. انظري أيتها السيِّدة فقد سقطت له سنّ وسنّ طاحنة. ومن يسمع كلام أهل العلم يعلم أنَّ هذا هذه هي الأسنان المفيدة في المضغ. فانتبه لنفسك يا صاحبي، ففي السنّ التي أنت فيها يعتبر سقوط السنّ علامة سيِّئة.

- أمّا أسنانك أنت ولله الحمد فجيِّدة متينة. ولكنني لا أتمنى لنفسي الصفراء التي عندك.
فرانس:

- ومن قال لك إنني سأنزل لك عنها؟

وما كادا يصلان إلى الحلواء حتّى شرعا يتقارضان النصائح بإعادة النظر. فأخذا يحصيان الغضون والشعرات البيض والأضراس المتقلقلة والعاهات الأسواء. وكانا يشخّصان أدوى الأمراض، حتّى تخال أنه لم يبقَ إلا استدعاء كاتب العدل والقسيس وترتيب برنامج المأم. فحاولت السيِّدة أن تطهّر المكان من رائحة المستشفى التي ملأته فخاضت في حديث التحف النفيسة وذكرت ما عند الدكتور ب. من هذه التحف وقالت إنّه ذو ذوق لا مزيد عليه. فامتعض زوجها من هذا الاقتضاب، وقال:

- ما هو الذوق يا سيِّدتي. متى كان الإنسان غنياً كان سليم الذوق. لأنه إن لم يكن صاحب ذوق مباشرةً أمكنه بماله أن يستخدم من هم أصحابه.

فرانس:

- يوجد أناس يملكون الذوق ولكنهم لا يملكون الأدب والكياسة، إذ قد يوجد هذا بدون ذلك. فالذوق هو الشعور بالجمال وأمّا الكيس فهو حسّ الإنسان بما هو لائق.

صاحب البيت:

- معلوم سيِّدي فرانس أنك صاحب ذوق وكيس معاً. وأنت يا سيِّدتي فهل أنت من أرباب الذوق؟

فتبست العقيلة ولم تجاوب أولاً. ثم أخذت تلعب بأدوات السفارة وبعد هنيهة نظرت إلى زوجها، وقالت:

- لم أكن دائماً صاحبة ذوق...

ثم نظرت إلى وجه أناتول فرانس، وقالت هذه الجملة:

- إلا أنني والحمد لله قد اقتبسته.

صندوق المراني

وبعد الطعام تناولوا القهوة في البهو الأحمر من الطاق الأول وأخذوا يتسلون في النظر بصندوق العدسيات إلى صور ومناظر قديمة. فكان فرانس هو الذي يضع الصور في الصندوق وراء البلورة وينغم من أنفه: هذه بيعة ماري بطرس، أم الكنائس كلها... مائتا كنيسة في وسط كنيسة! وخمسة وثلاثون رتاجاً! ومائة وخمسون صومعة! وخمسون قصرًا وستة عشر قوس نصر... إلخ، ألف صورة وألف تمثال... الكوليزه^(١) الملهى الذي بناه فسبسيانوس^(٢) ودشنه تيطس وحسنه دوميتينوس، كان يسع خمسة وأربعين ألف مشاهد.

فسألت السيدة:

- أنت على ثقة بما تقول؟

- نعم، يا سيدي كما بالإنجيل.

- هناك يا سيدي كان يؤتى بالمسيحين لتطلق عليهم السباع الضواري.

- نعم، هناك وفي أماكن أخرى ولم يوفوهم كيلهم غير منقوص.

- ماذا تقول أيها السيد. ألا أنك دمويّ شديد.

(١) يقال إنه كان لهذا المرزح ثمانون صفاً وأنه كان يسع ثمانين ألف مشاهد، ولكن أناتول فرانس أعلم.

(٢) فسبسيانوس (Vespasien)، إمبراطور روماني، ولد سنة ٧ للمسيح ومات سنة ٧٩ وأهله من قرية بقرب "ريات Réate"، ترقى في الدولة وولى المناصب العالية وعهد إليه نيرون بالتنكيل باليهود، سنة ٦٦ وفي أثناء مقامه بالشرق حصلت ثورة في رومة فقام أعوان فسبسيانوس وأسقطوا الحكومة ونادت به الولايات الشرقية كلها إمبراطوراً فأقام مدة بالإسكندرية ثم ذهب إلى إيطاليا وفوض إلى ابنه تيطس إكمال التنكيل باليهود وانصرف هو في رومة إلى الإصلاحات الداخلية وأرضى الخاصة وأظهر الحزم ولكنه بالغ كثيراً في ضرب الضرائب والمكوس وكنز الأموال.

وكان من جملة الرسوم المضروبة شيء على المراحيض العمومية فقال له ابنه تيطس في ذلك فناوله الإمبراطور قطعة من الفضة، وقال له: خذ فشمها. ثم قال له: ليس للدراهم رائحة. فسارت هذه الجملة مثلاً في معنى الريح الذي لا يحمد أصله. واشتهر فسبسيانوس في العمارات والأشغال النافعة وجدّد معاهد كثيرة منها الكابيتول والفوروم وهيكل السلام. وعند موته أشار إلى قرنائه أن يشيلوه عن سريره قائلاً: إن الذي يكون إمبراطوراً يجب أن يموت واقفاً. وهكذا مات بين أذرع قواده. وترك ولدين تيطس ودوميتينوس.

- دموي! دموي! انظري إلى الصورة تري الثلمة.

- قد رأيت الخراب.

- مَنْ ذا الذي خرّب بناء ديوكلاتينوس؟ مَنْ ذا الذي كان أشدّ القوم قسوة؟ هم المسيحيون يا سيّدتي. المسيحيون. لا أحد لا يعلم عدد الكنائس والصوامع والقصور والأيوانات التي بُنيت من حجارة هذا الملهى الحزين. فلو كانوا دفعوا إلى الضواري تلك الخشارة اليهودية كان البناء سالمًا وكانت نفوسنا هي سالمة.

- مهلاً يا سيّدي لا يأخذك كلّ هذا الغضب، هذا جرى في الأزمان الغابرة. أتريد أن تحسو شيئاً من الشراب؟

- نعم، شيئاً من الشارتروز. وأخذ يشرح على الصور التي يلقيها في الصندوق، ثمّ قال:
- ربّما تعجب يا حبيبي من كوني أقمت بنفسى دليل بلد فإنّ لي أسوة بسلفٍ كبير هو فولتير الذي كان عند مادام شاتليه يطلع الحضور على الفانوس السحري بينما الحسناء إميلي في زاوية من البيت تهامس "سان لامبر"^(١) وهكذا فقد آل الأمر إلى أن ولد لها منه وكان ولد الفانوس السحري. والحالة هنا غير تلك لأنني أنا رقيب!

سيينا^(٢) في الضونوغراف

بعد المرائي جاءوا إلى الحاكي.

- أية أسطوانة؟ سارا برنار؟

- رحماك، هذه ملكة ذوات الخنّة.

- موته سولّي.

- بيغم كتيوس الطّبا عند الهيباب.

- ل.

- آه اعفوني من هذا الخروف الثاغي.

- بول مونه.

- هذا يهلكني. هو عبارة عن حدّاد.

(١) لعلّه سان لامبر (Saint Lambert)، الشاعر الفرنسي المولود في نانسي سنة ١٧١٦ وكانت وفاته سنة ١٨٠٣، وله ديوان الفصول Les Saisons.

(٢) مأساة لكورنابل، الشاعر الفرنسي الشهير.

أخيراً أزلجوا في فم الحاكي أسطوانة سينا. ومضى الحاكي بها حتى أتى على خمسين بيتاً. فوثب أناتول فرانس من كرسيه ووقف بالآلة حتى كاد يكسرها وتحول لونه قرمزياً وصار يفحص برجله ويصخب، ويقول:

- أما سمعتم هذا الوغد القدم ماذا يقول:

”من مكسيموس ومنك لا غير أخذت النصائح بالرغم منه فلم أتبع إلا التي منك“ فانتقد كيفية الإلقاء وبين أن الإيقاع ينبغي أن يكون على ”التي منك“ لا على ”بالرغم منه“، وقال: هذا المشخص لا يفهم شيئاً من الدور الذي هو قائم به ولا يحسّ بشيء من اختلاف الألوان.

المطارحتان

تَمَّا كان بلغ مبلغ التواتر عن أناتول فرانس في شيخوخته أنه نقاد لامع من أمثال ديدرو^(١) أو ريفارول^(٢). وذهب قوم من أرباب المطارحات الحرّة من أهل الصناعة الأدبية إلى أن أناتول فرانس في حديثه كان عبارة عن ثرياً أنوارها من كلّ جهة أو شلال يثر بالأخبار والشواهد ثراً. بحيث يخرج السامع من عنده مخبولاً.

والصحيح، أن هناك فرقاً يجب تمييزه. فإنّ الكاتب الأكبر كان له طريقتان في الأحاديث: أحدهما طريقة الجلال والأخرى طريقة التبدّل. فأما طريقة الجلال فكانت منظّمة مرتّبة كترتيب القطع الموسيقية. فكَمّ من مرّة سمعت العقيلة تقول: ”قصّ علينا القصّة الفلانية“ فلم يكن يتدلّل في الإجابة، بل كان يلبي دائماً. فإذا انتهى أبدت السيّدة استحسانها، فقالت: جيّد! عظيم! قد أبدعت! قد تجاوزت نفسك هذه المرّة! وما أشبه ذلك. أو قالت: قد كنت من دون عادتك هذه النبوة. أو: نسيت المحلّ الفلاني، وهلمّ جرّاً. وكانت في أحاديث الجلال هذه تأتي النكات آخذاً بعضها برقاب بعض. وكانت نعمة الحديث تتغيّر بحسب الموضوع ويعلو الصوت وينخفض وأكثر ما تكون النهاية بنعمة فيها شيء من الغنّة. وليحدث أيّ شيء في المجلس، ولتدخل الملكة سباً أو الملك سليمان ولنفرض أن الكوننة ز... غشي عليها، فالأستاذ ما كان وهو يقصّ في مجلسه ليقف أو ليقطع ما كان ماضياً فيه، بل كان يحكي كأنه فونوغراف.

ثمّ إنّه كان إذا أتى على موضوع استطرد من نكتة إلى نكتة. وإذا أورد ذكر شخص أتى على ذكر من كان يألّفه. وما قيل فيه من الشعر. وإذا أنشد شعراً جاء فيه ذكر رجل، قصّ عنه

(١) ديدرو (Diderot)، فيلسوف فرنسي كبير، كانت له اليد الطولى في النهضة العقلية في القرن الثامن عشر، وكان كاتباً بليغاً مفكراً عميق الفعور، نقاداً أدبياً، وهو من مؤسسي الإنسيكلوبيديّة، (١٧١٣ - ١٧٨٤).

(٢) ريفارول (Rivarol)، أديب صحفي فرنسي اشتهر بقوة عارضته وقارص لفظه.

حكايات. وإذا تكلم عن عصر نقلك إليه كأنك فيه مخالط لرجاله فلان وفلان... إلخ. ويستمر هكذا ما دام الناس راغبين إليه في الحديث أو بالأولى ما دامت العقيلة راغبة إليه فيه. لأنها كانت تلعب به كما يلعب المطرب بالسنطير وكان يكفي أن تذكر بعض أسماء مثل شاتوبريان، أو هوغو أو كورناي أو رودين^(١) حتى ينبثق. وكانت هذه الأحاديث المقرونة بالجلال والأبهة هي نعيم الإخباريين والرواة الذين كانوا ينقلون عن الأستاذ ما وجود به، لا سيما أن أناتول فرانس كان محيطًا بكل الآراء وملياً بالدفاع عنها كلها بحماسة واحدة فكان كل فريق يجد عنده ما يغلي به قدره.

ولكن من كان يظن أن فرانس انتهى هناك فلا يعرف عنه شيئاً، إذ إن لفرانس محاضرات أخرى غير رسمية يكثر فيها الأخذ والرد الصرير والزحير والناقض والمنقوض ملأى بعبارات كهذه "أليس كذلك؟ ومع هذا... ومن الممكن أن... واحذر أن تظن... وبعد هذا كله فلا نبالغن في شيء... هذا صحيح بدون شك ولكن نقيضه صحيح أيضاً".

فهذا النوع الثاني من المحاضرة فيه كثير من النجوى المعقولة. وإذا كان ليس نظير الأول في الجلال فإنه يمتاز عنه بالتنوع والتفنن. فلا يعلم أحد إلى أين يفضي به الحديث ولا هو نفسه يعلم. وهو لا يفيض بذات صدره إلى الخلي، بل يعنيه مخاطب يصغى إليه فيكفيه ولو لم يكن إلا واحداً.

وأما مبدأ هذا النوع الثاني من أحاديثه فسهل جداً. فقد يكون تافهاً جداً، إما ملاحظة بسيطة على زائر أو على عابرة سبيل أو فقرة وردت في كتاب أو في جريدة أو اسم رجل معروف أو امرأة تتحدث عنها الناس أو متاع اشتراه أو يريد أن يشتريه. وكل هذه الأسماء لا تكون إلا علة لانفجار الميزاب. وفي الغالب تجد فاتحة الخطاب في غاية الثقل. وإن الإنسان ليحار عندما يرى الرجل الذي اشتهر بكونه أفطن أهل عصره وأحدّهم ذهنًا واقفًا يبحث في سفساف وهنات مما يرد في تقاويم المنهاج^(٢) فكأنها عنده أشبه بحصوات ديموستان^(٣)، لم تكن إلا وسيلة لفتح الموضوع وللتهيئة اللازمة في أوله. ويمكن أن يقال إن أصفى كتابنا بياناً كانت بداياته في الأكثر عكراً. ثم لا يلبث أن يروق السيل ويتكشّف عن شذور الذهب. وما شئت بعدها من شواهد

(١) الثلاثة ورد ذكرهم في غير هذا الموضوع. أما رودين (Rodin) فهو نقاش إفرنسي شهير، ولد سنة ١٨٤٠ ومات سنة ١٩١٧.
(٢) Almanach: ظن بعضهم أنها محرقة عن المناخ بالعربي، لكن العلامة الطيب الذكر الدكتور فاندريك قال لي إنها تحريف المنهاج وهو كتاب عربي في التقويم.

(٣) أعظم خطيب يوناني خاصم مدة خمس عشرة سنة فيليب المكدونى الذي كان طامحاً للاستيلاء على وطنه. يقال إنه كان يذهب إلى شاطئ البحر ويخاطب نفسه تحت عجيج الأمواج ليتمرن على المحاورات في مجالس الأمة، (٣٢٢ - ٣٨٤ ق.م.).

وتذكارات وأساب ومناقشات فهو من بوق صغير من حواشي تقويم بسيط ينفخ حياته كلها ومكتبته جميعها وأما إذا اندرأ فلا يمل ولا يكلّ - ولك أن تقول - ولا يرحم. قد اتفق لي أنني عندما كنت أخرج من عنده على أثر محاضرة من محاضراته هذه أشعر بالإعياء التام حتى كإنني نقلت جميع المجلدات التي في خزانة الكتب الوطنية على رأسي.

المظلة الجنية

أيًا كان الجو فهو لا يخرج بدون مظلته وكان في الماضي يحمل محجنا فقال عنه: "كان محجنا ذكرا. أفلم تلحظ إن المحاجن كلها ذكور أو يقال إنَّها ذكور عندما تباع؟ فالذكور هي أعلى من الإناث في العصي وهي أغلى ثمنا وهذا مما يرضينا نحن الرجال. وكنت حيث مررت أسلك بعصاي فتحةً عليها اسم المكان والتاريخ. وهذه الحلقة تكون فضة أو ذهباً بحسب طاقتي المالية إذ ذاك إلى أن انتهى الأمر بأن صار محجني أشبه بعصا مطران. وصرت مفتخرًا بها فعاقبني الله على كبري وسرقوا لي إياها. فلماذا أنا أحمل المظلة عوضًا عن العصا، فكيف ترى مظنتي؟ لشد ما أراك باردًا بالنسبة إلى مظنتي. مع هذا فإنني اشتريتها في رومة في ظل بانطيون أغريبا^(١) وستقول لي إن هذا لا يزيد قيمتها. قد دفعت في ثمنها ١٨ فرنكًا و٩٥ سنتيمًا، فانظر ما أصلب عودها. لقد تحمل هيكلها المعدني بدون أن ينثني ريح جبل "سورات" الذي طالما أورث هوراس^(٢) الزكام. وأما نسيجها فهو من استبرق شديد الحبك، فيه جانب غير قليل من حرير أميركا. وكان لونها أسود فتحوّل بسبب الأمطار إلى لون خوخي كرك^(٣) ولم يشنع ذلك منظرها. ثم إن هذه المظلة وإن كانت رومانية فهي ألمانية الأصل. لأن المحازن هناك والصيدليات ودكاكين الكتيبة كلها جرمانية. وليس ذلك بيدع فألمانية جنة عبقر. لو لم أكن أخشى غضب هؤلاء السيدات المشؤومات الجامحات لسردت عليك قصصًا عديدة تحملك على أن تبجل مظنتي^(٤). ولكنني لا أراك جديرًا بحمل هاتيك الأسرار. وقصاراي أن أقول لك إنَّها شمسية لا تضيع أبدًا. فطالما أضعتها عند بائع العتيق أو الكتبي أو بياع التصاوير فكانوا دائمًا يعيدونها إلي. وما هو السبب يا ترى؟ ألكون باعة الآثار العتيقة هم أحفظ الناس للأمانات؟ الجواب: قد يكون ذلك. وربما كان من كونهم لم يستلطفوها. فلو كانت أجمل مما هي لربما كان أطفى الشيطان

(١) Panthéon d'Agrippa: بناء في رومة لعبادة جميع الآلهة شاده فيسبانيوس أغريبا، القائد الروماني، صهر أغسطس ووزيره (١٢ - ٦٣ ق.م.).

(٢) شاعر روماني، عاش في زمان أغسطس.

(٣) الكرك الأحمر: يستعمل للون الخوخ. وفي الأصل الفرنسي Prune de Monsieur وهو من أنواع الخوخ.

(٤) ليت شعري ما عساه أن يقول أكثر مما قال عن مظنته؟

أحدهم بأخذها. ولما كنت أضيّعها كل أسبوع ثلاث مرّات وكلّما أعيدت لي أَدفع دائماً فرنكين اثنين حلواناً فكّم كلفتي مظلّي إذا منذ ست سنوات. مذ اشتريتها تحت ظلّ البانطيون؟ ليس دماغى رياضياً وأنّى لأسف من جرّاء ذلك.

دستور الإيمان

قال بروسون:

- بينما كنت أقرأ الوصايا العشر مفتوحاً بالأولى "إلهاً واحداً تعبد" عقّب أناتول فرانس بقوله: "كلاً، تعبد جميع الآلهة وجميع الهياكل وجميع الآلهات".

ثمّ قال:

- الزمان لا يحفظ شيئاً ممّا يُعمل بدونه.

وقال:

- أجمل المواضيع أبسطها وأعراها للناظرين.

وقال:

- إذا عثرت على قول أحسن قائله فلا تتردّد أن تنقله وأن تشير إلى منبعه. فإمّا أن يكون قرآوك عارفين بما أخذ تلك الجملة وعليه فالاحتياط عبث، وإمّا أن يجهلوه فتكون أخجلتهم وبذذتهم.

وقال:

- أصقل دائماً عبارتك فينتهي الأمر بأن تنجلي.

ملاهي نهار الأحد

كان صباح الأحد عنده يوم زور^(١) في مغنى سعيد، لكن الزور كانوا من خلصائه، فالجلسة لم يكن فيها من الجلال والأبهة ما يكون عادةً في جلسات نهار الأربعاء. وكان الفصل الأول من المقابلة في المكتبة والفصل الثاني في غرفة النوم. وكان فرانس قد رجع إليها ليلبس ثيابه. فارتدى يومئذٍ سترة وقميصاً مكويّاً مرشوشاً بالنشاله بنقّة^(٢) واقفة وبدلاً من ربطة الرقبة الزرقاء ذات

(١) الزور: بالفتح، الزيارة والزور أيضاً الزائر، يقال للمفرد والجمع والمذكر والمؤنث. ويوم الزور بالفتح أيضاً من أيام الحروب عند العرب.
(٢) البقّة: ما أحاط بالعنق من القميص، استعملناها مكان القبة التي ليست من فصيح اللغة بهذا المعنى وإنما قد ورد القب بالتذكير لما يدخل في حيب القميص من الرفاع.

الحمصّات البيض لبس صدرية زرقاء مفضفضة من حرير مرقوم وغرز في وسط هذه الصدرية لؤلؤة. وكان يلبس ثيابه على مرأى من الزائرين بدون أدنى احتشام، فجوزيفين تناوله القميص والكلام لا ينقطع يخاطب به نفسه ولم نشعر بوقفة عن الكلام إلا لحظةً بينما أخذ ينظف أسنانه.

ثمّ انصرف الزائرون فخرجنا إلى جادة هوش Hoche وكان الأستاذ عابساً باسراً لا يروق له منظر هؤلاء المنتزهين نهار الأحد.

- هؤلاء أحسن مشواراً⁽¹⁾ في ثياب الشغل. انظر كيف هم في هيئة مستعارة بهذه الأثواب التي واحدها التامّ بخمسة وثلاثين فرنكاً. وكان هذا شأننا نحن لو كنّا نلبس الدرّاعة طول الأسبوع. ثمّ أخذ يتأوّه على حالة الصغار المتزيّين بالبزة البحرية.

- رأيت هذه العائلة يا حبيبي؟ هؤلاء عند من أبصرهم مأمورون صغار في النظارات أو تجار زبدة. قد كلّفوا أنفسهم الخروج ليتغدّوا عند نسيب أو صديق أو حريف. وهم يرون حتماً أن يلقوا بجرانهم ذلك اليوم على أحد. فالسيّدة ارتدت ثوبها الأطلس يومئذٍ وعطفت عليه رداءها القصير. والسيّد متحزّم كما في يوم عرسه العصيب. ولكن جميع الشدّ وقع على الولد الصغير، فانظر إليه وهو يحرك أصابعه في قفازه الجديد، فإنّه لابس قفازاً وأحذية لامعة وعنده صفارة معلّقة ببند وهي علامة القيادة. وهو ضعيف قليل الدم كأكثر أولاد باريز وعلى جبينه يقرأ "غير قابل الانقياد" فالسيّدة مزهوّة كشهر أيار. والسيّد معجب بالسيّدة وبغلامه. والثلاثة فرحون جداً بما لديهم. فهل تدري كيف تنتهي هذه القصة؟ تنتهي دائماً بعراك وكسعة من وراء الألية. ويا ليت اللبطة للسيّدة! كلاً... بل الغلام هو الذي يأكلها على أليتيه الصغيرتين. وعلى كفه تجمع فذلّة حساب نكبات اليوم كلّها. ولا يعدمون لذلك علّة. أمّا أنه أحدث في سراويله وفي سراويله الجديد! إذ لو كان في القديم لهان الأمر. أو أنه أضاع أحد فردتي قفازه أو لم يجلس جيّداً على السفرة. أو تشهّى أكلاً لم يكن على الخوان. أو رفض طعاماً قدّمه له. أو قال شيئاً غير مناسب... أي أنه تكلم كما يتكلم الأب أو الأمّ. يا حبيبي لا يوجد شيء أشدّ هولاً على غلام باريزي من حصّة نزهة في يوم أحد. عرفت ذلك بنفسني.

استنطاق

كنّا على المائدة عند السيّدة. فإذا بالنغمة قد تغيّرت وصارت أشبه باستنطاق في دائرة شرطة. والسيّدة هي المستنطق.

(1) منظرًا (الناشر).

- مَنْ كان عندك هذه الغداة؟

- ما كان أحد.

- ما كان أحد؟ أو عشرون مملقاً ومستشفعاً ومن طلاب المقدمات لكتبهم أو التقدام أو

الأوسمة أو بغيان التواصي الخطية أو سماسة النساء أو وسطاء الوزراء...

- ما من أحد سيّدتي. أسألي بروسون.

- تعوّذت بالله. ما عليك إلا أن تنظر إلى أنفه! ألم يكن عنده نساء؟

- كلاً يا سيّدتي.

- لعلمن نساء أدب.

- إذا لا يحسبن نساء.

- كلّه يمسي عندك نظراً لقلّة ذوقك.

- استجدّ ذوقي هنا (قال هذا وقبّل لها يدها).

- إذا تركوك هذه المرّة بسلام. وماذا صنعت إذا هذه الصبيحة؟

- اشتغلت أنا وبروسون بجان دارك.

- يقول إنهما اشتغلا بجان دارك! بالعدراء (قالت هذا والتفت إلى زوجها).

زوجها:

- هذان كذابان هبالان. انظري إلى وجوههما يتفقان كلصين في سوق. ربّما كان عندهما

عدراء هذا الصباح، لكن ليست بعدراء أورليان.

إثبات وجود في غير محلّ الجرم

- عدراء أورليان عندي هي سدّ الصين. فإنّ السيّدة قد شنت الغارة على حياتي كلّها.

وهي تقحم أنفها في كلّ شيء. وإنما تمقت جان دارك. فلهذا صارت جان دارك موثلي وغابي

المقدّس وهي «أرقاديتي»^(١) و«وادي تمبي»^(٢) عندي، كلّما ساء خلق السيّدة معي هربت منها

إلى عذرائي فلماذا لست مستعجلاً في أمرها.

(١) Arcadie: جبال في بلاد اليونان، يقال إنّها كانت مأوى الرعاة الذين على الفطرة السليمة.

(٢) وادي بديع في بلاد اليونان تغزل به الشعراء.

مشدوه^(١) وسهوان^(٢)

نهض هذا اليوم نشيطاً ضاحكاً بخفة الشباب فأسرع في لبس ثيابه وأقصر من تزينه وتشوفه وزرر بنفسه نعاله تقادياً من أن تشعر جوزيفين فتأتي فتزعجه لأنها "امرأة مفتنة مُدَنِّقة"^(٣) إذا بدت لا تنتهي"، ثم قال: الجو ضاحك اليوم فما من جان دارك هذا النهار وإن التزهة لإحدى اللذات، قال عنها فولتير "هي أولى الملاذ التافهة" فيمكننا أن نغتتم فرصة هذه الصبيحة الفضية لنذهب على الأقدام إلى شارع مازارين وشارع السين، تلك الأحياء التي فيها باعة الكتب القديمة، والآثار العتيقة والطروس المصوّرة فإن ثمة خزائن تحف في الفضاء الواسع.

ثم نزلنا مهطعين نمشي على رؤوس الأصابع وفتح الباب بكلّ تؤدة فتحة عاشق أو سارق، قائلاً: "لا ندعن السعلاة"^(٤) تنبّه" ثم خرجنا جادين في المشي وهو آخذ بذراعي وإذا بصكة باب وراعنا وصوت يصيح: إلى أين أيها السيّد؟ إلى أين؟

- لا تبال بصدى هذه البومة. ولنسرع للخلاص منها. ماذا تريد منّي؟

- يا سيّدي، يا سيّدي. أفلا تسمعني. (ثمّ قالت): يذهب إلى السيّدة بجلباب النوم.

فقال لي:

- لنفراً يا حبيبي، فإنّ هذه المرأة تحت شكل أنها تحب عليّ جعلتني مسخرة ومن سمعها تتكلّم عني ظنّ أنني لا أزال قاصراً. وأمس أمام عشرة أشخاص أرادت أن تغيّر لي سراويلي. وكلّ هذا بأو وتظاهر. فهي تريد أن توضح للملأ أنه لا يساوي سداجتي إلا حدّقها وفطنتها. إنني متعرّض لخطر عظيم أن أخفقها في يوم من الأيام. أه لو كنّا نصادف عربية الآن. على أن جوزيفين مع كونها نصفاً^(٥) لها ساق أيل. فأدركتنا عند الجدار المشبك بالحديد وأخذت الخالد^(٦) بحاشية سترته وقادته مثل الشاة إلى المنزل.

ثمّ التفتت تستشهد المارّة، وهي تقول:

ذهب خلصةً من البيت بدون أن يغيّر قميصه. وغداً السيّدة تمسكني أنا. فقد قالت لي

(١) Abstrait

(٢) Distrait

(٣) المرأة المفتنة: هي التي تكثر الكلام، وفي الأصل الفرنسي Jaseuse؛ والمدنقة: هي التي تدقّق كثيراً، وفي الأصل Meticuleuse.

(٤) الصغابة السيّئة الخلق، وفي الأصل Harpie.

(٥) المرأة المتوسطة في السن.

(٦) Immortel وهو لقب كلّ من صار من أعضاء الأكاديمي، والحقيقة أنه ما كان من دخل الأكاديمي أناتول فرانس ولا خالد الاسم.

هكذا: «جوزيفين كلّ اعتمادي عليك في السهر على السيّد، فأنت تعرفين أنه أشبه بولد».
وقد أرسلت غلامها هذا الصباح تنبئ بأنّ عندها مآدبة حافلة ووزراء وأميرات وممثلات...
فيلزم أن تلبس درّاعتك^(١) ولا تقدر أن تذهب إلى ما بين هؤلاء من عليّة القوم بقميص من
صوف هفّاف^(٢) يا سيّدي المسكين.

فلم ينبس أناتول فرانس ببنت شفة. وكان قصاره أن رفع عينيه إلى السماء نظرة الدرويش
الذي يستسلم للقدر. فرجعنا إلى الغرفة واستؤنف التزيين. وكانت له عند كلّ قطعة من الثياب
جملة يدندن بها. وبالاختصار هذا الرجل العظيم انقاد في كلّ شيء إلاّ في قضية شعار النوم.
فاضطرتّ جوزيفين أن تدّثره بالقميص المخصوص بالظهور وكان صلباً من كثرة النشا. فتنفّس
الصعداء، وقال:

- كان له قلب مثلك من الفولاذ هذا الذي اخترع هذه الصدرية من تنك. هذه النواويس
التي يودعوننا إيّاها ونحن أحياء كأننا محطّون.

وهكذا زملته جوزيفين وحزّمته ووضعت له ربطة رقبته وأخذت تمدّ يدها إلى جيوبه.

- هل معك دراهم؟ أين محفظتك؟ أين ساعتك؟ أين المفاتيح؟ أين المنديل؟ أين النظارات؟
ألا تعلم أنك بدون نظارات أشبه بالنفس الواقعة في العذاب أو الحمار الذي يُعذّب^(٣)؟
ثمّ قالت:

السيّد هو أشدّ أهل باريز طبعاً وأشدّهم سهواً Distrait. فعندما قالت هذه الكلمة رأيت
هذا الرجل الحليم الذي تحمّل جميع أنواع التعزير والردع والجبه من صانعه ووعومل معاملة
الأكرة التي يلعب بها، وثب من مكانه وهو يقول: أسمعتَ يا بروسون ماذا تقول؟ تقول إنّي
ساهي العقل غافل. فهذه الخادم الورهاء تعامل اللغة الفرنسية كما تعامل سيّدها. ثمّ رفع يديه
إلى السماء، وقال:

- سهوان. سهوان! هل تعلمين يا أسلط النساء معنى هذه الكلمة؟ السهو أو الغفلة تأتي من
خفّة في العقل، وليس في عقلي خفّة. فأنا لست ساهياً Distrait ولكنني مشدوه^(٤) Abstrait. ثمّ انحدر
وهو يردّد لفظة مشدوه أو مدهوش وما زال طول الطريق يقرّر درساً لغويّاً على سهوان ومدهوش.

(١) اخترناها للجياك Jaquette لكونها الحبة القصيرة المشقوقة المقدم.

(٢) الهفّاف: الرقيق الشفّاف، وفي الأصل الفرنسي Flanelle.

(٣) النفس Ame والحمار Ane، وجوزيفين أرادت الجناس وهو مذهب معروف عند الإفريج وإن كان العرب أشدّ فيه رغبة.

(٤) يقول الفرنسيّ écrivain abstrait كاتب مشدوه أو مدهوش.

- كلّ مشدوهٍ ساه لكن ليس كلّ سهوانٍ مشدوهاً. فالرجل المشدوه يتبع فكرة معلومة عنده. أمّا المدهوش فيتبع ألف فكرة أي لا يتبع شيئاً. والرجل المشدوه تشده الحياة الداخلية عن الخارجية فلا يرى منها شيئاً حال كون الرجل السهوان يمرّ ببصره على كلّ شيء فلا يميز شيئاً. والسهوان لا يملك الحسّ المشترك، أمّا المشدوه فيجوز أن يكون نابغة عبقرياً.

الصحون من النشوة

ثمّ تنهّد، وقال:

- الإنسان هو أشقى المخلوقات. يقولون: الإنسان ملك الكائنات "والصحيح أنه ملك الألام. لا يوجد شيء يسوق إلى الجحود مثل الحياة".

فقلت له:

لكنك يا أستاذي العزيز معدود في المغبوطين الموفورين طالما يحسدك الناس على عقلك وصحتك وبقاتك متمتعاً بميعة الشباب.

- حسبك . حسبك! ... آه لو كان يمكنك أن تقرأ في أعماق نفسي لامتلأت خوفاً". ثمّ جمع يديّ إلى يديه وهما محمومتان ترتجفان وحدق في عينيّ فرأيت عينيه تفيضان بالدمع ووجهه باسراً. وتأوّه قائلاً: ليس في العالم مخلوق أعظم بلاءً مني. يظنونني سعيداً ولم أكن في حياتي سعيداً يوماً واحداً ولا ساعة واحدة.

- هوّنأ ما بالألقاب.

ها هي مادام س. قد جاءت... لا تعلم من هي مادام س... هي خليطة عبقّة لبقّة حاذقة تفضّل زيارة مغنى سعيد مرّة كلّ شهر وتعرض خدماتها في المطوّحات^(١) اللذيذة. فمادام س. جلّابة^(٢). وهي كما تراها صغيرة القدّ ممتلئة ضحوكة عروبة لكنّها دميمة كأنها معلّمة أولاد أو بالأوّلَى مديرة مدرسة. وهي تدير بالفعل مدرسة يأوي إليها الأولاد الذين فوق الطفوليّة بدرجة. والعجب كيف أنها لم تنل الأوسمة الأكاديمية لأنها بحسب ما قالت لي كانت تمير بالمحاسن السمحة عدداً من زملائي في الخلود^(٣) أو اثنين أو ثلاثة من وزراء المعارف العمومية والمذاهب. فأنت ترى أنها تسدي أيادي بيضاً للأدب والسياسة. لا أراك متعجباً من أمر مادام

(١) المطوّحة: تعريب Adventure.

(٢) خلّابة.

(٣) يشير إلى أعضاء الأكادمي.

س. فانت مخطئ بهذا". واذ ذاك دخلت مادام س. فقال لها: عمي صباحًا كيف أنتِ والأشغال اللطيفة؟ فأجابته: كيف أنت والأدب؟

- هاتي ما عندك من جديد.

- أنظر أنت بعينك.

فناولتني مجموعة رسوم مجلّدة بالمراكشي الديبغ تستصحبها دائماً.

- ماذا تقول في نمرة ٢ هذه شقراء حسنة الدلّ. فهي امرأة وزير. ونمرة ٣ سمراء بارعة الحسن إسبانيولية الخلق، كانت مدةً مديدة حظيةً أحد السفراء. ونمرة ٥ هذه فرصة لمن انتهزها بذلك الشعر الأصهب كشعر أهل البندقية. وهي ضليعة في الأدب تعرف اللاتيني واليوناني والطلباني ويدها شهادتها، فهي تلبق لك كقفاز في يدك.

فقلت لها: مادام س. مادام س. أقلّي من الألقاب واكثري من الأثناء^(١).

الرسوم

كان يتقيّد بالرسوم المدنية على قدر الإمكان فلم يكن يخاطب بيا سيّدي كلّ امرأة. وكان يختلف إلى بائعة عروض مختلفة في ضواحي "سان جرمان المروج"، فيقول لها "ام س.". ولكنه يسمّي بمادام ت. الصغيرة تاجرة العاديات التي مخزنها على مسافة بعض أقدام من هناك على رصّة فولتر. فإنّ تاجرة العاديات بأثمانها وأجرة مخزنها وحسن فضلتها^(٢) ومشيتها تستحقّ من الاحترام أكثر من تاجرة الخُرثي^(٣).

فأمّا المرأة التي لها دكان الكتب الفاخر على الضفّة اليمنى من السين والتي لا يوجد عندها إلا الطبغات العذارى المجلّدة بديبغ الجلود المراكشية، عليها الرسوم والأشكال فإنّه لا يتردّد في ندائها "مدام".

وهو يعتني بإعطاء الناس ألقابهم فيخاطب الأساقفة بالسيادة والوزراء بالسعادة. وإذا رأى أحدًا حاملاً في عروة ثوبه نسيلة أرجوانية لم ينس أن يخاطبه بـ "يا صاحبي الفارس"^(٤) أو بـ "يا صاحبي القائد"^(٥) وكان يتفصّح في النطق بألقاب الشرف ويجمّلها بأوصاف من عنده. فيقول عند

(١) إن كانت هذه القصة صحيحة فما أليق مادام س. بأن تكون مديرة مدرسة.

(٢) هيئة لبها.

(٣) السقط من المتاع.

(٤) Chevalier de la Légion d'Honneur

(٥) Commandant de la Légion d'Honneur

ذكر مادام نواي^(١) مثلاً "الكونتة الكاملة الرخيمة" ثمَّ يردف ذلك بقوله "هي من حزب الجمهورية".
أمَّا النساء اللاتي لم يتميَّزن بكبير فضل فلسن عنده بعقائل وأنما يقول عنهن "خلائق" أو
"مخلوقات الله" أو "فراير" أو "أطلاء"^(٢) وما أشبه ذلك. وهو يبذّر نعوت التعظيم مثل
"الشريف" و"المجيد" وما مائلها تذييراً.

وقال مرّة بمزيد الصلصلة^(٣) لفتاة صغيرة عمرها سبع سنوات تلحس بأصابعها: "أين
والدك الشريف" ووالدها كان رسّاماً. وإذا لم يكن يعرف شيئاً عن الناس الذين يكالمهم ينهال
على التشابه. وهناك لا يتعب ذهنه كثيراً. فكلّ محام عنده شيشرون^(٤) أو على الأقلّ بريّه^(٥).
وأمّا الأطباء فأبيقراط وجالينوس^(٦) وكان يقول كثيراً لطبيبه الخاصّ "منقذي" أو "الرجل الذي
سحبني من أبواب القبر".

وإذا خرج من حفلة محاضرة فإن أقلّ تمام^(٧) عنده ميرابو^(٨). ومرّة كان يقول لمصوّر: يا
عزيزي روبنس^(٩)... ثمّ التفت نحوي وقال لي: بروسون، دعني أقدمك لإنغر^(١٠) عصرنا لفنّ
التصوير المتمثّل بشراً سوياً.

وكلّ شعور عنده فيرجيل^(١١) أو هوغو^(١٢). ومن الغريب أنهم كانوا يقبلون منه هذه
التيجان الغليظة ولا يشعرون.

(١) Noailles: اسم لبعض أشراف فرانسة.

(٢) الفرفور: الحمل والغلام والعصفور؛ والظلي: الصغير.

(٣) التعبير في الكلام.

(٤) شيشرون (Cicéron)، أفصح خطباء الرومان، ولد سنة ١٠٦ قبل المسيح، وكان من أنصار قيصر فلماً مات قيصر انحاز إلى أوكتاف،
ابن أخته، فأرسل أنطونيوس من قتلته. وكان قريع دهره في المدافعات القضائية بقوة تصوّره وشدة عارضته ولطف مدخله وسداد حجته ولكنّه
لم يبلغ درجة ديموستان في الخطابة السياسية.

(٥) بريّه (Nicolas Berryer)، محام فرنسي شهير، كان في زمان نابليون الأول وخلفه في الشهرة بالحاماة، ابنه أنطوان الذي كان خطيب
الحزب الملكي مقاوماً للحزب البونابارتي في زمان نابليون الثالث.

(٦) أشهر أطباء الأقدمين، ولد في جزيرة كوس من بحر إيجه سنة ٤٦٠ ق.م. وجالينوس من أشهر أطبائهم، وآراؤه كانت تخالف آراء أبقراط.
(٧) التتمام: الذي يعجّل في الكلام ولا يفهمك، والأصل الفرنسي Bredouilleur.

(٨) الكونت ميرابو: أفصح خطباء الثورة الفرنسية، (١٧٤٩ - ١٧٩١).

(٩) روبنس (Rubens)، مصوّر فلمنكي عظيم اشتهر بقوة خياله ونصوع ألوانه، (١٥٧٧ - ١٦٤٠).

(١٠) إنغر (Ingres)، مصوّر فرنسي كان يقلّد رافائيل، (١٧٨٠ - ١٨٦٧).

(١١) فيرجيل (Virgile)، أشهر شعراء اللاتين اشتهر بلطف الحسّ وشفوف الطبع وصحة العبارة وانسجام القول دون الجزالة والحامسة،
ولد سنة ٧٠ ق.م. وتوفي سنة ١٩.

(١٢) هوغو (Victor Hugo)، أعظم شعراء الفرنسيين، كان أبوه قائداً في الجيش، ولد في بيزانسون سنة ١٨٠٢ ولماً بلغ العاشرة من العمر
قرض الشعر وظهرت علائم نبوغه. وكان جامعاً بين عظمة الصور وأسلاس قياد اللغة فيضع اللفظ الذي يريده للمعنى الذي يريده، وكان
عميق الفور جزل الألفاظ تنهال القوافي عليه انهياً قد أثرت فصاحته في أبناء عصره بحيث لعب دوراً سياسياً كبيراً ووقف بيانه الهائل على
نصرة الحرّة. توفي سنة ١٨٨٥ ودُفن في البانطيون وكان له ماتم يتيم لم يسبق له نظير.

وكان سريع القبلة. فيكون قد سمع صوت الجريس، وقال لجوزيفين لا تدعي هذا الرجل يصعد، فمتى تمكّن هذا من الصعود انعطف على عنقه يقبله، ويقول له:
- آه ما أسعدني بلقائك فقد كنت أضنى لأراك، لا جرم أن مشاهدتك قد أعادت عليّ شبابي.

ثم إنَّ عناقه كعناق الممثلين في المرازح لم يبقَ من نمط هذا العناق اليوم. فإنَّه أولاً يضمّ الزائر بأذرع التليعة ثمَّ يلزّه إلى صدره وهو أثناء ذلك ينحطّ^(١) شوقاً ووجدًا. ويحكّ له عوارضه بلحيته الفضّية ثمَّ يغمض عينيه كأنه يريد أن يرقأ دمعهما المؤذن بالانجاس. ثمَّ يقوفي كالذجاجة... يقول الناظر إليه أنه سيرنّح عليه. وتراه يتمايح رقّة وحنوّاً فيعيد القبلة، ويجد صعباً عليه أن يرخي معانقته، وهكذا إلى أن يأتي آخر فيعانقه أيضاً وهلمّ جرّاً.

كان مرّة يعانق زائراً على هذه الصورة فصدّق أنه مغرم به وتمادى في طعمه أن أخرج نسخة من قصّة تاييس^(٢) من الطبعة الأولى وترجّاه أن يكتب له عليها عبارة أنه أهداها له. فنظر إليّ أناتول فرانس وقد اغبرّ وجهه وضاق صدره. وكأنه يقول لي: "مَنْ هو هذا الأبله؟" ثمَّ اعتذر بكونه ليس عنده قلم ولا دواة. وإنَّ المذنب في ذلك جوزيفين، فألحّ عليه الحبيب المقبل بإجابة سؤاله فأحاله عليّ.

معرض ثياب بيض

إذا أراد أن يتنقص خصماً لم يجد له كلمة أقلّ من "عاجز".
وكان الكاتب القاصّ ب.^(٣). أبغض الكتاب إليه، فكان كثير من انتقاده في جلساته الخاصّة، ويقول:

- يتكلّم دائماً عن النساء ولا يعلم شيئاً عن النساء. والذي اشتهر به من علم النفس أشبه بعلم خصي أسود قد دعك قمصاناً وسراويلات في مخزن ثياب يوم معرض بياض. والمومسات اللّاءي يصفهن يذكّرني أبداً بشخوص الخشب التي في قصر اللوفر فتجد ثمّة كلّ شيء: الأقمشة المطرّزة كأغطية المذابح والتخاريم والهئات المعلقة وكلّ شيء سوى الحرارة والروح والحركة.

(١) من النحيط كالزفير.

(٢) تاييس (Thais): رومان لأناتول فرانس فيه وصف أخلاق الإسكندريين في أواخر الدور اليوناني وأوائل الدور المسيحي (وقد ترجمه إلى العربية حضرة الأديب أحمد أفندي الصاوي محمّد ونشرته المطبعة العصرية. الناشر).

(٣) ب.ب: أظنه يشير إلى Bourget.

العصر الجيد

كان عند أحد تجّار العاديّات فعرضت عليه سلعة فبذها قائلاً: هذه ليست من العصر الجيد. فقلت له: ما هو العصر الجيد؟ فأطرق هنيهةً ثمّ قال: العصر الجيد يا ولدي هو كلّ الأعرص إلاّ عصرنا الحالي. ففي الأدب ينتهي العصر الجيد بـ "نوديه"^(١) وفي التصوير بـ "أينغر"^(٢) وأما من جهة الأثاث فلم يصنع شيئاً فيه لطافة منذ القنصلية^(٣).

- إذا أنت تقضي على زماننا هذا بجملته؟

- نعم، صبرة. لأنّ الجمهورية في فرانسة هي حكم السماجة. انظر إلى مدارسها وثكنها ودور حكومتها وتمثيلها ففي السماجة لا تخطئ المرمى أبداً.

مولع ببقايا القديسين

جئته مرّة فوجدته جاثماً على متكأ في الدهاليز، فقال لي:

- ربّما تستغرب جلوسي هنا والمطرقة بيدي. نعم، هو ذا أنا أغرز مسامير. ولست ماهراً في غرز المسامير لأنني أضرب أحياناً ضربات ترتدّ على أظفري. ولكن هذا هو العمل اليدوي الذي كان مار بنديكتوس قد فرضه عقب الشغل العقليّ في قانون رهبانه. فأنا أرى هذه المعاقبة في محلّها على أثر زلّة صغيرة أزّلها. نقل تصاوير وألواح من محلّ إلى آخر ووضع ما كان في اليمين على الشمال وما كان في الشمال على اليمين كما فعلت أنا هذه الغداة. ألك في مساعدتي على هذه الحركة؟ لا جرم أنني متعسّف في دعوتي لك أن تشركني في الندم على حين لم أدعك تشركني في العمل.

ثمّ قال لي وهو ينقل هذه الألواح والأطر:

- كيف ترى ذخائري الدينية؟ إنّ عندي من كلّ شيء ومن كلّ شيء أحسنه. اقرأ الأسماء: مار فرنسوا دو سالس، مار فنسان دو بول، القديسة شانثال. كلّهم قديسون فرنسيين. فإذا كنت بعظام هؤلاء القديسين لا أتوصّل إلى الخلاص فيا ضيعة الأعمار! لأنك تعلم أنّ أصغر شظية وأقلّ سنّ من بقايا عظامهم عليه الرائحة القدسية إلى يوم القيامة. كأني بك أيّها المنحوس

(١) نوديه (Nodier)، أديب فرنسي ذو كتب ممتعة، (١٧٨٠ - ١٨٤٤).

(٢) الحكومة الفرنسية من انقضاء الديركتوار سنة ١٧٩٩ إلى الإمبراطورية سنة ١٨٠٤.

الصغير لا تصدق بتأثير هذه البقايا، لأنَّ روح العصر قد صوّح نضارة تلك الواعيد التي تلقّيتها في حديثك. ناولني هذه الصورة باحترام. فإنَّ لهذه تأثيراً من الداخل على الخارج ومن الخارج إلى الداخل، حتّى على غير المؤمنين.

قد وجدت هذا الصندوق المعدّ للذخائر عند امرأة يهودية مفرطة البخل من على الضفة اليسرى. وكانت أنتن النساء وسكرى الليل والنهار. فالصبوح تشربه لقتل الدود. ولكن الدود يرجع فقتله في الغبوق. ولا تزال مع الدود في المقيم المقعد. وإذا كان الجو حاراً شربت لأجل تبريد الجوف وإذا كان بارداً شربت لأجل تدفئته. ومع شربها المستمر لا تجد الخمرة يدبّ دبيها إلى موضع سجيّة الكسب التي هي مزية بني إسرائيل. وجدتها أمس في حال نشوة لا تستطيع معها القيام فأخذت بيدها حتّى استفاقت ثمّ لم تلبث أن صدمت بمرورها صندوق الذخائر فأحسست أنه أصابه صدع.

ولقد حفظت في نفسي شعوراً كاثوليكيّاً قوياً فيعزّ عليّ أن أرى الملائكة والقديسين وعظام الشهداء في أيدي تجار الهيكل^(١). فهذا تجدني أتهافت على التقاط جميع الأمتعة المقدّسة التي صارت من الأسقاط وسيغدو منزلي أشبه بخزانة كنيسة.

سألتها: كم تريد في هذا اللوح المصوّر؟ فلم تقدر أن تفصح من السكر ولكنها لم تضيع المعنى لأنها كلّما ازدادت سكرًا ازدادت مكرًا. فلم يبق لي إلا أن أخذ هذه العظام وأترك فصل الثمن إلى وقت آخر لأنني خفت أن هذه اللخناء تنجّس تلك المقدّسات بفواقها. فذهب إليها يا حبيبي ولك الفضل وقل لها: هذا ثمن الذخيرة ٤٠ فرنكًا. فستصيح وتصحّب وتحاول إطلاءك على دفاترها، فلا تدخل معها في جدال وابق على كلمتك: أربعون فرنكًا. فعظام القديسين من أرخص ما يكون هذه السنة. فإن لم يعجبها هذا الثمن فلتسترجع متاعها. أنه لم يبق أحد غيري ممن يشري هذه الذخائر.

الصبايات الأولى

أني لفي الثامنة إلى التاسعة من العمر وفي الطاق الأعلى من بيتنا على الشاطئ تسكن غادة حسناء. ولم أكن في تلك السنّ ممّن يفهم من هي وإنما كنت ألاحظ أنها غادة من محيط يفوق محيطنا كثيرًا في الرونق والثروة. وكان الازدراء الذي يظهره الناس لها منطويًا على شيء من الافتتان والحسد. وكانت تتزيّق^(٢) كلّ يوم عدّة مرّات، فكانت قوس قزح تذهب وهي بلون

(١) اليهود.

(٢) تزيّن وتبرّج.

وردي وتعود بلون أزرق. ولا تخرج إلا في عربة. وفي يوم سفيرها - يهمسون أنه كان سفير أوستريا - كانت عربة فاخرة يقودها حوذي حسن الشارة تأتي فتقف أمام الباب. وكانت تتزاحم على درجها غلمان الأفران بأنواع الأقراص الطرية العطرة وغلمان باعة الأزهار يختمني الواحد منهم تحت أكاليل الزهر. وكانت سبطة اليد منبسطة للمعروف فصارت الألسن تنشي عليها أنها كانت برة بوالدتها وأنها فعالة خير. ولما كانت تصادفني على الدرج كانت تمرّ يدها التي يتضوع منها الطيب على خدي وكانت تجدني فرفوراً - أو هكذا تقول - وكانت تحب الأطفال وربما كانت تتجلى عقيلة بيت كريمة لو صادفتها العناية الإلهية أو الثروة، والحقيقة أنّ العناية الإلهية والثروة واحد. لأنّ الله يحب الأغنياء. وفي ذات يوم ناولتني ثمر قسطل مجمداً بالسكر ومرة أعطتني شوكلاتة، فصبا قلبي إليها وصرت أستحلي جداً صورتها وأقضي الساعات في انتظارها، إلى أن وجدت مرة فرصة فزلجت إلى غرفتها ففتحت لها قلبها وسفط ثيابها وأبرزت لي حليها، ولكن لم تلبث أن أعرضت عني وألقت بي في ظلمات الدرج بنفور شديد، وقالت لي:

- ارجع إلى أمك فإنّ ولدًا حسن التربية لا يقضي وقته عند الجيران.

فلا تسل عما نابني من الألم لهذه الواقعة، فانقطعت الحلويات واللطائف والقبل وصارت لا تردّ سلامي. ولكن هذه القسوة لم تكن إلا لتزيد غرامي. فهجس في خاطري إحدى الليالي أن أكتب إلى جارتنا الحسنة كتاباً، وثاني يوم اقتطعت ورقة من دفثري وحاولت أن أكتب، ولكن فاض علي الموضوع حتى تحيرت من أين أبدأ. وأخيراً أجمعت على ما يأتي:

”مادام أرستين! مادام أرستين! مادام أرستين! ارحمي أناأناأنا الصغير جارك التحتاني“ فهذا أول كتبي في الحبّ ولم يكن بكرةً في بابيه. وإنما يقال عنه إنه رسالة حبّ. فقد كثرت فيه علامات الاستغائة والاستعطاف ولا أظنه منذ خمسة آلاف سنة أي منذ بدأ الرجال يكتبون إلى النساء اهتدوا إلى أحسن من هذا الأسلوب، لأنك إن أردت أن تحذف علامات الاستغائة من كتب الحبّ فليت شعري، ماذا يبقى منها؟

ولا يروعنك ما قصصته عليك من أمري مع هذه الغانية وتجدّه عجيباً فقد كان مثل هذا من خواص الأدباء. أفلا تتذكر قصة كرقصة ”ستاندال“ (...)“ أنسيت خبير ”شارل نوديه“ الذي تعشق حسناء من معارفه وهو ابن عشر سنوات وكتب إليها على ورق جميل، من ورق أبيه وبأحسن أعلامه برياً، كتاباً يشكو إليها فيه جوائح حبّها في قلبه. ونظير كلّ خجلان خائف لم

(1) ستاندال (Standhal)، قاصّ فرنسي مشهور امتاز بتعمق أسرار النفس، (1783 - 1842).

يتطلب المنحنيات والثنيات، بل من أول يوم طلب موعد لقاء. فجاءه الجواب سريعاً جازماً بالقبول وعُيّن المكان والزمان. فقضى ذلك اليوم بطوله على مثل الجمر وفي الساعة المعينة ذهب إلى الحديقة التي كان الموعد إليها ليلاً فشاهد تحت الظلام شبحاً أثيرياً وكان قرأ في كتب القصص (الرومان) أنّ الرسوم في مثل هذا الموقف تقضي بالجثو على الركب أول واهلة فسجد لذلك الظلّ الملتحف بالرداء المحرّم فامتدت يدان ناعمتان ولكن قويتان فأنهضته وجمعتا بعضه إلى بعض ورقعته أشد الكفوف إيلاًما وكانت له تأدية لم ير مثلها من والديه. فيقول نوديه: فبقيت من بعدها طول حياتي إلى أن بلغت الستين لا أقرب من امرأة إلا وأنا خائف أن أكل جلدة.

خطأ في الإملاء

وكان أعظم العيوب البشرية عند الأستاذ العناية والعجز. وكان خفيف الوطأة على المخالفين في مذاهب الحبّ فلا يسمّي ذلك إلا خطأ إملاء، فيقول:

- بعضهم يؤثّ المدكّر وبعضهن تذكّر المؤثّ. وكلّ في هذه الدنيا يعمل على شاكلته.

وكان أناتول فرانس يرى أنّ البدع تؤيد الشريعة. وكان يقول: لا يوجد محصّنون وإنما يوجد مراؤون ويوجد مسلوسو العقل. ويوجد مرضى ويوجد مجانين. أعلم أنه بدون شهوة لا يوجد شعور وبقدر ما نكون شهوانيين نكون أذكاء. وأحسن فصول الحياة هو فصل اللذات. فالحكيم من يجتهد في إطالة هذا الفصل. بعض الناس يسخرون من الشيخ الذي يعشق. فيا للحماقة البالغة. فأما أنا فأقلب قضية "ده كارت" (1)، فأقول: أحبّ، إذا أنا موجود. ما عدت أحبّ، ما عدت إذا في الدنيا شيئاً.

سيدتي البلاغة

يصير الإنسان كاتباً بارعاً كما يصير نجّاراً حاذقاً وذلك بالصقل، هذا يصقل الخشب وذاك يصقل العبارة. فالبلاغة اليوم سوقها كاسدة مع أنها تعلّم الذوق وتنور الذهن وتهزّ القلب. والخواطر تذهب والبلاغة خالدة. كانوا في القرون الوسطى يقولون "سيدتي البلاغة". نعم، والإنشاء أنواع: الإنشاء السهل، والإنشاء العالي، والإنشاء المعتدل. وقد يضحك هذا القول ناشتتنا الأغرار مع أنه من البديهيات، إذ لا يُعقل أن تكتب إلى محبوبتك كما تكتب إلى رئيس أساقفة باريس.

(1) ده كارت (Descartes)، الفيلسوف الفرنسي الشهير، صاحب المذهب الكارتيزي الذي يقتضي التجرد من كلّ المعلومات السابقة والبناء من جديد، وكان بدأ بالشك في الوجود ثم انتهى باليقين لقوله إنّ آلة الشك هي الفكر، فالفكر إذا موجود والفكر موجود. أنا أفكر، إذا أنا موجود.

توخي العالي من الإنشاء مرض

احذر من البقبة ومن النوع الكورنايلي^(١) واترك هذه الجزالة للوعاظ على المنابر، فإنه ليس شيء أسهل من الرعد والقصف والارتجاز والإدهاش. وإن أقبح المغنين النعارون الزعاقون. وأيُّ من تفيهق خرج من الطبيعة ولا بدّ له من الرجوع إلى الحالة الطبيعية بحكم الضرورة. لأنك إذا كنت محلّقًا فوق السحب فلا تقدر أن تبقى محلّقًا بدون نهاية، بل عليك أن تنزل بقارتك أخيرًا إلى الأرض.

إنَّ رواية مشخّصة، يصفّق فيها عند كلّ شطر، تترك السامع طوال الليل مشدودًا على كرسيه، لأنه متى بدئ بالهذيان فلا يعرف أين ينتهي، فهو ينتهي إمّا في "بند"^(٢) أو في المستشفى. وهكذا الشأن في القصص، فإنَّ الإنشاء المطنّب يكون غالبًا من دلائل المحال: في أوائل نشأتي كنت أنضح عرقًا حتّى أبلغ الأسلوب العالي الفخم وأمّا الآن فإنّي أفرّ منه.

عند هويسمان^(٣)

في أحد الأيام أخذني الأب ف... من آباء مار سوليبس Sulpice إلى هويسمان. وكان ساكنًا في منزل صغير نير بجوار "بون مارشه" ومن منزله يطلّ على حدائق أديار وساحات دور أيتام. وكلّ ذلك على نسق واحد سواء كان الأروقة أو الأشجار أو السكّان. فبعد أن انتظرنا نحو ربع ساعة فُتح الباب وخرج رجل طوال القامة أغلب^(٤)، عليه هيئة مصارع ولكن مصارع منهوك مغلوب. وكان متلفعًا بشقّة صوف، يبرز من خلالها رأس منخفض مطاطيّ وهو يرفل في قميص نوم خلق بلون البراغيث. فلما أقبل على الأب عانقه ودخل وإياه وأنا في أثرهما إلى غرفة هي غرفة السفارة. وكان على حيطانها صور شمسية وتصاوير تمثّل المسيح وصلبه وتعذيبه... وقد ألقّت الشمس صفرتها على هذه التهاويل^(٥). وكان على المدخنة بين إنائين منصّة شعاع للقربان من طرز لويس السادس عشر ومن فوق هذه المدخنة التي تحوّلت إلى شكل مذبح يوجد مصلوب كبير من الجبس والخشب الأسود مع باقة من البقس. وكان يستنشئ الإنسان في تلك الغرفة رائحة العفونة والندوة التي لا بدّ منها في صوامع الكنائس وفي المستشفيات.

(١) نسبة إلى الشاعر Corneille، وكان يذهب إلى التعالي في البيان.

(٢) Pinde: جبل في بلاد اليونان خاصّ بألهة الشعر.

(٣) هويسمان (Huysmans)، أديب فرنسي بليغ، صاحب تآليف، ولد سنة ١٨٤٨ ومات سنة ١٩٠٧.

(٤) غليظ العنق.

(٥) التصاوير.

فجلسنا أمام نار ضئيلة تصلّ فيها جذوتان من الوقود وأخذا يتجادبان أطراف الأحاديث. فكان أول الحديث على صحّة الكاتب، فقال إنّه أصبح لا يثق بالطبّ والأطباء وإنّه استسلم إلى الله، أفليس الله أدرى بما يوافقنا؟ نعم، أنه يألم ولكن ربّما لم يكن يألم بقدر ما يستحقّ، إذ عليه تكفير آثام كثيرة. ثمّ أخذ يروي طريقة تعبّده، فقال إنّه يقرأ المسبحة الوردية وأنه كان يراها بادئ ذي بدء من قبيل الحركة الآلية لأنه كان مسمّما بالدعاوى الأدبية اللغوية.

ثمّ قدّمني الأب إلى الكاتب، وقال له:

- هذا ابن بلدي جان جاك بروسون، أبوه كان رجلاً جيّداً وكان طبيب مدرستا الإكليريكية في "نيم" (1) وطبيباً لجميع الأخويّات التي لنا في مقاطعة "الغارد". والدكتور بروسون هو من فرسان مار غريغوريوس...

فقال لي هويسمان:

- تتوحّى حرفة الأدب أيّها الفتى المسكين ولكن عليك أولاً بالتفكّر في خلاص نفسك... دخلت كاتباً خاصّاً عند أناتول فرانس فلا تندب إلاّ حظّ نفسك. هذا كاتب كبير ولكن ينقصه الشيء الوحيد اللازم وهو الإيمان... نشأ في بيت تقوى بحسب ما سمعت وكان أبواه مسيحيين. ولكن البأو وحبّ الظهور والتوق إلى تصفيق الناس له مع الميل إلى المخالفة... ذلك جعله في مركز غير محمود، وبالرغم من هذا المجد الذي أحرزه كلّه أنا لا أرضى أن أكون في مركزه.

ثمّ تنحنح هويسمان وبصق في النار، وقال:

قد كنت أتردّد على أناتول فرانس، فكنت أراه ذا عقل كيّس أو ذا خلق لطيف. فلهذا أرثي له إذ أراه يتدحرج على هذه المزلقة المدحاض. فمن قبيل تذكّار المحبّة القديمة قل له ما يأتي:

- أيّها الأستاذ العظيم ألم تتعب من عبادة الناس؟ ألم يُصبك الدوار من تأليه هؤلاء الوثنيين لك؟ أنسيت نعمة المعمودية المقدّسة والقربانة الأولى. أيّها الأستاذ العزيز، متى جنّ الليل انهزم من وجه هذه البطانة التي تخفي عنك الحقائق تحت بخار الثناء. ونظير أمّك الصالحة ادخل إلى كنيسة قديمة ينتابها العائمة مثل "سان سيفرين" مثلاً وغطّ أصابعك في جرن الماء المقدّس، كما يغطّ نساء الحيّ وصغاره أصابعهم، واكفر بشهرتك هذه، صلّب واركع حنيّة من الكنيسة، واخلّ إلى ربّك وسل نفسك عمّا إذا كنّا جنّنا إلى هذا العالم وشُرّينا بدم يسوع المسيح لأجل أن نكتب هذه الوقاحات؟

(1) مدينة في جنوبي فرانسه.

ففي اليوم التالي نقلت إلى أناتول فرانس الموعظة بحذافيرها، فقال لي بصوتٍ جافٍ:
- هويسمان هذا المسكين حطىء جداً وجميع هذا الإفراط في العبادة علامة سيئة في هذه
السن، فمتى صادفته - والكياسة تقابل بمثلها - قل له هكذا:
فرانس ينصح لك بأن تجري تحليل بولك.

الثبت

كان مرة يساوم على إحدى هذه القطع من بقايا القديسين التي يحبها كثيراً، فقال:
سينتهي بي الأمر بأن أجعل عندي جميع القديسين الذين في الفردوس. وإن كانوا
يتذكرون في الحياة الأخرى كوني قمت بضيافتهم في هذه الدنيا، فلا خير في أحد. فأنا واثق
بخلاص نفسي. إنَّه لا بدَّ من وجود عذراء تمدَّ لي يدها وتقول للأب الأزلي: "إنني أعرفه فليس
بأسود الصحيفة إلى الحدِّ الذي يقال عنه. لقد بتُّ كثيراً في غرفته".

ولكنَّه يهّمه أن تكون الذخيرة ثبَّتاً Authentique صحيحة النسبة.

فسألته بائعة البقايا: وماذا تريد بذلك؟

فقال لها:

- يا قليلة الإيمان. الثبت هو الحجّة التي تثبت كون هذه القطعة بقية قديس. فإنَّه بدون هذه
الحجّة وبدون ختم المطران هذه البقايا ليس لها أدنى قيمة. هذا في نظر المسيحي لا في نظر جامع
التحف. فأنا إنمّا أبحث عن قديسين وشهداء وعلماء وعذارى مكفولين بأن لا شائبة فيهم.

طالي^(١) وكليو^(٢)

إنَّ هذا النقريس الممراق^(٣) "ساردو"^(٤) أعطاني ذلك اليوم درساً. فقد كُنّا على الغداء عند
بعض الأصدقاء وجرى كلام على كتاب أو مقال جديد ظهر على قضيّة "بني نوندورف"
أدعياء ولاية العهد الزاعمين أن نوندورف هو لويس السابع عشر. فأخذ ساردو يبرهن على
صحّة خير الخطف وأورد جميع الأدلّة والشواهد بحرارة إقليم بلاده البروفانسية^(٥) على كون

(١) طالي (Thalie)، آلهة الروايات الهزلية في أساطير اليونان يمثلونها بوجه مستعار وباكليل من اللبلاب.

(٢) كليو (Clio)، آلهة التاريخ يمثلونها ومعها درج ورق وصندوق كتب.

(٣) النقريس: النظار في الأمور المدقّق فيها؛ والممراق: الدخال في الأمور كأنه يبرق من حيث أراد، وفي الأصل Roublard.

(٤) ساردو (Sardau)، أديب فرنسي مرزحي روائي، ولد سنة ١٨٣١ وتوفي سنة ١٩٠٨.

(٥) إقليم بروفانس في جنوبي فرنسا.

ابن ماري أنتوانت لم يمُت، وما زال يتكلّم ويعزّز ويستظهر حتّى ظننت أنه كان حاضرًا تلك الحوادث. فأردت أن أستشهد له بتقرير الأطباء التشريحي الذي حرّره «بللتان Pelletan» فلم ينجع فيه الدليل وأخذته الحدة وانهاled بالشتم على أولئك الناس. فقلت له أخيرًا:

يا عزيزي ساردو أراك تندفع في مسألة لويس السابع عشر هذه اندفاعًا يخيل للناس أنها عندك مسألة عائلية. فهل لك دعوة^(١) في نسب ملوك فرانسة حتّى تجتهد كلّ هذا الاجتهاد في إثبات عدم الالتياط^(٢)؟

فضحك وهدأ روعه وخزر بعينه المملوءتين خبثًا وهمس في أذني قائلاً:
الكلام بيننا. إنّ خطف وليّ العهد يكون منه رواية تمثيلية من أبداع ما يكون. حال كون موته في الهيكل ليس فيه شيء روائي.

علم التعبية الأكاديمية

ما زالوا على أذني في مسألة الدخول في الأكاديمي حتّى أقنعوني بلزومه وكان «هاليشي»^(٣) هو الذي توكلّ بسحبي من مكان إلى مكان من بيوت الخالدين وكان يعطيني في فنّ التعبية الأكاديمية دروسه. فكان عليّ كلّ يوم فرض معيّن مبيّن فيه كلّ شيء: الذهاب إلى هنا أو إلى هناك. إلى الكونتة فلانة... الكلام على كذا وكذا. التحدّث عن الكونت «دو شامبور» وعن «شاتوبريان» في مجلس العقيلة ب.: المبالغة في إجلال «فكتور هوغو»... إلخ، وكان أمام انتخابي عقاب شاهقة فصارت عندي حكمة في هذه المسئلة لشدة ما لقيت من الصعاب في طريق انتخابي. ومن الصعب أن يفهم الإنسان إلى أيّ حدّ هؤلاء «الأربعون»^(٤) مع كونهم فسلاء في تالفهم دواه شديدو المحال في حياتهم. فإنهم يجسّمون حركة عقولهم كلّها دسائس وحيلاً. أفتعلم أنت أخرج أتمّ شروطًا في الخرق من ل... وهل سمعت بحماقة تشبه حماقة ب... وهذا الأبحّ المزكوم ب... الذي هو سيّد المقعّرين^(٥) والمعسطين^(٦) في عصرنا الحاضر؟ فهؤلاء المعاتية من عُفارية^(٧) الدهر في مسألة الدخول تحت القبة... فيجب أن تتحمّل منهم نوعًا من الإرشاد

(١) الدعوة: بالكسرة، تُستعمل في ادعاء النسب.

(٢) الناظ: ادعى ولدًا وليس له ولد.

(٣) هاليشي (Halevy)، أديب فرنسي روائي هزلي مجيد، كان من أعضاء الأكاديمي، ولد سنة ١٨٣٤ وتوفّي سنة ١٩٠٨ وتقدّم ذكره.

(٤) أعضاء الأكاديمي.

(٥) المقعّر: كثير الكلام، المشدق.

(٦) والمعسلط والمعسلط: الذي يتكلّم بكلام لا نظام له.

(٧) أي شياطين الدهر.

وأن تثبت كونك قادرًا أن تساويهم في التخصُّع. ولشدة ما ألحوا عليّ في كتابة رقعة الترشيح حرّرت شيئًا بغاية البساطة فلم تعجب "هاليفي"، وقال لي: إنك تُظهر زهوًا كثيرًا فغيّر النّفس، ثمّ عمل لي مسوّدَةً فنسختها بطاعة مدهشة ولم يكن فيها أكثر من أربع غلطات في اللغة الفرنسية.

حجاب المستقبل

حاول رنان عندما بلغ به الكبر أن يكشف حجاب المستقبل. ولماذا؟ لأجل أن ينقع ما به من ظمأ الاطلاع. وقال: آه ما أشدّ توقي إلى تقليب صفحات الكتاب الابتدائي الذي سيحمله أحداث الكتابيب بعد مائة سنة.

وأنا أيضًا أحبّ أن أهتمك هذا القناع الغاشي وعندي شغف بالاطلاع ولكن ليس شغفي خيالياً محضاً كما كان شغف ذلك الوافه الهَرَم^(١) فلا أبالي بالأنايبق ولا بالبخار ولا بالكهرباء... فقد بقيت طويلاً تحت تأثير وساوس والعلم لكنني اليوم رجعت عن هذه الأباطيل فلست أعتقد بهذا العلم الذي يتحلل دعوى أنه هو وحده الشيء الصحيح. إن هذا التبجّح هو وحده كافٍ للحكم عليه. فلو كنت أملك حقّ الخيار بين الكتب التي ستظهر بعد مائة سنة لكنت أختار قصّة رومان تنحصر في هذه النغمة: رجل كان يحبّ امرأة لا تحبّه، أو كانت المرأة تحبّه وهو لا يحبّها. أو كان كلّ واحد من الاثنين متيماً بالآخر أو كان كلّ منهما شديد الشنان للآخر. فتأخذ هذه القصّة عدّة أشكال ولا يتجاوز ذلك مع إدخال عاشق المرأة أكثر من عشرة أو اثني عشر مقاماً. أو آخذ جريدة أزياء لأرى كيف يكون لبس النساء بعد وفاتي بمائة سنة. وهذه الخرق تنبئني عن الإنسانية في المستقبل أكثر من الفلاسفة والقصاص والوعاظ والعلماء.

هذا الولد نائم

كنت في أوليتي مفرط الكسل ولم أعرف إلا متأخراً ما يسمّيه المعلّمون بلدّة الشغل. وكذلك كنت جامحاً خروطاً^(٢) فلم أكن لأحرر حوادثي إلا في الساعة الأخيرة، أشبه بالمحكوم عليه بالموت، يكتب وصاياه آخر دقيقة من حياته. وكان لا يحفّزني إلى الشغل إلا الاضطرار، كالإملاق أو التقيد بالوعد فكنت أنجز عملي إنجاز كفارة مفروضة عليّ أساق إليها كرهاً. وذلك أن قوّة الخيال كانت عندي ضعيفة وكان الدأب عليّ من أصعب الأمور. وكنت أجد أن أبداع

(١) يشير إلى رنان الذي كان في مبدأ أمره إكليريكياً.

(٢) الخروط، بفتح فضم: من الرجال من يركب رأسه بدون معرفة.

في كل ما أكتب وأن أندر عن المعتاد، خلافاً لما صرت عليه الآن فقد طأمنت فيما بعد من غلوائتي. والسرّ في هذا كله أنني أبطأت في الدخول إلى الحلقة الأدبية الحقيقية فكنت في عنفوان الشباب الذي يحلم الناس فيه بالأكادمي والبانطيون^(١) والأنفاليد^(٢) لا تسمو همّتي إلى شيء وآمالي قصيرة الأمد. فكان أبي يقول دائماً: "هذا الولد نائم"، أمّا والدتي فكانت تفهمني أكثر منه نظراً لشغف فكرها وصدق حسّها. وكنت أرى نفسي أقرب إليها. وكان الوالد على العكس من الوالدة ميّالاً إلى النظريّات مولعاً بالتفخيم والتعجير يحذو حذو شاتوبريان، أحبّ المؤلفين إليه. فإذا عنّت حادثة مهما كانت تافهة خسيصة خطب فيها كأنه أحد أنبياء بني إسرائيل. فكانت والدتي تفشّ^(٣) وطب فخفخته ببدائنها المنطقية الفولتيرية الأسلوب. وكان لسانها زاهراً بالأمثال العامية اللطيفة.

المجد والبابوج

قال:

- وكان يختلف إلى دكاننا أشكال ألوان من أولئك البهائم الخالدين... بعد خروجهم من الأكاديميات القريبة. فكانوا في أثناء بحثهم عن الكتب يطيلون عندنا مجالسهم ويخوضون في الأحاديث وكنت معجباً بهم كثيراً وكانوا هم المجد كله عندي. نعم، لم أكن أرى المجد إلا في كتابة قصّة حسنة السبك أو حاشية رقيقة وأن يكون المرء كأحد هؤلاء المشيخة الذين يعجبون ببشاشتهم ونظافة بزّتهم وبعراهم الزاهرة بالبنفسج والأحمر والأبيض وأن يعيش في عصره كأنه ليس من أهل عصره وأن يجهل أترابه ولداته وأبناء زمانه ويصير خليطاً وعشيراً نجياً لشيثرون وكورنايل ومادام دو سفينيه^(٤). هذا كان عندي هو المجد.

فقلت له: والآن يا أستاذ.

- الآن يا ولدي المجد عندي هو أن يؤذن لي بأن أفعل ما أريد فأستقبل الوزراء وأصحاب المطابع وأنا بجلباب النوم وبالبابوج وأعيّن لهم مواعيد للملاقة وأرفضها إذا شئت وأنظرهم طويلاً حتّى أخرج لمقابلتهم كما كانوا يُنظرونني. وبالاختصار، فالأكادمي الفرنسيّة وهذا

(١) البانطيون: مدفن أعظم الرجال في فرانسة.

(٢) الأنفاليد: هو البناء الذي نقلت إليه تجاليد نابوليون بوناپرت.

(٣) وفي الأصل Dégonfler.

(٤) أشهر كاتبة في فرنسة في الرسائل الخاصة، (١٦٢٦ - ١٦٩٦).

الصيت وهذا الإكليل تمكّنتني من أن ألبس في كلّ مكان وفي كلّ وقت لبّادتي الغبراء وأن أذهب إلى الأوبرة بالحفّ إذا طاب ذلك لي. فهذه فوائد صغيرة ولكن يوجد ما هو أجلّ منها. فإنّ الأكاديمي أحياناً فوق القانون، وخذ لك هذا المثال:

التسلية البرية

كنت مرّة أتزّه في البرية مع غانية لبة^(١) أصبتها كجنيّة في غيضة من غياض بولونية. ولما كنت حسير النظر وقليل الحيلة في إخفاء عواطفني وكان يعوزني أهمّ الفضائل الاجتماعية وهي الرياء، جلست أنا وشريكتي على مقعد نتصابي بكلّ براءة. وإذا بناطور متعنّفص^(٢) متترّع أقبل علينا، وقال:

- إنني أرعى حركتكما منذ ربع ساعة يا أشبه الغيلان. نبتاني بأسمائكما.

وكانت معي بطاقة زيارة فدفعتها إليه مع ريال فوضع الريال في جيبه وطفق ينظر في البطاقة. فلما علم أنني من الأكاديمي الفرنسية انقلب من الفظاظلة إلى منتهى الدمائه، وقال:

أرجو منك قبول العذري يا حضرة عضو الأكاديمي فأنت تدري أنّ أشكالاّ وألوانا من الناس تتتاب هذا المكان. وإن كنت قد تعرّضت لشيء فإنما هو بسبب هؤلاء الأولاد العفاريّ فإنهم ليسوا بعميان إذا أرادوا أن ينظروا ما لا يجوز النظر إليه. ولولا ذلك لم يهمني الأمر. فأبي فائدة من وجود الغاب إن لم يكن للمغازلة والصبابة؟ إنّما المصيبة في سراويل السيّدة فإنّه أحمر ساطع فيرى من بعيد كأنه راية منشورة. فلو عوّلت السيّدة على سراويل أسود لكان أوفق جدّا وكانت العيون لا ترمقها إلا قليلاً. وعلى كلّ حال التواري واجب، أليس ذلك بصحيح؟ وما كان يلزم أن أجيء ولكنني لو لم أجيء لم أكن حظيت بمعرفة حضرتك يا عضو الأكاديمي.

ثمّ قال أناتول فرانس:

- فهذه الحرّية وهذه المزايا التي يمنحها المجد والذكر تمتدّ أحياناً إلى عترة الرجل العظيم. فالسيو م.^(٣) المؤرّخ كان له ابن أخ حسن الوجه لكنّه كان في الذوق منحرفاً عن سنة الجمهور. فلأجل خاطر عمّه الذي كان من أساطين الجمهورية عينوه مفتشاً للأكاديمي. فكان ذلك من قبيل العهدة إلى الذئب برعاية الغنم. لأنه لم يمض إلاّ قليل حتى لحظوا أنّ توزيع العلامات لم

(١) لطيفة قريبة من الناس، وفي الأصل peu farouche.

(٢) تعنّفص: زها وتكبّر، عامي فصيح.

(٣) يعني ميشله (Michelo).

يكن على حسب أهلية المرشحين ومزاياهم في التعليم، بل على حسب مزاياهم البدنية. فكان الفائزون عنده دائماً من كانوا أملد شباباً وأطرى إهاباً، بل كان يستصحب منهم أناساً إلى منزله بحجة أنه يريد أن يلقي عليهم نصائح. فبالرغم من غلبة روح النظام وطاعة الأصغر للأكبر في الجامعة نشز بعض هؤلاء الشبان على الطاعة لهذه النصائح السرية وأبوا أن يلعبوا دور غانمييد Ganymède لدى جوبيتر المعارف. فاعترضوا ولغوا وشاعت القضية وتقدمت بها شكاوى.

وكان المسيو فاليار^(١)، وزير المعارف العمومية يومئذ. وهو ممن يسخر الناس منهم ويظنونه بليداً، والحال أنه أدهى مما يظنون مع ثقل جسمه واحبنتائه. فهو أشبه بالفيل الذي يتمكن من فتح شامبانيه ولا يكسرها؟ فأبى فاليار أن يحيل هذه القضية إلى القضاء، وقال: إنَّ المسيو م. هو أحد آباء الجمهورية ومن مفاخرها الذين لا غبار عليهم وليس عندنا مثله كثير حتى نرمي تمثاله في الوحل. ومن ذا الذي يهون عليه أن يدخل الحزن على مؤرخ الجمهورية في شيخوخته. فإثم ابن الأخ لا يجب أن يمسه العم ولا عمله. لا محاكمات في هذه القضية ولا فضيحة. وسنفهم هذا المفتش الشديد العاطفة أن ليس له مكان في الجامعة وأنَّ عليه أن يستقيل. وهكذا تمَّ وبدل بهذه الوظيفة وظيفة أخرى في الجزائر على ما أظن. ولم يعلم العم من هذه القصة شيئاً. ولو لم يكن لذلك المفتش عم من أعضاء الأكادمي لكان سيق إلى المحاكم. وبعد هذا فأنت حرّ في أن تنكر فائدة الأكادمي.

فداء الكتب العتيقة

اصطاد على ضفاف السين من خزائن الكتب القديمة خسارة من تأليف القرن السابع عشر والثامن عشر ليست من المرغوب فيه المستراد لمثله. فأبديت له هذه الملاحظة، فقال لي:

- يا عزيزي أمسيت غير قادر أن أنام الليل إلا وفي يدي كتاب عتيق جيد أو رديء فصارت المسألة عبارة عن نوع من الرسوم. ثمَّ إنَّ الكتب ليس فيها رديء، كما ليس في النساء دميمات. نعم، إنَّ الكتب العصرية لا تستهوي نظري لأنها لم تعد كتباً. وكنت فيما مضى أبتاع الكتب لأجل عناوينها وزينتها وحسن تجليدها. فأما اليوم فإنما أبتغي بها سلاحاً لمقاتلة الأرق.

ثمَّ إنَّ تبضعي من هذه الكتب لا يخلو من وجهة إحسان وذلك كما كان رهبان الفداء^(٢) يفتكون المسيحيين المقيدون في الأصفاد عند الأعداء فتراني أفك بأثمان زهيدة - خمسين سنتيماً

(١) ثمَّ صار رئيساً للجمهورية من سنة ١٩٠٦ إلى سنة ١٩١٣.

(٢) وفي الأصل Les religieux de la merci، وهي رهبانية تأسست سنة ١٢٢٣ للمسيح لأجل افتكاك الأسرى الذين في بلاد الإسلام.

أو فرنك مثلاً - أناساً خيرة سقطوا في سُخام^(١) الأوعية. وأهل الاعتقاد يقولون إنَّ ذلك الذي يكافئ على قذح ماء لا يترك عملاً بدون مكافأة فهو يحاسبنا حساباً يهودياً على حسناتنا وسيئاتنا. فهذه الكتب البالية تبدو لك كتباً غير قيّمة، لأنك يا ولدي في سنّ الاستخفاف. فاجتهد أن تكون محسناً. واقتدِ بي أو بما فرانسوا داسيز^(٢) الذي كان إذا صادف في طريقه أدنى رقعة مكتوبة رفعها عن الأرض بعناية تامّة لئلا يكون فيها اسم يسوع أو مريم فتتعرض هذه الأسماء لدوس الأرجل، ففي أحد الأيام سأله أحد تلاميذه - ويظهر أنه كان شاباً لطيفاً غير ذي حفلة بالأمر مثلك: يا أبي بنديكتوس لماذا تلتقط جميع هذه الرقاع حتّى التي من كتابات الوثنيين. فأجابه: يا ولدي إنّما أجمعها لأنني أجد فيها الأحرف التي يتركب منها اسم الله ووالدته العذراء.

صحن نيقير^(٣)

كان النقاش ب... رفيق صباه ودرسا معاً في أيام التحصيل وأحباً غانية، كان ب. هو الفائز بها. وكان أناتول فرانس يقول هذا أعزّ أصحابي وأشدّهم خلطةً بنفسي. ولكنّه كان يقع فيه أكثر من الجميع. وكان يقول: ب. لا يخلو من براعة في النقش والأولى أن يقال إنّها طريق يتبعها لا قريحة من عنده. فقد حفر أشياء جميلة ولكن حفره نوع من النقل. وأيُّ مَنْ صبر صبره يقدر على الإتيان بمثله. ولكن ب. يعوزه علم آخر وهو علم أن يكون غنياً، وهو العلم الأعلى. فقد صار في هذه السنّ وليس في جيبه شيء، فتراه يركض وراء التزامات الحكومة. وكمّ مرّة حملني على مساعٍ كانت ثقيلة عليّ. فما كان أحراه بأن يدخر شيئاً من فضّته البيضاء لأيامه السوداء. ولكن السيّد كان يحبّ الرفاهية وعضارة العيش وكانت عنده حليلة حسناء. ولعلّها جميلة إلى الآن إلّا أنني من ثلاثين سنة ما شاهدتها. فقد كان يادب المادب ويدعو إليها الأدباء وطلبة التصوير فيأكلون ويشربون ويلهون ويلعبون وأحياناً يصلون الغداء بالعشاء وهكذا مستمراً إلى أن ب. أصبح اليوم وهو من بني غرباء^(٤).

ولا أعلم هل باقٍ عنده إلى اليوم ذلك الصحن النيقيري البديع التي كان يصمده على ظهر الموقد كترس مجدّد؟ فهذا الصحن لم يكن له. فقد كنّا مرّة مدعوّين عنده فدخلت فتاة

(١) سواد القدر، يقال له سخام وسخمة، وسخم الله وجهه سوّده وهو من العاميّ الفصيح، وفي الأصل Opprobre.

(٢) قديس طلباني الأصل.

(٣) Nevers: مقاطعة من فرانسة على نهر اللوار.

(٤) كناية عن الفقراء الذين يستفرشون وجه الأرض، وفي الأصل Sur la paille أي على القش وهو كما نقول نحن: على الأرض أو على الحصيرة.

ييدها صحن فيه أصداف كما يقال له التوتيا. فأخذت منها مادام ب. الصحن ونقدتها الثمن وقالت لها سنعيد لك الصحن بعد قليل.

فلما أفرغوا ما فيه ظهر في قعره منظر واقعة من التوراة وهي حكم سليمان، فنظر الجميع إلى هذه الصورة وافتنوا بها وظهر أن الصحن هو من صنعة نيفير من أوائل القرن السابع عشر. وكان سليماً ليس فيه أدنى صدع. فتحدث الحضور هل نعيد الصحن أم لا؟ فقال المسيو ب.: ولماذا نعيده؟ أفلا ترى كيف يصنع هؤلاء بالتحف النفيسة؟ إن هذا يكون من قبيل طرح الدرر أمام الخنازير. فلو أعدناه لهم لا يبرحون يستعملونه إلى أن يكسروه أو يقع في يد خبير يأخذه. فالعناية الإلهية أتت به إلى هنا وأي مكان لهذا الصحن أحسن من بيت رجل منسوب إلى الفن. إلا أن بعض المدعوين الذين داخلهم شيء من الحسد لاستئثار صاحبنا بهذه المصنعة^(١) لم يتجمعوا إن انتقدوا كون أخذها بهذه الصورة لا يُعدّ مشروعاً. فقالوا:

- كما لا جدال فيه أن إعادة فن كهذه إلى أجلاف كهؤلاء شيء يشقّ على النفس. ولكن كما لا جدال فيه أيضاً أنها لهم. فكان ينبغي أن يعرض عليهم شيء بمقابلة الصحن.

فقال صاحبنا:

- أن نعرض عليهم شيئاً؟ أنتم لا تعرفون هؤلاء. إنني إن أعطيتهم صحناً من بضاعة السوق بدل صحنهم هذا لم ينتبهوا للمسئلة لأنهم جفاة فدام. ولكن إذا جئت أقول لهم: ماذا تريدون عوضاً عن صحنكم هذا؟ لأنه صحن له شيء من القيمة أكون وضعت لهم البرغوث في أذنه^(٢) فتهتاج تصوراتهم ويتقاضونني بدل الصحن عيني رأسي.

فبعد أن تدبروا طويلاً المسئلة ووازنوا بين المانع والمقتضي قرروا الاحتفاظ بالصحن الذي لا يليق له أولئك الغلاظ وأن يُدفع لهم حلوان ملوكي.

فهمت ب. قائلاً: آه لا يكن هذا الحلوان ملوكياً كثيراً لأنهم حينئذٍ تخالجهم الشكوك!

وكان ب. كلّ نهار أحد بينما نحن عنده على الطعام كالعادة يتباهى بهذه الغزاة التي غزاها على الصحن إلى أن عيل صبري. فقلت له يوماً: ب. أنت حرامي. وبصحنك هذا أنت ذاهب إلى جهنم لأنه إما إعادة المسلوب أو حلول الحوب. وكان ب. معتقداً بالدين. فهزّ كتفيه وقال

(١) الشيء النفيس يضمن به.

(٢) وفي الأصل Je leur mettrai la puce à l'oreille، وهو طبق التعبير العربي العامي في هذا المعنى فإنّ العامة عندنا تقول: لماذا تضع له هذا البرغوث في أذنه؟ بمعنى لماذا تُقلق فكره بخبر كنت في غنى عنه؟ ويقولون مثلاً: كان فلان مستريحاً فجاء فلان ووضع له هذا البرغوث في أذنه. أي نبهه لأمر كان خلياً منه.

لي إنني لا أفهم شيئاً من الدين ولا من الآداب. وإنه هو واثق بخلاص نفسه، بل إن الله يفضل أن يكون هذا الصحن عنده ويرتاح إلى ظفّره بهذه الطريقة... ومَن يدري فربّما يشترون منه صحنه في الآخرة. فسله إذاً إن صادفته، أباقي هذا الصحن عنده؟

عصا شاتوبريان^(١)

- والذي أخبرتك عنه كان يعبد شاتوبريان من دون الله. فهو عنده أعظم عبقرى أنجبه فرانسة سواءً فرانسة القديمة أم الحديثة. وكان يحفظ أجمل فصول الفيكونت على ظهر لسانه ويسردها بصوت جافٍ غليظ وكان يرجع إلى شاتوبريان كأنه وحيُّ يوحى. ويزعم أنه لو أصغى إلى شاتوبريان ما أعوزنا شيء لأن شاتوبريان كان تنبأ بكل شيء ولكنه على حدّ كساندر^(٢) ذهب وعظه صرخة في وادٍ. ولهذا تجدنا الآن حيث نحن، أي على شفا الفوضى والثورة العامية. وكان والدي يجعل في غرفته الخاصة جميع توالييف شاتوبريان ويتخذها ملاذة وضحكات قلبه. وعند موته وجدت في تركته ما يكاد يُبنى منه مسكن من كتاب "الرحلة من باريز إلى بيت المقدس" ورواية "أتالا" وقصيدة "ناتشه"^(٣).

وكان معجباً جداً ببعض بقايا نفيسة من هيكله ومن ذلك ذخائر من شعره^(٤) كانت وصلت إليه من مزين الفيكونت. وقد ظهر لي منها أن شعر شاتوبريان كان جثلاً غليظاً نافضاً^(٥) مع ميل فيه إلى الصُّهبة. وربّما كان الفيكونت يخضب بحسب ما لاح لي. وكان عندنا عصا لشاتوبريان لا أعلم من أين وصلت إلينا. وهي نفس العصا التي توكأ عليها شاتوبريان عندما صعد جبل سيناء. وكانت خيزرانة عليها تفاحة من العاج. وكنا ننفس بها ونضن أن نبرزها إلا للأفراد المتميزين وذوي النفوس الزاكية الذين يشعرون بهزة الاتصال بالعبقرية. وبعد هذا فلك أن تحزر سورة الغضب التي أخذت والدي عندما فاجأ الخادم مرّة تنفض أحد الأسرة بعصا جبل سيناء

(١) شاتوبريان (Chateaubriand)، من أكتب كتاب الفرنسيين يمتاز أسلوبه بعلو الطبقة والفخمة وغازاة التصورات ورقة الشعور وشفوف الحسن ودقة الوصف ونصوع اللون. وكان من رجال السياسة ونُصّب وزيراً للأُمور الخارجية عند رجوع الحكم الملكي بعد الثورة. له من التآليف "أتالا" و"تميزات النصرانية" و"الشهداء" و"الرحلة من باريز إلى أوشليم" و"آخر بني سراج" وهي الرواية التي ترجمتها إلى العربية وذيّلتها بتاريخ الأندلس إلى جلاء الأخير عن تلك البلاد سنة ١٦١٠ وقد ترجم ذلك بعض أدباء فارس إلى الفارسية من أكثر من ٢٠ سنة.

(٢) Kassandre في أساطير يونان كساندره هذه، ابنة بريام وهيوكوب، أوحى إليها الإله أبولون معرفة الآتي فلم تقل له ما يعجبه فغضب عليها وأعلن أنها ممسوسة فأصبح كلامها لا يباليه أحد، وصارت هذه اللفظة مثلاً لمن يتكلم ولا أحد يستمع له.

(٣) Itinéraire de Paris à Jérusalem، من تآليف شاتوبريان، ورواية Atala هي رومان صغير له يصف فيه معيشة أمريكا الهمجية، وقصيدة Natchez هي من قبيل الشعر المنشور موضوعها الإنسان والطبيعة لشاتوبريان أيضاً.

(٤) لا عجب إذاً إذا أذخر الناس من بقايا الأنبياء.

(٥) الشعر الجثل الغليظ والنافض: الذي حال لونه، وفي الأصل Louchissant.

هذه! فمع أنه كان بعيد الغضب واسع الصدر غضب غضبة خفنا أن تنتهي بسكات يودي بحياته. وكان ينتهر والدتي قائلاً لها: اشحطي هذه الخبيثة اشحطيها^(١) أبعصا شاتوبريان تُنفض الأسرة؟ ثم طفق ينظف العصا بمندبل كان معه. وأخيراً أتى بالعصا وخبأها في أسفل خزانة كتب. ولما سكن غضبه أدرناه عن قضية طرد الفتاة بحجة جهالتها وعاميتها.

ولشدة ما كان هذا الرجل الطيب الذي هو والدي مواظباً على قراءة كتب شاتوبريان أصيب بمرض الفُحْمِيَّة والجهورة. فكنت تسمع هذا الرجل الساذج أثناء مساوماته ومحاوراته مع عامة الناس في سفاسف من الشؤون يستعمل الأسلوب الفخم والألفاظ الطنّانة ولا يبرح يتكلم بالإيقاع والإسجاع والفواصل وكلّ شيء عنده يصلح أن يكون ميداناً للفصاحة. فعند أقل هفوة من هفوات الخادم، كأن تأتيه بيضة قد زادت نضجها عمّا يجب أو قطعة لحم قد أشاطتها على النار، كنت تراه قد انبعق بالخطب كأنه الفيكونت منحدرًا من جبل سيناء معه لوح الشريعة في ذيل رداثه. وما دام جالساً على المائدة لا يفتأ يتقعر ويتلهوق وبجانبه والدتي لا تبالي بصلصلته هذه كلّها أكثر مما تبالي بخير النهر الجاري بالقرب من بيتنا. أمّا أنا فقد أنشأ ذلك عندي كراهية للفيكونت.

المؤدّة والعادة

كنّا نتغدى عند "لابيروز Lapérouse" فعنّ على الطعام ذكر زيد... فأخذ يناضل عنه نضالاً فيه من التفصّح أكثر ممّا فيه من الحدّة، ثمّ قال: هو صديقي.

فقال له العقيلة:

- أنت لك أصدقاء؟ كلاً، يا سيّدي أنت ليس لك أصحاب وإنّما أنت لك ألّف: فلاجل الدخول في صحبتك ومخالصتك لا يلزم سوى الثبات والفراغ. وأيّ امرئ رزقه الله خلق المواظبة والمحافظة على المواعيد يغشى مجلسك كلّ صباح في ساعة معيّنة يدخل في قلبك ويقيم به. ففي الأيام الأولى تتبرّم به وتجده ثقيلاً ملحاحاً ولكنك لشدة ما تراه في أول الأمر جلفاً غليظاً تنتهي بأن تراه في الآخر كيّساً ظريفاً فتأخذ بالروايات والأحاديث عنه. ثمّ تجعله سُخْرَةً لك. وهذه علياء صور الحبّ عندك. ولا يمضي على ذلك شهر حتّى لا يعود لك غنى عنه فإذا أغبّ زيارتك عبست وانقلبت من أكره الناس وجهها ولكنّه إن غاب عنك ثمانية أيام فقد ودّعته ونسيته. وإذا رجع إليك لم تعرفه وأوشكت أن تنسى اسمه. ويأتي آخر فيتبوّأ مكانه عندك، فالمؤدّة عندك هي عبارة عن المواظبة والمجيء في الميعاد.

(١) أشحطه: أبعده، تستعملها العامة في برّ الشام بمعنى الطرد وهي من العاميّة الفصيح.

فقال لها:

- قولي إنه الهوس.

فقالت:

- نعم، هو الهوس.

- أنت أشدّ صواحباتي المعية وأتمهنّ ظرفاً.

من الرّفاق الضيق

قال:

- السيّدة شديدة المحافظة على المواعيد ودماعها دماغ رياضي. فالزيارات والمآتم والأعراس والمآدب للناس والمآدب عند الناس، كلّ هذا تمسك به حساباً.

أمّا أنا فعاجز في هذا الباب، فإذا ضربوا لي موعداً جئت دائماً في الآخر، هذا إن لم أنسه بالمرّة. ثمّ إنني لا أقدر أن أذهب من نقطة إلى أخرى خطأ مستقيماً، بل أمشي دائماً من الزقاق الضيق وأطعم في المدينة وأبدأ بالسير في الميعاد ولكن تستهويني في طريقي أنواع الشهوات، فأنسى الساعة أثناء وجودي عند بائع العاديّات أو الكتب القديمة. ويصادف أنه عندما لا يكون بقي إلاّ نحو ربع ساعة للميعاد تطلع عليّ جيّبة، فيصيني ما أصاب مار بولس في دمشق. فلا أصل إلى منزل مضيفي إلاّ وقد صاروا في آخر الطعام، إمّا في الحلواء أو عند الشراب.

عريف شمبانية^(١)

قال:

- إنّ جان داركتي في خطر مبین. وأنا أراني معوّلاً عليك يا ولدي في لقيان قصّة العريف الشمباني.

- العريف الشمباني؟

- نعم، في زمن الملك جان كان أحد العرفاء أي الفلاحين أي أحد الصادقين يشتغل في حقله. فسمع أصواتاً هادّة زاعقة تقول: "اذهب إلى الملك وقل له لا يناجز العدو المعركة" فالملك

(١) Champagne: مقاطعة من شمالي فرانسة. والعريف: هو دون الرئيس، وفي الأصل الفرنسي Vauvssseur وهو الصغير من أصحاب الإقطاع.

جان ناجز الحرب، بالرغم من السماء. فدارت عليه الدائرة في «بواتيه»^(١) وأخذ أسيراً هو وابنه. فماذا تقول في هذه القصة؟ إنَّ الإكليريكيين الذين يدعون جان دارك قد أخذوا تلك النبوة المزعومة عن هذا الفلاح ونحلوها جان دارك.

ولست أدري أين عثرت على هذه القصة ثمَّ فقدتها. فمنذ مدّة طويلة أدور حول هذه العذراء وأفقد ما أجمعه من أخبارها وذلك بما أصابني من المحن والتزمته من تحوّل سكن ومن فراق نساء... فذهب ذلك بكتبي وأوراق. وقد وجدت مرّة نسخة الخطّ التي من كتابي تاييس في المطبخ، كانوا يريدون أن يجعلوا منها عفاصاً^(٢) لقارورة الحلواء. فلا تتزوج أبداً يا حبيبي، فقلّما يسعد امرؤٌ بالزواج، لا سيّما مَنْ كان منتسباً إلى حرفة الأدب. ماذا صنعوا بقصة فلاحٍ هذا؟ هل ضوى إليك منه خبر؟ كلا، هو كالكبريت الأحمر. مع أنّ هذه القصة تفسّر كلّ شيء من هذه القضية الغامضة وهي مفتاح دهليز أطروحتي^(٣) ولا أتذكر أين وجدت هذا الأثر؟ أفي خزانة كتب السنوات^(٤)، عندما كنت قيماً عليها، أم في أحد الكتب، حينما نقّاداً للتأليف في جريدة الطان. فلست أجده الآن، فها أنا ذا يا ولدي أتطرح على ركبتيك، إذ أصبح في قبضة يدك شرف معلّمك هذا الشيخ وشرف عذرائه. إنّ الظفر بنصّ كهذا يكون له رنة باهرة. فخبّر الفلاح هو المفتاح. وقد يجادلون في خبر فلاحٍ هذا ولكنّي أجعل لدى أخصميّ هذين كلّ مَنْ هناك من رهبان. ونقله عن مكاتب الرهبان، فإذا لم يتهيأ لي أن أصفعهم بنصّ صريح فيا للعار!

- القضية هي قضية الملك جان ومعركة بواتيه، فلا جرم أنّ عريفك هذا يوجد في كتب فرواسار^(٥).

- نعم، يا حبيبي هو هذا. فرواسار. أين أضعت عقلي؟ إنّك لربّ الحمية والألمعية. إنّك ملك كريم فاذهب يا ولدي بلا تردّد إلى المكتبة الوطنية ولا تعدّ منها إلاّ ومعك قصة هذا الفلاح. إنّ فرواسار هذا هو نعم المؤلف. كان يجمع من هنا ومن هناك ولكن يوجد لآلئ يتيمة في

(١) بلدة على مسافة ٣٣٢ كيلو متراً من باريز، إلى الجنوب الغربي منها. اشتهرت بكون العرب وصلوا إليها سنة ٧٣٢ وانتصب فيها الميزان بينهم وبين أمّ الفرنج فاستمرت الحرب عدّة أيام كان الوجه أولاً فيها للعرب. إلاّ أنهم انكسروا في الآخر، قيل بما شغلهم عن القتال من حمل الغنائم، وقيل بالخلاف فيما بينهم وبين أهل أوربا. يجعلون الفضل في تخليص أوربا ذلك اليوم من سلطنة العرب لشارل مارتل، والد شرلمان، لأنه كان بطل تلك المعركة الفاصلة التي كان لها ما بعدها. ثمّ في بواتيه أسر الملك جان الملقّب بالصالح Jean le bon سنة ١٣٥٦ كما هو وارد في المتن.

(٢) ما يُلفّ به رأس القارورة، وفعله بالفرنسي Coiffer.

(٣) صديقنا وزميلنا الأستاذ العلامة الشيخ عبد القادر المغربي، من أعضاء المجمع العلمي العربي، اختار الأطروحة ترجمة لكلمة Thèse.

(٤) مجلس الشيوخ.

(٥) فرواسار (Froissart)، مؤرّخ فرنسي حرّر ماجريات عصره من سنة ١٣٢٥ إلى سنة ١٤٠٠، وكانت رواياته بدون ترتيب ولكنّها على جانب من الرقة والطلاوة.

مجاميعه. كان يأخذ عن كلّ الأسانيد وكأنه صحفي من صحفيي هذا الوقت. نعم، فاذهب يا ولدي إلى دار الكتب وذهابك بهذا الصباح أحسن من ذهابك المساء وبهذا المساء خير من الغد. فأرأف بحال مؤرّخ مسكين وقع في الحيرة. إنني منذ فقدت قصّة هذا العريف شرد عني الكرى وذهبت شهوة الطعام وولت لذة الحياة.

فبقيت ثمانية أيام متوالية ملازمًا دار الكتب لا أبرحها ونخلت أجلاذ فرواسار الثمانية بالمنخل فما عثرت للعريف على أثر. وبعد ذلك جئت إلى مربع سعيد فقبولت بفتور زائد.

- هل قرأت فرواسار بأصباره؟ لعلك قلبت صفحاته بقفا إصبعك، كما لو كان رومانًا، لأنك ملآن شابًا ولجأًا ولست أنقمهما عليك وإنما يجب أن ننبذ قضية جان دارك ظهريًا، فلا نتكلم بها بعد الآن لأنّ تاريخي بدون العريف الشمباني يعود بلا طعم ويصير أشبه شيء بأكلة خيصر.

- لعله يوجد في جان لوبل Jean Lebel؟

- نعم، هو هذا يا حبيبي. عريفي الشمباني هو في جان لوبل. لكم فكرنا في ذلك وهو لا شك في جان لوبل. إنك لملك حفيظ. اذهب سريعًا إلى دار الكتب الوطنية. وخذ جان لوبل فهو مؤرّخ بارع، ودليل ذلك أنّ فرواسار سرق منه وانتحل لنفسه. ستحمل إليّ الغداة على جناحك خبر العريف الشمباني، إنني على ثقة من ذلك.

فذهبت وبحثت وأحفيت ولم أجد في جان لوبل شيئًا. وكان أناطول فرانس على أوفاز قاصدًا إنكلترة فودّعته وكان وداعًا خاليًا من الانعطاف.

- يا صاحبي سنتلقى بعد خمسة عشر يومًا. لعلك في هذه المدة تكون ظفرت بعريفي الشمباني. وإن كان أملي من جهتك ضعيفًا. فإنني لا أراك ميمون اليمين وكان يجب عليّ أن أعهد بهذا العمل إلى أناس من الأخصائيين. ومع هذا داوم البحث إذا شئت، لأنه من العبث أن تضيع وقتك في جان دارك بدون العريف.

وجاءتني منه بطاقة بريدية من لندرة تاريخها أول أغسطس ١٩٠٣ يقول فيها هكذا "قد صادفنا مجازًا صعبًا. هل ظفرت لي بالعريف؟".

فكان الجواب سلبيًا. ثمّ عاد أناطول فرانس من لندرة إلى باريز وكان هاتيك المدة منصرفًا عن جان دارك إلى رنان ينقح ويراجع الخطبة التي يريد أن يتلوها أمام تمثال رنان في تريغيه^(١).

(١) Tréguier: بلدة صغيرة في سواحل شمالي فرانسة، هي وطن أرنست رنان وقد تقدّم ذكر هذه الخطبة.

ثم قال عن رنان:

- هو ذلك الذي لم يكن يتكأده نصّ. فكان يجب أن أقتفي أثره في قضية عريفي.

وفي أواسط سبتمبر شخص إلى الجيرونند. فجاء منه برقية هذا نصّها "يا ولدي العزيز أترضّ إليك بأن تجد لي عريفي. معلّمك الشيخ أناتول فرانس".

فقرأت وراجعت في دار الكتب الوطنية كتب فرواسار ولوبل وجميع المؤرّخين المعاصرين وغير المعاصرين، ممّن تكلموا عن الملك جان ومعركة پواتيه. وسألت شامبيون الأب والإبن وهما "تندسا عن هذا الخبر من أوسع الناس اطلاعاً، ممّن يتردّد إلى دكّانهما، فليأيا هذه القضية فليأيا فلم يوجد أحد يعرف رسّاً من هذا الخبر.

ثمّ عاد أناتول فرانس من الجيرونند فأرسل إليّ بالسريع أن أوافيه إلى مربع سعيد، فجتته. ومن عادته في أوباته أن يزداد حناناً وعطفاً فبالغ في الإلطف وعاد إلى الموضوع. فبعد أن راغ مدة حول الميناء دخل. وكان كلامه هكذا:

- لست أستقصي منك شيئاً من خبر ذلك العريف المسكين، فقد بذلت جهدك إلى أقصى درجات الاستطاعة. وكذلك جماعة دار الآداب في بوردو^(١) لم يكونوا بأحظى منك. فقد دللتهم جميعاً على الأثر ومضوا يذهبون الكتب في الإحفاء والقصّ نهياً ولكنهم عادوا مثلك بخفيّ حنين. ثمّ تقدّمت في التحريّ إلى أحد أساتذة ريمس^(٢) وقلت: ما دام عريفي شمبانياً فلنتقدّم إلى رجل شمبانيّ مثله. فإذا بالأستاذ المذكور لا يرضخ من هذا الخبر قليلاً ولا كثيراً. فصحّ ذلك المثل القائل: "تسعة وتسعون خروفاً وواحد من شامبانيه فهذه مائة بهيمة" فلا نتكلمنّ بعد اليوم في هذا الأمر، فالحياة قصيرة جدّاً وهذا العريف كأنه قد سحره ساحر فلندع جان دارك إذاً فإنّ عندي مواضيع أخرى. فماذا تقول في "رابليه Rabelais"^(٣)؟ فقلت له:

- من جان دارك إلى رابليه أرى الطفرة خطيرة.

(١) La faculté des lettres de Bordeaux.

(٢) Reims: مدينة شهيرة في شمالي فرانسة من جهة المارن، فيها البيعة البديعة التي تُعدّ من أحسن بيع أوربة. أصابها مدافع الألمان في الحرب العامّة وفيها تنصّر وتعمّد كلوفيس، أول ملوك فرانسة، سنة ٤٩٦ فصارت شنشنة عند ملوك الفرنسيس أن يتوّجوا فيها. وفيها كثر للملك كارلوس السابع على يد جان دارك.

(٣) رابليه (Rablais)، كاتب فرنسي، ولد في شينون بين سنة ١٤٨٣ وسنة ١٥٠٠، وكان طبيباً ومعلّماً للنشريح ثمّ صار قسيساً. وله تأليف عظيم فيه ما فيه من النظريّات الواهية والخيالات ولكنّه يشفّ عن محبة خالصة للحقّ ولولوع أكيد بالنقد. وفي لغته القديمة عذوبة يستحليها الفرنسيين كثيراً.

- لا تظن الأمر بهذه الدرجة، فإن قسيس «مودون»^(١)، نظير راعية «دومريمي»^(٢)، أوشك أن يُجزي بالنار. وأصابه ما أصابها من الوقية وابتروكا في عرضه كما ابتروكا في عرضها. ما عليك إلا أن تسأل «إتيان دولّه Etienne Dollet» الذي هو ناشر كتبه ومن المعجبين به، فإنك تعلم أن مؤلف كتاب Rantagruel^(٣) لم ينجُ من بطش اللاهوتيين إلا بأعجوبة. والحق، أن هذا العفريت، ضرب الرمل في المواسم، كان صلاً من الأصلال وداهية من الدواهي. كان يتبale ويتحامق ويترنح في الطريق ترنح السكارى. فاعلم أن هذا الأديب الطبيب اللاهوتي الحقوقي السياسي كان يكرع من الزيت أكثر مما يكرع من الخمر. وكان يتعمد إضحاك الناس لاستمالتهم. وأنت تدري أن السكارى هم دائماً خفاف على الروح. ولا جرم أن لهم إلهاً يعتني بهم وأن هذا الضحك هو سلاح هائل في هذه الدنيا. وما عدت أتذكر من قال: «إنّ دهاء المرء هو على قدر بشاشته» فهذا أقول إن رابليه لم يكن بليداً. وكان التعليم المسيحي القديم يجعل الغم من الكبائر. وهذا حق. فأرى أن رابليه هو أكبر كتابنا لأنه أكثرهم مجانية. وكذلك جان دارك كانت تميل إلى الانبساط. وكان بينه وبينها وجوه شبه أخرى. فقد كان رابليه يحبّ فرنسا حباً على النمط الحديث. ولم تكن عصبيته لها عصبيّة دين ولا حمية جنس، بل فرانسة كانت عنده هي أزاهير الزنبق أي هي الأسرة المالكة، سلالة مار بولس الحليم. وكان هذا الرجل العجيب الذي عنده من كلّ فنّ خبر وطنياً متحمساً ذا نزعة عسكرية عريقة.

خزانة الكتب

ثم أخذ بيدي نحو الدهليز الفاصل بين الغرفة وخزانة الكتب، فلما صرنا في منتهاها رأينا من النافذة مكتبتين متناوحتين متماثلتين وعلى رأس الواحدة نسخة عن جان دارك من الأجر، استصنعتها البرنسة دورليان. وعلى رأس الأخرى تمثال من تراب مطبوخ لرابيله، صنّع في تور Tours وكلّ من المكتبتين مكتظة بالكتب والوثائق. فأما الكتب التي على جان دارك فتجليدها على غرار واحد. وكلّها مغطاة بجلد ديبغ أملس وعليها شعار تلك العذراء. والسيف الذي

(١) Meudon: البلدة التي كان رابليه قسيساً لها.

(٢) Domremy: قرية على نهر الموزل من مقاطعة نوفشاتو من شمالي فرانس، ولدت فيها جان دارك ولا يزال البيت الذي ولدت فيه محفوظاً.

(٣) هو اسم أحد التأليفين الكبيرين اللذين حرّهما رابليه وموضوعه تصوير مطامع الملوك وأهوائهم وانغماسهم في الترف وظمائمهم الذي لا يروى.

يسند تاج فرانسة بين زهرتي زنبق وهناك نعوت مخطوطة بالأزرق والأحمر كأنها صفحة من كتاب القُداس. أمّا الكتب المتعلّقة بكاهن مودن (رابليه) فتجليدها أقلّ نعومة وهي من جلد المعز المراكشي.

ثمّ أطلعتني على مجموعة مرجّلة^(١) ملأى بالآثار القديمة المتعلّقة برابليه كصوره وصور مساكته وصور أصحابه. وكذلك على مجموعة أخرى لصور جان دارك. وأخذ يقلّب في صفحات الاثنتين ثمّ شرع يتنهد الصعداء ويتذكّر العريف المفقود وأغلق مجموعة العذراء أسفًا ضجرًا، وقال: هو ذا السمّ. هو ذا السرّ الذي لم ينحلّ طلّسمه. وعاد فضمّ إلى صدره مجموعة رابليه كما يضمّ الأب ولده وأخذها إلى غرفته وأخذ يروزها معجبًا بها، ثمّ يقول: هذا هو الفرح والمرح. هذا هو الدرياق لذلك السمّ.

العذراء جان دارك ذيل طيارة

ثمّ قال:

لنصنع كتابًا على رابليه. ولنُدع جان دارك ولنترك هذه العظمة للمتسكّين. ثمّ ذكر أنّ رنان قال له مرّة وهما على غداء سلتي^(٢): «أيّها الشابّ تُعنى بسيرة جان دارك، فهذا الموضوع المجيد طافح بالأوهام. سراب يحسبه الإنسان من بعيد ماء. والحقيقة، أنه عبارة عن بعض نصوص صحيحة أو مزوّرة وبعض أكاذيب وأساطير وشيء من التمثيل وشيء من السياسة وشيء من الخرق وشيء من الحماسة الدينية: ذيل طيارة فيه من جميع الخرق وقصاصات الورق وهي مربوطة بخيوط غليظة، فإذا هبّت ريح الحماقة طيّرت في السماء هذه الآلة الحمقاء. فأنصحك يا ولدي أن لا تُعنى بهذه اللعبة الصيبانية» لقد أصاب لعمرى رنان فيما قال. ثمّ خرجنا وفي الطريق أخذ يرسم خطّة رابليه وأجمع الرحلة إلى تور، بعد أن كان ينوي السفر إلى أورليان من أجل جان دارك.

قال لي: قد انتهينا من أمر جانيت (جان دارك) هذه لأنّ خبر ذلك العريف شرد من يدنا بلا رجوع. وقد يجوز أن يكون اشتغالي بهذه العذراء ممّا يجرّ عليّ نغصًا كثيرة، فإنّ جماعة القسوس كانوا لا يألون في تجريعي كؤوسًا مرّة من أجل تلك الفتاة المقدّسة عندهم. فلهذا نترك

(١) المرجل: الذي فيه صور.

(٢) الجنس السلتي Celte. هو من الأجناس الهندية الجرمانية التي لا يُعرف مبدأ هجرتها إلى أوروبا ومنها اليوم أهالي بلاد الغال في إنكلترا وأهل إيرلاندة وأهل ولاية بريتانبة بفرانسة وهي وطن رنان وجول سيمون من كتاب فرانسة. ومن السلتيين مارسل كاشين، زعيم الفرقة الشيوعية في فرانسة. أخبرني هو بنفسه أنّ بلدته تبعد نحوًا من ٢٠ كيلو مترًا عن بلدة رنان. ومن السلتيين في إنكلترا المستر لويد جورج، رئيس وزراء إنكلترا الأسبق.

الكلام عنها. نعم، قد كان الموضوع بديعاً وكنت بدأت ألمح بصيصاً أشبه بالبصيص الذي يراه الإنسان وهو سائر في أحد الأسراب إذا قارب آخره. ولكنني وحلت في قضية هذا العريف الذي لم يكن أحد ينتاشني منها“.

هذا، وبينما كنت أحد الأيام في مكتبة الأمة أليقت على المذكرات التي طبعتها جمعية تاريخ فرانسة نظرة أخيرة فرأيت مجلداً رقيقاً اسمه “قصة الفالين^(١) الأوائل الأربعة”، طبعه “سيمون لوس“. ففتحت الكتاب ومن أول نظرة ظهرت أمامي قصة العريف الشامباني. وكان مضى عليّ إلى ذلك الحين ثلاثة أشهر وأنا أقصّ أثره.

فغدوت ثاني يوم إلى مربع سعيد ظافراً لكنني احتجنت الخبر هنيهةً وتركته يتكلم في الموضوع، فقال:

- لا بدّ أن يوجد في فرانسة من يعرف قصة هذا العريف، أفتراني مضطراً يوماً من الأيام إلى نشر إعلان في الجرائد أتحمّس فيه خبر هذا الرجل؟ لقد أضعت عليك وقتك يا ولدي. نعم، في سنّك هذه الوقت ليس بذي ثمن ولكنه مثلي أنا هو ثمين عزيز. فهو أشبه بالحسوات الأخيرة من شراب لذيذ. أموت يا ترى بدون أن أظفر بعريقي؟ حقاً قد قصرت هذه القصة أجلي. وكان عليّ أن أتقدم في لقيان هذه الضالّة إلى جمعية “واسطة الباحثين ومحبي الاطلاع“ بدون تردّد ولا مراوغة. ولكن أطروا لي سعة اطلاعك وثقوب فكرك، فالحقّ الذي لا بدّ من الجهر به هو أنّ لمعان ألمعيتك أعظم من بعد غورك. ولا يقدر الإنسان أن ينكر عليك حدة ذهنك شأن أهل الجنوب ولكن هذه الحفّة في الروح لا تلائم المباحث الغامضة والدروس المتينة. كان يعوزني جرّد أنبار فاتخذت لنفسني شعلة نار“.

فأنا تركته يفيض بجميع بثّه وبعد ربع ساعة بادرت إلى سدّ البثق قائلاً له:

- أستاذي العزيز، قد وجدت لك ضالّتك.

- أتراك هازلاً؟

- كلاً، قد ظفرت بقصة العريف وها هي العلامة معي.

- وأين عثرت عليها يا ولدي؟ أفي كتب فرواسار؟

- لا.

- أفي جان لوبل؟

(١) الفالون: هم سكّان فرانسة القديمة Chronique des quatre premiers Valois.

- لا، بل في خبر الأربعة الأوائل الفالين.

فبقي هنيهةً مدهوشًا مشدوهاً وطفق يضع نظارته على عينيه ثم يرفعهما وأخذ يقوم ويقعد ويمشي في الغرفة ويمسح ذيل ثوبه بيده مثل العجائز ويمرّها على جبهته.

- أين كان عقلي؟ نعم، قصة الأوائل الفالين الأربعة. هذه كنت قرأتها وكتبت عليها مقالة. آه كم فرجت هذه اللقطة من كربتي وخففت من وقرتي. إنني أشعر بنفسي أفتى تما كنت بعشر سنوات. لتترك رابليه يا ولدي ولنعد إلى جان دارك. ستغضب من ذلك السيدة العقيلة وتصبح كالبومة المغيظة ولكن لا بدّ من المضي في طيبي، فهو موضوع متسع متشعب الأطراف. آه ما أجمله وما ألبقه لهذا الوقت! سنباشر الشغل من هذه الساعة ولو كنت بقيت مؤمنًا يا ولدي الأغزّ لكنت أقول لك: جئيًا على الركب. جئيًا على الركب. لنحمد السماء ونشيد أناشيد الشكر وتسايح الحمد. ولكني كما تعلم متشكك مرتاب. ولقد شككت فيك فكان الواجب عليّ نشيد الشكر لك دون غيرك بسعة اطلاعك الغضّ وتوقد ذكائك الجنوبي الحارّ.

النذر

ثم أخذني بين ذراعيه وعانقني. وأقسم أنني شعرت بشيء من الرطوبة على خدي. ولكنها دعة لم تكن لي، بل لجان دارك والعريف. ثم ذهب وجاء برفرف إسبانيولي ذي خشب مذهب، وقال لي:

- تضع هذا فوق موقد الشتاء يا ولدي. فهذا هو جائزتك أو أشبه بنذر يذكرك بعريف شامبانية وبعذراء أورليان وبمعلمك الشيخ.

وعناق آخر. وهناك أخرج من جيوبه تماثيل صغيرة منسوخة عن تماثيل "تناغرا"^(١) وأخذ يمسحها بذيل ثوبه.

- قد مسحتها بزيت الكتان لأنه يعطي الجفصين نضارة الجلد فاجعلها يا ولدي فوق مدختك.

لطيفة

- في زمان "ديدرو"^(٢) كان رجل عنده ولد بلغ سنّ الشباب وهو لا يزال أبله. فقال له في أحد الأيام:

(١) من بلاد يونان القديمة، اشتهرت بحسن تماثيلها من الخزف.

(٢) ديدرو (Diderot)، من أكبر فلاسفة فرانسة وأعظمهم مشاركة في متعدد العلوم وممن أسسوا الإنسيكلوبيديا ونشروا فلسفة القرن الثامن عشر وألقوا بتعاليمهم الثورة الكبرى. مات عام ١٧٨٤ وقد ذكرناه في موضع آخر.

قد انتهى تحصيلك للعلم، فأنت الآن يوناني مجيد ولاتيني صريح. وقد درست اللاهوت والتاريخ وعلم الأنساب وعلم الرقص... ولكن بقي عليك علم الدنيا. وهو علم لا يملكه أبرع أساتذة التربية. فخذ هذه الرسالة إلى العقيلة فلانة... المقيمة بالبلدة التي تجاورنا. أدها إليها من قبلي. فإنها سيّدة متناهية في الظرف والذكاء والجزالة. ولقد قتلت أمور الدنيا خبراً. ومما لا أكتمك إياه إنها ممّن لم يكن يحقّرن تكريمي إياها وإعجابي بها. فأنا سأرجوها أن تعطف على الابن عطفها على الأب. فاذهب إليها يا ولدي. فإنني لا أشك أنك بالاحتكاك بها تصير قريباً من أتمّ الشبان أدباً وكيساً وبزاعة^(١): فذهب الولد وأدى الرسالة ووجد العقيلة مستعدة لإعطاء الدرس فوضعت على منصّة عثمانية^(٢) وشرعت تراود وتداور بنجميع الطرق الممكنة حتى تتوصّل إلى إذابة ثلجه، فكانت كأنها تنفخ في رماد. وكلّما ازدادت هي طموحاً ازداد هو احترازاً. تدنو فينأى وتتكلّم بالحبّ فيتكلّم في التوقير. وأخيراً لجأت إلى حيلة الإغماء المعهودة التدريسية. آه أكاد أموت من هذا الدخان... إلخ.

فبدلاً من أن يسرع إلى حلّ الأربطة وما أشبه ذلك للتنفيس عن السيّدة أسرع إلى الجرس، يستصرخ به الخدم^(٣) فتفتح العقيلة عينها، وقالت له: آه يا أيّها السيّد ما لم تقدر عليه عندما كنا فردين أتكون ملياً به بعد أن يحضر الخدم والحشم؟

مطامع فييني^(٤)

- كانت تحقيقاتي الأولى عن "ألفرد دو فييني" هزواً. فقد كنت غراً ساذج القلب. وكنت أخذاً عن أبي، بائع الكتب، حبّ تعظيم الأوصلاء والأشراف إلى درجة الهوس. مع أنّ نسب "ألفرد دو فييني" هو من قوارير وأصالته رقيقة الحاشية. وكان يتظاهر بطهارة الأخلاق والبعد عن الحكومة. والحقيقة، أنه كان ذا مطامع واسعة عجز عن إدراكها. حلم أنه يكون مهذباً لابن الإمبراطور فلم يحصل على مراده ولمّا لم يتمكّن من أن يكون "بوسويه أوفنيلون"^(٥) تحوّل إلى الصلاح والاستقامة.

- إنّ الذي يميّز الإنسان عن الحيوان هو إتقان الكذب وحسن البيان.

(١) بزغ الغلام بزاعة: صار كيساً ظريفاً، وفي الأصل Poli et galant.

(٢) Ottomane: نوع من المقاعد العريضة.

(٣) أخطأ الأستاذ فرانس بإذنه لكتابه بروسون بقيد أوابده وضبط شوارده، فقد يكون سبق لسانه في مجلس خاصّ مرتفع الحشمة بعيد التكلف إلى حكاية مثل هذه لمجرد الاحماض فلم يكن يجوز لبروسون أن يأتريها عنه على أنها من آدابه التي يوصي بها.

(٤) فييني (Alfred de Vigny): شاعر فرنسي قاصّ كثير البحث في الآداب والفضائل والصبر والثبات وعزائم الأمور، (١٧٩٧ - ١٨٦٣).

(٥) ورد ذكرهما في غير هذا الموضوع.

غيبية الأحياء

ما مال قلبه إلى أحد - رجل أو امرأة - إلا كان أول همّه أن يكشف له نقائصه. فيذهب في استقصاء عيوبه وعاداته المضحكة كلّ مذهب. ولا تجده شافياً غليله إلا حيث يجد الحركة معوجة. أمّا الناس الذين هم على أتو سديد فلا يلتفت إليهم ولا يهتم أمرهم. وكانت بساطته الظاهرة مملوءة باختلاف النية. فطالما سمعته يصف رجلاً من أخلص إخوانه بزيغه في الحبّ عن الجادة... ويقول إنه ممّن حضر الزُّحليّات^(١). وهو بعد ذلك يتمثل بمثله الذي طالما كان يكرّره: وللناس فيما يعشقون مذاهب. وربّما نال من بعض أعضاء الأكادمي في هذا الموضوع... وربّما قذف أحد أصحابه بهاجرات. ثمّ عاد فقال: إلا أنه مع هذا باهر الحصافة. وكان له صاحب من رفاق صباه. فكان يقول عنه: ذو أيدٍ خفيّة. لا يقدر أن يمنع نفسه من التقاط شيء يعجبه أينما وجده.

قيل له مرّة إنّ صاحبه هذا في الباب، فنادى جوزيفين أمام عشرة أشخاص، وقال لها: احذري أن تدعيه وحده في الطاق الأدنى إذ هناك ما هناك من الأثاث.

ولمّا وصل إليه حيث هو جالس هجم عليه يعانقه ويقبله في خديّه ويشحذ عليهما رأس أنفه الطويل، وبعد لأيّ انتهى من ضمّه، وقال له بصوت لطيف:
- أيها الحبيب. الآن كنت أذكرك أمام هؤلاء السادة. حقاً إنّ حضورك يفرج عني^(٢).

إنّما الفضيلة عجز

وأحسن شيء ترغبه به في إنسان هو أن تبالغ له في ذمّه. وهو يخشى الطهارة والظاهرين والكمال والكاملين. ويرى الفضيلة عجزاً والطهارة نقصاً في الخلقة^(٣) ويقول إنّه يجب معالجة هذه الأمراض كما يعالج السلّ وفقر الدم. وكان لا يعتقد بالحبّ المجرد من النفع ويروي على ذلك كثيراً من السير.

(١) نسبة إلى زحل Saturnales وهي أعياد كانت تقام في رومة، ترتكب فيها أنواع الفحش والمهر وُستباح فيها كلّ شيء حتى ضُرب بها المل.

(٢) ما أراه في هذا وفيما سبق من هذا الفصل تما طويونا منه شيئاً ولجاناً في بعضه إلى الكنايات إلا ماجناً يروح عن قلبه بأمثال هذه الحكايات.
(٣) وهذا أيضاً من المزاح، إذ يستحيل كون رجل في عبقرية أناتول فرانس مجهل كون العجز إنّما هو في استرسال الأنفس إلى الشهوات لا في نظامها عنها. وما كان أناتول فرانس في هذا الأفاويل إلا على مذهب بعض الأدباء الذين يقدمون النكتة على كلّ شيء ويرسلونها على علاقتها.

علم الصبابة

كان يقول:

- الأصل هو الحبّ وما عدا ذلك فقصص مولّدة وإنشاء محبّر. وأحسنهنّ عشقاً أبصرهنّ بالفنّ وأوسعهنّ تجربة ماضية وحظاً عظيم الخلط بين العشق والشباب. فإنّ الشباب سكران بنفسه^(١) يرى الدنيا كلّها مرآة له. أمّا الحبّ فعلم بأصول هو معساة بالتنقيب ومزيد الاعتناء. وقبل الخمسين من العمر لا يجوز للمرء أن يخوض في حديث الحبّ وقد تكون عند بعض النساء مواهب طبيعية تؤهلهنّ للعالمية في هذا الفنّ وهنّ بعد في سنّ الأربعين^(٢).

وروى أحاديث طويلة في هذا المعنى. وأخبر عن فتاة غريرة كانت تراوده على أخذ صورتها الشمسية معه وهو في ثوب الأكاديمي وبيده السيف وعلى رأسه القبعة ذات الرأسين وتكون هي في دراعتها وبيدها إكليل من الزهر وأممامها على منضدة رواية "تاييس"^(٣)، قال: وبقيت هذه الغادة خمسة عشر يوماً تغادينني هذا الرجاء وتراوحه وأنا أدفعها بقولي إنّ ذلك مخالف لشروط الأكاديمي وخليق بالطرد منها وأضرب لها الأمثال وأخبرها كيف طرد من تحت القبّة كلّ من "فورتير"^(٤) والأب "سان بيير"^(٥) لأسباب كهذه. فقالت لي: "أمّا الأب هذا فلم يظلموه في الطرد بسبب كهذا".

وكانت هذه الفتاة بالمكان الذي لا وراءه في البلاهة وذكر من قصصها ما يدهش^(٦).

لا شيء على عروة ثوبه

قال:

- نعم، ما عدت أحمل شيئاً من الأوسمة ولا من علامات الأوسمة منذ حادثة دريفوس

(١) العرب يقولون شباب أبله أي أنّ الشباب هو غرّ عن كلّ شيء.

(٢) من قلم أناتول فرانس وقد مرّ ذكرها.

(٣) فورتير (Furetière)، أديب فرنسي عاش بين سنة ١٦١٩ وسنة ١٦٨٨ وألّف معجم لغة كان سبب الخلاف بينه وبين الأكاديمي.

(٤) سان بيير (Saint Pierre)، أديب فرنسي، له كتاب غريب في وقته لأنه تصوّر فيه مشروع السلم العامة وهذا منذ نحو مائتي سنة، (١٦٥٨ - ١٧٤٣).

(٥) تما طويناه على غرّه كما طويننا كثيراً من الفصول برمتها واجتزأنا من بعضها بالقليل الذي يُغني عن الكثير.

ومنذ طلّسوا اسم زولا^(١) من جوقة الشرف. وهل المؤلف الحقيقي يا تُرى في حاجة إلى طرف هذه الشريطة يضعه في عروة معطفه؟ فإن كان معروفاً بالفعل فإن تأليفه تسمه بما لا يسمه به جميع وزراء العالم. لعمرى، إن هذه الأوسمة والرتب ليس لها أدنى قيمة في جانب الأدب. وقد يفهم الإنسان معناها بعض الفهم فيما له تحلّى بها رجل عسكري قام بعمل من أعمال الأبطال. فإنّ العسكري يلبس لباساً عسكرياً خاصاً يجوز أن تضاف إليه بعض أنجم تدلّ على البطولة. أمّا الأدباء والعلماء فليس أمرهم كذلك. إذ لو وضعت كلّ نجوم السماء على عروة جبتي فهل يحمل ذلك المارين على أن يقولوا: هو ذا مؤلف تاييس أو جان دارك. وإن كانوا يعرفون من هو هذا المؤلف فأىّ حاجة إلى تلك اللعبة؟

وَرِيدَات مار فرانسيس

قال:

- لمّا كنت أعرفك شديد الاعتقاد بمار فرانسيس أتيتك من إيطالية بوردة عجيبة أصلها من خوارق العادات. انظر إلى أوراق هذه الأزاهير تجدها موسومة، فإنّ الراهبات يذهبن لاجتنائها ويضعنها في طيّات كتب الصلاة حتىّ تدبلّ ثمّ يلصقنها برؤوس من الورق المقوى ويضعنها بالشيء الطفيف من زوّار رومة. ومنّ ذا الذي من الزوّار يعزّ عليه دفع ليري^(٢) في شراء وردة عليها يواقيت من دم القديس فرانسيس.

- لعلّك تعرف قصّة الوريدات القدسية؟ قيل والله أعلم أنّ القديس شعر بتجربة شديدة شيطانية^(٣)... وصادف ذلك في فحل الشتاء وكان الثلج طاماً بستان الدير وكلّ شيء نائماً أو ميتاً تحت الجمد إلاّ الشيطان الرجيم، فقد كان مستيقظاً. وقد اشتدّت الحال بالقديس إلى أن ظنّ نفسه مغلوباً فلم يكن أسرع منه إلى أن نزع قميصه ورمى بنفسه مجرداً في عليقة من سياج البستان.

(١) زولا (Zola)، كاتب من أشهر كتّاب فرانسة، هو صاحب الأسلوب الطبيعي في القصص المسمّى عندهم L'école naturaliste. وقد اختلف الناس في استحسان مشربه وعدمه ولكنهم أجمعوا على قوّة بيانه ومثانة عبارته، (١٨٤٠ - ١٩٠٢). ولما جرت حادثة دريفوس اعتقد أنه مظلوم وأنّ الوطنيين يحاولون تغليب السياسة على العدل فرفع عقيرته ونشر رسالة اسمها "أشكو"، وكان له في دعوى دريفوس موقف شهير. ولما مات زولا آتته فرانس بقوله "كان دوراً من أدوار الوجدان البشري" وقال "إنّ أنصار السلام الذين سيكون لهم ملكوت الأرض إن لم يكن ملكوت السماء سينادونه بالمعلم الصالح. وهو اللقب الذي لأطلقه عليه إلاّ وأنا أجهش بالبكاء. وتألّف زولا في القصص وغيره أشهر من أن يشار إليها.

(٢) فرنك إيطالي.

(٣) ما أشبه هذا الرجل بأحمد فارس الشدياق فإنّه لا يميل أصلاً من النكات على القسيسين والنساء مع الفرق بينهما بأنّ أحمد فارس كان بحرر هذه الحكايات بقلمه وينشرها وهذا إنّما يروي عنه كاتبه ولا نعلم هل كان أناتول فرانس يروي هذه الأحاديث لئلاّ تُنسى أم كان يلقبها في مجالس تبذله مجرد التفاكه.

فكان من الشوك أن أزهرو وتفتح منه هذا الورد الذي أنت تراه مع كون الثلج نازلاً والفصل ليس بفصل تفتح الأكمام كما لا يخفى. إنما كانت هذه معجزة لتخليد نصره القديس على الشيطان. وما أنا ذا أهديك هذه الوردات بعد أن اشتريتها ممن وثقن لي الخبر. ولعلك ترسل معلّمك الشيخ في داهية إذا جاءك من هذه الأزهار بطلسم يذهب بالقوة^(١)... فكن أميناً فقد حملتها على صدري ولم أشعر بأقل تأثير للوردة الفرنسية كانية...

التيس هي الدير

قال:

- بما يدهشني أنهم لم يبيعوني في نفس السوق في رومة بعض شعرات من ذئب «غوبيو»^(٢) أو طاقة من زغب «الأطرغل»^(٣) البرّي الذي كان هذا الذئب يربيه فيدجن. كما أنهم لم يبيعوني بعض أمتار من الفلانلا المنسوج من صوف ذلك الحمل الذي أنقذه مار فرنسيس من الجزرة، تذكّاراً للحمل الإلهي الذي محا خطايا البشر. إن راهبات مار فرنسيس هؤلاء كثيرات القصص والحكايات يرونها بسداجة مشوبة بخبث وفيهن كثير من شبه «لافونتين»^(٤) ويدور في خلدي أحياناً أن أجعل حدّاً لقصصهنّ. يقلن إن ذئب غوبيو هذا الذي كان خبيثاً مفترساً، مات حتف أنفه بعد أن بلغ منه الهرم وكانت نهاية أمره عبرة لمن يعتبر. فقد كان يدخل إلى البيوت، فلا يؤذي أحداً ويتمشش مع الكلاب العظام التي تتركها هذه له. وأصبح لا يدع منه أحد، حتّى إن الأولاد الصغار كانوا ينتزّون على هذا الأطلس العسال ويلعبون على ظهره. وكان الحمل الصغير الذي مرّ ذكره قد وضعوه عند راهبات القديسة «كلير»^(٥) وقد أذنوا له بالمبيت في الدير بالرغم من كونه ذكراً وذلك إكراماً لحاظر القديس فرنسيس. وكان الراهبات يدلّنه كثيراً وكل منهن تسابق الأخرى على أخذه ليبيت عندها، وهذا ما دام صغيراً. ولكن الحمل الصغير كبر يا صاحبي وانتهى الأمر بأن صار تيساً وخسر حشمته مثلي ومثلك. فصار تحمّله في

(١) هنا عبارات اختير حذفها.

(٢) Gubbio: ناحية من إيطالية.

(٣) هو القماري، والعامّة تقول ترغلّ.

(٤) جان لافونتين (La Fontaine)، الشاعر الإفرنسي، نسيج وحده في نظم القصص المولّدة والحكايات الموضوعية على ألسن الحيوانات والطيور. وفي قصصه ما لا ينطبق أحياناً على المبادئ الأدبية ولكنّها غاية الغايات في بُعد الغور ولطف الصنعة وأما أمثاله المسماة «بالقابل» سداجة سطحية هي السهل المتنع بعينه. ولم يعهد أن شاعراً أو حكيماً أوتي هذا الأمد الأقصى من البلاغة وعلو الطبقة وعمق الغور في ظرف متناه كهذا في البساطة والسهولة وإرسال النفس على السجّية. ولد لافونتين في سنة ١٦٢١ في باريس سنة ١٦٩٥.

(٥) راهبة عنراء، ولدت في أسيز من إيطالية وهي بلدة مار فرانسيس، ونُسب إلى الراهبة كلير هذه رهبانية عذارى، (١١٩٣ - ١٢٥٣).

الدير مستحياً، إذ بدأ يقرضم الورق وأيّ ورود: تلك الفسائل التي جيء بها من أصل الورد المقدّس الموسوم كما مرّ بك. وكان يصنع أشياء أخرى لا أقدر أن أقولها لك... إلى أن ضاق به الذرع. فالتسوا من ذئب غوييو أن يعود مفترساً وسيّداً عملتاً ويأكل الذي أصبح مُستَيْساً. وهكذا لبّي الذئب التقيّ إشارتهم واسترط حمل مار فرنسيس لَمّا صار تيساً.

الأكادمي بدون قبة

لماذا الحكومة الجمهورية تتحمّل وجود هذه الجمعية، التي هي عبارة عن أخوية أناس رجعيين؟ لا سيّما أنّ الثورة الكبرى كانت قد أُلغيت. ولَمّا أسّس بونابرت ديوان العلماء^(١) لم يرد أن يسمع بذكر الأكادمي، فتشّفّعوا بها لديه فرضي بإبقائها، لكنّه غيّر لها اسمها فصار يقال لها: مدرسة اللسان والأدب. ونزلت إلى الدرجة الثانية. فرجوع الملكية أعاد الأولية لابنة الكردينال العظيم. فأما الآن فهي دولة في وسط الدولة. إذ عندنا مجلس النوّاب ومجلس الشيوخ والأكادمي. فمجلس النوّاب الذي يتألّف بالاقتراع العامّ هو في الحقيقة قاعة انتظار لمجلس الشيوخ وللأكادمي. وعند الأربعين^(٢) لباقة تامّة في تألّف رجال السياسة، ولو كانوا يعنون بالإنشاء والتأليف عنايتهم ببعض الانتخابات لكنّا بذذنا عصر أغسطس^(٣) وعصر لويس الرابع عشر^(٤).

(١) الذي يقولون له Institut.

(٢) العدد المحدود لأعضاء الأكادمي.

(٣) أغسطس قيصر، ولد سنة ٦٣ قبل الميلاد ومات سنة ١٤ من بعده، وكان في مبدأ أمره ثالث ثلاثة في الحكم مع أنطونيوس وليبيديوس ولكنّه بعد ظفره بأنطونيوس سنة ٣١ ق.م. انفرد بالولاية وصار إمبراطوراً وأحسن السياسة وأقام القسط ووزع العدل ووسّع الفتوحات فأنسى بحسن إدارته ما ارتكبه من تغيير نظام الجمهورية والاستئثار بالأمر. وازدهرت في عصره الفصاحة والآداب ونبغ مثل هوراس وفيرجيل وتيت ليف وغيرهم من أساتذة وفثهم ووقت من بعدهم. وكان لأغسطس اليد الطولى في إحياء دولة القلم هذه بجانب دولة السيف. وبالجملة فعصره في الدولة الرومانية هو عصر لويس الرابع عشر في فرانسة وعصر الرشيد أو المأمون في دولة العرب.

(٤) هو أعظم ملوك فرانسة، أبوه لويس الثالث عشر وأمه حتة الأوسترية، ولد سنة ١٦٣٨ وتولّى الملك ٧٢ سنة وهو عهد لم يعهد مثله في الطول لأحد وإنما يوجد من يقاربه وهو الإمبراطور فرانسوا جوزيف الذي مات أثناء الحرب الكبرى. فقد تولّى ٦٨ سنة. والمستنصر الفاطمي بمصر فقد تولّى ستين سنة. وكان عمر لويس الرابع عشر عندما خلف أباه خمس سنوات، فكفلته أمّه ووزر لها الكردينال مازارين. ولَمّا بلغ لويس الرابع عشر الثامنة عشرة وتي الملك بنفسه وبقي هو القابض على الزمام بالفعل مدة ٥٤ سنة وكان هو كما يقال الكلّ في الكلّ، وقال تلك الكلمة المشهورة "الدولة هي أنا" فذهبت مثلاً. وكان يعتقد في نفسه أنه ظلّ الله على الأرض وأنه ملهم أفاض الله عليه جزءاً من علمه كما أتاه الخلافة عنه في حكمه. وكان موقفاً في وزرائه وقوّاده فظفر في زمانه أعظم الكفاة في الإدارة والاقتصاد مثل كولبر، ناظر المالية، وغيره، وأشهر القواد في الحروب مثل البرنس كوندي وتورين ولوكسمبورغ وكاتينا وفوبان، هذا الذي كان قريع دهره في تحكيم الثغور وتشييد الحصون. فلمعت الدولة الفرنسية في أيامه ما لم تلمعه في عهد آخر دانت له المقاصد ودنت الأمور الأبعاد وباشر حروباً عديدة مع الدول الأوربية حالف النصر فيها لواءه فصارت الدولة في أيامه هي مركز أوربة وبيدها التقديم والتأخير. ولطول أيام ملكه وقوة ملكه ونبوغ أعاضم الرجال في عصره وتوالي فتوحه وطوائله وقرّ في نفسه أنه هو الشخص المقدّس الذي إرادته وحدها هي الشريعة وهواه هو العدل. فكان مجلس النوّاب وكان الوزراء وكان الأمراء وكان رجال الدين أجمعين أدوات في يده. وبلغ من قوّة اعتقاده بوجوب حصر كلّ شيء في مجرد إرادته أن ذهب إلى أنه لا حقّ لأحد في فرانسة بأن يدين بغير عقيدته هو وأنّ الناس على دين ملوكهم. فأصدر أمره =

تجد الواحد قد تبوأ في جميع المناصب وترتّب في جميع الدسوت، فكان من التّواب ثمّ من الشيوخ ثمّ صار وزيراً ثمّ رئيساً للجمهورية. وهو بعد هذا لا يقنع إلّا بكرسي في الأكاديمي. فليس بعد الأكاديمي سوى النعش. وإنّ هذا الطمع الأسمى إلى الأكاديمي مصيبة على جميع مجاري القانون السياسي. فإنّ جوّ الأكاديمي الذي يتنفّس به هؤلاء القوّاد والأساقفة والشرفاء إنّما هو رجعي لا ريب فيه. فمن جهة هم أعداء الحكم الجمهوري ومن جهة أخرى يتمتّعون بالمقام الرسمي ويسكنون في قصر من قصور الدولة. ولهم ثوب خاصّ هو في الحقيقة مسخرة ولكنّه ثوب رسمي أيضاً. ثمّ إنهم ذوو ثروة عظيمة، ولا تكاد توجد عانس^(١) إلّا وهي توصي عند وفاتها للأكاديمي بربع ملكها وبعضا غيرها وبيغاتها وسنانيرها. فالأكاديمي توزع كلّ سنة عدداً عديداً من الأكاليل والجوائز وتنفق وتؤدّي الجرايات والرواتب. وليست ميزانيتها المالية خاضعة لسيطرة أو مراقبة، فلهذا تجد أكثر هذه الأموال ذاهبة إلى الأخويات الدينية والجمعيات الكاثوليكية وإلى الناقمين وإلى الذين يحسنون التفكّر - أي الذين لا فكر لهم - فتحت هذه القبّة تتحرّك شركة هي في الحقيقة آلة فساد أدبي لغوي ولن تجد طريقة إلى الحمل عليها وهدمها، بل أشهر ساستنا يقدمون على أنواع الدنئات والسفاسف لكي ينالوا شرف الدخلة فيها.

إلّا أنّ ج. ب. أعطاني رأياً لا يبعد أن يفني بالعرض وهو حيلة قانونية لا يدركها إلّا من كان يهودياً مثل ج. ب. فقد قال لي: يجب ضرب الأكاديمي في صندوقها.

قال لي: إنّ الأكاديمي هي الآن حرّة مطلقّة اليد في جميع أمورها المالية لا يسيطر عليها مسيطر في دخل ولا خرج، فهي في هذا المعنى مستقلة تمام الاستقلال. قال الرباني ج. ب.: فهذا شيء فظيع لم يسمع به وهو أيضاً مخالف للقانون. لست أدري ماذا الذي يثير حفيظته من جهة الأكاديمي. وإنّما أدري أنه ساخطاً عليها. وهو يقول إنّ الدولة تشرف على جميع الدواوين والإدارات في أمر الوارد والصادر فينبغي أن نقترح عدم تأدية شيء للأكاديمي أو من الأكاديمي إلّا بقرار من نظارة المالية. ويسار بالقضية الهويينا وتلبس الكفّ حمل النعام ويقال إنّ الهدف المرمي من ذلك هو الاجتهاد في مصلحة المجمع والمحافظة على مجده ووقاره وغير هذا من ألفاظ

= بالغاء أمر نانت الشهير الذي كان أبيح به للبروتستانت ممارسة شعائرهم الدينية واضطرّ هؤلاء إلى أن يدينوا بالمذهب الكاثوليكي أو أن يخرجوا من أرض فرانسة فخرجت منهم أقوام لا تحصى ودخلت في الأمم الأخرى. ونبغ في أيام لويس الرابع عشر أكتب الكتاب وأشعر الشعراء وأفصح الخطباء ومنهم راسين وبوالو وكورنايل ومولير ولافونتين أئمة اللغة الفرنسية الذين بهم يُقتدى وعلى مثالهم يُحتذى. ومنهم بوسويه وفيلون وفليشيه في الإنشاء والخطابة. ومنهم لابرويار ولاروشفوكولد في حكمة الأخلاق. ومنهم باسكال في الفلسفة. ومنهم سان سيمون ورتز في التاريخ. ومنهم بوسين ولولورين ولوبرون وبرولت ومانسارد وجيراردون في الفنون الجميلة. ولفولتير كتاب اسمه "عصر لويس الرابع عشر" هو من نخبة كتبه.

(١) البكر التي طال مكثها بكراً ولم تتزوّج، وفي الأصل الفرنسي vieille fille.

المداهنة. وأخيراً إن ساء خُلق الأكاديمي من هذه السياسة يبرم في مجلس النواب قرار عُمي مفرط ضدّ لهذا المجمع. وما داموا يلغون الأخويات الدينية فماذا يمنعهم من إلغاء الأكاديمي؟ وأي مركز لها في الديموقراطية؟ وكذلك يمكن إخراجها من المباني التي تحتلّها، فهي فيها من زمان نابليون، فإن صارت الأكاديمي بدون هاتيك القبّة، فكيف يصير بحالها؟ تصير أشبه بالخنّع المطبوخ^(١) بدون خردل. نعم، إن مجرد إنذارها بالإخراج من مبانيها كافٍ في حملها على الطاعة وعندها ترضى بشبه المشاركة على خزانتها. ثمّ يقال إنّه ما دامت التأدية والصرف موقوفين على رضى الدولة فلماذا لا يودع المال من الأصل في خزائن الدولة ويجري تأديته من هناك. وبهذا نكون وصلنا إلى المراد ويعود مالها محجوزاً تحت يد الحكومة فينتف جناحها وتعود أفقر من فارة. وعندما تعدم الأكاديمي قبّتها وخزانتها فماذا يكون منها؟

مهنة الموت

قال:

- لم تكن مهنة القتال من الحرمة والكرامة عند الأوائل بالدرجة التي يريدون أن يخيلوها لنا. تذكر قصيدة هوراس^(٢) إلى أيكسيوس ذلك الذي هجر الفلسفة لأجل الخدمة العسكرية. وقرأ أناتول فرانس القصيدة وأخذ يفسّرهما "أصبحت تريد أن تنافس العرب في كنوزهم! وأخذت بأعداد الأصفاد لفرسان البارتيين"^(٣)! لعمرى، أهون أن يعود "التير"^(٤) إلى منبعه من أن أراك تترك مدرسة سقراط^(٥) من أجل مدرسة المريخ^(٦).

(١) لحم يطبخ بالتوابل في وعاء من جلده، والأصل الإفرنسي andouille.

(٢) هوراس (Horace)، شاعر لاتيني، ولد سنة ٦٤ ومات سنة ٨ ق. م. وكان صديقاً لأغسطوس قيصر وميسين، صاحبه المشهور بحماية الآداب والمعارف. ومع هذا فقد كان مستقلّ الفكر يرى السعادة في مشي القصد والاعتدال في الاستمتاع بلذائذ الحياة.

(٣) أمّة كانت تقطن جنوبي بحر الخزر يظنّ أنّ بقاياها لا تزال بين التركمان والأكراد. كانوا كأنهم مولودون على سهوات الخيل وأشدّ ما يخشى بأسهم هو عندما يظهرون الفرار فإنّهم يكرّون على العدو وهو مطمئنّ فيرمونه بنبال قلماً تخطئ، فلهذا كان إديارهم أشدّ خطراً من إقبالهم حتى ضُرب به المثل فقيل: فرّ فرار البارتى. لَمَن يصمي عدوّه وهو مدبر.

(٤) نهر رومة.

(٥) سقراط (Socrate)، فيلسوف من أكبر فلاسفة يونان، كان معلّم أفلاطون، ولد سنة ٤٦٨ ق. م. ومات سنة ٤٠٠. كان جانحاً في حياته إلى العزلة فلم يكن يقرئ تلاميذ في مدرسة ولا يؤلّف كتباً وراء مكتبة. وأكثر تعليمه إنّما كان للعامّة في محافلهم ومواسمهم. ولم يكن مذهبه وضع قواعد عامّة يوجب السير عليها ولكن تربية العواطف البشرية في الإنسان على ما هي عليه. فلم يكن يفكر في مقاومة مجرى الطبيعة. وكان كثيراً ما يحمل على السوفسطائيين ويسخر منهم. وما زال يوسعهم قرصاً ولدغاً إلى أن ضاقت به صدورهم فاتهموه برقة الديانة وحاكموه وحكم المجلس عليه بالموت بشرب السمّ، فتجرّع كأس الحمام بسكينة مدهشة. وقصّة موته المذكورة في تاريخ فلاسفة يونان بالعربي وما فاه به من الكلمات وهو يحدو بروحه دليل على علوّ درجته في سلّم الإنسانية.

(٦) المريخ أو Mars في الأساطير هو إله الحرب، أبوه المشتري وأمّه جونون.

ماذا يراد من هذا القول؟ هو أن مهنة القتال هي أخسُّ المهن لا تليق بدماع فيلسوف. وإذا كان أحد أقدم على الدخول في العسكرية، فإنما ذاك على أمل الكسب والنهب وليس ثمة شيء مما يسمّى حبّ الوطن. وقد كانت هذه الأفكار السائدة في فرانسة القديمة. وكان القدماء من مؤرّخينا ينعنون العسكري بأشنع النعوت وكان يسمّيهـم "مونستريله"^(١): وصفاء وأتباعاً ومشاة. ويقول عنهم فرواسار: مستأجرون وسلّبة وفجّرة. ولم يكن إلّا في أيامنا هذه أن جعلوا صنعة الاستبسال^(٢) في الصّفّ الأول. وهكذا فقد جدّ عندنا جرم جديد هو بغض العسكرية. ولم يكونوا في فرانسة القديمة يكبرون أن ينادى "فلتسقط الحرب" فقد كانت الحرب منحصرة في طبقة من الأمة هي التي في الروع تزحف على رأس الجيش وهو المؤلّف من عصائب من المرتزقة ومن اللقطاء وممّن إذا قاتلوا لم يعرفوا لماذا يقاتلون ومّن يقاتلون. ومن أجل تولّي هذه الطبقة كبر الحرب كانت الأمة تغضي على قحة الأشراف وتحمّل امتيازاتهم وما كانوا عليه من الاستثناء القانوني. ولكن الأمة كانت تعتقد أنّ هذه الفئة لا تحسن عملاً غير الجلاد. فكان الصانع يصنع والتاجر يتجر والقاضي يحكم والقسيس يصلّي، والشريف يحارب. وكان يُعدّ مضحكاً أنّ أحد السوقيين يعاني صنعة القتال. وكان الملك هو العسكري الأول في المملكة. وأظنّ أنك لا تنسى القوارص التي نالوا بها بوالو وراسين من أجل تواريخهما للملك. إنّ المساواة بين جميع أبناء الأمة في الخدمة العسكرية إنّما هي من فتوحات الثورة الكبرى فصار جميع الفرنسيين اليوم أبطالاً وكلّ من أظهر الاشمزاز من الموت فليس بفرنسي عريق.

المجنون المرسييلي

كانت جوزيفين غفلت عن مجنون دغرّ على أناتول فرانس بغتة وأخذ يقبل ركبته ويسقس جرّمقه^(٣) بدموعه ويزفر قائلاً: أنا من مرسيلية، كنت حدّاء عندما تجلّت لي الحقيقة فبادرت إلى بيع دكاني وتركت امرأتي وأولادي وأتبعتها. وها أنا ذا آتيك بدستور يكفل سعادة الشعوب فإنّك أنت محبّ حقيقي للإنسانية.

وبينما هو يقول هذه الكلمات إذ أخرج كتاباً مخطوطاً ومسدّساً. فأخذ أناتول فرانس يريغه عن المسدّس ويحاول تسكين هيجانه، فقال له:

"مهلاً مهلاً يا حبيبي ولنتكلّم همساً لأنّ أعداء الإنسانية هم بالمرصاد."

(١) مونستريله (Monstrelet)، حاكم كمبراي من شمالي فرانسة، له تاريخ عن حوادث وقته من سنة ١٤٠٠ إلى ١٤٥٣.
(٢) استبسال: استقتل يريد أن يقتل أو يُقتل لا محالة، وفي الأصل الفرنسي le métier de mourrir.
(٣) الجرّمق، بضمّتين: الخفّ الصغير، أصله فارسي.

فتنفس المجنون الصعداء، وقال له: "إنني لعالمٌ بذلك وقد بذلت كلَّ جهدٍ حتى أخلص منهم، فإذا هم يحاولون تهوير قطار مرسيلية ويرشون الحوذانية لأجل أن يدوسوني أو يهرسوني. ولكنني أنا وصلت إليك يا محبَّ الإنسانية وأديت الأمانة وها هو ذا كتابي".

فأخذ فرانس الكتاب يتصفّحه وقال للممسوس: "كنت في انتظارك يا صاحبي، كنت في انتظارك" وضمَّ المسكين إلى صدره، وأثناء هذه المعانقة أخذ المسدّس إلى يده. وقال له: "كُتبت ما طالما فكّرت به. وما كنت لا أجسر أن أعلنه فالآن صرت أقدر أن أموت مستريحًا. فيجب نشر هذا من أجل سعادة الشعوب". فأجاب المجنون ودموعه كالمرزاب: "نعم". فقال فرانس "خذ عربة، وقبل أن تعرف عصابة السوء أنك جئت إلى هنا اذهب إلى المطبعة ف..، ولقد كنت أرافقك إليها لكن أخاف أن أعرف، فأنا أكتب لك كتابًا أوصيهم بك فيطبعون لك تأليفك. وداعًا إذا أيّها الفيلسوف وعليك بالعجلة والتشمير" ثمَّ أخذ قصاصة ورق وثبج "عليها بعض كلمات. وقال له إنني ألصق الغلاف حذر شيوع السرّ. فذهب المسلوس بكتابه وبمكتوب التوصية مسرعًا، وقال فرانس: لقد قضيناها ساعة حامية.

فقلت له: أيمكنني أيّها الأستاذ أن أسألك ماذا كتبت.

قال:

- كتبت: هو ذا مجنون في دوره الحادّ، آذنوا بالهاتف^(١) أقرب مستشفى لكم وداوروا المجنون وراوغوه إلى أن يكون أخذ وأضفى عليه القميص.

مروحة الجلد

رغب الأستاذ إلى السيّدة العقيلة أن تبتاع له من السوق مروحة جلد.

- مروحة جلد؟ أين تريد أن أجد لك هذا؟ إنَّما كانوا يستعملون مراوح الجلد في زمن الملك لويس فيليب في أسعد أيام جدّتك.

- جدّتي لم تكن ممّن يروّح، بل كانت بيّاعة أرزاق للجيش.

- ولماذا تريدها مروحة جلد؟

- لأنّ الإنسان يقدر أن يكتب عليها.

(١) ثبج بتحريك الـثـلثة وتخفيف الباء أو تشديدها: كتب كتابة معماة، وفي الأصل الإفرنسي grifonner.
(٢) لا بأس بالهاتف الذي اصطلحوا عليه لترجمة لفظة تليفون فإنّ الهاتف في اللغة هو الذي يُسمع صوته ولا يُرى شخصه، وهي أخفّ على اللسان من التليفون وما دمننا نجد في العربي الأصل فلا موجب للدخيل.

- وماذا يكتب عليها؟

- شعرًا.

- تريد أن تكتب أشعارًا على مراوح؟

- أريد أن أكتب على مروحة واحدة وليس المعنى أنني أبغي أن أجعل ذلك مهنتي.

- تخطئ أن لا تعمل ذلك مهنتك. فقد يجوز أن تكسب بذلك قوت يومك. ولَمَنْ هي مروحة الجلد هذه؟ ما أظنها إلا لسيّدة.

- لا مريّة في أنك لا تبغين أن أنظم أشعارًا وأعنى بنسخها على مروحة من أجل رجل.

- يا ربّ، بل كنت أفضل ذلك. ثمّ أثبتني. هل هذه السيّدة صبيّة أو يظهر بالأقلّ أنها صبيّة؟

هذه المروحة من جلد هي بنت فكرها بدون شكّ. فهي قادمة من بلدها وتبغي الأوبة إلى منزلها ويدها غنيمة. ولا تسل عن تأثير مروحتها هذه ليلة الزفن في دار المديرية. فهي ترفع من مروحتك علمًا خفًا وتختال هناك بأشعارك وتوقيعك. يا سيّدي لا أجد أحدًا أسدج منك. لك شهرة بكونك أرقّ كتاب عصرك وفي الحقيقة إذا أقررت على رقّ أناملك أقرّ بالرقّ كتاب الأنام لك. ولكن في الحياة يا سيّدي تسير سيرة صبيّ في المدرسة. إنك لعلّى ورّه يحير العقول. أيّ سليطة سلقه تأتيك فتكلمك بكلمتين تكون مشيت وراءها. وددت لو عرفتها هذه غانية المروحة!

- إيه يا سيّدي هي إحدى صواحيباتك.

- إحدى صواحيباتي. إحدى صواحيباتي. على رسلك. فإنني أعرف أن أنتخب الصواحب،

فلسن حُمقًا ولا متطلّبات. ظننت مثلي ذاهبة في الأسواق، تبحث عن مروحة جلد؟ مروحة جلد؟ لماذا يا سيّدي؟ الجواب: لأجل أن نرى السيّد أناتول فرانس منتطقًا بأيّ عيّهرة من العياهر ويكتب لها عليها بخطّه ومن قريحته تذكّارًا. أنت حرّ يا سيّدي أن تجعل نفسك ضحكة فأما أنا فلا أشترى هذه المروحة.

- حسن يا سيّدي إذا أنا أذهب.

- تذهب أنت. نعم، تذهب وتعمل من الحماقات ما تعمل: وإنك لدافع من أجل هذه الألعوبة كلّ ما يتقاضونه منك. يطلبون خمسمائة فرانك فتقول: هي هذه. إنني أعرفك جيّدًا. وبليت تلك اللعوب تصدق معك كما صدقت معها، بل هي طموح وربّما كانت جماعة آثار، فهل تدري ماذا تصنع بمروحتك الجلد؟ تروّج بها زفتين أو ثلاثًا ثمّ تبيعهن من أحد المولعين بجمع الخطوط يرتاح أن يضمّ إلى مجموعته شهادة على أفنك أو على تهتكك. وما أرى مروحتك الجلد إلا قد صارت إلى «بارتو».

ثم نهض أناتول فرانس ومشى، فقالت له: إلى أين أنت ماضٍ؟
- إلى جادة الأوبرا لأجل أن أشتري مروحة الجلد الذي أخرجتك من جلدك.
- استأن قليلاً حتى آتي معك فإنك لا تقدر أن تخرج منها بسلام.

الركبة العسكرية والركبة الطاهرة

قال:

- حصل معي مساء أمس حادثة مخزية. وقد كان ميدأها بشكل ملائم. وأنا معترف لك بكل ما جرى^(١). فيكون باعترافي ما يكفر عن حماقتي.

كنا على العشاء عند فلان... وكانت مائدة طويلة عريضة مُسرَّهدة^(٢) وكان جلوسي على كرسي الشرف على يمين سيِّدة البيت. وهي امرأة نصِّف في سنِّ الخمسين لكنَّها رداح بضاض^(٣) ثمرة خريف شهية. وبينما كنا على الطعام تحدَّث إذا شعرت من تحت المائدة بضغط على ركبتي فبقيت مبهوتاً. وعهدي بهذه السيِّدة إنَّها حصانٌ رزانٌ فمضيت في حديثي. وإذا بضغطة أخرى. فماذا كنت تصنع لو كنت في مكاني؟ نعم، لست بأدونيس وتلك العقيلة ليست بالزهرة. وما أنا في ريعان الشباب وهي أيضاً تجاوزت الخمسين وما عهد الناس بها إلاّ الفضيلة، ولكن هذا تماماً يزيد الرغبة فيها، ولعمري لئن لم أكن شاباً فلا تزال النفس خضراء. وإذا بالضغطة الثالثة. فقلت في نفسي: هذه دعوة صريحة. هذا أمرٌ جزم. ماذا كنت تصنع في مكاني^(٤)؟ فقابلت الشيء بمثله وجسست الركب المناوحة بالتصوُّر والتخيُّل وتساءلت عما إذا كانت تلك الركب إلى الداخل أو إلى الخارج. إذ هناك نوعان. وأنا أعترف لك بكوني من أنصار المتعطف إلى الداخل. لأنني أرى في هذه النوع من الركب شيئاً من الحشمة والانقباض. وما أتذكَّر صاحب هذا التقسيم وإنَّما أقول إنَّه في غاية الإصابة. فقد سمى القسم الأول بالركبة العسكرية والقسم الثاني بالركبة الطاهرة.

فصرت أنا حيران في هذا اللغز: أركبة الجارة عسكرية أم طاهرة؟ أمَّا ركبتي فهي بين

(١) قد أصابت السيِّدة العقيلة في وصف أناتول فرانس في الصفحة السابقة بكونه أكتب كتاب زمانه، فإذا جاء إلى الحياة رأيت فيه خلاق صيان المدارس. وقد يكون أراد الترويح عن قلبه باحماضات يتبدَّل بها في مجالس خلصانه فلم يكن يحسن بمن كان حافظ سره وقد أفاد من برة أن يصوره صغيراً بعد أن عرفه الناس كبيراً.

(٢) السرهد: المنعم المغنّي.

(٣) مكتزة اللحم، وفي الأصل Dodue.

(٤) الأستاذ يكرّر جملة ماذا كنت تصنع في مكاني؟ وكأنه يقول إنَّ هناك قضاء مبرماً في إتيان هذا الأمر فلا محيد عنه. والحال، أن ما يصنعه نورو الحياة في مثل هذه الحالة وهو بسيط جداً. وهو القيام من المجلس.

العسكري والتعبدي. ولعلك تجد تفاصيلي هذه تافهة مبتذلة^(١) لأننا في هذه الأوقات العجيبة قد امتهنا جميع الاصطلاحات مع أن الرتبة هذه هي للعبادة أفلا تليق بمن نتخذها إلهة ونرجو منها السعادة؟ وعبادة الله تعالى هي بالجثو على الركب ولا يمكن أن يعبد الإنسان به دائماً، ولا بد له من السعي والكسب، هذا بشهادة أكابر القديسين. والوقت يتسع لذا وذاك^(٢). ثم انحنيت موهماً أن منشفتي سقطت وأني أبغي لهما فجعلت يدي تحت المائدة. فماذا وجدت يا صاحبي؟ وماذا فاجأني؟ إذا بخوان السفره هو الذي كان يضغط على ركبتني، فإنه كان واسعاً فضفاضاً ففتلوه حتى صار مثل العقدة وصارت هذه العقدة تصطدم بركبتني^(٣).

فقلت لي تلك السيدة الكاملة:

عمّ تبحث فإني أراك حائراً؟

حديقة الأمثال الغناء

بعكس ما كان عليه والدي من التفاضح والفخمية كانت والدتي هي البساطة بعينها. ولا جرم أنني ورثت هذا الانشاء منها. فقد كانت تقصّ أحسن القصص وتجعل لكل شيء قالباً. ومهما كان الموضوع تافهاً أو عامياً إذا مرّ على شفيتها اكتسب طلاوة ورونقاً. فكانت محادثتها يا صاحبي أشبه بحديقة: حديقة من حدائق الأقاليم التي من العادة أن تكون مبقلة وروضة وجنة أزاهير ورياحين معاً يجتمع فيها اللذيد بالنافع ويجني منها الورد وثمر التوت الإفرنجي معاً. ولم تكن والدتي راسخة في علم الكتابة ولم تكن تقرأ سوى كتاب الطبخ وكتاب الصلاة ولكنها ورثت من أهلها نصيباً وافراً من الأمثال القروية، كانت تنثرها نثر الأزهار على محادثاتها. وقد كانت أحكامها عندي هي أول ما لصق بذهني من صيغ الطيب من القول ومن صدق الحس. وقد أورثتني حبّ الأمثال حتى إنني لأحرص جدّ الحرص على قراءة مجامع الأمثال بأسرها وتجده دائماً على منضدتي كتاب «لورو دولنسي»^(٤) كلما طلبت نفسي الجمام، طالعت فيه، فإنه أشبه بدورة صغيرة تعملها نفسي في تلك الجنية الملائى بالأزهار والثمار معاً فتعود منها مستريضة باسمه. والناس يحقرون اليوم هذه الأمثال ويجدونها دون درجة مفاهيم الديمقراطية. وقد حكّ في صدري طويلاً أن أولف مجموعاً للصبيان، لأنني لا أكتم عنك يا حبيبي أنني

(١) وهذا ما يجده كل قارئ أديب.

(٢) هو المثل: ساعة لقلبك وساعة لربك.

(٣) هذا ما بقي من هذا للفصل بعد أن طوينا جانباً من عباراته.

(٤) لورو دولنسي (Le Roux de lincy)، أديب إفرنسي واسع الاطلاع، ولد سنة ١٨٠٦ وتوفي سنة ١٨٦٠.

عملت كتباً برسم الأحداث، منها كتب جوائز وكتب مدارس ولكني لا أبوح بها لأنني لا أزال خائفاً من أن أكون لم أحسن فيها الصنعة. فأسهل جداً أن يكتب الإنسان للكبار من أن يكتب للصغار. فالكبير تقدر أن تقنعه بفائدة كتاب وتحمله عليه فيقرأه ويمدحه. وأمّا الصغير فإذا ملّ الكتاب فليس لك به حيلة، فقد يخرق الصحيفة ويعمل منها عروساً أو فُلُكاً.

وكان بوذي أن أقطف من حديقة الأمثال تلك مجموعة، أنضدها بحسب الأيام والأشهر فمن شهر ديسمبر يتعلّم الصغار ما يتعلّق بعيد الميلاد ورأس السنة وسقوط الثلج. ومن شهر مايو الأنيق ما يتعلّق بالربيع والورد. ومن شهر أغسطس ما يقال في الحصاد. ومن شهر أكتوبر ما يقال في القطف. وكثيراً من الأمثال على الخمر المسلية للهموم، فكان يصير كتباً لطيفاً يوازي في الحجم وربما في القيمة أمثال لافونتين.

الجنرال يتمرن

كان ماهراً في استنباط الجهة المضحكة من الأشخاص والأشياء ولبيقاً في معايشة الطيّاشة⁽¹⁾ الذين يواظبون على ازدياره وتعظيمه أن يُنزلهم إلى ميدان الرقاعة ويجعل منهم مواضيع تسلية. فكان بوسعهم أسئلة ومخالصة وبين هذا الإحفاء والاحتفاء يتمكن من الاطلاع على أسرارهم فكان بعد ذلك يجردهم من أستارهم ويكسوهم ألقاباً وينبزهم بها على طريقته المعهودة حتى يصيروا أضحوكة لكلّ من عرف بقصّتهم وحتى لا يقع عليهم نظر أحد إلاّ استغرب ضحكاً.

وكان في طليعة هذه الطبقة الجنرال ف. وهو مثال لبطل من أبطال الروايات الهزلية: ذو سبال صهب عالية وعلى جمجمته شبكة شعر كأنها نسيج العنكبوت وله صوت صهصاق: صوت القيادة العسكرية. وكنت تراه وهو في بهو ساكن الطير ضيق الرقعة مكتظّ بالأثاث والرياش محشوّ بالبسط والسجّادات يزمجر كأنه على ظهر جواده في الصفّ.

وكان عند الجنرال ف. فتاة في محلّ الزواج اسمها سولانج. فكان أناتول فرانس يخفي الأسئلة عن سولانج ولا يفتأ يذكر سولانج. سولانج أضوا من النهار. سولانج أكرم سرّاً من الليل. سولانج تتقن كلّ شيء: العزف بالبيانو، الحلواء. تكاد من رفقها ترقم على الماء. تمتطي الجياد كأحسن الفوارس. من العابدات القاتنات. وبالجملة فهي درّة فريدة. وهي زنبقة بديعة. ولكن سولانج لم توفق يا ربّ إلى بعل. فهذا أثمّه على الجمهورية. لأنّ سولانج لا تملك جهازاً. ومكث الجنرال ف. زمناً طويلاً في المستعمرات، فجاء منها بحميات كثيرة ولكنه تخلّص منها بالتمرينات

(1) في الأصل Hurluberlus.

البدنية اليومية. فحيث كانت قد أخفقت جميع الوسائل: الكينا والأشربة والحبوب ومناطق الصوف، نجح التمرن نجاحًا فائقًا. ولكن هناك تمرن وتمرن.

وسأل أناتول فرانس القائد قائلاً: أشعر يا جنرال بعض الأحيان بألم في أمعائي.

- الحق في ذلك عليك. قلت لك: عليك بالرياضة البدنية.

- أتصح لمثلي في هذه السنّ الحلقات والحبال العمودية والعارضة الثابتة؟...

- الرياضة البدنية المعتادة كلّ صباح.

- كلّ صباح، وأين؟

- في نفس غرفتك عندما تنهض من سريرك.

- ويكون الإنسان متبدلاً.

- لا ريب في ذلك. إذ لا بدّ أن تكون العضلات كلّها حرّة مستريحة. أتريد مثلاً؟

- لم أكن أجسر أن أطلبه منك.

- مدّة خمس دقائق تدور في الغرفة ديبياً على اليدين والرجلين. هل فهمت؟

- ما فهمت جيّداً.

- أعيد لك الكلام. تبدأ بحركة سريعة خفيفة أشبه بحركة كلب صيد في أثر أرنب. ثمّ بعد

ذلك مدّة خمس دقائق تجمّز من فوق الكراسي وتضرب برجليك. وأخيراً تجعل نفسك ميتاً.

- هذا دور غير عسير.

- هو أعسر ممّا تظنّ. انظر يا حبيبي فرانس. تتمدّد بطولك كلّه مستلقياً على ظهرك ثمّ

استلقى الجنرال بنفسه على البساط. وقال:

- وتبسط ذراعيك.

- مثل يسوع فوق الصليب.

- نعم، مثل يسوع، إن كنت تريد. لا أحبّ هذه التشبيهات الكفرية. ولكنك غير قابل الإصلاح مع عبقريتك. ثمّ ترفع رجلك شيئاً فشيئاً. ومن ثمّة لا تحسّ بالمغص ولا تحتاج إلى الطبيب ولا إلى الصيدلي. إذا واظبت على هذا كلّ صبيحة تعود إلى الفتاء، كأنك قبل اليوم بعشرين سنة.

- إيه! إن هذا لما يستحقّ الاعتناء.

- ويعود بطنك كأنه بطن صبيّ.

- أو بطن مراهق.

- انظر إلى بطني أنا.

ثمّ قام الجنرال وضرب على بطنه مفتخرًا، كأنه يضرب على طبل. وقال: لا تجد هنا أدنى أمّ ولا عوج ولا ترى شيئًا من الشحم. بطن رجل عمره عشرون سنة، مع أنني بلغت الثالثة والستين. كلّ من عندي حتّى سولانج يعملون هذه التمرينات^(١).

الصورة المركّبة

لم يكن يمضي يوم لا يأتي فيه مصوّر أوروبي أو أميركي إلى مغنى سعيد. وكانت جوزيفين تحاول عبثًا منعهم من الدخول، فكان الواحد منهم يصعد الدرج ويتبوأ قرصها ويركّز مسند التصوير في جوز الممرّ ثمّ يشرع في التدخين بصنوبره^(٢) وهو جاثم صابر غير عجل ولا مستوفز حتّى إذا خرج الأستاذ تقفّه.

ومن عادة الأستاذ أن يحسن مقابلة الرّسامين. نعم، قد يتبرّم بدمورهم^(٣) وهجومهم ولكنّه ينقاد في آخر الأمر.

- لماذا ارتسم بعد أن صرت في هذا العمر وبعد أن تشنّ الجلد واشتعل الرأس شيئًا. آه لو كنت في شرخ الشباب! ولكنّي بلغت الستين. نعم، لست أنطينوس^(٤)، هذا أعلمه جيّدًا وما يرسمونني إلاّ لأجل فائدة التسجيل ولأجل الإعقاب. فإذا كان للإعقاب فليرسموا شيئًا بهيّا ولا يرسموا شيئًا فانيًا مهذارًا مرتعشًا. أفلا ترون براكستيل^(٥) كيف كان لأجل رسم زهرته^(٦) ينظر إلى ملامح أجمل بنات يونان. فهذا ما يليق بكم إن تعملوه لأناتول فرانس فاعتاموا أجمل الرجال وخذوا من هذا القدّ ومن ذاك ترف الأعضاء واستعيروا من ذلك سيماء الوجه واضفوا على كلّ هذا ذوائب مسترسلة ذات لون كلون الياقوت الزعفراني. ولست أعلم في الحقيقة ما

(١) وبعد هذا الفصل فصل عنوانه "من أجل جلد البنطلون" يتعلّق بقصة عسكرية كان أناتول فرانس يرتاح إلى سماعها من الجنرال ويستعيده إياها فطوبناه بحذافيه.

(٢) ترجمة pipe.

(٣) دَمَر على القوم: دخل عليهم بغير إذنهم.

(٤) شاب من آسية الصغرى كان مقرّبًا عند الإمبراطور أوريانوس الروماني، وكان يُضرب المثل بجماله.

(٥) براكستيل (Praxitèle)، نحّات يوناني طائر الصيت، ولد سنة ٣٩٠ ق. م. في أثينة، والتماثيل التي صنعها للزهرة كانت شهيرة عند الأولين.

(٦) Venus.

هو هذا اللون لكنني قرأت في الكتب أنه من أبداع الألوان. ثمّ اكتبوا تحت هذه البدائع: أناتول فرانس.

فإنّ هذا يعطي صورة حسنة لأحفادنا وحفيداتنا فيقولون عندما يرون صورتي: مع هذا لم يكن أناتول دميماً.

الهيكل المتألم

الصعوبة كانت على المصوّر هي في حمل الأستاذ على جلسة ملائمة. فإذا مضت هذه الصعوبة أطاع الأستاذ كالولد الصغير. وسهّل بنفسه صنعة الرسّام ولم يقف لأجل خاطره عن قلب نظام منزله وتغيير عاداته.

- أين تريد أن أتمثّل؟ أيعجبك مركزي هذا؟ وقميص نومي؟ هل هو داخل في خطّتك؟ أم تجده غريباً؟ فعندي ما أستبدل به. وكمتي أتراها زاهية بقدر ما تريد؟ عندي من الكمم ما شئت، فأتكمّم لك بالتّي ترضيك. وفي الحقيقة كان المصوّرون يحركونه كيفما يشاءون. وكثيراً ما كانوا يضعونه على كرسي ويجعلونه دائماً ملتفتاً، لأنّ أحسن صورته ما أخذت من جانب. وهو كان يعلم ذلك. وكانوا يضعون في حجره كتاباً بقطع النصف مفتوحاً ويمنعونه من تشبيك رجليه ومن التلقّت ومن تحريك رأسه. إلّا أنهم كانوا عاجزين عن شيء واحد وهو منعه من الكلام.

وكانوا إذا انتهوا من عملهم امّغط أناتول فرانس وأخذ يتنّفس قائلاً:

- الإنسان هيكل متألم.

ثمّ ينظر إلى الصورة فلا تعجبه في سريرة نفسه لكنّه يخفي زهده فيها وينحي على المصوّر بالتقاريط التي تنقض الظهور: هذا "روبين" هذا "ميكال أنج" بمثل هذه الصورة يغلب الإنسان الدهر. تأليفه تمضي ولكن صورته هذه تبقى خالدة. وهلمّ جرّاً.

ولكن لا يكون المصوّر وصل إلى الباب حتّى يقول أناتول فرانس:

- يا له من خباص مخرفش⁽¹⁾ الحمد لله على كوننا غير مجبرين أن نحكي صورنا.

قبلة المجدوم

قال بروسون، جامع هذه النوادر:

(1) في الأصل الفرنسي Barbouilleur ومعناه التخليط؛ وفي العربية خرفش الشيء: خلطه، ومثله الخبص وهذا من العامي الفصحح.

- في هذه الصبيحة يوم الأربعاء وكان يوم مقابلات عند الأستاذ حصل لي عارض غثيان لا أعلم أهو من قبل برد أو من سبب آخر؟ قصار الأمر أنني كنت ملتاث المزاج وأنّ العارض زال ببعض نقاط من الروم وما عدت أشعر بشيء منه. فلما انصرف الزوّار أقبل عليّ الأستاذ، وقال لي:

- أراك قد أغمي عليك يا ولدي كما أغمي عليّ «إستير» أمام «أحشوروش»^(١) من أين جاءتك هذه النوبة؟ قل لي. أهفوت هفوةً في الليلة الماضية؟

- اضطّجعت البارحة باكراً مع عذراء.

- مع عذراء؟

- نعم، مع عذرائك أنت جان دارك.

ما أظنّ أنّ هذه العذراء هي التي بلغت بك هذه الشدّة.

- هذه هي المرّة الأولى التي جرت لي، لا بل - حتّى لا أكذب - هي المرّة الثانية. وأول مرّة رنج عليّ كنت في المدرسة في يوم الفصح بينما كان القسيسون والشمامسة يرتلون قصّة آلام المسيح. فما شعرت إلاّ وكلّ شيء يدور حواليّ وسقطت إلى الأرض مع الغصن الذي كان بيدي. - لله درك ما أشدّ تقواك، تفطّر فؤادك عند رؤيتك آلام إلهك.

- كلاً، لم يكن هذا هو السبب لكن طال التقديس وأنا أكاد أموت جوعاً إذ لم أكن طعمت إلاّ كسرة خبز ناسّة^(٢) ثمّ إنّ رائحة الغار وزهره ممّا كان قد حوّل الكنيسة إلى غابة ملتقّة قد أثر فيّ.

- أنت رغب المعدة؟

- أظنّ ذلك.

- أريد أن أقول لك يا ولدي شيئاً فقلّ عنيّ ما شئت: أنا رجل لا أحبّ المرضى. ويقشعرّ بدني من الآلام. وهو خلق بي من أصل فطرتي. فعندما كنت في ستانيسلاس^(٣) كان ما يقال له مجمع مار فئسان دوپول^(٤)، فكنت أرى التلاميذ الذين هناك ذاهبين جاثين بين مخادع المرضى،

(١) اسم يهودي للملك من ملوك الفرس يُظنّ أنه داريوس الأول، تزوّج بإستير، ابنة أخي مردخاي، أحد اليهود الذين شملهم سبي بابل، وقد كانت إستير بحظوتها عند الملك سبب العفو عن اليهود الذين كان هامان وزيره قد بالغ في أذاهم وانتهى الأمر بشنق هامان (٥٠٨ ق.م).

(٢) خبزة ناسّة: يابسة.

(٣) المدرسة التي تربى فيها.

(٤) أحد قديسي الفرنسيين، ولد في بوي (Pouy) من مقاطعة لاند (Lande) من جنوبي فرانسة سنة ١٥٧٦ وتوفّي سنة ١٦٦٠، وهو مؤسس أخوية راهبات المحبّة والرهبانيّة العازرية وجمعية تربية الأولاد اللقطاء.

يأخذون إليهم الخبز واللحم والعقاقير، وربما كانوا يتهزون هذه الفرصة لأجل أن يبيعوهم مسابح وأيقونات. وكانوا يعظونهم ويحملونهم على الاعتراف بالذنوب. ولم يكن الهمّ الأكبر عندهم شفاؤهم من المرض وإنما تهيئتهم للموت. وكنت أرى حول كلّ من أولئك المحتضرين امرأته وأولاده عليهم سيماء الرثاء وتكلّف الحزن... فكان هذا التصنع وكانت كلّ هذه المكاره تماً تخبث له نفسي. كلاً، لست أنا ممّن يقبل المجذمين. أقسم لك. ثمّ ما هي فائدة هذا التردّد إلى العليل؟ نعم، هو من باب الرحمة وهو له مكان في التصوير والتمثيل، ولكنّه شيء آخر عند الفعل. فإنّ الإنسان إذا كان يتململ على فراش المرض لم يرد أن يشاهد أحداً. وأولى به أن لا تقع عليه عين أحد، إلا إذا كان الطبيب أو الممرّض. وأمّا الآخرون فإنّهم ثقلاء مزعجون مرّاءون. إنّ من أمجد الخلائق لديّ وأنفس ما أحبّ أن أرى عليه أصحابي وغاشيتي هو الصّحة والبشاشة.

جاءني المسيو فلان... ذلك اليوم بحليلته وهي صبيّة. أو بالأحرى لم يجتني بها، بل أرسلها بشفاة وهي استكتاب مقدّمة. وكانت رعبوبة ناعمة رادة، ولكن يا أخي أيّ لون كان لها! كانت بيضاء برّهرة^(١) كأنها كفن. لا ترى نقطة دم تجول في بشرتها. لست في هذا المعنى قصصيّ المشرب والله يعيذني من محبوبة تبصق رثيها. بعضهم يذهبون إلى أنّ الآلام تحلّي. وكتبوا على ذلك كثيراً. كلاً، يا صاحبي إنّ الآلام لا تحلّي، بل تكرّه، وجدير بالإنسان أن يفرّ منها.

لي عاطفة نحوك لأنك حادّ الذهن، متلهّب الذكاء، تفقه كثيراً من الأمور، ولست بمقيّد بالأوهام، ولكن ثق أنّ في هذه العاطفة التي عندي نحوك مدخلاً عظيماً لصحتك، فقد ظهرت لي إلى هذه الساعة مبنياً بالكلس والرمل وأرجو أن تكون هذه الغشية التي أصابتك هذا الصباح عارضاً فذاً.

- أنا أرجو هذا أيضاً ولكن الأمر ليس في يدي فلنفرض أنّ هذا العارض تكرر، فماذا؟

- أحبك أقلّ من الأول بكثير.

- وإن أصبت بشلل فجائي؟

- لا تعتمد حينئذ عليّ! وأواسيك بعدم التثقل بالعيادة. وأقول في نفسي: قد عرفت شاباً من «لانغدوك»^(٢) كان ملان حياةً ونشاطاً وعارضة. والآن أمامي مسكين هامد يتذبذب

(١) الجارية الشديدة البياض.

(٢) Languedoc: بلاد في جنوبي فرانسة قاعدتها طلوزة، فتحها العرب، وأقاموا بها طويلاً ومدينة نيم هي في ذلك الصقع.

ويصطك بعضه ببعض. فأنا صديق وفيٌّ له وإنما أهتف: لا، ليس هذا بروسون. ليس هذا بروسون. خذوا عني هذا القرد الذي بلا ذنب.

الأول والثاني والثالث

ياخذون عليّ سعة علم الرجال الذين تدور عليهم مقاماتي. ويقولون لي: "في أيّ عصر عاشوا، ومن أيّ طبقة كانوا، يتكلمون بلغة واحدة هي لغة رنان أو لغة "فولتير" (١) أو "لغتك أنت" ويضربون المثل "بتاييس" و "كرنكيل" فأجيب: هذه هي الشنشة الأصولية التعليمية فرجال "كورنايل" كانوا كورناليين ورجال "راسين" كانوا راسينيين. ف"فادر" (٢) تتكلم مثل "يواس" (٣) ومثل "برين داندين" (٤) ومثل "يوحنا الصغير" (٥). وتأمل في بقالة "جيلبلاس" (٦) فإنهم بينما هم يمسحون بغالهم يستشهدون بـ "ناسيت" (٧). فانتقاد هؤلاء يتخطاني إلى أعظم كتاب الفرنسيين.

ثمّ يعيون عليّ ضعف مخيلتي. فأقول إنّ المحيطة الشديدة هي أمّ التخبطات وهي رعناء البيت. وددت لو أذن لي في تصنيف أقاصيص أبطالها من المجردات الصرفة كما في الأمثال المعتادة عند الحقوقيين فيقال: بريموس، سكندوس ترتيا، كوارتا (٨).

(١) فولتير (Voltaire)، أشهر من أن يُعرف، معدود من رجال العالم لا من رجال فرانسة وحدها، كان محيطاً شاملاً برع في العلوم كلّها وخرج في جميعها رأساً، وغلبت عليه الفلسفة والشعر والإنشاء وهو النمط السهل المتمتع الذي لا يجاريه فيه مجار جلاء ورقة وصفاء ووجازة وجمع الكمية إلى الكيفية فقلما كتب عالم من علماء الدهر بمقدار ما كتبه فولتير في متعدد المواضيع وكان غرضه الذي تدور عليه تأليفه هو إطلاق حرية الإنسان واحترام الحقوق والعقائد. ولم يكن فولتير منزهاً عن الخطأ وإنما كان كثير الإصابة باهر الخصل، وهو المؤسس الأعظم بتأليفه للثورة الفرنسية الكبرى والانقلاب الاجتماعي الذي حصل في أوربة.

(٢) فادر (Phèdre) في الأساطير امرأة تيزيه (Thésée) وابنة مينوس (Minos) وباسيفايه (Pasiphaé) تعشت هيبوليت (Hippolyte)، ابن زوجها، وياحت له بهواها إياه. فاستعصم وخبّب مرادتها له فانتقمت منه بأن فعلت كما فعلت امرأة العزيز مع يوسف عندما امتنع من إجابتها إلى ما أرادت وذلك بأنّ فادر قالت لزوجها، والد هيبوليت، إن ابنه أراد بها سوءاً. فغضب تيزيه واستجاش على ولده غضب الإله أبولون الذي رذاه من عربته فسقط ميتاً. إلا أنّ فادر ثار بها عذاب وجدانها لمكيدتها هذه وما زال يلذعها حتى شنت نفسها. وقد مثل اثنين من شعراء الأقدمين سينيكا وأوريسيد هذه الأسطورة في المرحز ونظم منها راسين رواية هي أبداع بدائعه.

(٣) ملك يهوذا بعد موت آتاليه التي كانت ملكة يهوذا واشتهرت بعسفها وفجورها وقتلت أولاد الملك أوشوزياس كلهم إلا يواس الذي أنقذه الرباني الأعظم يواد ونادى به فيما بعد ملكاً.

(٤) برين داندين (Perrin Dandin): شخص تخيّل رابليه (Rabelais) في كتابه على أنه قروي حسن السيرة كان يحكم في الدعاوي فيحسن فصلها كلّها. وقد استعاره راسين أيضاً في روايته "محبّي الدعاوي" Les Plaideurs وجعله القاضي المغمم بمنصبه الذي يودّ لو قضى حياته كلّها في الجلسة. وقد استقضاه الشاعر لافونتين أيضاً في أحد أمثاله.

(٥) من أشخاص راسين في رواية Les Plaideurs.

(٦) جيلبلاس (Gil Blas): اسم اخترعه القاصّ الفرنسي لوساج (Le Sage) المولود سنة ١٦٦٨ المتوفى سنة ١٧٤٧ وجعله محور رواية في العادات العشرية. وصار جيلبلاس علماً لشابّ سريع الفهم تقن يعيش من الطوارئ.

(٧) مؤرّخ لاتيني شهير، عاش بين سنة ٥٥ و ١٢٠ بعد المسيح معروف بجلال العبارة ومزية الإيجاز وله تأليف ممتعة، وقد سبق ذكره.

(٨) أي الأول والثاني والثالث Primus, Secundus, Tertia, Quarta.

أما من جهة النحو، فإنَّ الزجَّالَ "بيرانجه"^(١) كان أعلى كعباً من "فيكتور هوغو" فإنَّ لغته أخلص عرقاً في الفرنسية وأجلى وأوضح وهي من طرز إنشاء القرن الثامن عشر، ذلك الإنشاء البليغ. ولا أقول إلا لك وهمساً في أذنك، مخافة أن ينهالوا عليّ بالسبِّ والشتم: إنني أوثر أغاني بيرانجه على قصائد "فيكتور هوغو".

الإحسان الباطل

غضب غضبة شديدة في أحد الأيام على أولئك البنات الجريئات التَّرعات اللائي يتسألن كتباً وتقادم لبعض الأعمال الخيرية.

- قد أفلتت جوزيفين في هذه الغدوة فتاة من نوع الخيل الضابرة^(٢) دميمة الخلق إلى حدِّ الرعب، بذئمة عنفصاً^(٣) نغارة صحابة^(٤)، في لباس كلباس الجنيّة "كارابوس"^(٥). دغرت عليّ هذه الفاجرة وأنا في غرفتي دون أن تفرع الباب ووضعت في أنفي، كما تضع لك مسدّساً، كتاباً من كتبي لا أتذكّره. ثمَّ قالت لي وهي تتحالي:

- يا أستاذي العزيز! يا أستاذي العزيز! أبغيك تكتب لي توقيعاً صغيراً على هذا الكتاب لطيفاً مثل جميع ما تكتب. فإنَّ هذا لأجل لعبة يانصيب. فقلت لها:
- ليس عندي لا قلم ولا حبر.

ولكن هذا القردة كان معها قلم فناولتني إياه فكتبت به بكلِّ صراحة "إلى مادام فلانة... الخيرة، ليس حبّ الخير بأن يجاد على الناس دون أن يجاد بالنفس".

أغبي من شاعر

كان من عادته إذا وصف أحداً بالغباوة أن يقول: "حيوان كأنه شاعر". فسألته مرّة: "من هو الشاعر عندك؟ أترأه "فيرجيل"؟".

قال:

- لا.

(١) بيرانجه (Béranger)، أشهر شاعر إفرنسي في الأزجال والأغاني، ولد في باريس عام ١٧٨٠ ومات عن ٧٧ سنة وسارت أهازيجه ومقطوعاته سير أعلى طبقة من الشعر المرقص.

(٢) بالضاد المعجمة وهي التي تجمع أيديها ثمَّ تثب فتقع مجموعة أيديها، وفي الأصل Haquenée.

(٣) في الأصل Arrogante.

(٤) في الأصل Criarde.

(٥) Carabosse: جنيّة يقال إنَّها كانت سعللة سليطة حدباء لا تعمل إلاّ السوء.

- «بوالو» أو «راسين»؟

- الشاعر عندي هو «كورنيل» و«فيكتور هوغو». على أن «لوكونت دو ليل»^(١) هو أشهر من هؤلاء قاطبة. آه لو كنت عرفت هذا. هذا في الحقيقة كان حيواناً تائهاً. وقد كان أزهى من زنجي وأجهل من سمكة شبوط. تجرأ هذا الهبال على ترجمة شعر هوميروس وهو لا يعرف كلمة واحدة من اليوناني.

دفتر الجوائز والأشعة

طُبع في إحدى الجرائد أن أناتول فرانس هو ابن أخ للمطران «تیبو»^(٢) أسقف «مونبلييه»^(٣) وأنه بواسطة عمه دخل في إحدى مدارس الكنيسة وتعلّم على نفقتها. فقال أناتول فرانس:

- ما سمعت في حياتي بذكر هذا المطران ولو كان من ذوي قربانا لكان والذي تبجّح به كثيراً. ثمّ كيف يمكن أن يكون هؤلاء علّموا مجاناً ولداً لم يكن ينعقد به أدنى أمل. فإنّ أساتذتي لم ينفّسوا في شيئاً من النجاح، ولم أنل ولا جائزة. وكنت أودّ أن أظفر الآن بدفتر الجوائز. نعم، لم أحصل على جائزة. لأنّ في مدرسة ستانيسلاس في زمامي - ولي الأمل أن تكون هذه الحال تغيّرت - كانت الجوائز تبعاً للإثارة لا للاستحقاق. ومن هناك ارتضعت وأنا بعد صغير أفويق العلم بمظالم الاجتماع وعرفت ما بين البشر من عدم النصفة.

- مثل جان جاك^(٤).

- لا تضحك. فإنّ الهمّ الذي كان يساور أساتذتنا في توزيع هذه الأكاليل من الورق هو تجريد سمعة المعهد وإثبات كونه مغرس فسائل أريستوقراطية. فكلّ من انتهى إلى نبعة شريفة كان حقيقياً بأن يذكر اسمه في هذه الجوائز أربعاً أو خمس زقات. فدفتر المكافآت كان أشبه بكتاب أشعة

(١) لوكونت دو ليل (Le Comte de Lisle)، شاعر فرنسي، ولد في جزيرة بوربون، له ديوان القصائد البربرية والقصائد القدّمي.

ترجم شعر هوميروس وصوفوكل وتيوكرت، ويقال إنّه أتقن الترجمة، (١٨١٨ - ١٨٩٤).

(٢) تيبو (Thibault).

(٣) مونبلييه (Montpellier): مدينة في جنوبي فرانسة على مسافة ٧٥٧ كيلو متراً إلى الجنوب الشرقي من باريس. عدد سكّانها ٨٠ ألفاً وفيها مدرسة جامعة، استولى عليها العرب عندما استولوا على جنوب فرنسة في القرون الوسطى.

(٤) جان جاك روسو (Jean-Jacques Rousseau): هو طريد فولتير في الفلسفة والإنشاء وبعد الصيت وتهية الثورة الفرنسية. وكان يذهب إلى كون الأزل بالمرء أن يعود إلى الطبيعة. وكان يعتقد بحسن طينة الإنسان وبضرورة التعاهد الاجتماعي الكافل لحقوق الجميع. وكما ألقح بسحر بيانه وشارق فصاحته الثورة الفرنسية الكبرى فقد رشّح الأفكار لفنّ القصص، المعبر عنه بالرومانيتسم وهو الأسلوب اللياني الخالف لأسلوب الأساتذة الأصليين المعبر عنه بالكلاسيك Classique وهو الذي انفسح فيه المدى للحسن والخيال دون العقل المجرد. ومن منازع الرومانيتسم أو الأسلوب القصصي الرجوع إلى تقديس الديانة المسيحية وتمظيم شأن القرون الوسطى والتنويه بفضل السلف والتعمق في آداب الأمم الأخرى.

للبيوتات القديمة. وأبيّ أسامي يا صاحبي! ماري هكتور ديودوني^(١) فالراند دولا فانلرانددير^(٢) إيڤ غرينيك دو مارساي^(٣) وبالاختصار فكلّ أولاد إخوة الميسو "دو بورسونيكا"^(٤) والكونتة "دسكاربانياه"^(٥).

- إلا أنّ "تیبو"^(٦) اسم إفرنسي لطيف خالص النسبة. وهو أصيل أيضًا "تیبو دو شامبانيه".
- لم يكن تیبو الصغير في شيء من هذا الشرف.
- ولقد أخذت بشارك بعد ذلك وكللتك الأكاديمي قبل أن صرت من أعضائها.
- نعم، لأجل "سيلفستر بونار" اسمج رومان عملته.
- إيه يا سيّدي الأستاذ هو طرفة الطرف.

- طرفة في البرودة. ولكن لنترك سيلفستر بونار الآن ولنعد إلى المدرسة. إنّه في ميدان التحصيل كانت بعض الأكاليل تُعطى في فنّ الرسم والتعليم الديني والحفظ لطبقة الأهالي كأولاد المحامين وأولاد كتّاب العدل وأولاد الأطباء. أمّا في أصناف المائدة العليا فكان التمييز لأبناء البيوتات.

بسطة الجسم لا العلم^(٧)

- كانت تلك الجوائز تذهب إلى مَنْ كان من الطلبة أكثر لحماً لا أثقّب فهمًا، ومّا لا مرية فيه أنني لم أكن ممن ينال الجائزة ولا إقبال الأساتذة. وكنت ضئيلاً شحّتًا كأنّما رجلاي إبرتان. مع أنّي كنت مغرمًا بالمجد. كان يوم الجوائز عندي يوم خزي وغضب وقشعريرة ولم أزل من رعب ذلك اليوم في مثل جلد الدجاجة. فكان ينبغي أولاً شرح المقابلة بين كورنايل في جزالته وراسين في رفته وبيان المصارعة بين الألمم والواجب. أمّا الإفاضة في الآلام فكنا نخرج منها ظافرين لأننا أوشكنا أن نكون بأجمعنا في ستانيسلاس من أمثال "بوليكتوس"^(٨) المثل

(١) ماري هكتور ديودوني (Marie Hector Dieu-donné).

(٢) فالراند دو لا فانلرانددير (Valrand de la Valrandière).

(٣) إيڤ غرينيك دو مارساي (Yves Guérinec de Marsey).

(٤) دو بورسونيكا (De Pourceaugnac): اسم اخترعه الشاعر الهزلي الأكبر موليير يمثّل تحته رجلاً من الأقاليم قادمًا إلى باريز ليتأهل بفتاة حسنة وجعل عليه من ضروب السخرية ما يُضحك الثكالي.

(٥) دسكاربانياه (d'Escarbagnas): اسم وضعه موليير أيضًا فصار علمًا على كلّ من يتمسك بالنسب والأصالة إلى حدّ الرقاعة.

(٦) تیبو (Thibaut)، اسم عائلة أتاتول فرانس.

(٧) لفنا قسماً من هذا الفصل أيضًا لأننا نعتقد أنّ الأستاذ كان يتكلم تحت تأثير الغضب.

(٨) بوليكتوس (Polyeucte): من المسيحيين الأوّلين قُتل لأجل دينه فصار شهيدًا ونظم كورنايل في قصّته مأساة تمثيلية فريدة في بابها.

العليا في المسيحية وفي طاعة الحكومة. ثم أخذ أناتول فرانس يمثل الخطيب في خطبة الوداع. فكان يزجر ويتقعر مثله قائلاً: أيها الصبيان والشبان لكم أن تتمتعوا بحق الحمام في هذه الإجازة. فالراحة مشروعة. والله تعالى قد استراح في اليوم السابع. فلکم أن تتأملوا في الطبيعة. لكن عندما يظلم الأفق بغتة في شهر أغسطس وتجبسكم العواصف عن الخروج من البيوت فافتحوا خزائن الكتب الأبوية واقروا "سنيكا" (١) واحفظوا "بوردالو" (٢) وتلذذوا بقراءة "باسكال" (٣) واصطبغوا بصبغة "ماسيليون" (٤).

فكنا نصغي إلى هذا الخطاب ونحن نغص أصابعنا في أفواهنا. وكنت أعود إلى البيت وليس معي شيء يُذكر سوى دفتر الجوائز وصورة الخطبة. فكان والدي يتلقاني بدون حفاوة. ولكن والدتي هي التي كانت تسليني وهي التي من البدء لم تياس من ولدها مع أن أساتذتي لم يكونوا يغبون والدي شهراً بدون أن يأتوا إلى دكاننا ويزهدوهما بي. فمن يسمعهم يخال أنه من العبث المحض أن يُنفقوا درهماً واحداً عليّ، إذ كل هذه النفقات الوجيعة هي كمن يرمي الفضة في النهر. فلن أتعلم شيئاً وخير لأهلي أن يبادروا إلى إخراجي من المدرسة ووضعني في مخزن تجارة. أمّا من جهة الكتب فلم أكن أصلح إلا للرزق والحزم. وكانت والدتي تبكي بعين كالعين الجارية وكان والدي في غمّ قاتم الأعماق ممّا يسمع. والصحيح - وهو شيء أقدر أن أقوله الآن - إنه لم يكن أجداً وأشيح مني. وكانوا يظنونني فاطر الهمة لأنني كنت دائماً في شغل بخالصة نفسي لا بني عقلي دقيقة فذة عن التفكير. وكنت أقرأ جميع الكتب التي في دكاننا من جميع الأنواع. وآلم أشد الألم إذا جاء أحد يأفكني عن حياتي الفكرية. وكنت هيّاباً جداً وقليل اللياقة. فإذا ألقى عليّ سؤال - ولا أزال كذلك إلى اليوم - تتزاحم الأفكار والتصوّرات في منطقي يضاد بعضها بعضاً. فكنت أول ما أجهد نفسي به هو تخليص نفسي من هذا الاختلاط. وكان خطائي هو في كوني أشهد أساتذتي مراغمتي هذه فكان يظن أنني مفلس من كثرة ما كنت موسراً. وكانت

(١) سنيكا: فيلسوف روماني، صاحب تأليف على طريقة المشائين، ولد سنة ٢ بعد المسيح ومات سنة ٦٦، وكان والده معلماً للبيان في رومة ومهذباً للإمبراطور نيرون في صباه ثم غضب عليه وقتله.

(٢) روردالو (Rourdalou): من أفصح خطباء الفرنسيين، كان من رهبانية الجزويت وله مجموع مواعظ شهيرة، (١٦٣٢ - ١٧٠٤).

(٣) باسكال (Pascal): من عبقرتي الدهر ندر أن يوجد له نظير في العالم بقوة إدراكه وحدة ذكائه. يقال إنه في الثانية عشرة من عمره اطّلع على قضايا إقليدس الهندسية بدون أن يراها في كتاب، بل بمجرد توارده الخواطر. ولما صار في الثامنة عشرة اخترع طريقة للعدد. وله اكتشافات كبيرة طبيعية وتحقيقات رياضية لم يسبق إليها. وكانت عبارته من البلاغة بحيث أن كثيراً من كلماته جرت مجرى الأمثال. ومن أعظم تآليفه كتاب "الأفكار" الذي لم يكمله. وضعه في محاسن الدين المسيحي فنشر بعد وفاته شذرات غير مرتبطة. وله أيضاً كتاب "الإقليات" حمل فيه على الجزويت حملة شعواء وانتصر لفرقة "الجانسينيست" التي كانت لا تقول كثيراً بالجزء الاختياري في عقيدة القضاء والقدر وكان مركزها الدير المعروف "بيور رويال" وقيل إن باسكال لم يصبه وهو عابر على جسر نوييلي (Neuilly) صدمة أرعشت دماغه فأخذت تترأى له مناظر غير صحيحة وصار يرى كأنه هوة تفتح أمامه لتبتلعه، وأنه بعد هذا الحادث التجأ إلى الديانة والله أعلم، (١٦٢٣ - ١٦٦٢).

(٤) ماسيليون (Massillon): من مصاعف الخطباء الدينيين بفرانسة، كان معروفاً بعدوبة نطقه وبلاغته خطابه، (١٦٦٣ - ١٧٤٢).

فواتح كلامي صادقة مصيبة لكنهم كانوا من أول جملة يستغربون ضحكاً فيفلّ ذلك من عزيمتي، وكنت في ذات صدري أعرف أنني غير مخطئٍ لكنني كنت ألوذ بالسكوت أنفةً وحياءً. وبالجملة، فكنت معدوداً من الأولاد الذين لم يفتح الله عليهم.

وقبل وصولي إلى الشهادة البكالورية^(١) جاء هؤلاء السادة وأقنعوا أبي بأنه إن لم يضعني في المدرسة داخلياً أخفقت في الإمتحان. فعارضت أمي في هذا معارضة شديدة وبواسطتها لحسن الطالع لم أذق من نعيم الحياة المدرسية الداخلية إلا النصف فكنت أطمع الظهر في المدرسة ولك أن تقول لم أكن أطمع شيئاً تقريباً. وعندما كنت أشمّ شمأزيرة^(٢) بيت السفارة التي كانت تشبه رائحة المراح^(٣) كانت تلقس^(٤) نفسي عن الأكل. ثم إن الطعام كان من الجشوبة بحيث لا يطاق. هكذا كنت أراه فأعافه. فطعامنا في البيت كان بسيطاً لكنه كان شهياً خالصاً، نأكل البيض ولكنه البيض الجديد بعد المعالجة والذي لا تحسّ منه رائحة القش واللحم، ولكنه اللحم الغريض الذي لا تشمّ منه ذفرة الشمع والسمن، ولكن أخلصه. والبقول والفواكه ولكن أطراها. وكنا نشرب الخمر ولكن أعتقه. وكلّ هذا على خوان بسيط في جفان ظراف لطاف. فكانت أمي في دهقنة^(٥) الطعام تجمع الإعجاز إلى البساطة.

- وكذلك ابنها في الإنشاء.

- أيها المداهن! دعنا نتكلم في التباين الذي نحن بصددده! وهو أن ذلك الغلام الوحيد المنعم المسرهده^(٦) الذي كأنه أنسة حيية صار أمام مائدة من رخام أسود حفر عليها القدماء أسماءهم تخطر ببالك بلاط المقبرة! ثم هناك تلك القصاع من الحزف الغليظ وهاتيك الأغطية التي لم تكن تعرف النظافة وتلك الأقداح المعدنية المقعنسة التي كان يرسب من خمرها المقتول بالماء شيء أشبه بالطباشير ذو لون بنفسجي وأضف إلى ابتذال الصحون جفاء الخدم الذين كانوا يغمسون أصابعهم الفظيعة في المرق والصبغ.

وكان في أثناء الطعام يجلس أحد الطلبة على كرسي في وسط القاعة ويلثث^(٧) في بعض

(١) الشهادة السمتة بالبكالورية هي المرحلة الأولى لطلاب الجامعات ومتى حازها الطالب انفتحت أمامه أبواب المدارس العليا التي يبغي فيها الإخصاء.

(٢) الشمأزيرة: الرائحة التي يشمّز منها الإنسان.

(٣) بالضم مأوى البهائم وهو من العامي الفصيح، والعامّة تفتح الميم.

(٤) لقت نفسه عن الشيء: خبث.

(٥) دهقن الطعام: ألانه، عن الأصمعي.

(٦) سرهده الصبي وسرهفه: بمعنى أحسن غذاءه.

(٧) لثث الكلام: لم يبينه أو تردد فيه، وفي الأصل الإفرنسي ånonner.

الكتب الدينية: "رولين"^(١) أو حياة القديسين. ومعلوم أنّ الإنسان لا يحسن هضم غير ما يستطيعه من الطعام فلهذا يخال لي أنّ بلع تلك القراءات الدينية مع ذلك الطعام الخشن كان ذا عمل كبير في قلة عقيدتي. وما قدرت طول حياتي أن أنسى إساءة أولئك المعلمين المغترين الذين أرادوا أن يذهبوا سرور والد بابنه.

وهنا جفا صوت أناتول فرانس وزمجر قائلاً:

- بعد انتخابي عضواً في الأكاديمية بقليل بينما كنت مجتازاً ساحة المرحح الفرنسي أقبل عليّ إكليريكي طاعن في السنّ باسماً يديه، وقال لي بصوت مرتعش "اسمح لي أن أهنيك يا ولدي العزيز" وأراد أن يعانقني فأبعدته عني بغلظة. وهو هو ذلك الذي في حدائتي لم يجدني صالحاً إلاّ لخسيس المهن. فلم أملك نفسي إن صحت به: "أولى لك يا نذل".

التلميذ الذي به صرع

كنت أكتشف هذه الحقيقة من الصغر وهي أنّ الفضيلة لا تكافأ لكونها فضيلة وأنّ الرذيلة لا تعاقب لكونها رذيلة فالمكافأة والمجازاة تعان علينا في المدرسة وفي سائر أدوار الحياة كما يقع البرد في مارس. وليس ذوو القلوب الطاهرة هم الذين ينجون من شأيب المطر ولكن الذين هم متسلحون بالمظال. أمّا في مدرسة ستانسلاس فإنّ مظلتي كانت الثبات ورباطة الجأش فقد كنت لا أبالي أساتذتي كما كانوا هم لا يهتمون بي.

وكنت جالساً على طرف المقعد وبجانبي طالب ضئيل صغير الجسم في حدة الفار وحركات القروود. ففي أحد الأيام حذفني بمسطرته فسقطت محفظة أوراقتي فانحنيت لأتناولها فسمعت صوت صرصر الغضب من فوق رأسي "أناتول، تيبو، أنت ممنوع من النزهة يوم الخميس" فأشرق عليّ بغتةً أنّ نجاتي لا تكون إلاّ بزيادة الطين بلة. فبدلاً من أن ألتقط محفظتي قذفت بالمحبرة والمقلمة والكتب والمسطرة... وسقطت أنا نفسي غائصاً في الحبر. وأصابني سكات. فأسرعوا إليّ وفتحوا النوافذ وفركوا لي يديّ وقالوا "انظروا إلى صفرة وجهه" وبعد أن كان قد حلّ عليّ الغضب حلّت مكانه الرحمة. وذهبوا بي إلى محلّ المرضى وسقوني منعشاً ثمّ أرسلوني إلى أهلي وأصبحوني بكتاب يقولون لهم فيه، يجب أن يدعوني أستريح في البيت أياماً، ومن ذلك الوقت ارتفعت عني التآديبات وظنّوا بي استعداداً لمرض الصرع.

(١) رولين (Rollin)، مؤرخ فرنسي، كان رئيساً للجامعة وله تاريخ للرومانين، (١٦٦١ - ١٧٤١).

لذّة الألم

كنت مرّة في جلسة قاموس اللغة وكان يوماً قمطيرياً زمهرياً فجلست أنا و"بورجه"^(١) إلى جانب الموقد نصطلي. وكان وجهه كثيباً ترهقه غبرة، فقلت له:

- ماذا بك يا بورجه، فأنتي أراك ملتائاً؟

- كلاً، فأنتي والله الحمد بخير ولكني حضرت نزع فلان... فكان شيئاً مفتتاً للأكباد. قد تألم آلام الذي طحنه الدولاب. ولم أشاهد في عمري من عذّب عذابه، فكان الروح كانت تأتي إن تُفصل من الجسد. فيا لها من مصارعة! إلا أنتي أعود فأقول: هو خير له.

- كيف هو خير له؟

- نعم، هو خير لنفسه. فإن حياته كما تعلم لم تكن مثلاً للعقة والطهر. وكان ينقاد كثيراً إلى شهوة البدن وثورة الدم فأنعم الله عليه باحتضار شديد العذاب تمحيصاً لذنوبه. فمات وقد انتدح له أن يندم، وأنتي لأغبطه على هذه الميتة الزوام^(٢).

وبينما بورجه يقول ذلك كان يخلد إلى الموقد ويدغل^(٣) في دائرة عبدة النار. ونعله كاد يكون من جملة الحطب. وهو يتلو علينا عظة في لذاعة الأوجاع وحلاوة الأشجان، ويتمثل بقول القديسة تيريزة "الألم أو الموت" فلم أستطع صبراً وقدعته^(٤) في وسط خطبته على فضيلة الصبر وضربت على كتفه قائلاً: "بورجه، خذ حذرَكَ فقد بقيت تشيد بفضائل العذاب إلى أن صرت من حرارتك لا تحسّ بكون نعلك يحترق".

هل أنقذ "رينيه" الكنائس الكاتدرائية؟

على أن هداية الشيكونت^(٥) لم تخلُ من فائدة، وموت السيّدة والدته كان منتجاً فعلى

(١) بول بورجه (Paul Bourget): من كتاب فرانسة المعدودين ومن أعضاء الأكاديمي، أكان أناتول فرانس في الآخر يستقل إنشاءه ولم يكونا متوائمين، إلا أنه لما مات فرانس وأبنته فرانسة بأجمعها تحدّث بورجه إلى جريدة "البتي بارزيان" بالكلمات الآتية:

"كنا رفيقي صبا أنا وفرانس ثم إن السياسة "شيطان الساعة الخامسة" فرقت بيننا فوقف عن انتياب الأكاديمي حيث كانت موازنته في تأليف معجم اللغة ذات قيمة كبيرة. وأنتي أحفظ منه تذكّاراً: صورة فوتوغرافية له وهو في سنّ الثلاثين سنة وقد كتب تحتها "إلى شاعري بول بورجه"، كان ذا فكرة نادرة وحسن متناه في اللطف".

(٢) الموت الزوام: الكريه، وفي الأصل Mort atroce.

(٣) دخل شيئاً فشيئاً، وفي الأصل Insinuer.

(٤) قدعته: كففته، وفي الأصل Je l'ai arrêté.

(٥) بشير إلى شاموبريان.

فرض أن رينيه^(١) لم يخلص نفسه فقد خلص بعض كنائس قوطية. لقد غلا الناس كثيراً في وصف تخريب الثوار، والحق أن هذه سنة البشر فكل أمة استبدلت بحكومتها تفعل فعل أولاد المدارس قبيل العطلة فتحطم كل شيء. ولا شك أن ذوبان الثورة حطموا كثيراً ونقضوا كثيراً وتلوا حتى قبور ملوكنا، وعملوا ما عمله الهوغنوط^(٢). وقد روى "مونتلوک"^(٣) قصة عن مخرب بروتستانتني فيها بلاغ تام فقد كان جاثماً في رواق إحدى الكنائس يمثل بتماثيل القديسين ويضرب أعناق شخوص مريم العذراء اللطيفة التي كآزاهير الزنبق. وكانت بيده مطرقة فحطم بها في طرفه عين ما رجته القرون والأجيال. فناده ضابط من تحت: "أنزل فقد كفى" وصوب نحوه بندقيته ليخوفه. فكان هذا القدم يقول له "دعني أكسر واحدة أيضاً" وكان التخريب الثوري يسيراً بجانب تخريب "الغاليكانين"^(٤) و"الجانسينيست"^(٥) في الأدوار الغابرة، بل إن هؤلاء المتورعين ضارعوا البروتستانت في هدم الأبنية القوطية التي كانوا يشنؤونها أشد الشنان. فكانت لفظة "قوطي" عندهم مرادفة للفظه "بربري" حتى إن جان دارك في القرن السابع عشر لم تكن بمقام التشريف والإجلال لغلبة الرأي بكونها قوطية، وإن فولتير نفسه هزأ بهذه العذراء في أبيات قالها ولم يكبر هذا الأمر أحد.

وذكر "لابروييار" في كتابه "الأخلاق" ما يأتي: "جاروا تماماً عن الأسلوب القوطي في بناء القصور والبيع"، ولم يقفوا عند حدّ العدول عنه بيناء الحديد، بل صاروا ينقحون القديم على الوجه الأصولي. أنظر إلى مقدم الكنائس التي مثل سان جرفه... وأخذوا يرفعون من كتب الديانة الأساطير التي كانت فيها ويستبدلون الشعر الفيرجيلي المنقح بالثر الباقي من القرون الوسطى. وكان السكير "سانتويل"^(٦) يقطع أهازيج في مدح القديس "بنيني"^(٧)، شفيح

(١) رينيه (René): هو اسم شاتوبريان.

(٢) Huguenots: لقب البروتستانت الفرنسيين كلمة محرقة عن الكلمة الألمانية idgenossen، ومعناها المتحالفون بموجب دين.

(٣) مونتلوک (Montluc)، ضابط إفرنسي باسل، اشتهر بقسوته نحو البروتستانت وكتب تأليفاً اسمه Commentaires أي مذكرات تاريخية، (١٥١١ - ١٥٧٧).

(٤) Gallicans أي المنسوبون إلى مذهب الغاليكانيسم وهو ما ادّعاء بعض أجيال الكنيسة الفرنسية من الحقوق والتصرفات بيزاء بابا رومة فإن هؤلاء ومنهم بوسويه نسر "مو" زعموا أن العصمة لم تكن لذات البابا، بل لمجموع رجال الكنيسة تحت زعامته. وقالوا بوجود طاعة الجماع العليا وتنفيذ القوانين المقدسة وفصلوا بين سلطتي الدين والدنيا ووقع إعلانهم هذا سنة ١٦٨٢ ونشأ عن ذلك خلاف بين الفاتيكان وملوك فرنسا. ولكن استقلال الحكومة الفرنسية تجاه الفاتيكان لم يتم إلا في عهد الجمهورية. أما لفظة غاليكانيسم فمشتقة من "الغال" اسم فرانسة القديم.

(٥) تقدم ذكره هذه النحلة Jansénistes ولاصة مقالته تضييق دائرة الاختياري في الإنسان، وكان منبع هذه الدعوة دير "بور رويال" واشتد في الدفاع عنها من أعظم العلماء باسكال وأرنولد ولكن البابا أصدر عليها الحكم وناهضها الجزويت وانتهى الأمر بإغلاق باب هذا الدير في زمان لويس الرابع عشر. وأما لفظة جانسينيست فهي مشتقة من جانسينيوس وهو أسقف هولندي ذهب هذا المذهب زاعماً أنه استنبه من أقوال القديس أغسطينوس. ويقال إنه لا يزال في هولندا كنيسة صغيرة جانسينية لها نزر من التبغ.

(٦) سانتويل (Santeul)، شاعر لاتيني اللغة إفرنسي النسب، له أهازيج دينية، ولد في باريز سنة ١٦٣٠ ومات سنة ١٦٩٧.

(٧) بنيني (Bégnigne)، قديس كان في بلاد بورغونية من فرانسة ويسمونه شهيداً لأنه قُتل في سنة ١٧٩.

”بوسويه“، ومن جهة أخرى ينظم شعراً ليحفر على قبر كلبة إحدى الأميرات التي ماتت - الكلبة لا الأميرة - على أثر تخمة. وما زالوا على هذه الحال إلى الثورة. فلولا الثورة لم يبقَ عندنا كنيسة إلا وقد أُديرت هندستها على الطراز الجزويتي. وقد وجدت صورة متروكة عن ”بتي رادل“^(١) عليها كتابة فجيعة مذكور فيها ”هدم كنيسة قوطية بواسطة النار في أقلّ من عشر دقائق“.

ونظراً لفهم شاتوبريان روح النصرانية، فقد عُنِيَ بحفظ كثير من معاهدنا الدينية القوطية من الدثور. وهذا أعظم ما قدمه بين يدي مجده. وكذلك ”روبسيير“^(٢). نعم، روبسيير هذا مع العيد الذي احتفل به للكائن الأسمى فإنه لا يجوز أن نغفل عن كون روبسيير ذا فطرة دينية وإنه في سنّ الخامسة العاشرة أو العشرين نال الجائزة على قصيدة مدح بها مريم العذراء، ثمّ بعد ذلك استحقّ الجائزة على خطبة في إلغاء العقوبة بالقتل. ثمّ إنه لما ذهب بذلك الاحتفال العظيم مرتدياً ثوبه الأزرق وحاملاً الأزاهير والسنابل فأحرق تمثال الإلحاد في قصر التويلري^(٣) كان القسوس يزيطون فرحاً قائلين: ”الحمد لله ها نحن أولاء قاربنا الرجوع إلى الشعائر الدينية. فالكائن الأعلى سيشقّ الباب ليسوع ومريم، وستعود الأيام السعيدة“.

من أين جاء الفيكونت هذا الميل إلى القوطي؟ أظنه من إنكلترا التي كان هاجر إليها. وكان قولتير قد أدخل عندنا ذكر شكسيير وكانت روايته هامليت تمثّل في مرازحنا. وحصل للناس ولوع بنمط الحدائق الإنكليزية بما فيها من الأخربة الأثرية. وكان الطليان قد علّمونا في الحدائق عمل الكهوف والغيران. وسرت روح تمثيل الآثار الدينية إلى المرازح. فبمجرّد ما أُطلقت الحرّية بسقوط الباستيل^(٤) انهال الممثلون على القصص الدينية لما فيها من الزخرف ومن الملبس المبرقش والطراز الموفّ فكانت بداءة حرّية المزرع هي بالقسوس والرهبان. وبينما كانوا يغلقون الكنائس كانوا يقلّدون الرسوم الدينية في الملاهي.

فقبل ظهور كتاب ”نبوغ النصرانية“ لشاتوبريان كان علماء فنّ التمثيل نظروا إلى ما في الهيئة الدينية ومظاهرها من قابليّة التصوير والتمثيل.

(١) بتي رادل (Petit Radel)، أثري إفرنسي من أهل القرن السابع.

(٢) ماكسيميليان روبسيير (Robespierre)، ولد سنة ١٧٥٨ في آراس (Arras) من شمالي فرانسة، وقبل شوب الثورة الفرنسية كان محامياً. فلما حصل الانقلاب دخل في جمعيّة السلام العامّ وصار العامل الأعظم فيها وغلب نفوذه على نفوذ زميليه الشهيرين دانتون (Danton) وهيرت (Hebert) فتمكّن من أخذ الحكم بقتلهما وقتل كثيرين ثمّ جاءت النوبة إليه كما هو الشأن في الانقلابات أكثر الأحيان فقتل سنة ١٧٩٤، وهو الذي أعاد شيئاً من مراسم الدين إلى فرانسة وسماها بعبادة ”الكائن الأعلى“.

(٣) قصر في باريز يرجع تاريخ بنائه إلى عام ١٥٦٤، كان بلاطاً للملك فرانسة.

(٤) حصن في باريز مبدأ بنائه سنة ١٣٧٠ تحوّل فيما بعد سجنًا للحكومة. فلما وقعت الثورة سنة ١٧٨٩ كان أول ما فكّر به الشعب هدم هذا الديماس الذي كان رمزاً للسلطة المطلقة. وفي الغالب إذا وقعت ثورة في بلد فأول ما يقصد الثوّار اقتحام السجون وإطلاق من فيها سواء كان حبسهم بحقّ أو بغير حقّ. ولما كان هدم الباستيل في ١٤ تموز (يوليو) فقد صار هذا اليوم عيداً للجمهورية.

نَمَسُ المَوَازِدِ

لَمَّا كُنْتُ فِي العِشْرِينَ مِنْ عَمْرِي كُنْتُ مِنْ أَنْصَارِ الجُمهُورِيَّةِ، نَظِيرِ سَائِرِ أُتْرَاقِي خِلَافًا لِوَالِدِي. فَكُنَّا نَتَّبِعُ عَوْرَاتِ الإِمْبِرَاطُورِيَّةِ. وَكُنْتُ أَنْظِمُ تَحْتَ عَنَوَانِ «لَعْنَاتِ فَارُوسٍ»^(١) أَشْعَارًا فِي «جَرِيدَةِ القَوَافِي»^(٢) إِلَى أَنْ كَادَتْ تَلِكُ الجَرِيدَةُ المَسْكِينَةَ تَتَشَقَّقُ مِنْ هَذَا المَوْضُوعِ. وَكُنَّا نَحْضُرُ دُرُوسَ المَسِيوِ «بُولِيه»^(٣) فَكَانَ هَذَا بِحِجَّةِ سَرْدِ تَارِيخِ «طِيَارِيُوس»^(٤) أَوْ «جِرْمَانِيكُوس»^(٥) يَنْحِتُ أَثْلَةَ الإِمْبِرَاطُورِيَّةِ الحَرَّةِ فِي «نِيرُون»^(٦) وَ«طِيَارِيُوس»^(٧) وَ«كَالِيغُولَا»^(٨) كَانُوا رَمُوزًا عَنِ «نَابِلْيُونِ الثَّالِثِ»^(٩).

(١) فَارُوس (Varus أو Varrus)، جِنْرَالُ رُومَانِي، كَانَ مِنْ قَوَادِ الإِمْبِرَاطُورِ أَعْطَسُ قَيْصَرِ، اسْتَدْرَجَهُ أَرْمِينِيُوسُ أَوْ هِرْمَانُ، زَعِيمُ الجِرْمَانِيِّينَ، إِلَى كَمِينٍ انْدَفَقَ عَلَيْهِ فَأَفْتَى ثَلَاثَةَ جِيُوشٍ بِتَمَامِهَا مِنَ العَسَاكِرِ الرُومَانِيَّةِ وَذَلِكَ سَنَةَ ٩ بَعْدَ المَسِيحِ وَفَتَ هَذَا الخُطْبَ فِي عَضُدِ الرُومَانِ وَاسْتَوْلَى الأَرَقَ لِيَالِي طَوَالًا عَلَى أَعْطَسُ فَكَانَ يِنَادِي: فَارُوس. فَارُوس. أَيْنَ ذَهَبْتَ بِجِيُوشِي. Gazette Rimée (٢).

(٣) (Beulé): لَعَلَّهُ شَارِلُ أَرْنِسْتِ بُولِيه الأَثْرِي الإِفْرَنْسِي الَّذِي صَارَ وَزِيرًا لِلْمَعَارِفِ العُمُومِيَّةِ سَنَةَ ١٨٧٣ وَمَاتَ سَنَةَ ١٨٧٤. (٤) طِيَارِيُوس (Tibère)، إِمْبِرَاطُورُ رُومَانِي، تَبَّاهَ أَعْطَسُ قَيْصَرِ فِي صِغَرِهِ وَرَبَّاهُ وَوَلَّاهُ عَهْدَهُ، وَكَانَ حَكِيمًا حَازِمًا لِأَنَّهُ فِي آخِرِ أَمْرِهِ انْقَادَ إِلَى الوَسَاوِسِ فَسَاءَ خَلْقِهِ وَكَثُرَ عَسْفُهُ.

(٥) جِرْمَانِيكُوس (Germanicus)، قَائِدُ رُومَانِي مِنْ عَائِلَةِ أَعْطَسُ قَيْصَرِ، كَانَ شَجَاعًا مُسْتَقِيمَ السِّيَرَةِ، تَغَلَّبَ عَلَى هِرْمَانِ الجِرْمَانِي وَاعْتَبَطَ شَابًا سَنَةَ ١٩ لِلْمِيلَادِ.

(٦) نِيرُون (Néron): مُضْرِبُ الأَمْثَالِ فِي الظُّلْمِ وَالعِشْمِ وَإِزْهَاقِ النَفُوسِ. هُوَ فِي أُورْبَةِ كَالْحِجَّاجِ بِنِ يُوْسُفَ عِنْدَ العَرَبِ. كَانَ أبُوهُ رَجُلًا يِقَالُ لَهُ دُومِيْتِيُوسُ، وَإِنَّمَا تَبَّاهَ الإِمْبِرَاطُورُ كَلُودِيُوسُ وَأُورْثَهُ المَلِكُ. وَكَانَ كَلُودِيُوسُ رَيْبِبُ نِيرُونِ (الرَيْبِبِ: زَوْجُ الأُمِّ لَهَا وَوَلَدٌ مِنْ غَيْرِهَا) وَذَلِكَ أَنَّ أُمَّ نِيرُونِ كَانَتْ أَغْرِيْبِيْنِ (Agrippine)، ابْنَةُ أَغْرِيْبِيْنِ، ابْنَةُ أَغْرِيْبَا، ابْنَةُ أَعْطَسُ قَيْصَرِ، وَكَانَ أبُو أَغْرِيْبِيْنِ الثَّانِيَةِ جِرْمَانِيكُوسُ. وَكَانَ مَوْلِدُهَا بِكُولُونِيَّةٍ مِنْ أَلْمَانِيَّةِ وَتَزَوَّجَتْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ آخَرَهَا بِالإِمْبِرَاطُورِ كَلُودِيُوسِ عَمَّتِهَا. وَبِسَبَبِهَا هِيَ اتَّخَذَتْ كَلُودِيُوسُ ابْنَهَا نِيرُونَ وَلَدًا وَوَلَّاهُ عَهْدَهُ. فَلَمْ تَصْبِرْ هِيَ إِلَى وَفَاةِ زَوْجِهَا، بَلْ أَمَاتَتْهُ بِالسَّمِّ، تَعَجُّلًا لِتَنْصِبَ نِيرُونَ عَلَى عَرْشِ السُّلْطَنَةِ. وَلَمَّا تَوَلَّى نِيرُونُ الأَمْرَ وَجَدَ سَيِّطَرَتَهَا ثَقِيلَةً فَأَحْبَبَ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْهَا أَوَّلًا بِإِغْرَاقِهَا فِي البَحْرِ بِحِيلَةٍ مَدْبُورَةٍ. فَلَمْ تَنْجُ تَلِكُ الحِيلَةُ فَأَمَرَ أَحَدَ الضُّبَّاطِ بِقَتْلِهَا، فَلَمَّا جَاءَ لِيَقْتُلَهَا قَالَتْ لَهُ: «إِبْرَاطُورِي» كَأَنَّهَا تَرِيدُ عِقَابَ ذَلِكَ البَطْنِ الَّذِي حَمَلَ ذَلِكَ الوَحْشَ الضَّارِي. وَطَائِخِ السَّمِّ أَكَلَهُ. تَوَلَّى نِيرُونُ مِنْ ٥٤ إِلَى ٦٨ م. م.

(٧) كَالِيغُولَا (Caligula) مِنْ عَمَطِ نِيرُونِ، تَوَلَّى الإِمْبِرَاطُورِيَّةَ مِنْ سَنَةِ ٣٧ إِلَى سَنَةِ ٤١ بَعْدَ المَسِيحِ، وَهُوَ ابْنُ جِرْمَانِيكُوسِ مِنْ زَوْجَتِهِ أَغْرِيْبِيْنِ السَّالِفَةِ الذِّكْرُ، وَكَانَ ظَمَّانًا إِلَى الدَّمَاءِ لَا يَرُوبِهِ إِلَّا سَفْكَهَا وَتُقَلُّ عَنْهُ أَنَّهُ يُوَدُّ لَوْ لَمْ يَبْقَ فِي الشَّعْبِ الرُومَانِي إِلَّا رَأْسٌ وَاحِدٌ حَتَّى يَقْطَعَهُ. وَكَانَ يَقُولُ لَا أَبَالِي أَجْنَبِي النَّاسِ أَمْ أَبْغُضُونِي بِشَرِّطِ أَنْ يَخَافُونِي.

(٨) ابْنُ أُخِي نَابِلْيُونِ الكَبِيرِ، أبُوهُ لُويْسِ بُونَابَارْتِ، مَلِكِ هُولَانْدَةِ، وَوُلِدَ سَنَةَ ١٨٠٨ فِي أَيَّامِ شِبَابِهِ الِانْتِقَاضِ عَلَى المَلِكِ لُويْسِ فِيلِيْبِ فَقُبِضَ عَلَيْهِ وَاعْتُقِلَ مَدَّةً إِلَى أَنْ أُفْلِتَ مِنَ السِّجْنِ فَذَهَبَ إِلَى بَلْجِيكَا وَبَقِيَ فِيهَا إِلَى سَنَةِ ١٨٤٨ الَّتِي ثَارَتْ فِيهَا الثُّورَةُ عَلَى لُويْسِ فِيلِيْبِ فَدَخَلَ إِلَى فِرَانْسَا وَانْتُخِبَ نَائِبًا عَنِ الأُمَّةِ، وَفِي ١٠ دَيْسَمْبَرِ مِنْ تَلِكِ السَّنَةِ انْتُخِبَ رَئِيسًا لِلْجُمهُورِيَّةِ وَأَقْسَمَ بِعَيْنِ الأَمَانَةِ لِلقَانُونِ الأَسَاسِيِّ وَبَقِيَ نَحْوَ ثَلَاثِ سَنَاتٍ يَتَأَهَّبُ لِقَلْبِ الجُمهُورِيَّةِ وَيَأْخُذُ لِلسُّلْطَنَةِ أَخْذَهَا إِلَى أَنْ صَرَخَ ذَاتَ نَفْسِهِ فِي ٢ دَيْسَمْبَرِ سَنَةِ ١٨٥١ فَاعْتُقِلَ رُؤَسَاءُ الحِزْبَيْنِ الجُمهُورِيِّ وَالمَلِكِيِّ الشَّرْعِيِّ وَقَمِعَ مَا بَدَأَ مِنْ نِزَوَاتِ الشَّعْبِ لَمَنْعِهِ عَنِ الاسْتِبْدَادِ بِالأَمْرِ وَحَلَّ المَجْلِسَ النِّيَابِيَّ وَاسْتَفْتَى الأُمَّةَ فِي مَصِيرِ الأُمُورِ فَانْتَهَتْ بِرِثَاسَةِ الجُمهُورِيَّةِ إِلَى مَدَّةِ ١٠ سَنَاتٍ ثُمَّ فِي السَّنَةِ التَّالِيَةِ نَادَى بِنَفْسِهِ إِمْبِرَاطُورًا بِمُوجِبِ اسْتِفْتَاءِ آخَرٍ. وَقَدْ قَسَمَ المُؤرِّخُونَ مَلِكَهُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَدْوَارٍ فَفِي الدُّورِ الأَوَّلِ كَانَ رَئِيسًا لِلْجُمهُورِيَّةِ، وَمِنْ سَنَةِ ١٨٥١ إِلَى سَنَةِ ١٨٦٠ كَانَ حَكْمَهُ مُطْلَقًا مُسْتَعِينًا عَلَى ذَلِكَ بِقَانُونِ الأَمْنِ العَامِّ الَّذِي يَشْبَهُ قَانُونِ «تَقْرِيرِ سَكُونِ» فِي الأَوْتِنَةِ الحَاضِرَةِ فِي الجُمهُورِيَّةِ التُّرْكِيَّةِ. وَمِنْ ١٨٦٠ إِلَى ١٨٦٧ أَدْخَلَ بَعْضَ الإِصْلَاحَاتِ فِي الإِدَارَةِ وَنَفَسَ مِنْ خِنَاقِ الأُمَّةِ بَعْضَ الشَّيْءِ وَسَمَّى هَذَا الدُّورَ بِدُورِ الإِمْبِرَاطُورِيَّةِ الحَرَّةِ الَّذِي أُشَارَ إِلَيْهِ فَنَاتُورِلِ فِرَانْسِ. وَكَانَتْ حُرُوبُ نَابِلْيُونِ الثَّالِثِ كَثِيرَةً إِرْتِنًا عَنِ عَمَّةِ مِنْهَا: حَرْبُ القَرِيمِ وَحَرْبُ الصِّينِ وَحَرْبُ إِيْطَالِيَّةِ وَحَرْبُ المَكْسِيكِ ثُمَّ حَرْبُ بَرُوسِيَّةِ الَّتِي ذَهَبَ فِيهَا مَلِكُهُ. وَكَانَ أَسْرَهُ فِي سِيدَانِ فِي ١ سِبْتَمْبَرِ ١٩٧٠ وَفِي أَسِيرًا مَدَّةً ثُمَّ أُطْلِقَ سَرَاحَهُ، وَمَاتَ سَنَةَ ١٨٧٣ بِقَرْبِ لَنْدَرَةِ، وَبَعْدَ سَقُوطِهِ أُعْلِنَ الفِرَنْسِيْسُ الجُمهُورِيَّةَ وَرَدَّوْا الأَمْرَ إِلَى حَافِرَتِهِ.

وكان يتكلم أيضًا على «بوبي»^(١) و«ميسالين»^(٢) والإمبراطورة «أوجيني»^(٣) وعلى ملاهي «كابري»^(٤) واجتماعات «كومبيانيه»^(٥) و«فونتانبلو»^(٦).

فكنا نصقّ عند كل كلمة. وكان يظهر لنا بوليه هذا شيئًا مذكورًا إلا أنه بعد سقوط الإمبراطورية رجع إلى الورا وعاد كالمرجون القديم. ومن الناس من هذا شأنهم إذا ثار غبار الفتنة كانوا أساطين فإذا انقضى أمرها عادوا أضعف من مروحة. وقد كنت ألقى المسيو بوليه في أثناء الزيارات، فكان يخرج ومعه امرأته وهي المثل الأقصى في الدمامة وفي النهم إلى الطعام حتى إنَّ الناس أطلقوا عليها من شدة رغبها اسم «نمس الموائد».

مديح مار لويس^(٧)

إننا أصبحنا بعد كل هذه الانقلابات لا نقدر أن نفقه كنه ما كان الملك في نظر آبائنا. وقد

(١) بوبي (Popée): امرأة نيرون رفسها برجله فقتلها (٦٥ ب. م.).

(٢) ميسالين (Messaline): امرأة الإمبراطور كلوديوس ضرب المثل بفجورها وانتهت حياتها بالقتل سنة ٤٨ ب. م.

(٣) أوجيني (Eugénie): امرأة نابليون الثالث، إسبانيولية مولودة في غرناطة سنة ١٨٢٥، لعبت دورًا مهمًا في سياسة بعلها وكانت لها يد في تأريث نار الحرب مع بروسية. وقد أشار إليها أحمد فارس الشدياق في قصيدته التي يذكر فيها هذه الحرب المشؤومة كانت على فرانسه، فقال:

وقالت إلى برلين يا جندي انفروا	فتلك التي قد كذرت صفوا حوالي
وتلك التي قد زاحمتني على العلى	ولم تك قبل اليوم تخطر بالبال
فلي يقصر قرم عنيد تهأبه	جميع ملوك الأرض هيبه رثبال
وقد ناب عنه في الإمارة زوجته	ومعها رجال من ذوي الحدس والخال

(٤) كابري (Capri): جزيرة في خليج نابولي، زجى فيها الإمبراطور طيباريوس بقية أيامه وأرخى العنان لأهوائه وشهوته حتى صارت لفظه كابري عنوانًا على الخلاعة والتهتك.

(٥) كومبيانيه (Compiègne): قصر في «الواز» (بناه لويس الخامس عشر، وزاد فيه نابليون الأول وبنى فيه بماري لويز النمسية، وتزوج أيضًا هناك ليوبوليد، ملك بلجيكا، بابنة لويس فيليب، وعقدت بهذا القصر معاهدات وله مشاهد كثيرة).

(٦) فونتانبلو (Fontainebleau): قصر بديع يحف به غابة عظيمة فينانة السرح. بنى هذا القصر فرانسيس الأول وفيه تخلى عن الملك نابوليون بونابارت عام ١٨١٤.

(٧) أولويس التاسع، ابن لويس الثامن، ملك فرانسه، أمه بلانش القشالية، ولد سنة ١٢١٥ وصعد على العرش سنة ١٢٢٦ وملك ٥٤ سنة كان في أوائلها بكفالة والدته التي أحسنت السياسة وقمعت ثورات بعض الأمراء. ولمّا بلغ لويس أشده زحف إليه الإنكليز بمالأة بعض هؤلاء فظفر بهم في واقعة تابلبورغ وواقعة سانت ولما بلغه أنّ الدولة الصليبية في الشرق أوشكت أن تنهار أعمل في غزو الإسلام فجرد جيشًا عمرمًا بالأساطيل وأناخ بدمياط في سنة ١٢٤٩ قاصدًا القضاء على الملكة المصرية إلا أنه انكشف في معركة المنصورة سنة ١٢٥٠ ووقع أسيرًا. ثمّ فدا نفسه وانحاش إلى فلسطين ولبث في الشرق سنتين ولم يعد إلى فرانسه حتى بلغه وفاة أمه التي كان باله مستريحًا في غيابه ما بقيت هي نائبة عنه. ولما أب إلى وطنه شرع في إصلاح أمور الملكة واعتنى بإقامة القضاء على قواعد العدل وأسس مجلسًا عدليًا كان هو أساس البرلمان في فرانسه وأفاض على رعيته الخير والإحسان إلا أنه كان شديد التمسك بالكنيسة لا تأخذه لومة لائم في استئصال أهل البدع الذين يقال لهم الهرطقة. وفي ليامه علت كلمة رجال الكنيسة واردة امتيازاتهم وكان من شدة غرامه بغزو الخارجين عن الكلكة أنه لم يتب من بعد واقعة المنصورة والأسر والذل فاعتزم غزو تونس وتملق أمه بتنصير ملكها الحفصي فأناخ بساحة تونس الخضراء سنة ١٢٧٠ فصيب بالطاعون ومات بقرطاجنة. ولأجل فضائله في نفسه ولكثرة مغازبه في بلاد الإسلام وإرهابه الحد في الهرطقة جعلته الكنيسة قديسًا. فليس في ملوك فرانسه قديس سواه مع تشدد أكثرهم في أمر الدين. ولما كانت واقعة دمياط تعلق بتاريخنا فلا بأس أن نذكر ما قاله عنها صبح الأعشى اكتفاء به عن غيره: =

«مملكة الفرنج القديمة وقاعدتها مدينة (فرنجية) بالفاء والراء المهملة المفتوحين وسكون النون وفتح الجيم وهاء في الآخر وقد تبدل الجيم منها سبباً مهملة فيقال فرنسة ويقال للمكهم ريد إفرنس ومعناه ملك إفرنس. والعامّة تقول الفرنسييس. وهو الذي قصد ديار مصر وأخذ دمياط وأسرهم المسلمون ثم أطلقوه». قال: وإنَّ الفرنج في سنة خمس عشرة وستمئة وهو مستولون على سواحل الشام يومئذٍ سار منهم نحو عشرين ملكاً من عكا وقصدوا دمياط في أيام الملك العادل أبي بكر بن أيوب، رحمه الله، وسار العادل من مصر إليهم فنزل مقابلهم وأقاموا على ذلك أربعة أشهر ومات العادل في أثناء ذلك. واستقرَّ بعده في الملك ابنه الملك الكامل محمَّد فوقع في عسكره اختلاف تشاغل به فهجم الفرنج دمياط وملكوها عنوةً في سنة ستّ عشرة وستمئة. وطعموا بذلك في مملكة الديار المصرية. فبنى الملك الكامل بلدةً عند مفرق النيل: الفرقة الذاهبة إلى دمياط والفرقة الذاهبة إلى أشموم طنّاح وسماها المنصورة ونزلها بعساكره ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن دخلت سنة ثمان عشرة وستمئة وقد اشتدّ طمع الفرنج في الديار المصرية وتقدّموا عن دمياط إلى المنصورة وضائقوا المسلمين إلى أن سلّمهم الملك الكامل في الصلح على أن يكون لهم القدس وعسقلان وطبرية واللاذقية وجبله وسائر ما فتحه السلطان صلاح الدين من سواحل الشام خلا الكرك والشوبك. فأبوا إلا أن يكون لهم الكرك والشوبك أيضاً وأن يُعطوا مع ذلك ثلثمائة ألف دينار في نظير ما خرّبوه من سور القدس. فأعمل المسلمون الحيلة في إرسال فرع من النيل في إبان زيادته حال بين الفرنج وبين دمياط انقطع بسببه الميرة عنهم وأشرفوا على الهلاك وكان آخر أمرهم إن أعرضوا عن جميع ما كانوا سئلوا به من الأماكن المتقدمة الذكر ونزلوا عن دمياط للمسلمين وتسلمها الملك الكامل منهم. ثم عاد إلى مصر وبقيت دمياط بيد المسلمين إلى أن قصدها الفرنسييس في خمسين ألف مقاتل ومعه الأدفونش، صاحب طليطلة في أيام الملك الصالح أيوب بن الكامل محمَّد بن العادل أبي بكر بن أيوب في سنة سبع وأربعين وستمئة وهجم دمياط وملكها عنوة وسار الملك الصالح فنزل بالمنصورة وسار الفرنج فنزلوا مقابلته ثم قصدوا دمياط فتبعهم المسلمون وبذلوا فيهم السيف فقتلوا نحو ثلاثين ألفاً وأسر الفرنسييس (أي مار لويس) وحبس بالمنصورة بدار الصاحب فخر الدين إبراهيم بن لقمان، صاحب ديوان الإنشاء. ووكل به الطواشي صبيح «المعظمي» ومات الصالح في أثناء ذلك واستقرَّ ابنه الملك المعظم مكانه في الملك ثم قُتل عن قريب وفوض الأمر إلى شجرة الدرّ، زوجة الملك الصالح، وقام بتدبير المملكة معها أليك التركماني ثم تسلّم المسلمون دمياط من الفرنسييس وأطلقوه فسار إلى بلاده فيمن بقي معه من جماعته. وفي ذلك يقول جمال الدين يحيى بن مطروح الشاعر:

قل للفرنسييس إذا جئتُهُ
أتيت مصرًا تبتغي ملكها
وكل أصحابك أودعتهم
خمسين ألفًا لا ترى منهم
فقل لهم إن أضمرنا عودةً
دار ابن لقمان على حالها

انتهى. فهذا خبر مار لويس في واقعة دمياط التي قال فيها القائل:

يا يوم دمياط ما أبقيت من شرفٍ
ولمّا مات مار لويس في غزوته لتونس قال أحد الشعراء:
لك فيها دار ابن لقمان قبرٌ
وطواشيك منكر ونكيرٌ

وجاء في دائرة المعارف الإسلامية الفرنسية ما ترجمته:

«حصل الاقتناع عند الصليبيين بأن ملك البيت المقدس لا يؤمن أمره إلا بإسقاط مصر حصن الإسلام. وبهذه النية أعملت الحملات بأقصى درجات الشدة على دمياط، أولاها كانت بالاشتراك بين مملكة القدس وبيزنطية بإزاء صلاح الدين الذي كان استفحل أمره (٥٦٥ هجرية - ١١٩٩ ميلادية) والثانية قام بها ملك القدس جان دوبريان (٦١٥ إلى ٦١٨ هجرية و ١٢١٨ إلى ١٢٢١ ميلادية) على الملك العادل وبعد موته على الملك الكامل. وبهذه النوبة سقطت دمياط بعد معركة حامية الوطيس إلا أن الكامل استرجعها وقد تكررت هذه التجربة المشؤومة على يد لويس التاسع في صليبيته فكانت النتيجة هي هي (٦٤٧ إلى ٦٤٨ و ١٢٤٩ إلى ١٢٥٠).

وجاء في دائرة المعارف الجغرافية التاريخية للويس غريغوار في الطبعة التي نفعها موريس فال ما يفيد أن غزوة مار لويس إلى الشرق كانت بضد إرادة أمه وحاشيته ولكنّه آلى أن يقاتل عند قبر المسيح. وأن جموعه توافت في جزيرة قبرس. وأنه في وقعة المنصورة قُتل أخوه روبرت وأنه أظهر وهو أسير يرسف في القيد ثباتاً عجيباً. وأنه فدا نفسه على شرط الخروج من دمياط وأداء ثمانمائة ألف بيزنطي ذهب. وذهب إلى فلسطين فأقام أربع سنوات يُصلح أمور الصليبيين ويفك الأسارى ويحصن المعاقل الباقية. قال، وقد قدسه الناس في عصره وأطلق عليه البابا بونيفاس لقب قديس سنة ١٢٩٧.

استطفت لنا الوقت أن نرى ملوكنا كروساء جمهورية وأن نعلم أنهم رجال مثلنا. ولكن لم يكن الظن كذلك في القرون الوسطى ولا في القرن السابع عشر نفسه. فالملك في ذلك العصر كان يمثل الله في الأرض ومن الله رأساً كان يتناول تاج ملكه. وكان منزهاً عن بعض المقابح. ولما ألف «الاب دو شوازي»^(١) تاريخ كارلوس السادس سأله «دوق بورغونيه»^(٢): «كيف تصنع لتقول إنه كان مختلّ الشعور» وكان الأب فولتيريّ المشرب فأجابه: «أقول إنه كان مختلّ الشعور. إذ لا يتمييز الإنسان بعد موته إلاّ الفضيلة». وقد دُهِش لهذا الجواب جميع معاصريه ودُهِش هو نفسه من الجرأة التي أبداها. فليست جان دارك هي التي أنقذت فرانسة. أقول لك هذا الآن ونحن نتكلّم فردين: إنّ الذي أنقذ فرانسة هو مار لويس. فلو قلت هذا لصقروا لي. ويصفرّ لي الخربان: المتدينون والأحرار. وما أشدّ تعصّب الأحرار إذا تعصّبوا. ومع هذا فهذه هي الحقيقة، لم تكن نجاة فرانسة سنة ١٤٣٠ على يد جان دارك، بل بأعجوبة الملك مار لويس.

فقد كان الشعب يحفظ ذكرى هذا الملك الحليم الكريم الذي كان يجلس للقضايا تحت سنداينة فنسان. وكان قد صار ملكاً في السماء أيضاً حيث الإنكليز ليس لهم ملك. ولا ينكر أنه كان لهم القديس جاورجيوس ولكن كان لنا مار ميخائيل. وكانت لنا السيّدة مريم العذراء التي لها الكلمة التي لا ترد لدى ابنها الحبيب. وكانت السيّدة لا تفتأ تنسلّ من السماء لتتنزه في براري فرانسة فكانت تفرح بها الأودية والعيون. أفكان يُعقل أنها ترضى بهلاك المملكة التي لها فيها كلّ هذه المعابد؟ ثمّ إنه يأتي بعدها في الدفاع عن الفرنسيين في البلاط الإلهي مار لويس الرحيم الذي مات في الحرب الصليبية. فكان إكليله يلمع حتّى فوق الجباه المنخفضة من أخلافه. وكانت العامّة تظنّ أنّ المعيشة بفرانسة أخفّ مؤونة وأنّ العدل أقوم قسطاً فيها ممّا هو في غيرها. وليلة دخول جان دارك ظافرة إلى أورليان قال لها أحد رجال الدين كلمة تترجم ذاك الشعور العامّ: «ماذا تقولين يا عزيزتي أفيجب علينا أن نصير إنكليزاً؟».

مديح الملكة

هذه الجملة تطلعننا على أعماق قلوب آبائنا: فلم يكونوا يريدون أن يكونوا إنكليزاً. انتبه لهذا جيّداً! ولم يكونوا يعرفون أين هي إنكلترة ولا ما إنكلترة؟ وكانوا يقولون إنّ الإنكليز له

(١) الاب دو شوازي (L'abbé de Choisy)، كاتب إفرنسي، له رسائل ومذكرات، (١٦٤٤ - ١٧٢٤).
(٢) يشير إلى البرنس لويس، حفيد لويس الرابع عشر، والد لويس الخامس عشر. تلميذ فيلون الذي من أجله ألف كتاب «تليماك».

زنب من خلف. على أنه ليس الذنب هذا هو الذي كان مصدر هذا الاقشعرار، بل لم يكن أباًونا يريدون أن يكونوا إنكليزاً، بل كانوا يريدون البقاء إفرنسيّاً. ففرانسة كانت عندهم أحسن البلاد، لأنّ ملوكها كانوا أجود الملوك وأعدلهم وأرحمهم. ومنّ شاء أن يفهم مبلغ هذا الحبّ الذي كان عند الشعب للملوكهم فعليه أن يقرأ "جوانفيل"^(١). فهذا المسكين كارلوس السابع ورث صبراً واحدة كلّ ما تراكم في نفس الشعب من ولاء ووفاء من أعصر متطاولة. فكان يكفي أن يثبت نسبه لمار لويس حتّى يظفر بالإنكليز. ولم يكن يضيره سوى اسم "إيزابو البافارية"^(٢). فجان دارك، في أول ملاقة لها مع كارلوس السابع، قالت له: "أنت الوارث الحقيقي لتاج فرانسة وأنت ملك وابن الملك. فأنا مرسلّة إليك لأجل أن أسير بك إلى ريمس حيث يكفر لك". ولقد أدهشت الخلق هذه الرسالة العجيبة وأنا من جملة من دُهِش لها. فإنّ فرانسة كانت على شفا جرف هار وعاصمتها وأجمل مقاطعاتها صارت إلى أيدي إمّا الإنكليز أو البورغونيين. وبدلاً من السير إلى باريز، بعد تخليص أورليان، كان الذهاب إلى ريمس من أجل حفلة دينية.

فأنت ترى أن المهّمّ عندهم كان التكفير للملك ودهنه بالزيت المقدّس الذي لا يفنى، الباقي في كنيسة ريمس من القديس "ريمي" الذي كُفّر للملك "كلوفيس"^(٣) فهذا الزيت الذي كان قد نزل من السماء لا يمكن أن يسيل على جبهة ملك ابن زنا. وإذا كانت الحفلة قد تمّت فذلك حتماً دليل على كون كارلوس السابع هو من صُلب كارلوس المجنون.

وكانت هذه المكانة لبيت ملك فرانسة بسبب طيب أخلاق الملوك ومهارتهم السياسة ولا سيّما باختلاطهم بالضعفاء من الأمة. فانظر كيف أنّ راعية ضأن مخبولة مثل جان دارك، تمكّنت في أيام حرب ومعها اثنان مجهولان، من الدخول على الملك بدون أدنى صعوبة. وتخيّل أنّ راعية كهذه، إذا أرادت أن تنبئ اليوم رئيس الجمهورية بما أوحى لها الملائكة بشأن فرانسة وهي ترعى نعاجها، فماذا كان يصيها؟ كانت تذهب إلى القسيس فيقول لها: أنت مجنونة. ويسبّها. وتلحّ عليها الأصوات السماوية فتذهب على قدميها إلى دار المديرية فلا تقدر أن تواجه المدير.

(١) مؤرّخ إفرنسي صحب الملك مار لويس.

(٢) ابنة إتيان الثاني، دوق بافيار، امرأة كارلوس السادس، ملك فرانسة، كفلت الملك مراراً بسبب الجنون الذي طرأ على زوجها. ويقول الفرنسيس إنّها أسلمت البلاد للإنكليز وكانت في نفسها غير طاهرة السيرة.

(٣) كلوفيس (Clovis)، ملك الفرنج، ولد سنة ٤٦٦ وكان أبوه شيلدريك الأول وأمه بازين، تغلّب على الرومانيين في واقعة "سواسون" وعلى الألمانين في واقعة "تولياك" وأوقع بالبورغونيين والويزيقوط وجمع في يده ملك بلاد الغال كلّها. وهو أول من تنصّر من ملوك فرانسة، عمده مار ريمي في "ريمس" أو "رينس" ولعماً بدأ الأحبار والقسيسون بمراسم تنصيره، قال له المار المارّ الذكر: طاطنّ رأسك أيّها السيكامبري الشامخ واعبد ما كنت قد أحرقت واحرق ما كنت قد عبدت. فذهبت هذه الجملة مثلاً. أمّا سيكامبر فهو اسم شعب جرمانى قديم ينمى كلوفيس إليه.

أعرف ماذا كان نصيب جان دارك لو ظهرت في هذه الأيام يا ولدي؟ الحبس أو المستشفى أو الماء البارد على رأسها.

شيء ملوكي

كان هذا البيت الملكي في فرانسة ملآن شفقةً وحنانًا ولهذا كمّ كانت من فضيلة تنطوي تحت هذه الكلمة "ملك": كان الناس إذا تأوهوا من حادث همهموا قائلين: "لو كان الملك يعرف" فالشر لم يكن إلا من جهل الملك بما وقع أو من سوء الحاشية والغاشية أو من كونه لا يزال شابًا كثيرًا أو من أنه صار شيخًا كبيرًا. وكان نعت "ملوكي" يُطلق على أجود الأشياء فيقال لبقلة لذيدة الطعم "عشبة ملوكية" ويقال للورق الصقيل من الطبقة العالية "ورق ملوكي" ولقطعة رشيقة من الشعر "غناء ملوكي" ولا تزال نقول "لحم بقر أو أرانب على النسق الملوكي" وقد تكون الكلمة صادرة من فم رجل جمهوري النزعة، ولكن الأمثال لا تتغير عن مواردها.

ولم يكونوا يعيرون على الملك غرامه بالنساء، بل بالعكس كانوا يرونه القدوة الصالحة في هذه السبيل وكانوا يشكرونه على حسن الانتخاب ويعذرونه على اللهو، إذ لا بدّ من شيء يستروح به ويصرف عنه هموم الملك. وما يحسن أن تكون القوس دائمًا موترّة كما لا يخفى. فالملك كان يفكر دائمًا في أمر رعيته. يفكر في الليل ويفكر في النهار. وكان حديثه على مائدته مع أعيان المملكة إنما هو في شؤون الأمة. ولم يكن ثمة ملوك صالحون وملوك غير صالحين، بل الجميع كانوا جيادات. وإنما لك أن تقول إنّ منهم من كانوا مجدودين ومنهم من كانوا عاثري الجدّ. فالمنحوسون منهم إنما يحص الله ببلاتهم ذنوبهم وذنوب الأمة معهم. ولكن السماء كان لا بدّ لها من أن تعطف، لأنّ فرانسة هي مفتاح دهليز النصرانية. والبابا القديس غريغوريوس يشهد بأنّ فضل تاج فرانسة على سائر التيجان كفضل الملك على السوق.

وكانت هذه المحبة التي للموكنة في رعيتهم آتية من قبل حسن إدارتهم، فكانوا في الاختلافات قضاة صلح ومعدّلين ومقومين لما أناد. وفي الحقّ أنّ أفضل ملوكنة أداروا أمور فرانسة كما يستغلّ الفلاح الخير مزرعته، فإنّه يستثمر منها ما أمكنه لكنّه يحرص على أن لا ينهك قوّة الأرض وعلى أن لا يفرط في المواشي. ومعلوم أنّ الفلاح في سني الجذب قد يفدي المزرعة بحقل واحد منها. وهكذا ملوكنة فقد كانوا يتخلّون عن مقاطعة من المقاطعات إماما على أثر دبرة أصابتهم أو على سبيل الحلوان لبنت من بناتهم يزوجونها. فقدسيّة التراب الفرنسي التي سال من أجلها ما سال من الخبر منذ ١٨٧٠ أي هذا المبدأ الذي هو آخر المبادئ، لم يكن ولد يومئذٍ، بل أينما كان الملك كان الوطن.

ذوقه في الطبيعة

كان العالم عند أناتول فرانس عبارة عن متحف كبير. وكان لا يستفزّه شيء من مناظر الطبيعة ولا من الجبال ولا من الأنهار ولا من المواقع الجغرافية، وكان يسمّيها "هنات زوائد" وإذا ذُكر أمامه منظر بديع، قال: "لا تسترسلوا إلى الخيالات، فما ثمّ إلا تراب وماء وسحاب".

يسأل الإنسان: من أية بلدة أنت؟

فيقول له: من ليون.

فيقول: قد حفظت ذكرى حسنة لمار يوحنا الذي عندكم.

ثمّ يأخذ يسرد ما رآه في المتحف فلا يخرم من الفهرست حرفاً. وكانت ذاكرته من الأعاجيب لكن في الأمور الفنيّة وحدها. ولم يكن ينسى باعة الكتب العتيقة والآثار القديمة. أمّا إذا أراد الرجل الليوني أن يعدّوه عن الآثار القديمة والقطع النفيسة إلى "الغيلوتير" (1) مثلاً فلا يذكر شيئاً؛ وإذا سأله: في أيّ فندق نزل؟ لم يعرف. غاية ما يعرف أنه فندق في ساحة فيحاء أشبه ساحة "الكونكورد" (2)، بدون تماثيل، وأنه كان الطعام فيه سيّئاً. ويذكر مطعمًا كان يهنا فيه بسمن الضفدع. ولم يكن يحفظ جيّدًا غير الأمور التاريخية. فقد أعمل الرحلة إلى خليج "جوان"، ليرى المكان الذي نزل منه نابليون إلى البرّ لكنّه لم يلتفت لا إلى جزر القديسة "مرغريّة" ولا إلى فرضة الآتيب (3). وإذا لم يكن في الموقع الطبيعي شيء من الصور أو الآثار الكتابية أو الحفرية لم يكن في نظره ذا قيمة. وكان يعرف بلدي ومسقط رأسي نيم (4)، ويعرف أنّ في متحف نيم الضئيل صورة صغيرة من "برودون" (5) لم ينتبه لها أحد.

بحداء مخدّة العمّة

لم أنهض من فراشي اليوم إلا وقد جأتني هذه الطياشة تغرّد لي بصوتها الرخيم: "لا بدّ لي من أن أتركك يا هرّي الكبير لأنّ لي عمّة في "أزنيير" (6) هي على فراش الموت".

(1) الغيلوتير (Guillotièr): ضاحية من ليون فيها معامل الصناعة.

(2) الكونكورد (Concorde): ساحة شهيرة في باريس من آثار لويس الخامس عشر، وكان تمثاله فيها وكانت تُنسب إليه، فلمّا اشتعلت الثورة سقوها ساحة الانقلاب وصلبوا فيها لويس السادس عشر وماري أنتوانت وكثيراً ممّن أخنى عليهم انقلاب الدولة.

(3) مواقع على البحر المتوسط من جنوبي فرانسة.

(4) مدينة في جنوبي فرانسة استولى عليها العرب في القرون الوسطى كما تقدّم، وقد خرّبها شارل مارتل أبو شارلمان خوفاً من أن يعود إليها العرب.

(5) برودون (Prud'hon)، مصوّر فرنسي.

(6) أزنيير (Asnièr): بلدة غير بعيدة عن باريس.

قالت هذا ثم أخذت تنثر «الذَّرور»^(١) على عوارضها وتمسح بالحمرة شفيتها وتنتهد قائلة: أه ما أشقاني! إنَّ عمّتي هذه لو عرفتها أنت لأحببتها، لأنها امرأة جواد. وهي التي ربّنتني. يهمني أن أصل قبل فوات الوقت، يا رب! كيف يذهبون إلى أزنير؟».

وبينما هي تراجع تذكرة ساعات القطار كانت دموعها سيولاً على خدودها أشبه بالحمّصات^(٢) الكبار. فأزلجت لها شيئاً من الدراهم في جيبها فأومضت لها ابتسامة خلال الزوبعة. ثمّ قبلتني بشفاها المحمّرة وخرجت وهي تقول:
- «سأخبرك عمّا يكون من صحّة عمّتي» فدعوت الله بشفاء عمّة عرفت كلّ هذه المعرفة أن تربّي مثل هذه الفتاة.

عندما يحصل في أيديهن شيء من الدراهم كلّ هؤلاء البنات، يكون لهنّ عمّات مريضات في هذه الأطراف في «فَنسان»^(٣) أو «شارنتون»^(٤) أو «أيسي لامولينو»^(٥) وتجدهنّ هرعن إلى هناك ليقعدن بحذائهن ومعهن ورقة المائة فرنك يأخذنها لهنّ كما يزقّ العصفور فرخه بفتية من الخبز. لا جرم أنّ هذه المخلوقات مؤثّرات في القلب ومملوءات شعوراً.

هيرجيل خادم المنزل

كان مقتصدًا في نفقات منزله فهفاهًا^(٦)، لا يعرف الإسراف إلّا في دكان الآثار العتيقة. وكان تقنًا في تنضيد رياش المنزل والاستكثار من الماعون، حتّى لا يعرف أين يضعه فيهبس في صدره أنهم يسرقون متاعه. وهناك فاسمع تأوهات «هارباغون»^(٧) على سفيطه العزيز. وكمّ من مرّة كنت معه في دكان الأشياء العتيقة أو عند بائع الصور المختومة وقال لي لدى رؤية إحدى القطع أو أحد الرسوم.

- «هذا مسروق من عندي».

- من سرقه يا أستاذ؟

(١) في الأصل Poudre.

(٢) الحمّص بالتشديد والكسر، وفي الأصل الفرنسي poisiches.

(٣) فنسان (Vincennes): بلدة من جوار السين فيها قصر كان يسكن فيه ملوك فرانسة.

(٤) شارنتون (Charenton): عن ملتقى السين والمارن، بلدة فيها بيمارستان للمجانين فلهذا يكثر دوران اسمها فيقولون هذا رجل من سكّان شارنتون وهذا ممّن يليق به الذهاب إلى شارنتون لمن يريدون أن ينزوه بكونه مجنوناً أشبه بقولنا في بيروت ولبنان: هذا يليق به سكنى العصفورية إشارة إلى مصحة المجانين التي بقرب الحازمية.

(٥) إيسي لامولينو (Issy-les-Moulineaux): بلدة على السين.

(٦) الفهفاه الحسن: القيام على المال.

(٧) هارباغون (Harpagon)، شخص اخترعه موليير في إحدى رواياته الهزلية جعله المثل الأتمّ للشح.

- فيرجيل.

مَن هو فيرجيل هذا؟ أهو اسم مستعار؟ إنّه كان يحبّ أن يكسو الناس صفاتٍ وألقاباً مستغربة، وكان يسرد قصصاً وأساطير ويطبّقها على مَن يريد أن يجعله مسخرة^(١) فإذا لحظ سامعه منه أنه يزرفّ أو يزخرف^(٢)، ادّعى أن ذلك كلام عامّ. أمّا فيرجيل هذا فكان خادماً عنده قبل أن جاءت جوزيفين إلى مغنى سعيد بزمن طويل وكان مثلاً لحسن الخدمة والسّمسة^(٣) والتشمير والإخلاص. ولكنّه كان يقول عنه: يدعو أصحابه للسمر عنده أحياناً، فيطيلون ويأكلون الفحيماء^(٤) ويشربون خمري وشرابي ويتصفّحون كتبي. فقد وجدت بعض نسخ مذهبة ممزّقة بالأصابع وعليها نقاط من الخمر. فهذا ما كان يستحقّ مطر الكبريت أكثر من كلّ ما يصنع فيرجيل... وهؤلاء الذين كانوا يزورون فيرجيل لم يكونوا أبناء طبقة عالية فربّما سرقوا متاعي.

الرجوع إلى الأباء

قال:

- صادفت ذلك اليوم في رواق «الأوديون»^(٥) المسيو «جول سوري»^(٦). وكنت أعهدده دهرياً ملحدًا مادياً فوضوياً وكان في مدرسة «كوليج دو فرانس»^(٧) يشرح لنا أجزاء المخ ويستلّ خيوط الدماغ أو كان يبرهن لنا على عدم وجود النفس. فهذه المرّة وجدته غير ما كان عليه. ولقد سرد لي خلاصة إيمانه وهي أنه لا يعتقد بالله لكنّه شديد العبادة لمريم العذراء ولقدّيسي فرانسة، مثل القدّيسة «كلوتيلد» والقدّيس «لويس» و«جان دارك» و«فنان دو پول». وهو لا يعتقد بالأسرار^(٨) المقدّسة ولكنّه يواظب على سماع القدّاس كلّ يوم ويشهد صلاة الكهنة بعد العصر ويوصي أن يُدفن على حسب الطقس الكاثوليكي ويرتاح كثيراً إلى عظمة الاحتفالات

(١) كان آية في الحفظ وسعة الاطلاع محشواً ذهنه نوادر ونكات وأخباراً فلا يرى شيئاً أو شخصاً إلا تذكر له مثلاً من التاريخ.

(٢) زرفّ في الحديث: زاد فيه، والأصل الفرنسي Engolivement.

(٣) الخفّة والسرعة.

(٤) الأكل ليلاً.

(٥) الأوديون (Odéon): في باريس ثاني المرحح الفرنسي.

(٦) جول سوري (Jule Sory).

(٧) معهد علمي تأسس في باريس سنة ١٥٣٠ بناه فرنسيس الأول ودروسه مفتوحة للجميع بدون اقتضاء الامتحان يقصد الطلبة حضور دروس هذا المعهد لإكمال معلوماتهم بعد التحصيل في المدارس الأخصائية العالية.

(٨) Les Sacraments أي العمودية والتثبيت وحضور المسيح في القربانة والتوبة والمسح بالزيت وهذه الأسرار الثلاثة الأخيرة هي ما يتزوّد الكاثوليكي قبيل الموت.

الكنسية. وهو يعلم أن هذه الاحتفالات ليست من الإله الحق، ومن أجل ذلك هو يحبها. فديانته هي أتباع الأولين. لا ينشد العلم، بل الأساطير. يقول: "قضيت حياتي أحتُ أزاهير الأساطير فكنت شقياً. فها أنا ذا في آخر عمري اشتدّ بي الظمأ إلى الأساطير وصارت تتقرّز من العلم نفسي ويغان^(١)" من الفنّ على قلبي. إن نوار الأساطير يزهر إزهاراً عجيباً، تفتق أكامها من حيث لا يعلم أحد. نظير الحبة التي يحملها الطائر فيلقبها، فقد يراها ضاربة تنشها^(٢) في جهة هيكل. فالتي بالأساطير والأقاصيص فإنّ بي لهباًنا إليها.

وبينما هو يسرد هذه العقيدة الغريبة حسر عن رأسه فأبرز جمجمة لامعة الصلعة ساطعة الحمرة كأنما خرجت من تحت ماء حميم. ثم أخذ يرسم إشارة الصليب، لا إشارة الصليب التي يعملها أولاد المدارس، كأنها من وراء ظهورهم، بل "سوري" يصلّب اليوم يا عزيزي كما كانوا يصلّبون في أيام الشهداء. وكان جبينه موسوماً بسمّة العبادة وهو يقرع على بطنه قرعاً مؤلماً وكنت تسمع بطنه يرنّ رنين طبل "باسكي"^(٣). وكان يردّد هذه الكلمات: "لا أعتقد بالله وإنما أعتقد بالمسيح الذي يحبّ الفرنج"^(٤). فأنا أصنع صرحةً برحةً شعائر الكاثوليكين لا سحر الحماقة الجمهورية. انظروا إلى هؤلاء المعاتيه كيف يضحكون! فأنا أقرأ الرقي وأبحر على هجته هذه الحشوة بالطقوس التقليدية الدينية. ورسم صليماً فوق صليب.

وأخبروني عن جول سوري هذا الذي كان جاحداً فصار من أسطوانات الكنيسة، أنه يمضي أوقاته بعد الظهر في "سان سوليبس"^(٥) ويسكر بخمرة التأمل أمام تمثال العذراء الذي هناك من عمل "بوشاردون"^(٦) وقد يغلب عليه النعاس من طول التأمل، فيغفي ويبقى نائماً إلى الساعة السادسة فيأتي الجلّاذي^(٧) ويوقظه، فسيتيقظ ويحكّ عينيه ويقول للجلّاذي: "يا حبيبي متى كنت أتعبّد لمريم العذراء فلا أريد أن أحداً يزعجني".

(١) ورد في الحديث: أنه ليغان على قلبي حتى استغفر الله.

(٢) التنش: أول ما يبدو من الزرع ويقال له الشطأ.

(٣) Tambour de Basque مثل عند الفرنسيين لأنه طبل له دائره أجراس. والباسك: أمة في جنوبي فرنسة يقول لها العرب الباشكنس.

(٤) في الأصل Les Francs وهو ما عرّبه العرب بالفرنج.

(٥) سان سوليبس (Saint Sulpice): كنيسة في حارة سان جرمان بباريز.

(٦) بوشاردون (Bouchardon)، نحّات إفرنسي.

(٧) الجلّاذي: خادم البيعة، ومثله الوافه.

قال لي في أحد الأيام:

- ينبغي لنا اليوم أن نسرع في الخروج من البيت لأننا مدعون للغداء عند المسيو... في «باسي»^(١) وأنت مدعوٌ معي فقد ألتوا كثيراً. فعند الساعة الحادية عشرة خرجنا نجري على الأقدام من مغنى سعيد إلى جسر ميرابو. وكان طول الطريق يتشكى: «آه ما أثقل هذه الأكلة، فإن هؤلاء الناس غلاظ والمسيو... هو هوغوتوي»^(٢)، بل هو بابا الهوغوت، فأبوه أو جدّه كان نبياً يوحى الله إليه. والطعام في غاية الجشوبة عند هؤلاء البروتستانتين. شبارق^(٣) من لحم البقر الغث على النسق الإنكليزي ويقول مطبوخة بالماء. فلماذا نذهب إلى جماعة كهؤلاء نعدّب أنفسنا؟ فالحياة قصيرة وأولى بنا أن ندخل إلى مطعم من هذه المطاعم التي ينتابها الحوزية فإن هؤلاء خيرون بالطعام، يستجيدونه لما يشحد من شهوتهم دوام السير في الخلاء، فكنا نتغدى غداءً لذاً. لكن لسوء الحظّ وعدت بالذهاب إلى هؤلاء الجماعة».

وصلنا، فلما ضربنا بالجرس جاء الخادم مبطئاً مدهوشاً وأدخلنا قاعة استقبال مظلمة أسرع بفتح نوافذها. ولم يكن فيها شيء من الأزهار ولا من آلة الزينة. وكانت الطنافس مغطاة بالوئائر^(٤) والتصاوير مستورة بالجرائد. والثرياً كذلك عليها غطاء من نسيج شفاف: فقعدنا نحو نصف ساعة في هذه القاعة التي تشمّ منها رائحة المكان المهجور. ثمّ أقبلت سيّدة المنزل وقد تزيت وقشرت^(٥) بسرعة وظهر عليها أثر العجلة لأنّ التجصيص كان ناقصاً. ثمّ بدئى بالحديث فكان بارداً لا يعدو الصحة والجوّ وما أشبه ذلك. وكان يتخلل الكلام فترات طويلة من السكوت. وأخذ أنا تول فرانس ينظر إلى الساعة ذات الرقاص فيجد الظهر قد غبر. فكان يتنهّد تنهّد المزهوق^(٦): لا رائحة أصلاً للقصف. لا نسمع شيئاً من خشخشة السقود ولا من قعقة الصحون. ولكن نسمع جيّداً قرقرة^(٧) بطن صاحبة البيت. إذ كان بطنها العظيم يهدل هديل القُمرى في شهر أيار. وكانت حنجرة العلامة، عضو الأكادمي، تعطيه الجواب.

(١) Passy: من ضواحي باريس.

(٢) برونستانتى.

(٣) قطع اللحم.

(٤) الوئيرة: ما تغطى به الثياب، والجمع وئائر، وفي الأصل الفرنسي Housse.

(٥) قشرت المرأة وجهها ليصفو لونها.

(٦) المضيق عليه.

(٧) في الأصل الفرنسي Borborygme.

وأخيراً أَلقت السيِّدة هذا السؤال:

- أتتغذون عندنا؟

- إيه يا سيِّدتي ما جئنا إلى پاسي إلا من أجل ذلك. أما دعوتنا أنا وبروسون؟

- نعم، دعوناكم للخميس القادم. أمّا اليوم فقد جئنا من سفر. وأنا منتظرة زوجي لنخرج معاً ونتغذى في المطعم. فإن شئتم طعمنا وإياكم فنكون بغاية الجبور أن نحصل على مؤانستكم مرتين.

- كلاً، يا سيِّدتي. كلاً، فإنني خجلان: وإنني أكثر الناس سهواً. ولست في الحقيقة سهوان، بل مشدوهاً. وكلاهما يؤدبان إلى منتهى واحد. ندعو أنفسنا إلى حيث نحن غير منتظرين! لا شك أنني الرجل الذي هو أحقّ الناس بأن يكون سخرة هذه الكورة. وداعاً يا سيِّدتي وتقبلي عذري ومزيد احترامي.

ولما حصلنا خارجاً، قال لي:

- لا شك أننا مسخرة. ولكن أولى منا بالسخرية هؤلاء "الموميه"^(١) الحائزون قصب السبق في البخل وقلة الكيس. دعونا إلى الغداء فأخطأنا في الحساب وجئنا قبل الموعد بثمانية أيام فلم نجد عندهم ما يأكلون. هذه باءة تفتقر لها أنشط العزائم. ماذا تقول في هذه العقيلة التي تزعم أنها باريزية ولا تقدر أن تهبيّ لقمة عجلان. وكان بحسبها أن تدعو بالهاتف^(٢) وأن تنفذ الخادم والجارية إلى الشواء والسقاء واللبان والجبان. ولكن هؤلاء قوم مُقترنون محترمون ممّن يكشطون ما على قشرة البيض^(٣). ولقد كنّا مستحقين ما لقيناه يا صاحبي، إذ لماذا نذهب إلى لثام كهؤلاء؟^(٤). إنني أتخيّل لو وقعت هذه الواقعة مع أمي، ماذا كانت فعلت تلك المرأة الساذجة التي هي من غمار الشعب؟ نعم، كانت في طرفة عين مدّت الخوان ووضعت على المائدة الصحف التي عليها الأزهار. ثمّ هيأت الدجاجة المذهّبة والتوابل الموافقة للفصل وعجّة البيض... إلخ.

فلنصلح الآن خطأنا: ومال أناتول فرانس إلى دكان جدّاد^(٥) وتغدينا هناك وأكل أكل

(١) الموميه (Momiers): اسم لفرقة من البروتستانت مخالفة لجماعتهم.

(٢) التليفون.

(٣) Tondeurs d'œufs.

(٤) قال المتنبي "وعداوة الشعراء بشس المفتى".

(٥) بائع خمر.

الهبلاخ^(١) حزة من لحم بقر بالملح الخشن مع القثاء وأرجل غنم مع معجون البيض واللويبا الحمراء وبعد أن انتهى من الطعام، قال وهو يمسخ سباله:
- هذا ما يجدد لي الشباب عن أربعين سنة.

كبير وكامل

نقلت له مرة عن خبث أو عن خفة كلمة نقاد قال في حقه: "أنا تول فرانس ليس بكاتب كبير وإنما هو كاتب كامل"، فقال:

- هذا الجلف يتكهن مثل أتان بلعام^(٢) فيخرج الحق من فمه بينما هو ينهق. أنا كاتب كامل ولست بكاتب كبير. كأنّ كاملاً وكبيراً لم يكونا شيئاً واحداً. فما هو الكمال؟ هو اجتماع كلّ الصفات اللازمة بدون نقص. فإذا جمعت أنا كلّ هذه الصفات، فماذا يريدون مني بعد هذا؟ الحق أنه هو دابة كاملة. يتكلم على الكمال كأنّ الكمال تماماً يدخل تحت قياس. إنّ معلّم الكتاب هذا لا يعرف ماذا يقول، فإنّي إذا قلت: "راسين كاتب كبير فيكون مرادي أنه كبير بالقياس إلى آخرين كـ "برادون"^(٣) مثلاً. ولكن متى قيس "راسين" بـ "بوالو"^(٤) فهو كاتب لا غير. فكلّ من راسين وبوالو كاتب كامل. فلماذا أنا مسرور من نظم هذا السخيف إياي في عداد الكتاب الكاملين.

ليس لي إلا نفس واحدة

أتريد أن تعرف مسيحياً صادقاً؟ هو الدوق دو ب... فإنّه كان لا يلين إذا وصلت المسئلة إلى الدين. وكان نظير ابراهيم^(٥) ونظير بوليكتوس^(٦) لا يتلكأ أن يضحّي بامرأته وأولاده في سبيل الذهاب إلى السماء. وقد كانت الدوقة امرأته أعضلت ولادتها عدّة مرّات، حتّى رأى الطبيب من الواجب أن ينبّه فكره إلى الخطر، فقال له:

(١) مفرط في الأكل.

(٢) قصة بلعام معروفة وهي أنّ ملك موآب أرسله ليلعن بني إسرائيل فركب أتاناً وسار ملاقاتهم فيبينما هو في الطريق تجلّى ملك من السماء بيده سيف أمام الأتان فنطقت وأخذت توبّخ راجها على قسوته فاهتدى بلعام للحقّ وعاد فبارك بني إسرائيل بدلاً من أن يلعنهم.

(٣) برادون (Pradon)، شاعر إفرنسي معاصر لراسين، كان يقاوي راسين بدون قوّة ويطاوله على غير طائل.

(٤) بوالو (Boileau)، من أشهر شعراء الفرنسيين، ولد سنة ١٦٣٦ في باريس وتوفي سنة ١٧١١. وكان بليغ النظم، لطيف النكتة، منسجم الأسلوب. امتاز بالنقد وهجو البلداء والثقلاء والمدّعين بما ليس فيهم وشدّد الرقيعة بكلّ مخالف للطبيعة متابذ للعقل القويم والدوق السليم.

كان صديقاً لمعاصريه كبار الشعراء كرنابل وراسين ولافوتين ومولير.

(٥) صلوات الله عليه، قصّته في تقديم ابنه اسماعيل للضحية معروفة.

(٦) بوليكتوس (Polyeucte)، من قديسي صدر النصرانية يعدّونه من أكابر الشهداء.

يا حضرة الدوق يلزم أن تمسك فيما تعلق بالواجبات الزوجية، لأنه قد يكون بذلك ذهاب
الدوقة.

فنظر إليه الدوق بازدراء، وقال له:

يا حضرة السيد أنا كاثوليكي صادق، أفضل أن أفقد امرأتي على أن أفقد نفسي. فإن النساء
كثيرات وأما نفسي فليس لي غيرها.

وبعد ذلك بمدة سمع الناس نعي الدوقة دو ب... على أثر وضع معضل.

الحرمة لمار بولس

ممكن ائتلاف الروح الدينية مع كثير من الأمور التي لا علاقة لها بما وراء الطبيعة، خلافاً
لما يُظنّ في الغالب. مثال ذلك أنني إذا أكلت فوق الشَّبَع وأفرطت من المأكّل التي أستمرتها
وهي لا ثلاثمني، كالمسك المملح مثلاً، تحصل لي في الليل أزمات روحية. وبينما أنا لا نائم ولا
قائم تلوح لي صورة الدنيا بشعة. ويعروني التوجّه نحو الله، كما يعروني التملّص على الفراش.
ولكنّ قليلاً من ماء "فيشي"^(١) أو بعض نقاط من النعناع تبدّد أكثر الأوقات هذا النوع من الدوار
الروحي الذي أصيب به پاسكال وتعيد عليّ المنام والسكون. فانظر كيف لعقة من شراب أو
سقّة من كاربونات السودا تكفي لإسقاطي من معالي پاسكال إلى مباحكات "برجرية"^(٢).
"احفظيني أيتها الطبيعة بما وراء الطبيعة"، هكذا كان يقول "نيوطن"^(٣) ومن أعرق الناس في
رفض ما وراء الطبيعة "غوردون بينيت Gordon Bennett" بدون مرأى. فإنّه مثال "التوركارية"^(٤)
إلا أنّ هذا المراغم على الدنيا، متى شرب كأساً من الشامبانيه، تحوّل إلهاً وصار واعظاً. صادفته
مرّة في آخر مأدبة وقد ترنّح من السكر وبكت عيناه من الخمر وكان يردّد عليّ: "أرأيت يا مسيو
فرانس، أرأيت أنه بالرغم من كلّ ما عندك من الذكاء، سلّم بأنه يوجد شيء من فوقنا. ها أنا ذا
أقوله لك. أنا غوردون بينيت. تأمل جيّداً. هناك من فوق يوجد شيء".

والحقيقة أنّ صورة الإله عنده كانت خاصّة به وهي صورة عريقة في البروتستانتية. وكان
التمس منّي لأجل عدد الفصح التصويري من جريدة "نيويورك هيرالد" قصّة مستطرّفة. فاتّفقت

(١) فيشي (Vichy): من بلاد فرانسة، مياهها المعدنية أشهر من أن تُذكر، تفيد في أمراض الكبد والقناة الهضمية.

(٢) برجرية (Bergeret) يشير إلى نفسه.

(٣) نيوطن (Isac Newton)، ولد نيوطن في فولستورب سنة ١٦٤٢ ومات سنة ١٧٢٧، وهو الذي انتبه لمبدأ جاذبية الأجرام الفلكية
ولقاعدة تحليل النور كما هو معلوم.

(٤) شخص في رواية لوساج (Le Sage) الهزلية يمثّل المرابي الجامع للثروة بأية طريقة كانت.

وأيّاه على ألف وخمسمائة فرنك. فقد كان سبط الكفّ في الأخذ والعطاء. فأرسلت إليه قصّة «مغالون» و«مار بولس»^(١) وإذا بجريي^(٢) من قبل غوردون بينيت جاء وناولني حوالة مالية قائلاً:

- مسيو غوردون بينيت مبتهج جداً بالقصّة التي بعثت إليه بها ويجدها من أبداع ما يكون. وقد تقدّم إليّ أن أجيء إليك وأقول لك إنك ما أبدعت ولا مرّة هذا الإبداع كلّهُ. وهو سيطبعها ويصحبها الرسوم لأجله هو وحده، إذ تكون فخراً لحزانة كتبه. إلاّ أنه يرجو منك أن تصنّف قصّة ثانية على العجلة، ينقدك ثمنها ألفاً وخمسمائة فرنك أيضاً، لأجل جريدة «نيويورك هيرالد» وفي هذه الثانية يرجوك أن لا تذكر مار بولس بسوء. لأنّ القراء الأميركيين لا يحبّون أن يذكر مار بولس بشيء من هذا. فاهزأ إن شئت بسائر الرسل: بمار يوسف، بالسيدة مريم، بالباباوات، بكلّ القديسين الذين في الفردوس ولكن نكّب عن مار بولس، فإنّ كلمة بحقه تفقدنا كثيراً من المشتركين.

الحبّ الظالم

قال:

- يوجد شيء أشدّ مضاضةً من العداوة أو الاستخفاف وهو الحبّ الظالم الغاصب. فأنت تشكو من أيام حداثة بدون دلال وعهود صبا بدون إرشاد ولا تشجيع ولا تعلم ماذا تقول. أمّا أنا فكان لي أشدّ الأمهات حناناً. فكانت تعبد ابنتها أناتول الذي لم يكن لها غيره وتجد فيه ثمرة حياتها. وكان كلّ ما بي من صالح هو منها وما بي من نقائص هو، بدون حاجة إلى القول، من أبي. هذا المسكين كانت تحبه كثيراً هو أيضاً. لكنّها كانت تزدرية أكثر. وكانت تبغيني أن أكون ماجداً شهيراً موسراً موقفاً، محلّيّ بجميع فضائل الأهلين، كما كانت تتمنى لبعليها. فكننت محبوباً من أجل اثنين. فهذا كثير كثير جداً يا صاحبي. وبالْحَقِيقَةُ كانت تسمّم حياتي وتشدهني وتعقل عقلي وتجعلني متردداً هيّاباً، وبسبب تربيتها التي وصلت فيها إلى الثلاثين وأنا تحت الحجر كنت أنكص عن اجتياز المخاضة التي بين الاحتلام والرُّجْلة. فكنا مسخرة نحن الاثنين. وكان قد استبان الشعر في ذقني وإذا أجرت الكلام عليّ حسبني الناس طفلاً.

وقد وصل بها الحبّ إلى أن صارت وهي أطهر النساء تعمل أبعد الأمور عن الكياسة وتندس عن تباشير صباباتي وتريد أن تعرف من هذا الموضوع كلّ شيء تفصيلاً. ولم تكن

(١) ولد في طرسوس من قيليقيّة أي ولاية أطنّة اليوم، وقُتل في رومة سنة ٦٧ للسيد المسيح فكان من أوائل الشهداء.

(٢) ما يقولون له اليوم معتمد.

تستقصي مني رأساً عن شيء إلا أن البوليس في أثر جان لم يكن إلا طفلاً صغيراً بجانب هذه الأم البارة المسيحية وهي تقتصر أثر ابنها كيفما مال وكيفما نغش قلبه. فكانت، إذا عثرت بشعرة، بنت عليها قصة طويلة عريضة. وقد أنسى صورة شمسية في أحد جيوب معطفي فأجدها في اليوم التالي منصوبة على مائدة كتابتي كأنها على مذبح كنيسة. وطالما لقيت فسيفساء المكاتب التي كنت أُلقي بها في السلة مملومة ومرجوعة إلى أصلها قبل التمزيق. وأضف إلى ذلك بالدهاء ذلك القنوط الداخلي وتلك العيون التي تفيض بالدمع وتلك التأوهات التي تدير الطواحين.

وكنت بلغت الخامسة والثلاثين من العمر ولم يقع أن أُمي عرفت الرقاد قبل أن أروح إلى البيت. وكنت في نصف الليل أراها تحدق بي والشمعدان بيدها. فإذا صارت الساعة الرابعة بعد نصف الليل، وقفت عليّ أيضاً ساكنة تحدق بي، والشمعدان بيدها ثم قبلتني بكل لطف في خدي وانصرفت إلى مضجعتها وهي تنهّد وتصد الأنفاس.

ملك الأكاسير

قال بروسون:

أتيت له بكتابة "الحجر الأبيض" الذي عهد إليه بتصحيح مسوداته، فقال لي:

- كيف رأيت حجري؟

- رأيت من أثنى ما يوجد. وإنني أغبطك يا أستاذي العزيز على هذه الملكة التي تقدر بها على استنباط أوضح الحقائق العصرية من نص ميت.

- تريد أن تكون في مكاني أيها الشقي الصغير! ما كان أشقاك لو أجابك الله إلى أمينتك الحمقاء. تذكّرني أمينتك هذه بقصة ذلك الكيماوي الذي حدث عنه برانتوم^(١). وذلك أن كيماوياً عالمًا كبيراً وشيخاً طاعناً في السن، كان يملك أسراراً لا يعرفها غيره ويركب إكسير الحياة وغير ذلك من الوسائل لإطالة العمر. وكان عنده شابّ يخدمه في مراقبة المواقد والأنبيقات ويساعده كما تساعدني أنت. ففي إحدى المرات أخذ هذا الشابّ بتأوه كما تتأوه أنت ويتمنى أن يكون له العلم الذي لمعلمه في أسرار الجواهر.

(١) برانتوم (Brantôme)، كاتب فرنسي ألف حكايات وأقاصيص وترجم كثيراً من رجال عصره بعبارات لم يمش فيها الضراء ولا مال إلى التورية وكان في الوصف لا يرحم أحداً، (١٥٣٥ - ١٦١٤).

فقال له الكيماوي الشيخ - وكان في سني تقريبًا - وأنا أيضًا أنزل عن كل أسراري
الكيماوية وعن ماء الذهب وعن إكسير الحياة وعن جميع الجواهر، إن تيسر لي الرجوع إلى
مثل شبابك...

المطران كابريير (١) عند أناتول فرانس

قال لي في أحد الأيام:

- تَلَطَّف يا حبيبي بالمجيء غداً الأحد باكراً، لأنَّ السيِّد المطران "كابريير"، ابن بلدك، آذني
بزيارته نحو الساعة التاسعة. فهذا الأسقف المسكين مرشَّح للأكادمي وهو يريد الوفاء بالمراسم
على حقِّها. وكان حقيقياً بأن لا يجشِّم نفسه هذا العناء لأنني منذ دعوى دريفوس (٢) لا أذهب
إلى الأكادمي ولا أعطي صوتي. إلاَّ أنه أُسقف شريف يحافظ على الأصول.

وكان أناتول فرانس مجبوراً بهذه الزيارة، لأنه كان يتوق إلى رؤية رجال الكنيسة يقيمون
له وزناً.

ففي صبيحة الغد، الساعة التاسعة كما قال، أقبلت عربية قديمة الزيِّ فارهة كعربات
الأشراف ووقفت أمام مغنى سعيد. فقال لي أناتول فرانس:
- خفّ للقاء المطران المرشَّح.

ونزل المطران من العربية، ليس عليه شيء من أبهة الملابس الحيرية ولا من خيلاء الطيالس
والأطالس، بل كان بمناسبة الصوم الكبير مرتدياً ملابس سوداً، قباءً بسيطاً وجبة ملمعة بتلييب (٣)
من مخمل خَلَق (٤). فإن لم يكن الإنسان يعرفه يظنّه خورياً من قرية.

فدخل في الدهاليز خاشعاً متضائلاً وأطال النظر إلى شخوص العذراء بجانب تلك
التمائيل الوثنية. وكان وهو ملتفّ بأظماره الإكليريكية أشبه بعجوز مهرملة (٥).

قال بروسون: وكنت شاهدته مراراً عند والدي في نيم وفي بيوت أخرى من بيوتات
البلاد، فذكرته بنفسي. فقال:

(١) كابريير (Mgr. de Cabrières).

(٢) في دعوى دريفوس التي هزّت فرانسة كلّها كان أناتول فرانس مثل إميل زولا من الفئة المؤيدة لدريفوس كما تقدّم.

(٣) ما في مواضع ليب الإنسان من ثيابه ويقال له طوق، والأصل الفرنسي eol.

(٤) ليس بجديد.

(٥) هرملت: العجوز بليت من الكبير.

- هو ذا أنت ولدي العزيز: أنني مدهوش من أن أراك هنا.

فأجبت:

- وأنا أيضًا.

فتبسّم ومسح على خدي بيده المقفزة بالحريز، يلمع من تحتها خاتم الجمشت. وكان أناتول فرانس قد احتفل بزيارة الأسقف واحتفى بأضفى وأفخر جلايب تبذله وشدّ وسطه بنطاق مجدول ذي أزرار قديمة صفراء من قصب. وعلى رأسه قلنسوة أرجوانية ساطعة - لأنه كان عنده قلانس من جميع الأشكال - فكان التناقض بين المطران والكاتب عجيبًا. إذ، بينما كان المطران في أسفل الدرج أشبه بروهب فقير يرتعش من البرد، كان مؤلف "حلقة الجمشت" بقامته الطويلة، سابقًا عليها قباء الصوف وعلى رأسه قلنسوة حمراء، يظهر كأنه رئيس أساقفة. ثم نزل عدة درجات وأخذ المطران يمينه. وقال بصوت خاشع:

- يا سيّدنا أرجوك أن تعتقد أنني أشعر كما هو الواجب عليّ بقيمة الشرف الذي أوليتني إياه.

ثمّ دخلا إلى المكتبة وجلس الواحد بإزاء الآخر. وفي الموقد المسجور نار عظيمة يُسمع لها زفير. فافتتح المطران الخطاب بالكلمات الآتية:

- أيّها السيّد إنّ بعض الأصحاب والأتراب والأشخاص، الذين لهم عليّ كلمة نافذة، رأوا أنّ من الواجب عليّ الترشّح للأكادمي. ولست أجهل عدم أهليّتي للجلوس بين هذا العدد من كبار الأدباء ولكن ابنة الكردينال العظيم، لم تزل تتذكّر محتدها الديني وعرقها الملوكي، فتذخر بعض كراسي لأركان الكنيسة. فإنّ دخلت تحت القبة فلا يكون ذلك إكرامًا للقلم، بل لعصا الأسقفية. لقد تردّدت طويلاً في القبول لكنّهم لفظوا كلمة لا تغالب عندي وهي كلمة "الواجب". فلهذا قصدت أيّها السيّد مجلسك. وإنّي شاكر هذه الفرصة التي أتاحت لي أن أرمق بعيني، قبل نزولي إلى القبر، أكبر كتاب الفرنسيين في عصرنا.

وبينما كان المطران يسرد خطابه كان أناتول فرانس يلعب بفتحة^(١) خاتمه الذهبي الثقيل الذي يزّين بنصره. فكان يُريغه ثمّ يمسه بذيل ثوبه ويظهر مستغرّقًا في النظر إلى خاتمه هذا الذي كان عليه رسم "كوبيدون"^(٢) وهو عريان مصوَّبًا قوسه.

(١) أحد تآليف فرانس القصصية.

(٢) الفتحة، بسكون التاء أو محرّكة: الخاتم. وقيل حلقة تُلبس في الإصبع كالحاتم.

(٣) كوبيدون (Cupidon)، إله الحبّ عند الرومان.

ثمَّ شدَّ المطران نغيته قليلاً، وقال:

- الحقيقة أيها السيّد أنني ما عرفت مزاياك في الإنشاء إلاّ بالسمع، إذ لم أقرأ مما كتبه سطرًا واحدًا. ويمكنني أن أعترف لك لماذا: ذلك لأنني لا أقدر أن أطلع شيئًا هو ضدّ أمي.
- أمك يا سيّدنا؟

- نعم، أمي الكنيسة المقدّسة.

- وأنا أعلم يا سيّدنا أنك أنت واحد من مصاييح الكنيسة وأنّ عقيدتك صافية وحميتك متلهّبة وفصاحتك جاذبة للقلوب... ولكنّه ما تسنّى لي الاطلاع على مناشيرك الأسقفية. وبعد، فإنّي شاكر لك جدًّا على ما أوضحت لي وهي حقيقة عزيزة عليّ من حيث أنه لا يمكن الإنسان أن يكون كاثوليكيًّا خالصًا وجمهوريًّا حرًّا معًا.

ثمَّ سكت الاثنان عدّة دقائق. ثمَّ قال أناتول فرانس لأجل عدم قطع الكلام.

- أحبّ كثيرًا بلدتك الأسقفية ولا أزال أذكر ثلاث دمي من المرمم مجردة عارية تحلّي بجردها ساحة "مونبليه" البهيجة.

فأشار المطران إلى كون هذه البنات المرميات، مع ما يكره من متجردها هذا، لا سبيل إلى إدخالها تحت المنع الأسقفي.

ثمَّ سكتا عودًا على بدء. ولكن أناتول فرانس أحبّ أن يحيي ذمّاء الحديث المحتضّر. فأخذ يطري ثروة متحف مونبليه، وعدد ما فيه من النفائس إلى أن وصل إلى تصويرة "الأسرار المقدّسة" التي من عمل "پوسين"^(١).

فلما سمع المطران اسم پوسين اهتبل هذه الفرصة لإطراء تقوى ذلك المصوّر، وقال: "إنّ عقولنا لا تبلغ كثيرًا من الأحيين شأو قلوبنا وإنّ الإيمان لا ينفي العبقرية". وشاهدنا "مار أغسطينوس"^(٢) و"باسكال" و"پوسويه".

(١) پوسين (Nicolas Poussin)، من أشهر من أنجبته فرانسة في فنّ التصوير، كان رأسًا للطريقة الأصولية المدرسية في هذا الفنّ. ترك عدّة بدائع من جملتها صورة الطوفان وصورة موسى، عليه السلام، عندما تُقطّ من النيل.

(٢) قد مرّ ذكر باسكال وبوسويه وشاتوبريان، أمّا مار أغسطينوس فهو أحد أقطاب الكنيسة الكاثوليكية، ولد سنة ٣٥٤ في إفريقية ومات سنة ٤٣٠، وكان مطرانًا على "هيون" بقرب عتّابة من برّ الجزائر. ويحكى من خبره أنه كان في مبدأ أمره مسرفًا على نفسه منغمسًا في اللذات البدنية إلى أن ضجر منها مرّةً وذهب إلى غيضة من غياض حديقته يلتمس الراحة ويتوارى من أصحابه. فبينما هو سابح في بحر التأمل سمع هاتفًا يقول له: خذ وقرأ. فدهش وأخذ يفكّر من أين جاء هذا الصوت وآية قراءة يأمره بها. فمضى إلى صديق له يقال له "الكيب" فوجد أمام عينيه كتابًا ففتحها فإذا هو رسائل مار بولس. فأول عبارة وقعت عينه عليها هي هذه: "لا تقض عمرك في المادب ولذات البطن، بل اشتمل على سيّدك يسوع المسيح وخذ حذرًا من إرضاء شهوتك البدنية" فكانت هذه العبارة هي السبب للإقلاع عمّا كان فيه وكان =

خذوا حذرکم من الشیکونت

فلما سمع أناتول فرانس اسم شاتوبريان، قال:

- لا جرم يا سيدنا أن شاتوبريان مثل عظيم. لكنني لا أفهم على أي شيء؟ أعلى التقوى؟ أم على الشهوة؟ إنني لأعجب كيف أن أساقتنا يضعون شاتوبريان المتفج بين ممدوحهم في صف آباء البيعة. إن كان شاتوبريان قد قام لكم بخدمة في كتابه "نبوغ النصرانية" وكتب قصصه الحاملة على الفضيلة فلا تستطيعون إنكار أنه كان شهوانياً.
- ولكن كتاب "الشهداء".

- في كتاب الشهداء وسق جميع الأدب الوثني القديم. ولا تنس أن هذا الابن الطائع للكنيسة قد خلف جان جاك في السامة الدائمة وكره الحياة.
- قد خدم قضية الله والملك.

- نعم، يا سيدنا خدمهما بعكس المراد. قصد الإله كما قصد قصر التويلري، لأن الله كان غنياً. ولم يكن ممن يرى في الديانة إلا الفخمية والزينة والجهة الشعرية. إن هذا الرجل العظيم، الذي تجعلون كتبه جوائز في مدارسكم، كان أفسق أهالي الأعصر الأخيرة. قد فاق في هذا جان جاك، بل هو جان جاك شماساً سكران بخمرة التقديس. فهو هو أبو الحزب الكاثوليكي الجديد وهو هذا المتزني بغير ما هو أهله من الإيمان والتوبة، قد اكتشفت سماً جديداً في الأدب اللغوي وهو سمّ لذيذ قابلناه نحن بالفرح الشديد: الإغراب في الشعر^(١).

- مما لا مرأى فيه أن شاتوبريان هو الذي جدّد ذوق الآثار الوطنية بعد التخريبات التي بدت من حزب الانقلاب.

- إن شاتوبريان كان أشدّ حرباً للصور من جميع الانقلابيين. نعم، إنه لم يحطم صور القديسين لكنّه ردّها إلى المتاحف. وإلى عهده هو كان الولوع بالآثار يقف عند أبواب المعابد.

= من ورعه ما كان حتى بلغ من تعلقه بالآخرة واحتقاره أمر الحياة الدنيا التي هي دار الآثام إن ذهب إلى أنه لا ينبغي للمرء أن يسعى في شيء سوى الحصول على سعادة العقبى وأنّ الوطن الحقيقي هو السماء. ولهذا كانت مقالاته أعظم مروج لمشرب الرهبانية في القرون الوسطى. كانت له آراء في اللطف المخزون أو ما يسميه متكلمو النصارى بالنعمة الإلهية توكأ عليها البروتستانت والجانسينيت في محاوراتهم الدينية مع الكنيسة الكاثوليكية. وقد توسّع مار أغسطينوس في جميع المباحث وشارك في أكثر العلوم وصنف جمّاً من الكتب وامتاز بفصاحة الأسلوب ونبغ في تشريح الأحوال النفسية وقل إن وجد في آباء الكنيسة من أثر في قومه تأثيره.
(١) في الأصل الفرنسي Exotisme Poétique.

ولا يشمل سوى الأولمب^(١). فالفيكونت هذا ابن الكنيسة الهائل، أدخل السماء والعدراء والقديسين في صوان العاديات الأثرية.

ثمَّ أشار بيده التي كان يلمع فيها الإله الصغير العاري متنكبًا للقوس ودلَّ المطران على الأوعية الزجاجية التي أزينت بها الغرفة والتي فيها تماثيل العذراء والهات يونان في صفٍّ واحد.

- نعم، إنَّه بسبب الفيكونت نجد هنا تماثيل المسيح متأخية مع تماثيل بوذا ونرى الغواني فرش من مخادعهنَّ بحلل الرهبان التي تنبعث منها رائحة البخور والدهن المقدس. لا جرم أنَّ شاتوبريان قد أسدى لكم يدًا غير بيضاء.

ثمَّ عاد السكوت إلى المجلس أثقل ممَّا كان وجزل الحطب ينسّ نسوسًا، وحصل في جوِّ المكتبة شيء من الكرب والحرارة. فنهض أناتول فرانس قائلاً:
- لي الأمل يا سيِّدنا بأنك ستنتخب.

- والله لا أعلم. عندي وعود ولكن لا يقدر أحد أن يضمّن. فالخالدون المخلدون هم أيضًا بشر وقد يتحولون عن آرائهم.

وخرج المطران فشيعة أناتول فرانس إلى كعب الدرج وتناول من عن كرسي هناك معطفه الجرد^(٢) ووضعته بتؤدة على أكتاف زائرته، فقال له المطران:
- ما كنت أنتظر أن تكون هذه الخلعة من يدك.

المطارين تتعاقب

ويوم الأربعاء التالي كانت نوبة السيِّد «دوشين»^(٣) في المجيء إلى مغنى سعيد، لإكمال الواجبات التي يتحمّم على المرشّح للأكادمي القيام بها. فكان اللقاء على أتمّ ما يمكن من المخالصة والمؤانسة لأنَّ الاثنين سبقت بينهما المعرفة والمودّة في رومة عند «غياكومو بوني Giacomo Boni»، مدير الحفريات.

فلمّا أقبل مدير المدرسة الفرنسية في رومة نهض أناتول فرانس وعانقه، وقال له:

(١) مسكن الألهة عند اليونانيين، ولك أن تلفظه وتكتبه الأولمب على النغمة العربية.

(٢) القديم من الثياب.

(٣) دوشين (Mgr. Duchesne)، أحد علماء الأكار، ولد سنة ١٨٤٣ ومات سنة ١٩٢٢. له مباحث ممتعة على مبدأ شعائر النصرانية، وكان مديراً للمدرسة الفرنسية في رومة.

- أهوى أن أخطبك يا سيّدنا بقولي: يا رصيفي العزيز. لأنك ستنتخب للأكادمي ويكون ذلك خادماً لمجدك ومجدها معاً.

ثمّ عانقه ثانيةً، وقال له: أنت مرشحي ولكنّي سأنتخب الذهاب لإعطاء صوتي نفادياً من أن يضرّ بك. وقد تفقد بعض الأصوات بصوتي، فليست ذا رائحة طيبة عند جماعة الأكادمي. ومن أيام دعوى دريفوس انقطعت عن الذهاب إلى هناك حتّى لو ذهبت لما كان من المحقّق أن يسمح لي البوابون بالدخول لأنهم أصبحوا لا يعرفونني. وما أسفت مرّة على عجزني كعضو من أعضاء الأكادمي مثل هذه المرّة. ولكنك ستخرج ظافراً من المعركة ونصلي صلاة الشكر على دخولك إلى الأكادمي لأنها في احتياج إلى زيادة الاعتبار. وكذلك لا يخلو الأمر من فائدة لك. فالأكادمي تكون لك غابة مقدّسة وكهفًا، فإنّها مع كونها أشدّ كثلكة من البابا وتعصّباً للملوكية من الملك، هي الجمعية الوحيدة التي تعرفها الجمهورية، لا بل التي تراعيها وتحقّقها وترقّها. وهي تخيف رومة نفسها. وإنّ جملة "من أعضاء الأكادمي الفرنسية" تكمّ عنك أفواه كلاب التفّيش المقدّس. فلا يستطيعون أن يشمّوا من تأليفك القيمة اللطيفة رائحة الروح العصرية التي لا يفتأون يذكرونها بالسوء.

- إن كنت عصرياً يا سيّدي فلي في ذلك شركاء ليسوا من أصاغر القوم. ولكن ما كان مقبولاً في زمان الملك الكبير^(١) يُعدّ خارجاً عن الكنيسة في عهد الجمهورية. ففي ذلك العهد كان مجلس الأمة يذبّ عن الكنيسة الغاليكانية مصباح سائر الكنائس في معارفها وفضائلها. أمّا اليوم فلم يبق أثر للكنيسة الغاليكانية، وساد حزب التمسك بالانقياد التامّ. والله تعالى، لأجل أن يتلي شعبه، نصب على سكّان سفينة مار بطرس نواتياً جاهلاً يسير بها في الزوبعة إلى الهلاك. ولعمري، تمّ يستحقّ الرثاء أن نسمع المسكين المجرد من كلّ فهم يفسّروحي روح القدس. ويا ليتّه، مع الجهل التامّ الذي هو فيه، حاز ما يقوم مقام العلم وهو الحنوّ والإحسان والتسامح. ولكنّه منذ عصب التاج لم يزل يحرم ويمنع ويلعن. فترى يده دائماً مرفوعة للحرم لا للبركة، وهو العوبة في أيدي حاشيته. وأيّ حاشية! يصوّرون له فرانسة البرّة العاقلة كأنها على وشك الخروج من الكنيسة. فقانون الفصل بين الحكومة والكنيسة قد أهلك الأساقفة الفرنسيين ويا للأسف. فكلّ من اعترف به من المطارين لم يبق لهم أدنى قول، بل صاروا متهمين. أمّا أنا فقد استقمت على عواري ومضى عليّ زمن التغيير والتحوّل أن أخلص من نكايات القسوس الذين يديرون كلّ شيء من وراء الستار، جئت أنشد كرسياً في الأكادمي. فترشّحي لذلك عبارة عن

(١) لقب لويس الرابع عشر.

احتجاج. فأنا أعارض أُسقفاً ملوكياً أريستوقراطياً بقسيس خارج من الشعب يحبّ الكنيسة والجمهورية معاً. فإن قُدِّر لمطران مونبليه الفوز، فإنه يدخل معه تحت القبة روح التعصب الذي يقيد القلب والعقل معاً.

ستصير خالداً لأجل خطاياك

فأجابه أناتول فرانس:

لن يدخلها. كن على ثقة^(١). وسأصلي صلاة الشكر لأجلك. بلى، ستبوا قريباً كرسي هذا الكردينال ماتيو الذي رووا لي عنه جماً من اللطائف المستعذبة. فأنت تخلفه لأجل أن يصفح الله عن خطاياك. وعليك أن تعمل لنا خطاباً ملآن عقلاً وعلماً وبهجة. وأنا سأقرأ خطابك بكلّ خشوع لأنك أنت خطيب الصالحين الكاملين ورعويتك هي رعوية العقل السليم وربما لا يوفونك حقّ بلاغتك ويأتي دورك بالسمع فتضطرّ أن تصغي إلى كثير من الخطب المملّة. ومتى صرت إلى لجنة قاموس اللغة عرفت بلادة المناقشات النحوية.

النحو والكاتب

وكان أناتول فرانس يحبّ كثيراً أن يردّد هذه الجملة: النحو شيء والكتابة شيء آخر. فالنحو علم والإنشاء هبة^(٢). ويلد الإنسان كاتباً كما يلد ذا صوت حسن. وقد يمكن الإنسان أن يزيد في محاسن صوته ويصلح جرسه أو سمعه بالترجيع والتمرين ولكنه لا يقدر أن يكون رخم الصوت بمراجعة كتب الموسيقى. كذلك لا يقدر الإنسان أن يكون كاتباً بزيادة التعمّق في علم النحو^(٣). وبالرغم ممّا يحفظ النحويّ من القواعد الجليلة قلّما عهدنا نحويّاً متخصصاً يحسن تنميق صحيفة. فتراه، لأجل تطبيق قواعده، يعول على بلغاء الكتاب الذين كلّ منهم ينفرد بأسلوب خاصّ على حسب مشربه. وقد يجد عند هؤلاء الكتاب الأصوليين الغثّ كما يجد السمين. أودّ لو كانت جلسات القاموس مفتوحة للعامّة، فكنت أشهدا تسلياً. فإنّ أسباب

(١) يظهر أنّ أناتول فرانس كان لا يحبّ أن يخاطب الإنسان بما يكره، فقد سبق أن تمتى الفوز في الانتخاب لمطران مونبليه. أو هو يحبّ أن يسلى ويهزأ. وفي الباطن لا يهيمه لا هذا ولا ذاك.

(٢) قال بعض من عرّف الكتابة من العرب، إنّها صناعة روحانية تظهر بالة جثمانية دالة على المواد بتوسط نظمها. قال: والروحانية هي الألفاظ التي يتخيّلها الكاتب في أوهامه ويصوّر من ضمّ بعضها إلى بعض صورة باطنة قائمة في نفسه. والجثمانية بالخطّ الذي يخطّه القلم وتفيد تلك الصورة وتصير بعد أن كانت صورة معقولة باطنة صورة محسوسة ظاهرة.

(٣) وكَم من أزهري يستظهر الصبان والأشموني ولا يحسن كتابة رسالة.

السلوى قليلة في هذه الدنيا! وكنت أراك يا سيّدا تهذي مع أولئك الثرارين الذين هم من قبيل "بنيلوب"^(١)، فقال المونسور دوشين:

- ما دمت قد أقيمت إلى يدي مشيعة^(٢) امرأة "أوليس" فاسمح لي بغزل هذه الملاحظة على هذا المثال. إذا نظرنا إلى أشغال الإبرة التي تقوم بها النساء الكرائم اللاتي يقلّ شغلهن فيكون طراز العقيلة "بنيلوب" ليس بشيء بالقياس إلى أعمالهن. وما عليك إلا أن تنظر إلى الإخفاف والمخاد والنمارق وحلل الكهنة التي تطرّزها العقائل الديّانات، والطريقة التي يزوجن فيها بين الصوف والخز، فإن ذلك كلّه ممّا يدلّ على شدة الحفيظة التي في نفوسهن. وممّا يُحمد الله عليه، انصراف هذه الحرارة التي عندهن إلى هذه الأشغال التي وإن كانت تافهة فهي طاهرة. نعم، إن الله يناقشنا الحساب على الوقت الضائع. ولكن ثمة فرقاً بين إضاعة الوقت واستعماله فيما لا يرضي العدل الإلهي. فعدم العمل ليس بعمل حسن بدون شكّ ولكنّه خير من عمل السوء.

ثمّ قال المطران لأناتول فرانس:

- إذا أنت لا تذهب إلى الأكاديمي. فما تصنع بالوقت الذي كان مخصّصاً للقاموس؟ في سبيل من تنفقه؟ أفي سبيل الله أم سبيل الشيطان؟ آه، لم أجدى إلى هنا اليوم لتعترف لي بذنوبك.

فانحنى أناتول فرانس بقلنسوته اللامعة وغضّ من بصره وجمع يديه إلى صدره المنخفض ودندن من خيشومه بالكلمات الآتية:

- بارك عليّ يا أبنا لأنني خطّيت كثيراً.

- نعم، يا ولدي العزيز السريّ قد خطّيت وأثمت كثيراً ولكن الخطيئة درجات. فهجر الأكاديمي هي خطيئة عرضية ولكن اتّخاذ الحظايا والاسترسال إلى الشهوات يؤدّيان إلى الجحيم رأساً.

- أنت واثق بما تقول؟ لا أريد أن أصغر نفسي بالتطقل على بحث كهذا مع علامة متبحرٍ مثلك. فالوفاه لا يحقّ له أن يطاول القسيس. ولكنني أفتح لك كنّ صدري بكلّ سداجة. الذهاب إلى جهنّم لا أخشاه على الضعفاء الذين يلبّون دواعي الطبيعة، بل على أولئك المتكبرين الذين

(١) بنيلوب (Pénélope) في كتاب تليماك هي امرأة أوليس أم تليماك غاب عنها زوجها عشرين سنة وخطبها أناس كثيرون فأبت أن ترضى بزوجها بدلاً واعتذرت بأنها لا تتزوج حتى تكمل نسيجاً كانت تغزله، والحال أنها كانت تنقض في الليل ما تغزله في النهار. بضرب المثل بينيلوب للأمينات من الخوالمف. ووجه التشبيه هنا أن قاموس الأكاديمي لا ينتهي أبداً.

(٢) المشيعة: بكسر الميم فسكون ففتح، هي الفقة التي تجمل فيها المرأة فطنها ونحو ذلك، وفي الأصل الفرنسي La boîte à ouvrage.

يجتمعون في الكنيسة ليتقاسموا فيما بينهم البخور والثناء فيرتكبون أعظم الإثم: الإثم الذي كان العلة في الكدح والنصب والألم والعشق والموت في هذه الحياة الدنيا: ألا وهو الكبرياء^(١).

عين جوفانس^(٢)

قالت له العقيلة المعهودة يوماً:

ثوب قشيب، ربطة رقبة جديدة، حذاء ملمّع. من مدة أصبحت لا تعرف أن ترتكز على الأرض. تتعطر وتتضمّخ بالطيب وتثر ماء كولونيه. ورائحة النارج تنبعث منك. ماذا أصابك، أترك قد اكتشفت عين جوفانس؟

- واحسرتاه! كلاً، يا سيّدي. ولو أنني وصلت إلى تلك العين لأصابني ما أصاب بطل الحكاية:

وذلك أنه كان رجل شيخ مثلي يفكر في الآخرة وهو على حافة القبر. فتناول عكازه وسار إلى رومة ليفوز بغفران خطاياها قبل الموت. فقبل خفّ البابا الذي قال له: أنا أحلك من خطاياك. ولكن لأجل توبتك يجب عليك أن تذهب لزيارة بلاد "كوكانيه".

فهذه البلاد قد اختصّها الله ببركته الخاصّة. فربيعها دائم وفي جميع طرقها وعلى شوارعها موائد ممدودة تكاد تلتوي من ثقل ما عليها من اللحوم والثرائد والدجاج بالبن... إلخ. فيقعد الإنسان ويأكل ما يشاء. ثمّ إنّ الدكاكين مفتحة الأبواب ليلاً ونهاراً والناس ولآجون خراجون يملأون جيوبهم بما تشتهيهم أنفسهم حتّى لو اشتهوا صاحبة الدكان لاخترت معهم الكياسة... وأنهار من خمر وبحيرات من إقط. وكلّ شيء مشاع في بلاد كوكانيه...

- والنساء؟

- والنساء كسائر الأشياء.

- ما أجمل هذه البلاد!

- نعم، نعم، يا سيّدي وكلّهن حسان وليس عندهن فظاظة. ولما كنّ يغتسلن كلّ يوم في عين جوفانس، كنّ لا يفقدن شيئاً من نعمتهن.

- وصلنا إلى المراد.

(١) ما زاد أناتول فرانس على مآل قصّة الفريسي والعشار الواردة في الإنجيل الشريف.

(٢) في أساطير يونان أنّ جوبيتر حوّل إحدى الجنّيات عيناً جارية، من اغتسل فيها استردّ شبابه، وهي في الفرنسي: La fontaine de Jouvence.

- يصير الإنسان شيخًا فانيًا فيذهب ويغطس في ماء هذه العين. فبينما هو يمشي على العصا نقيّ بياض الشعر أورد، إذ عاد شارحًا مرخيًا ذوائب كالذهب وعادت له أسنان جديدة.
- يظهر أنك في اندفاعك بالوصف قد نسيت الرجل التائب الذي أرسله البابا إلى بلاد كوكانيه.

- لا أنساه يا سيّدي، وكيف أنساه وهو شيخ مثلي. وكان عليه أن يستفيد من عين جوفانس ذات العجائب. فبينما هو ينزع ثيابه ليسبح في الماء خطرت في باله قُدمى حباته. ولما كان رقيق القلب رجع فلبس ثيابه ومضى في طلبها، ليأتي بها إلى عين جوفانس.
- ما أسرى تلك النفس!

- فلما صار يا سيّدي خارجًا من بلاد كوكانيه ضلّ الطريق، وعبثًا حاول أن يجدها فلم يهتد لوجهه. وهذا يعلمنا أن المرء، إذا ظفر بنعمة في مكان، فلا ينبغي له أن يفكر في أصحابه.

ربطات رقبة هريديا^(١)

- أحبّ مقاطيع هيريديا؟ هذا نمط شاقّ ومركب خشن، يغلب عليه التعمّل لأنّ هذا الشاعر يكره السهولة ويجمع وحشيّ الكلام، كما تجمع الصبيان الحصى وقطع الزجاج. وهو يغوص في القاموس غوص "تيوفيل غوتيه"^(٢) لكن هذا كان أقلّ ولوعًا بهذا الباب. ولما كانت تأليفه مستمدّة من القاموس، كانت هي بنفسها محتاجة إلى القاموس، فتفتقر إلى حلّ كالكتابات القديمة. رجل سيفسائي، ليس لشعره معنى ولا مرمى، وإنما هو ألفاظ طنانة وأناشيد من قبيل ما يغنى به للأطفال ليناموا. فصناعته لفظية كلّها وإن كانت لامعة في ظاهرها. وقد أودعها جميع كنوز آبائه. ومع أنه قد حرّم ميراث أهله، فقد كان مثيرًا لا يخلو أصلًا من المال وكان بارع الجمال حسن الزيّ يعقد في رقبته ربطات وهاجة مثل شعره. ثمّ إنه كان من أدمت الناس خُلُقًا.

البرهان بالمستحيل

قال:

- في جعبة رجال الدين، أحسن برهان لاهوتي لإثبات وجود الله، هو المستحيل. أو من

(١) هريديا (J. M. de Heredia)، شاعر فرنسي، ولد في جزيرة كوبا سنة ١٨٤٢ ومات سنة ١٩٠٥. كان من أعضاء الأكاديمية، وكان شعره ممتازًا بصحة التركيب والمتانة.
(٢) تيوفيل غوتيه (Théophile Gautier)، شاعر فرنسي، نقاد نبغ في النظم والنثر ونصر الأسلوب القصصي المعروف بالرومانيسم، (١٨١١ - ١٨٧٢).

لأنني لا أفهم^(١). فإنَّ الفهم شيء إنساني ليس بإلهي. وعلى هذا، فلأجل أن يزداد الإنسان على خلاص نفسه أمانةً، يجب أن يتطلَّب أشدَّ العقائد استحالةً، أو بعبارة أخرى، أشدَّها تألُّهاً. وربما تقول لي إنَّ ديانتنا لا تقصر في هذا الموضوع عن أيِّ دين من أديان سائر الشعوب. والحقيقة، أننا نحن زدنا في الاعتقاد كثيراً وجعلناه تابعاً لجميع الضرورات، فكأنه ثوب قد أطيّل لبسه فاخلولق ورقعوه. تأمل "جان غيرسون"^(٢) أو واحداً من جماعة "بور رويال" عاد إلى الدنيا ودخل إحدى كنائسنا الحاضرة أو شاهد الحال في سيِّدة "لورد" أو سيِّدة "لاساليت"^(٣) أو قلب يسوع الأقدس... فإنه كان يصيح: ما هذه الوثنية!

إذا كان المستحيل صورة يتجمل بها الدين، فإنِّي حاضر أن أكون بوذيًّا^(٤) أو أزدراشيًّا^(٥) أو مجوسياً^(٦) أو من أتباع سينتو^(٧) ليس لأنني أرى هؤلاء في هذا أبعد منّا شأواً، بل لكون هؤلاء أصحاب مستحيل غريب عنّا، فيظهر لنا أشدَّ استحالةً وعليه يكون أعلى درجة.

نابليون مهرج عالٍ

أجلى قصّة عندي عن هذا المهرج السامي هي قصّة دخوله إلى ليون بعد فراره من جزيرة "ألبا"^(٨) هذه هي في الحقيقة أجمل وردة في قبعتي. فإنك تعلم كيف دخل إلى بروفانس بشرذمة من جنوده القدماء ولم يكن معه لا جيش ولا مال، وأنه أرسل ثلاثة أو أربعة من جماعته إلى

(١) الحقيقة أن وجود الواجب الوجود يفهمه الإنسان بالبداهة ولكن الكيف هو المجهول. وكون الإنسان يجهل كيفية شيء لا يستوجب إنكاره لوجوده.

(٢) جان غيرسون (Jean de Gerson)، ولد سنة ١٣٦٢ ومات سنة ١٤٢٨. كان من أعظم لاهوتي عصره، وكان العامل الأكبر في مجمع كونستانز الذي انعقد سنة ١٤١٤ لاستئصال البدع وحكم فيه على جان هوس، المصلح التشيكي، بالحرق حياً وأحرق برغم كونه حضر بأمان من الإمبراطور سيجيسموند، عاهل ألمانيا.

(٣) لاساليت (La Salette)، كنيسة على اسم السيِّدة تزار كثيراً، ومثلها لورد (Lourdes) التي تُنسب إليها العجائب.

(٤) بوذا أو ساكياموني، مؤسس الديانة البوذية، انشق عن الديانة البرهمية ودعا الخلق إلى النيروانا وهو الفناء التام الذي ينبغي أن يكون غاية الأحياء.

(٥) نسبة إلى أزدراشت، خرج في فارس وقال بوحدانية الباربي تعالى وإنه خالق النور والظلمة، وإن الخير والشرّ حصلا من امتزاجهما، وإنه لو لم يمتزجا لما كان وجود للعالم، وإنه لا يزال الامتزاج حتى يغلب النور الظلمة ثم يخلص الخير في عالمه وينحط الشرّ إلى عالمه وحينئذ تكون القيامة.

(٦) يقولون بالنور والظلمة وإن إله النور اسمه يزدان وإله الظلمة اسمه أهرمن. وإن بينهما حرباً. ويعبدون النار لما فيها من النور. ومنشأ هذا المذهب في فارس أيضاً.

(٧) ديانة اليابانيين يقولون بإله أعلى وآلهة آخرين من دونه وإن أرواح الصالحين بعد الفصال تسكن في أماكن نورانية وإن أرواح الأشرار تهيم في الهواء فلا تقبلها الأرض ولا السماء. وكهنتهم لا يأكلون لحم الحيوان ولا يمكنهم تقديم الصلاة إلا بالواسطة، وهذه الوساطة تسمى "تانسوزاي زين" أي آلهة الشمس، وبواسطة البشر المتألّهين كالميكادو. وقد اختلط مذهب سينتو هذا بمذهب بوذا ومذهب كونفوشيوس.

(٨) جزيرة صغيرة شرقي كورسيكا، نُفي إليها نابليون سنة ١٨١٤ وأقام بها مائة يوم.

”آتیب“ فآلقوهم في السجن. وإنَّ البغل الذي كان يحمل دريهماتہ تردى في هوة. فبدأ فتحه فرانسة بصورة مشؤومة. فسار إلى ”غرينوبل“ و”ليون“^(١) من طريق الجبال. ولما وصل الإمبراطور إلى قرب ”آفينيون“^(٢) غيّر لبسہ وتزيّاً بزىّ خادم وجلس بجانب الحوذى. ثمّ وصلوا إلى ليون فكانوا من الجهة الثانية من جسر ”غيلوتير“ وكانت عساكر الدوق ”أنجوليم“^(٣) من هذه الجهة. فالفوضى والخلل بصحبة رجل آفاق محروم من الحقوق المدنية، أيّ من قتله نال المكافأة العظيمة، كانا من جهة، والنظام والقانون والحقّ الشرعي والجيش كانت من الجهة الأخرى.

كان نابليون شجاعاً، إلاّ أنه كان مضحكاً. فقد تقدّم عابراً الجسر وهو بزىّ عسكري من حرسه. وكانت له شارة وهيبة وهو على ظهر الحصان، فلما ترجّل صار قزماً زريّاً. فمنع عساكره من المرور وراءه، إذ لم يكن معه جند يقدر أن يفادي بهم وبإزائه جيش الدولة، بل كان مراده أن يعبر الجسر ويتعرّف إلى الجيش ويصير هو الدولة. فلما رآه العساكر الذين كانوا يعرفونه وضعوا كمنهم على رؤوس الحراب وهتفوا: ”فليحي الإمبراطور“ وهنا هي النقطة التي بلغ بها نابليون شأو الضعة في الإضحاك، فإنّه هجم على أحد الجنود الذين كانوا أقواهم هتافاً وهزه كما تهزّ الخوخة^(٤) ثمّ قال له بصوت صهصلق: ”الآن قد خنت رئيسك وأنا لا أحبّ الخائنين، فأمل أنك تحت قيادتي تنسّني هذه بمجالدة أعداء فرانسة“ ومعنى ذلك بالفرنساوي ”آمل أنك في صحبتي تزداد إيغالاً في الخيانة“ وهذا الجندي الذي كان لو قتل نابليون صار سعيداً كان قد بحّ وهو يصوت ”فليحي الإمبراطور“!

كلمة تاريخية

ثمّ قال:

- كان نابليون متقناً هذا الفنّ الطليانيّ وهو تشريف السفاسف وكسوة الصغائر ثوب الجلال إلى الدرجة القصوى. حدّثني صديقي ”كزافيه دو ريكارد“ بنادرة لطيفة في هذا الباب. قال: كان جدّه في حرب ”واترلو“^(٥) إذ كان عمره ١٧ سنة لأنّ نابليون عندما أعوزه الجند، مال

(١) كلتاها من مدن فرانسة الشهيرة.

(٢) من مدن فرانسة، كانت تابعة لإمارة برفانس. وسنة ١٣٠٩ انتقل إليها مركز البابا فبقي فيها إلى سنة ١٣٧٧ واشترى البابا أكليمنطوس السادس هذه المدينة من أمراء بروفانس وبقيت ملكاً للكنيسة إلى سنة ١٧٩١ فاستلحققتها الحكومة الفرنسية.

(٣) أنجوليم (Duc d'Angoulême)، ابن كارلوس العاشر، ولد في فرساي سنة ١٧٧٥ ومات سنة ١٨٤٤.

(٤) في سوربة نقول ”كما تهزّ الشمشة“.

(٥) قرية في بلاد البلجيك كانت فيها الواقعة الشهيرة بين نابليون من جهة وبين الإنكليز والبروسيين متحدين من أخرى، ودارت فيها الدائرة على الإمبراطور وانقضى سعده وذلك في ٨ يونيو سنة ١٨١٥.

إلى المدارس يجتد من طلبتها. وفي ذلك الوقت كان الإنسان يطفر من درس التاريخ إلى التاريخ ظفراً واحدة. وكان نابليون يشكو من البواسير يوم وأترلو، حتى إن بعض المحققين ذهبوا إلى أن بواسيره ذلك اليوم كانت السبب في الهزيمة. فانظر بأي شيء منوطة مصاير الدول! تارة أنف «كليوباترة»^(١) وطوراً بواسير بونابرت. والحاصل أن نابليون كان يريد أن يمتطي حصانه ولا يقدر من شدة ألم البواسير. فأشار إلى ريكارد الذي صادف وقوفه أمامه أن يعاونه على الركوب، فطار ريكارد فرحاً بهذا الشرف وطأ رأسه وجعل يديه ركباً، فلما وطىء عليهما الإمبراطور أشاله إلى العلاء بقوة شديدة دفعته إلى الجهة الثانية من المطية فسقط إلى الأرض. فنهض نابليون أصفر اللون حرداً وصاح به، «يا أبله، يا بهيمة، لا بد من رميك بالرصاص» فتمل في طالب علم كهذا صار جندياً، وأول عمل باشره هو صرعة إمبراطوره! فلزم الإمبراطور وصار أتبع له من ظله. لأنه لما كان الإمبراطور قد أمر برميهِ بالرصاص فلا يصح أن يتوارى من وجهه ويكون من التذالة أن يموت برصاص العدو. ولم يكن يدري بما حل بفرانسة وبسوء مصيرها، بل كان في رأسه فكرة واحدة «متى أرمى بالرصاص؟» ولما وقعت الهزيمة أبصره نابليون في وسط الهرجة فعرفه وضحك له قائلاً «يا ولدي لا تنسَ أبداً أنك كنت المعين لإمبراطورك على اقتعاد صهوته يوم الدبرة».

أفهمت المأخذ: من مسخرة مضحكة جعلها منقبة شهيرة.

قيصر لا يكون رخوا

لا يمكن أن يكون قيصر عاجزاً عن القيام بواجبات الزوجية. وهكذا نابليون. ومحال أن لا يكون عرف وهو في جزيرة القديسة هيلانة^(٢) بقصة امرأته «ماري لويز» مع «ناييرغ»^(٣)، بل

(١) كليوباترة (Cleopatra)، ابنة بطليموس أوليتيوس، ملكة مصر. ولدت سنة ٦٧ ق. م. وملكته مع زوجها إلى سنة ٥١ ق. م. فاستولى على الملكة الخصي فوتين وطردها، ثم ردها إلى الملكة قيصر إمبراطور رومة سنة ٤٧ وأحبها وسكنت عنده في رومة إلى أن مات. ثم استولت على قلب الإمبراطور أنطونيوس فطلق من أهلها أوكافية وأقطعها ممالك عديدة فأغضب بذلك الرومانيين وزحفت إليه جيوش أوكافية والجنرال أغريبا فهزمه في أكتيوم من بلاد اليونان وفر هو وكليوباترة إلى مصر وحوصر في الإسكندرية سنة ٣٠ فانتحر واجتهدت كليوباترة أن تجذب أوكافيوس أخا أوكافية فلم تفلح. فخوفاً من أن تقع في يد الرومان وتؤخذ إلى رومة ويشهر بها فصدت ذراعها وأدخلت فيه السم وماتت سنة ٣٠ وبها انقضت الدولة اللاجبة وذهب استقلال مصر. وقيل إنها كانت بارعة الجمال منقطعة النظر في بهاتها مع دهانها. وقيل إن جمالها لم يكن مفرطاً وإنما كانت تجذب الناس بذكاؤها وأدبها. والجملة الشهيرة التي هي: «لو كان أنف كليوباترة أقصر قليلاً لغيرت وجه العالم»، هي لباسكال.

(٢) جزيرة صغيرة شرقي كورسيكا، نفي إليها نابليون سنة ١٨١٤ وأقام بها مائة يوم.

(٣) آدم أدالبرت كونت نايرغ (Neiberg)، كان مدير الدائرة الخاصة عند الإمبراطورة ماري لويز التي صارت تدعى دوقه يارم بعد سقوط الإمبراطور، وتزوجت بالكونت المذكور زواجاً سرّياً.

كانت حكومة لويس الثامن عشر تحرص جداً الحرص على إعلامه بكلّ هذه الأخبار التي لم يكونوا يطلعونه على غيرها. ومع هذا فتغابى وأوهم أنه لا يعلم شيئاً وكان يتكلم يومياً عن قدوم ماري لويز عليه قريباً ثمّ كان يواصل احتجاجاً على احتجاج على حكومتى بارز وقيناً لمنعهما أبرّ الحلائل ببعلاها أن تشاطر زوجها الأسر. وأكرّر عليك أنه لم يكن يجهل شيئاً من هذا الأمر، وكان يأخذ أخبار ماري لويز كلّها، لكنّه كان يلعب الهزيلي، أو بالأوّلَى، كان يمثل مأساة. فالإمبراطور لا يجوز أن يكون في نظر الأعقاب رخواً. وهكذا قد شهد للإمبراطور حليلته على ما كانت عليه من الفروك والخفة شهادة مطمئنة بالأمانة الزوجية.

فلتسقط المخالب!

وكان نابوليون يلقي الرعب في قلوب النساء فيحذرن غضبه ورضاه، وكان يعاملهن جمعاء معاملة جوار في القصر. وإذا ذهب إلى ليلة الزفن المتنكر Bal masqué صدر الأمر إلى كلّ نساء الحاشية بأن يذهبن كما يصدر الأمر إلى الجنود بالذهاب إلى العرض. وكان يأتي متنكراً من قدمه إلى رأسه ولكن كان يكفي أن يلحظ الناس ذلك الرجل وإحدى يديه على حجره والأخرى من وراء ظهره حتى يفهموا أنه هو الغول. فكانوا يرددون إذا مرّ من جانبهم. وفي إحدى المرات وضع يديه على عيني إحدى الراقصات الشابّات فصاحت: "آه ما أقبح هذه الأيدي!" فنفر واحتجّ قائلاً: "كلاً، ما بهنّ من قبح. انظري إليهن ترينهن بيضاً لطافاً". فإنّ نابليون كان معجباً بيديه وقدميه.

تاريخ طبيعيّ

- كان نابوليون نظير جميع الطارئين من وراء الألب غريب الأطوار محباً للتفنج: فلما استشار في اختيار أشعرة السلطنة أشير عليه بالأسد ملك الحيوانات فلم يعجبه، فقيل له عن الديك الغاليّ أو الجليقي^(١)، فقال:

"لا أريد ديككم فهو حيوان يعيش على المزيلة ويأكله الثعلب، وإنما أريد النسر، هذا الطائر الذي كأنه صاعقة والذي ينظر في شعاع الشمس وجهاً لوجه".

أسباب استنبطها من التاريخ الطبيعيّ.

(١) كان الغاليونا (Gaulois) والجلالقة يتخذون الديك شعاراً لهم.

جندي قائد عشرة^(١)

- لا إنكار أنه كان ذا قوة حافظة خارقة للعادة لكنّها منحصرة في الإعداد لا في التصوّرات. أشبه بذاكرة تاجر أو حاسب. وكان يقول: "المسائل مخزونة في دماغي كأنها في قمطر. فإذا شئت أن أختم مسألة أطبق من القمطر طبقاً وأفتح آخر، وإذا جئت أنام أغلق كلّ الطبقات فأنام". وكان يقول:

- "لا أستطيع أن أحفظ بيتاً من الشعر. ولكنّي أحفظ عن ظهر قلبي جميع ما يتقدّم لي من التقارير عن الأحوال". وكان إذا سأل سؤالاً لا ينتظر ريثما يأخذ الجواب، بل يواصل الأسئلة بعضها وراء بعض. فسأل مرّة سيّدة في ليلة راقصة سؤال ضابط حدود عن تذكرة مرور: أمتزوجة أنت؟ ألك أولاد؟ كم ولد لك؟ متى تسافرين؟ والحاصل أنه أخشن من جندي قائد عشرة.

ذهب بدعوة إلى مدينة أورليان سنة ١٨٠٨ فاحتفلوا به من خوفهم منه احتفالاً عظيماً وأنفقوا نفقات أخرجتهم إلى عشرين سنة. وجاء أعيانهم جميعاً يقفون لدى مروره صفوفاً من الجانبين. وتبارى المطران والمدير والقائد وسائر ذوي المناصب في التزلّف والتبصيص. ولما كانوا على السفرة التفت نابوليون إلى أحد أعضاء المجلس البلدي، وسأله:

- كم يبلغ عدد أهالي المدينة؟
- من ٤٠ إلى ٥٠ ألف نسمة مولاي.
- أأربعون أم خمسون، يجب عليك أن تعرف ذلك بالتمام.
- ثمّ سأل سؤالاً آخر:
- ما هي المسافة من هنا إلى مصبّ جدول أورليان؟
- لا أعلم بالتمام مولاي.
- بل يجب أن تعلم.

ثمّ ألقى السؤال نفسه على سائر الحاضرين. فأجاب بعضهم: فرسخ^(٢) وأجاب الآخرون:

(١) Caporal

(٢) الفرسخ المعبر عنه بلفظة Lieue، هو أربعة كيلومترات.

فرسخ ونصف فرسخ. فهزأ بتناقض كلامهم. ثم اندراً على رئيس المجلس البلدي، فسأله: كم عنده من النقد في الصندوق.

فأجابه: ثلاثمائة ألف فرنك مولاي.

فقال له: جيد فسأحفظها عندي.

فسال العرق من جسم الرئيس ونقده المبلغ ولم يعد المال إلى مدينة أورليان إلى هذه الساعة. نعم، إنَّ رئيس البلدية أورليان صار باروناً بأمر الإمبراطور.

أعظم البطون جرماً

- كانت أمه "لوتيسيا" تصلح أن تمثل في مرزح هزلي. وما كان يراه الناس فيها وقاراً أنَّ هو إلا سخط وقطوب دائم. وكانت من قبيل الساحرة التي يروّع بها الصغار في رومة، أو من نمط "مادام برنل"^(١) شديدة الضنّ سيّئة الظنّ. وكانت في ذات نفسها مغتظة من نابليون، غير راضية عمّا أتسق له من الفوز والمجد. أفلم يأخذ نابليون منزلة أخيه البكر يوسف؟ أفيمكن أنَّ الإرث في الأسر الشريفة الكورسيكية يذهب إلى الأخ الثاني؟ فالإرث عند آل بونابرت هو فرانسة وممالك أخرى. فكان نابليون يبوئ أخويه يوسف ولوسيين وشقائقه عروشاً^(٢) ويرقيهم أسرة هم وجميع الحاشية حتّى يصل الأمر إلى "جونو"^(٣) هذا الذي لم تكن له أدنى مزية. وبعد

(١) مادام برنل (Madame Pernelle)، امرأة تخيلها مولير في رواية تارتوف (Tartuffe) صحابة سيّئة الخلق.

(٢) والد نابليون شارل بونابارت، ولد في إجاكسيو من كورسيكا سنة ١٧٤٦ ومات في مونبليه سنة ١٧٨٥ وتأهل سنة ١٧٦٤ بمارية ليسييا رامولينو هذه الذي يتكلم عنها أناتول فرانس في هذا الفصل؛ فولدت ثمانية أولاد وماتت هي في رومة عام ١٨٣٦.

والأولاد الثمانية هم: الأول يوسف، ولد في كورسيكا سنة ١٧٦٨ وصار ملكاً على نابولي سنة ١٨٠٦ ثم ملكاً على إسبانية من ١٨٠٨ إلى ١٨١٣، ولما انتهى أمر نابليون في واترلو رحل إلى الولايات المتحدة ثم عاد منها إلى أوربة ومات في فلورنسة سنة ١٨٤٤. الثاني نابليون ولا حاجة إلى التعريف به. الثالث لوسيين، ولد في إجاكسيو سنة ١٧٧٥ وصار رئيس مجلس الخمسمائة وبرنس كانيو، ومات في إيطاليا سنة ١٨٤٠، وله ولد هو الأمير بيار بونابارت، والد الأمير رولان المولود سنة ١٨٥٨. ثم الأميرة ماري حنة إليزة، ولدت في إجاكسيو سنة ١٧٧٧ وتزوجت بفيليكس باتيوشي الذي صار برنس دولوك، وماتت ماري في تريسته عام ١٨٢٠. ثم لويس وكانت ولادته في إجاكسيو سنة ١٧٧٨، صار ملكاً على هولاندة من ١٨٠٦ إلى ١٨١٠، ومات في ليفورنة سنة ١٨٤٦، وهو والد نابليون الثالث. ثم ماري بولينه المولودة في إجاكسيو عام ١٧٨٠ وتزوجت بالجنرال لوكلاك سنة ١٨٠١ ومات عنها فتأهل بها البرنس كميل بورغيز وصارت دوقة غواستالاً وماتت بفلورنسة سنة ١٨٢٥. ثم كارولين ماري أنونسياد، ولدت بإجاكسيو سنة ١٧٨٢، تزوجت بيواكيم مورا ثم صارت دوقة برغ وكليف ثم ملكة نابولي وكانت وفاتها بفلورنسة سنة ١٨٣٩. ثم جيروم المولود بإجاكسيو في سنة ١٧٨٤ صار ملكاً على وستفالية من ألمانة من ١٨٠٧ إلى ١٨١٣ وتوفي سنة ١٨٥٠ وله البرنس نابليون جيروم، والد البرنس فيكتور نابليون المولود سنة ١٨٦٢، والجيروم أيضاً الأميرة ماتيلد التي ماتت سنة ١٩٠٤. وآل بونابارت طليان ارتحلوا إلى كورسيكا.

(٣) جونو (Junot)، جنرال فرنسوي، كان من مصاحبي نابليون. وافقه في حروب إيطاليا وفي غزاة مصر وأصابه عارض جنون فاتحتر سنة ١٨١٣.

واترلو التجأت أمّ نابليون إلى رومة فكانوا في الأسواق يصقرون لها. وقالت عنها الدوقة «دالباني»^(١) كلمة أرسلتها مثلاً: «هذه المرأة هي أعظم البطون جرماً في النصرانية».

لا حاجة بي إلى المجد

- وبالرغم من هذا كلّه فكان عند نابليون حسّ عظيم بالمعقول وبهذا تمكّن من الشعب. وأكثر ما يظهر إدراكه لروحية الشعب هو في تنقيحاته للمونتيرور الجريدة الرسمية. فكانوا يقدمون له المسودّات فيملأها تظليلاً وتنقيحاً بملاحظات سديدة فصيحة. مثلاً، أثناء حرب إسبانية كتب محرّر الجريدة هذه العبارة: «إنّ الإمبراطور بقوة أقلّ جدّاً من قوّة العدو، أحرز عليه نصرة تامّة» فكتب على الحاشية: «يا حيوان!» أنا لست محتاجاً إلى مجد وعندي منه ما يفضل عن حاجتي، وأنّما أنا محتاج أن يُظنّ أنّ عندي جنوداً، ممّا ليس عندي في الحقيقة» فضرب على الجملة بقلمه وكتب: «وزحف الإمبراطور بعساكر أكثر جدّاً من قوّة العدو فأحرز عليه نصراً مبيّناً».

ومثال آخر: كتب إليه أحد المديرين من ولايات الجنوب أثناء حوادث انتفاض على الحكومة: «إنّ الثوّار اعتصبوا بالأحراج فأرسل الشرطة في أثرهم، وإنّه يرجو أن يتمكّن من القبض على البُلط^(٢) وسوقهم إلى الثكنة» فأجابه: «بأن يترك الجمّاح^(٣) وشأنهم لأنهم لا يكونون عساكر حياًداً وعند أول طلقة مدفع يولون الإدبار. ولكن ليرسل الشرطة لأنّ هؤلاء على الأقلّ عسكري».

الرجل العظيم ليس برجل

- كان مضحكاً وكان عليلاً. وقد مات كلّ من أبيه وجدّه بالسرطان. فورث منهما الرخاوة وشيئاً من العنة. فكان هذا الرجل العظيم غير رجل في هذا المعنى أو قليل الرجل. وما على المستطلع إلّا أن يقرأ ورقة الضبط التي حرّرها الجراحيون الإنكليز عند الكشف عن الجثة. فقد تولّاهم الدهش من منظر جسد نابليون الأنثوي. وما كان طول حياته يعبأ بالنساء وإنّما عشق امرأة واحدة وهي: الحرب والمجد. فهو كسائر المستبدّين سلب الدنيا راحتها لما وجدته من النقص

(١) دالباني (d'Albany)، من بلاد الأيكوس.

(٢) الفارون من العسكر.

(٣) الجمّاح: هم الفارون من الحرب لا يمكن ردهم.

في نفسه. أتعرف لماذا نَمَقَ جان جاك كتابه "التواثق الاجتماعي"؟ هو لأنه كان ساخطاً على الدنيا فيريد أن يشعل النار في أطراف الأرض. وتجد في الشرق أن الخُصيان هم الذين أحدثوا كلَّ الثورات والحال هكذا عندنا، فبعد سنة ٨٩^(١) كان اللقطاء والمنابذة^(٢) والحُدب والعرج والمقعدون وذو العنة هم الظاهرين في ميدان السياسة. ولم يكن نابوليون بهذا العجز كلّه عن النساء ولكنه لم يكن مسلةً فرعون. فلو افترضنا أنه أحبّ أو تعلق قلبه أو أحسّ بهذه العواصف وتلك السكرات التي يشبّها أفلاطون بـ "خيل جامحة بعجلة النفس" فلم يكن عنده الوقت اللازم لمثل هذه الحالة، بل كانت حياته نوعاً من حياة الكلاب، فقد كان يكتفي من الرقاد بثلاث ساعات لا غير وينهك جميع الناس الذين حواليه. فهو لم يكن بشراً ولكن آلة صماء متحرّكة. اتفق له مرّة وهو بمصر أنه صبا إلى امرأة وهو معها على المائدة، فلم تكن نفسه عنها بنجيحة حتى أمسك بإبريق الماء وصبّ منه على ثوبها، ثمّ ذهب وإياها إلى غرفته بحجة أنه يريد أن ينشف الثوب وزوجها قاعد ينتظرها.

عجز قيصر

- هذه الجزيرة، سانت هيلانه، تظهر لنا في خلال غيوم التاريخ نظير جبل سيناء. ويكفي أن ندقق النظر في التقارير والتذاكر المخلفة عمّن رافقوا الإمبراطور إلى منفاه وفي "الميموريال"^(٣) نفسه لنعلم الصورة المضحكة التي انتهت بها هذه المأساة. ولم يكن السير "هودسون لو" من اللؤم والخبث إلى الحدّ الذي زعموا، ولكن أسيره كان لا يطاق. فقد كان يظنّ نفسه لا يزال عاهلاً. ومن قبل نفيه إلى سنت هيلانه عندما كان في "ألبا" أقام هذه الجزيرة وأقعدّها. فشرع في حفر مرفأً وامتهاد طرق وسنّ قانوناً لأهل الجزيرة. ولو تركه سجنانه في سنت هيلانه يركب رأسه لكان حوّل الجزيرة إلى مقاطعة فرنسوية. وفي الحقيقة كان يذوب حسرة على فقدته الحكم والقدرة على العفو وعدم إمكانه توبيخ الوزراء وإعلان الأوامر، وفرض الضرائب، وإجباط المؤامرات. فحركة هذا الرجل كانت من الأعاجيب وكان فيها شيء من المرض. ولا شكّ أنّ السبب فيها راجع إلى التواء في أصل بنية الرجل. ومّا لا يخفى عليك أنه كان مقتصدًا جدًّا في

(١) الثورة الكبرى.

(٢) الذين لا يُعرف لهم أصل.

(٣) الميموريال (Mémorial)، هو تأليف بقلم "لاس كاز" يجمع أحاديث نابوليون عمّا لقيه في كلّ أدوار حياته.

الياه، فقد أحبّ جوزيفين^(١) وصبا قلبه مرّتين أو ثلاثاً ولكن هذا قليل جداً على إمبراطور مثله. وتأمل كمّ كان يتأتى له من هذه الفرص بمكانه هذا! أمّا هو فقد كان يفرّ من هذه الفرص بدلاً من أن يتورّدها.

وكانت سيرته نحو "كوستين" الفتانة سيرة جندي قائد عشرة من كورسيكا. فبينما كانت مرّة مع جميع نساء الحاشية في التويلري وقد قمن صافّات بين يديه إذ مشى نحوها وخاطبها بصوت جافّ كأنه صوت معلم رديف:

- هل تحبّين دائماً الرجال؟

انظر إلى مقدار غلظّ هذا الرجل الذي يخاطب سيّدة بمثل هذا الكلام وينسى أنه ملك ملوك. فأجابته:

- نعم، مولاي، لا سيّما إذا كانوا مهذبين.

لله درها من صبيّة أخذت بثأر جنسها. فلا يوجد رجل ذو أخلاق يستجيز هذا الفعل، ولقد تركته بجوابها حائراً لا يدري ما يقول. وفي الواقع كان لا يهوى النساء، بل يحتقرهن. ومن الناس من يقول: "لم يكن يهوى لعدم اتداح الوقت له" والمسئلة أبسط من هذا. أنه لم يكن يهوى النساء لنقص في خلقته. ونظير جان جاك كانت عبقريته من قبل نقصه. وأنّ الطبيب الذي كشف عن جثمانه عند تحنيطه لم يذر شيئاً مجهولاً من هذا الأمر. فقد قرّروا أنه لما وُضع جسم الإمبراطور مجرداً كانت هيئته نسوية وكان البطن متمدّداً أكثر من المعتاد. فإذا كان ابن "لاتيسيا رامولينو" قد شعّث الدنيا وجعل عاليها سافلها وأسأل الدماء كودق السماء فما ذلك إلا من أنه كان سريساً^(٢).

جوبيتر أشبه بسكابين^(٣)

كان نابليون يضرب بعرقه إلى تلك الأمة المتقلّبة المتلوّية الولود التي لها مزية إنبات

(١) جوزيفين (Joséphine)، كانت زوجة الكونت دو بوهارنية (De Beauharnais) فقُتل زوجها في الثورة الفرنسية فتأهّل بها الجنرال بوناپارت سنة ١٧٩٦، وصارت إمبراطورة سنة ١٨٠٤ ثمّ طلقها نابوليون لخمس سنوات من زواجهما وتزوّج بماري لوز، ابنة فرانسوا الثاني، إمبراطور النمسا. وهذه، بعد وائرلو تزوّجت بالكونت نيرغ كما تقدّم ثمّ بالكونت بومبيل (Bombelles)، وماتت سنة ١٨٤٧.

(٢) عاجزاً عن الباه.

(٣) سكابين (Scapin)، شخص خيالي اخترعه مولير في إحدى رواياته يمثل الحبث والطمع والاحتيال مع مزيد الحذق واللبق في التصرف.

القياصرة والباباوات والمغنين والطهارة والساسة... "كاساندر" (١) والدكتور "تارتاليا" (٢) و"ماكيافل" (٣) و"مازيرين" (٤) والأب "غالياني" (٥) و"باسكين" (٦) وغيرهم.

وكان أبناء وطنه يعرفونه - أبناء وطنه هم الطليان لا الكورسيكيون - فلما تردّد البابا في أمر السفر لتتويجه قال له الكرادلة: يجب الذهاب أيها الأب المقدّس، يجب الذهاب. لأنّ هذا الرجل هو طلياني ونحن نؤيّد على البرابرة. فجاء البابا وتوجّه، وكانت مأساة مضحكة كما قال ألفريد دو فينيي. وهو الذي سمّاه: جوبيتر سكاين. لأنه كان مهرّجاً وكان عظيماً جداً. وهذا الذي يُطرب الشعب. وكان يشبه لويس الرابع عشر لأنّ الملك الشمس (٧) كانت له حفلة

(١) ملك مكدونية ثمّ ملك مكدونية ويونان معاً، تزوّج بتسالونيسة، أخت الاسكندر، وأهلك جميع أسرة هذا الفاتح.

(٢) مهندس رياضي طلياني.

(٣) ماكيافل (Nicolas Machiavel)، كاتب سياسي طلياني، ولد في فلورنسة سنة ١٤٦٩ وبقي ثلاث عشرة سنة ناموساً للجمهورية الفلورنسية وناب عن وطنه في ٢٣ سفارة وأُنْفذَ بهمّ إلى قيصر بورجيا سنة ١٥٠٢ ثمّ إنّه نكب بعد رجوع الأمراء آل مديسيس ونُحِيَ عن منصبه وعُدّب واضطّر إلى المعيشة في القرى فانصرف إلى التأليف وصنّف كتباً عديدة اشتهرت بين الناس. وكان محور آرائه السياسية أنّ الغاية تبرّر الوساطة، وأنّ الدولة هي كلّ شيء وأنّ على الإنسان عند ميسس الحاجة أن يضحي كلّ شيء في سبيلها فيبذل المال والدم والشرف وكلّ غالٍ لأجل إعلاء شأن الدولة التي هو من تبعها. وسمّى هذا المذهب ماكيافيليسم وصار يعنى بهذه الكلمة حصر الاهتمام كلّه بالغاية والوصول إليها بأيّة طريقة كانت: وقد نشر فريدريك الكبير، ملك بروسيا، كتاباً سمّاه "ضدّ ماكيافل" ينقض فيه آراء هذا في كتابه المسمّى "بكتاب الأمير" الذي يزعم فيه أنّ كلّ شيء جائز لأجل الملك. واصطلاح ماكيافل مع آل مديسيس في آخر عمره وكتب تاريخ فلورنسة في عدّة أجلاد، ومات سنة ١٥٢٧.

(٤) مازيرين (Jules Mazarin)، أصله من عائلة صقلية استوطنت رومة، ولد سنة ١٦٠٢ وتعلّم عند الجزويت ونشأ باهر الذكاء فاستعمل في السفارات البابوية إلى أن جعل قاصداً للبابا في فرانسة (١٦٣٦) فأقام بهذه الخدمة مدة ثمّ دخل في خدمة الملك لويس الثالث عشر الذي بواسطته صار مازيرين كردنياً، ولما مات لويس الثالث عشر سنة ١٦٤٣ وتولّت كفالة الملك الملكة حتّى الأوسترية كانت كلمة مازيرين عندها هي الأولى. وهو الذي عقد صلح وستفالية الذي انتهت به حرب الثلاثين سنة ١٦٤٨. ثمّ اختلف والبرلمان فأقام البرنس كوندي ضدّاً للبرلمان. ثمّ وقعت الوحشة بينه وبين كوندي فهاج عليه البرلمان حتّى اتّفق الجميع عليه أخيراً واضطّر إلى الخروج إلى كولونية من ألمانيا. ولكنّه بقي بدير السياسة سراً من منفاه. ثمّ جاء إلى باريز ونصّب تورين في وجه كوندي، ثمّ نشبت الحرب مع أسبانية فتحال مع كرومويل وتغلّب على الإسبانيول وأضاف إلى فرانسة عدّة مقاطعات من أسبانية. وألّف عصبة الرين التي ضمنت لفرانسة نفوذ الكلمة في ألمانيا. ومات في سنة ١٦٦٨ وخلف ثروة طائلة وهو الذي ربّى لويس الرابع عشر وعلمه السياسة وزوّجه ماري تيريز الإسبانية وجعل هذه القرى بين البلاطين.

(٥) غالياني (F. Galiani)، اقتصادي طلياني شهير، ولد سنة ١٧٢٨ ومات سنة ١٧٨٧، ومنذ كان في سنّ السادسة عشرة بدت عليه أمائر النبوغ واتّصل بأكابر العلماء فقدّروا قدره. وفي سنة ١٧٥٩ صار كاتباً في سفارة بلاده بباريز وكان حزقةً مفرط القصر، فكان رجال السياسة في البداية يضحكون منه إلى أن عزم على الخروج من باريز ولكنّه لم يلبث أن استعاد ببسطة العلم ما فاتّه من بسطة الجسم، وصار له مزيد الحظوة في أندية باريز الأدبية والفلسفية بحسن محاضراته وسرعة حاضره وحرارة نكته وكثرة تهريجه حتّى قال فيه "غريم"، الكاتب الألماني: "هو أفلاطون في أطوار أريكين" (المراد بأريكين الرجل الذي ليس له مبادئ معروفة). وقال "مار مونتيل"، الكاتب الفرنسي: "هو أطف وأصغر أريكين أنجبته إيطالية لكن على مناكب هذا القزم كان رأس ماكيافل" وترك غالياني مؤلّفات كثيرة في السياسة والحقوق الدولية ولأنّ معيشة الإنسان ضنك إذا ذهب عشراؤه.

(٦) نحّات في رومة، كان أجاد نحت تمثال فُسب إليه. وكان السفهاء يذهبون ليلاً إلى التمثال فيكتبون عليه هاجرات بحقّ البابا والكرادلة.

(٧) هكذا كان يُلقّب لويس الرابع عشر في بلاده.

تكفير ونصرات في الحروب وحظايا ومصائب، ومات ميتة ذات جلال... وإذا كان لنابوليون عبور "البيريزينا"^(١) فلويس له عبور الرين وكلّ منهما تخاصم مع البابا. إلا أنّ الملك كان دائماً وقوراً حتّى في اللعب بالبيلياردو وكان قاهرًا للمسخرة وكان يحفظ شعره العاريّة ولا يزال الإنسان يراه شريقاً سرّياً ولو على الكرسي المثقوب من أسفل. فإنّ القروح لا تجعل الرجل الشريف ضحكةً ولو كان "ميشله"^(٢) قال بعكس ذلك.

أمّا نابوليون فلولا العوام و"بيرانجه" لم تكن له هذه المنزلة.

فقلت له:

- وماذا تقول في خطبه وترسله.

- كلّ هذا مزور يا حبيبي. كان عنده عصابة من الثقلاء يحفظونه هذه الأشياء ويروون عن لسانه كلمات تاريخية: فإذا أراد هو التفاوض كان شيئاً بارداً جداً. كان يا ابني لا يعرف الإفرنسية ويرطن رطانة الطليان الذين يتكلّمون بلغتنا (وعدّ له أغلاطاً اشتهرت عنه في هذا الموضوع).



جعل لي أنفي أعوج

صوّر مصوّر اسمه "كاريري Carriere" الأستاذ أناتول فرانس مرّة فرمى هذا بالصورة في مثلح^(٣) الحمام. فقالت له العقيلة:

- كيف ساغ لك أن ترمي في مثل هذا المكان قطعة فنّ من كاريري؟

- وأيم الله إذا كانت هذه قطعة فنّ فليست على كلّ قطعة فنّ في المشاكلة قد عمل لي أنفي أعوج.

- قد عمله كما شاهده يا سيّدي.

- مثلي في يحموم من الدخان وفي فمي صنبور أدخّن به مع أني من عشر سنوات ما دخّنت إلا بسيكارات عقاقيرية.

(١) البيريزينا (Péresina)، نهر في الروسية.

(٢) ميشله (Jules Michelet) المؤرّخ، أشهر مؤرّخ إفرانسي في الأعصر الحديثة جمع سعة الاطلاع إلى قوّة التخيل وسحر البيان فيقال إنّ التاريخ الماضي بين يديه كاد يكون بعثاً بعد الموت. ولد سنة ١٧٩٨ ومات سنة ١٨٧٤ واشتهر بحرّية المشرب فمعه من التدريس لمعهد الإمبراطورية. وله مؤلّفات كثيرة في التاريخ من أشهرها تاريخ الثورة الكبرى.

(٣) المشلح: حجرة في الحمام تُخلع فيها الثياب.

- إنه من الإثم أن تترك صورة كهذه في محل مهمل كهذا
- نعم، وكلّما نظرت إليها فهمت لذّة ابن آدم بهذه الحياة المحزنة.

برلين ثكنة عسكرية

قال:

- برلين مدينة جميلة منتظمة حسنة الاختطاط. ولقد علمت رأيي هذا بدون شك من بطائقي البريدية^(١)، إلا أنه ليس فيها بناء واحد ذو هندسة خاصّة به. فالقصور ودور التحف والكنائس تحسبها نسخة عن مثلها عندنا. ولكن هناك مخازن عظام كُبّارة، بجانبها "بون مارشيه" و"اللوفر" اللذان عندنا، تعدّ أصداف جوز. وفي هذه المخازن لا تجد ما تلبسه فقط، بل تجد ما تطعمه. وأنّ الفرنسي يجد نفسه في برلين غريب الديار لكن البرليني لا يخلو من رقّة. فإنهم كانوا يعرفونني كانوا يوسعونني برأ وتكريماً. على أنّ الرفق هو في الجملة بعيد عن المشاة في شوارع برلين. فكّم من مرّة برغم شيخوختي وبياض شعري كان يصدمني أحد المارّة صدمة هي من العنف بحيث لا أستمسك على الرصيف. وأكلت ذات يوم ضربة على جهة الكبد في أثناء زحام، فكدت أهوي تحت العجلات، وبدلاً من أن يعتذروا لي، أفهموني أنّ الخطأ هو منّي وأنتي خالفت القواعد. لأنّ في ألمانية بلاد النظام رصيفاً للصاعدين ورصيفاً آخر للنازلين. وأطلعوني على راهنامج مطبوع فيه بيان هذا... فكلّ الناس مأمورون بطاعة هذا الراهنامج بدون استثناء، إلا ضباط الجيش، فإنّ هؤلاء لا يقاس بهم غيرهم. وقد سألت أصحابي البرلينيين الذين كانوا أحفياء بي جدّ الحفاوة: "فماذا يصنع على هذه الحال الساهون والشعراء والعشاق؟" فأجابوني: "يذهبون إلى مركز الشرطة ويؤدّون الغرامات وقد ينامون في الحبس" فعاصمة ألمانية هي أنموذج النظام، لا تراعي خليلاً ولا في المنام. ومن كان عاشقاً أو شاعراً أو كان عقله سائحاً، فليذهب إلى البرية.

ولأجل جريدة، نسيناها على مقعد في "تيرغارتن"^(٢) جاء الشرطيّ وعمل معنا قصّة. ولحسن الحظّ كانت العقيلة تعرف الألماني مثل غوته^(٣)، فتكلّمت معه ولما فهم أننا فرنسيس رقّ

(١) Cartes Postales.

(٢) تيرغارتن (Tiergarten) ومعناه جنة الحيوانات. من أجمل شوارع برلين.

(٣) غوته (Goethe)، أكبر شاعر ألماني ومن أكبر شعراء الكرة الأرضية، فخر اللغة الألمانية والمتكلمين بها. ولد في فرانكفورت على المين محترمة، بدت عليه منذ نعومة أظفاره علامات النبوغ وكان أكثر ميله إلى الآداب وأثرت فيه لذلك العهد كتابات لسينغ، الأديب الألماني المشهور. ودرس نحو ثلاث سنوات في لايبسيغ ثمّ تحوّل إلى ستراسبورغ، حيث كان من رفاقه هردرولانس وفاغتر وغيرهم من فحول =

خلقه وعذر فعلتنا هذه، بما نحن معروفون به من الطيش، وبأنّ فرانسة بلاد لا نظام فيها ولا قيد، يتبختر الفوضويون فيها يميناً وشمالاً كما يشتهون. وانتهت القضية كما هي العادة دائماً بنُحْلان صغير^(١). على أنني التزمت أخذ الجريدة بيدي طائعاً منقاداً إلى سلّة الخيوط الحديدية

= علماء ألمانية: وقرأ التوراة وشعر شكسبير وفنّ الأدب الألماني في القرون الوسطى. واتصل سنة ١٧٧٥ بخدمة الفرانودوق كارلوس أغسطس، أمير فايمار، ووزر له وهناك تدفّق بحر قريحته، فأخرج أبداع ما كتبه ألماني من نظم ونثر، فدوّى ذكره في كلّ البلاد وتناقلت كبه الناشئة من قاص ودان. وقيل إنّ قصصاً نمقه بلغ من تأثيره في شبّان عصره أنّ منهم من انتحر بسببه. وسنة ١٧٨٦ سافر إلى إيطاليا، فصنّف وهو في فلورنسة كتباً عديدة ثمّ صنّف في رومة. ولم يقتصر على القصص والروايات والفنون الأدبية، بل ساقه الشغف بجمال الطبيعة إلى النظر في التاريخ الطبيعي والتشريح. ولما ثارت الثورة الفرنسية رأى فيها غوته بادئ ذي بدء انفجار نفوس غضبية، إلّا أنه لم يلبث أن فهم أهميتها وما حدث بها من الانقلاب في أوربة. وكان يكره شيلر، الشاعر الألماني الكبير، الذي كان له في العبقرية ثاني اثنين. ويقول إنّ شيلر وسيلة للتعارف والتوارد وصاروا يداً واحدة وتباريا في إخراج البدائع كلّ من جهته. وقد كتب بعض التأليف معاً وما زال كاشخص الواحد إلى سنة ١٨٠٥ إذ مات شيلر فحزن عليه غوته حزناً لا يوصف. وكان يقول إنّهُ فَقَدَ بموته نصف نفسه. وكان مع اشتغاله الدائم بالنظم والنثر وزيراً للأمير في فايمار لا يألو جهداً في خدمة وطنه في تلك الأيام العصيبة وفي حروب نابليون. وقد تعارف غوته معه وقال له نابليون عندما فارقه: "أنت رجل ناهيك من رجل يا مسيو غوته" ثمّ اشتغل بالعلم الطبيعي ونشر كتاباً في الألوان، مخالفاً به رأي نيوطن في النور. وكان يراقب مجرى الحركة الفكرية في عصره ويجتهد في ترقية الأدب الألماني ببثّ روح النقد والتحقيق ونشر محاسن آداب الأمم الأخرى فيما بين الألمان. وبعد أن كتب ما لا يكاد يُحصى من الكتب والرسائل التي ملأ بها الآفاق مات في فايمار وقد بلغ مجده النهاية. وكان ذلك في أوائل أيام الربيع فقيل إنّهُ في ساعاته الأخيرة رأى السجوف مسدولة على النوافذ فأمر بإمالتها وهتف. "النور. النور. زيادة من النور أيضاً" وهذه كانت أخريات كلمات ذلك الرجل الذي قضى حياته يجرد في زيادة الأطلاع واستيحاء أنوار الحقائق وفي استقصاء أحوال البشر والتأليف بينهم وبين طبائع الوجود. وندر أن يكون قلب أحد شغف بحبّ الجمال والحقّ ما شغفه قلب غوته. ووقع انطفاء هذا النور في عام ١٨٣٢. وسألحق هذه الخلاصة من ترجمة غوته بهذه النكتة.

وهي أنني سنة ١٩١٧ كنت في ألمانية، فدعتني الحكومة الألمانية إلى زيارة عواصمها ومدائنها الشهيرة مثل هامبورغ ولايبغ ومونيخ وفرانكفورت وكولونية... إلخ، وبعثت نظارة الخارجية من برلين بأوامر إلى تلك المدن لإجراء ما يجب من الاحتفاء الذي لسنا الآن بصدده وأنما أذكر من جملة ما كانوا يتوخّونه من أسباب الحفاوة بالزائر، الطواف بدور التحف العديدة والقصور الفاخرة والمنازل التي كانت لأعظم الرجال، كبيت غوته في فرانكفورت. ولما أدخلونا إلى هذا البيت، دفعوا إليّ الدفتر المعتاد أن يقيد فيه الزائر اسمه أو أن يكتب فيه خاطراً يعنّ له، فبدلاً من الاكتفاء بوضع اسمي وتاريخ زيارتي راعيت صفة صاحب هذا البيت فاخترت أن أنظم هذا التذكار شعراً. وكان شيطان الشاعر الأكبر أحسنّ بما كان يخالج قلبي فأمدّني بنتف من عبقريته، فكتبت الأبيات الآتية بدون أدنى تأمل، كما أنّها كتبت أوقعّ بإمضائي، إلّا أنّ البيت الأخير ليس لي، فأردفت الأبيات به من باب التضمين وهي هذه:

مدّ قيل هذا بيت غوته زرته	إذ كان للشعراء كعبة قاصد
هو سيّد الشعراء عند قبيله	منه بجيد الدهر عقد فرائد
طاطأت رأس قريحتي في بابه	ولكم رأيت عتباته من ساجد
إن لم يكن من أمّتي وعشيرتي	فالناس في الآداب أمة واحد
أو فاتنا نسب يؤلّف بيننا	أدب أقمناه مقام الوالد

وبعد مجيئي إلى برلين بأيام، أخذ بعض الأصحاب يطلعونني على جرائد برلينية كالفوسيشي تساتيونغ وجرائد من فرانكفورت ومن هامبورغ وغيرها فيها وصف زيارتي لبيت غوته ونظمي هذه الأبيات ارتجالاً وترجمة الأبيات بالحرف.

وظهر أنّ بلدية فرانكفورت هي التي انتدبت العلامة المستشرق الأستاذ هوروفيتز، مدرّس العربية في جامعة فرانكفورت لترجمة الأبيات إلى الألمانية، وهو من الأدباء الراسخين في العربية، سبق له تدريس هذه اللغة في عاليكر بالهند، كما أنه سبق له ترجمة كثير من الشعر العربي، من جمله ديوان الكميّ. فنشر الأستاذ هوروفيتز على هذه الزيارة وهذه المقطوعة مقالة ذهب فيها مذهب الغلوّ وجعل عنوانها "من شاعر الشرق إلى شاعر الغرب" وأين الثريا من الثرى، وأين اللائى من الحصى.

(١) Pourboire.

المعدّة لوضع الأوراق. فأخذت العقيلة تنتهد وتقول: «آه، لو كانت معي الآلة الفوتوغرافية، فكنت أحفظ بها هذا التذكار شاهداً على الفظاظة الجرمانية» أما أنا فكنت أضحك.

أفجاءتك بطاقتي البريدية عن وصف مرور الحرس أمام القصر؟ كان ذلك حقاً منظرًا من مناظر قرون غربت. وكان المطر يومئذ كما هي عادة برلين في المطر. فالسماء دانية للأرض قائمة والغيث يسح بالأسطال والأرطال والأطنان^(١). وكنت أكاد أعجز عن حمل مظّتي. وإذا بالحرس ماراً بجميع طنطنته العسكرية وبالقوق والطبل كأن لم يكن شيء. وكانت جزمات الجنود تقرع الأرض والماء يسيل من الحمرّ الذي كانت مبلّطة به الطريق ويلاقى الماء النازل من السماء. فكان منظر هؤلاء المساكين يذكرني بشخوص النحاس التي على حياض قصر فرساي. وكان شيئاً مضحكاً فأتذكر واحداً يقرع بالطبل، على رأسه خوذة مستطيلة عريضة بحجم الولد والمطر يسيل عنها كما يسيل عن فقار سقف مستم. وكنت أرى الماء على أنفه وسباله، أشبه بشلالات صغيرة وهو مع ذلك ماضٍ غير مبال يضرب بعصاه وهي تعود مدفوعة بالهواء. فلما شاهدت هذا المنظر، أحسست بجرح في عواطفني القومية وتضرّعت إلى عظيم القدرة وأنا تحت مظّتي بهذا الدعاء: «إن كنت يا إلهي موجوداً، فازكم هذا الطبال الغطريس واجعله يفتس في وسط العرض أو فلتصطك تقاحة عصاه الثقيلة على وجهه الصفيق» ولكن يا للأسف، الآلهة لا يسمعون دعاء الأبرار، بل يتسلّون بظهار الجور على العدل، فإنني أنا يا ولدي كنت الذي أصابه الزكام، بمجرد رؤية هذا الضارب بالطبل.

ودخلنا عصر يوم إلى قهوة وطلبنا جعة. فإذا بصاحب القهوة أقبل مغيظاً يقول: «يجب أن تخرجوا من هنا، لأنّ هذا المكان خاصّ بالضباط»، فقالت العقيلة: «قل لهم إنك ضابط في جوقة الشرف» فاخترت التحوّل إلى قهوة أخرى.

وهؤلاء الضباط هم في الحقيقة آفة برلين. ولولاهم كانت الحياة فيها مقبولة. فلا يرى الإنسان غيرهم ولا يسمع نغية سواهم ولهم الصدر في كلّ مكان. وإذا كنت في المركبة الكهربائية أو العجلة الحافلة، يمرّون قبلك ولو كنت قاطعاً ورقة من الدرجة الأولى. فهذه أمور لا تتأتى في باريز، فلو أنّ ضوبيطاً في باريز، استجاز أن يصدّم عجوزاً في طريقه، لأوقع به الناس. ومع هذا، فالضباط فيهم هناك شيء أعلى ممّا فيهم هنا.

وفي برلين مطاعم وسط جنان، أكثرها في الضاحية، وهي برهو أسعارها وفراهة خدمتها ولذاذة طعامها، ممّا ينذر نظيره. فتأتي إليها العائلات والأخدان وتجذ لكلّ عائلة مائدة خاصّة بها تحت الشجر. وكلّ من هناك يتمتّع بحرّيته، كأنه في مخدعه الخاصّ. وأحسن أوقاتها هو فصل

(١) الطنّ بالعربي حزمة القصب والعلّوة بين العدلين، وعند الأوربيين الطنّ (Tonne) مقدار ألف كيلوغرام.

الصيف كما لا يخفى. فيتذوق الإنسان طراوة الليل وطيب الجعة وبهار الأطعمة وأحان الموسيقى. ولست ذا مسكة في علم الموسيقى ولا لي أذن ولكن العقيلة في هذا المعنى تدلي بملكة قوية. فقد أخبرتني أنهم يصدحون هناك بالموسيقى العالية لأشهر أرباب الفن: «باخ»^(١) و«بيتهوفن»^(٢) و«فاغنر»^(٣) و«شومان»^(٤) و«ليتز»^(٥) أما أنا فمثل «كانت»^(٦) الذي كان قليل التمييز في الموسيقى ولم يكن يشعر إلا بالموسيقى الغليظة أي العسكرية.

(١) باخ (Sébastien Bach)، من أعظم موسيقيي الألمان عائلة (Bach) ظهر فيها عدد من نوابغ هذا الفن إلا أن أبدهم صيًّا جان سياستين باخ، (١٦٨٥ - ١٧٥٠).

(٢) بيتهوفن (Beethoven)، ولد سنة ١٧٧٠ ومات سنة ١٨٢٧ بفينا، وكان أبوه منشداً في كنيسة أمير كولونية. ولم يمل قلبه في مبدأ أمره إلى فن الألمان، إلا أن مطالعة كتب باخ وهندل بعثت فيه الغرام بالموسيقى فجاء إلى فينا ولزم موزارت فتفرس موزارت فيه النبوغ. فأخذ عنه وعن معلم آخر اسمه شنك وقضى أكثر حياته في قرية بادن بقرب فينا. وتفوق بالموسيقى الآلية وألف ٣٥ قطعة للبيانو وكان يجمع الفصاحة إلى حسن الإيقاع وأصيب أخيراً بالصمم.

(٣) فاغنر (R. Wagner)، ولد في لايبسيغ في ٢٢ مايو سنة ١٨١٣ ومات في البندقية سنة ١٨٨٣ ومال في حديثه إلى الأدب وألف في سن الخامسة عشرة رواية تمثيلية. إلا أن مطالعة ألحان بيتهوفن صرفته إلى الموسيقى فأخذ يجتهد فيها ملازماً دار الألمان في لايبسيغ ومواظباً على الوضع والتأليف. وتقل في عدة بلاد كونيكسبرغ ودرسدن وريغا ثم جاء إلى لندرة ثم استقر بباريز سنة ١٨٤١ وقيل إنه على أثر عاصفة في البحر ألقى في روعه بعض ملاحن نظم من أجلها «السفينة الطافية» ولم يحصل لتأليفه إقبال في البدء لكن بعض منظوماته أخذت تثير الرغبة في درسدن فجعل فاغنر رئيساً لمنشدي المرح في تلك البلدة ومنشداً روحياً للملك الصاكن. ولما حصلت حوادث سنة ١٨٤٨ في ألمانيا على أثر ثورة باريز كان فاغنر ممن أتهم بالشغب وعُرف بنزعة التجدد فحكم عليه بالصلب، وهرب إلى زوريخ فنظم هناك الألحان ووضع إيقاعات أحدثت انقلاباً حقيقياً في الموسيقى الألمانية ولُقّب بـ «مطرب المستقبل» وألف كتاباً تشير إلى منزعه هذا نظير «الفن والثورة» و«ثمرات الفن في المستقبل» وغيرها. وبقيت حركة فاغنر الموسيقية غير مؤثرة في فرانسة، بل قد جرت تلحين أناشيده في بعض مراح باريز فلم تصادف إقبالاً وتعت عليه الفرنسيين كثيراً فلم يكن ينسى لهم تحاملهم هذا إلى آخر حياته. وأقبل على فاغنر لويس، ملك البافيا، وأجرى عليه راتباً وفتح له مزرع مونيخ فكان أحسن مضممار لجواد قريحته. وسنة ١٨٧٦ أسس فاغنر مزرحاً في مدينة بايروث (Baireuth) ليكون مستقلاً به وطبقت شهرته الآفاق ووقع على رئاسته الاتفاق. وهو معدود من أعظم مبدعي هذا القرن والفضل لله «يزيد في الخلق ما يشاء» و«قرئ في الحق ما يشاء».

(٤) شومان (Schumann)، موسيقي ألماني مولود في «سويكاو» من بلاد الصاكن سنة ١٨١٠ وكانت وفاته سنة ١٨٥٦. كان فيه نزعة فطرية إلى الموسيقى فتعلم أصولها بنفسه بمطالعة هايدن وموزارت وبيتهوفن، وجد كثيراً في هذا الفن محاولاً أن يبلغ درجة باغانيني في العزف بالبيانو، إلا أن عارضاً أصاب يده اضطره إلى ترك هذه الآلة وتجرد للتأليف وكان يصدر «الصحيفة الموسيقية» ولا تعاب مقاطيعه إلا بقصرها، حال كون الأوربيين يحبون الإطالة كما لا يخفى، والعرب إذا أرادوا ضرب المثل بالطول قالوا: «مثل الموال الفرنجي».

(٥) ليتز (Liszt)، موسيقي مجري خارق للعادة كان لا يجارى في البيانو، صار في الآخر قسيساً فنظم من الأناشيد الروحية كل نادرة ولم يُعلم عن التطريب الدنيوي، (١٨١١ - ١٨٨٦).

(٦) كانت (Kant)، فيلسوف ألماني رياضي، من أعظم مفكري العالم وأعمقهم تأثيراً في قومه. ولد في كونيكسبرغ سنة ١٧٢٤، وكان أبوه سروجياً فقيراً، فكان له عم ذو يسار هو الذي علمه على نفقته وتغرب عن بلده قليلاً ثم عاد إليه ولم يبرحه حتى مات سنة ١٨٠٤ وكان لا يفارق مخدعه إلا إلى المدرسة حيث يلقى الدرس الذي عليه ويعود فوراً إلى بيته. وبدأ بالتبحر في الرياضيات ثم في الفلسفة. ولم يكن يستحسن فلسفة فولف الحكمية ولا فلسفة هوم اللادرية، بل كان بين الاثنين قواماً. وقد بسط فلسفته في كتابه «نقد العقل المجرد» وهي تلخص بكون الإنسان لا يعرف الأشياء بنفسها، بل يعرفها بالمظاهر التي يتناولها بها بحسب تركيب عقله وحسه أي أن معلومات الإنسان كلها مبنية على ما يترأى له من الحوادث المشهودة والمحسوسة. وعليه ليس في استطاعة الإنسان بمجرد العقل أن يرقى إلى معرفة ما بهمه علمه أكثر من كل شيء وهو الله تعالى وخلود النفس والاختيار. وأكمل «كانت» بحثه بكتاب آخر سماه «نقد العقل العلمي» فأثبت فيه وجود الإرادة والنواميس التي تديرها واستخلص من ذلك وجود الحقائق التي لا تكفي الفلسفة النظرية لإثباتها. وبهذه الحقائق انتهى إلى تقرير وجود الواجب الوجود وخلود النفس والاختيار الأدبي.

فلأجل أن تقصف قصفة كهذه في باريز، لا يكفيك أقلّ من ذهب واحد. وأمّا هنا، فإنّك تخلص من كلّ هذا المقصف، بطعامه وشرابه وسماعه، بخمسة ماركات. ونادرًا أكلت لحمًا بهذه الطراوة وشربت جعة عليها مثل هذه الرغوة. وكلّ من المتباين يقدّمون له رقعة عليها حسابه فيذهب إلى دكة الحساب فيدفع ما عليه. فلا يوجد شيء أعظم اقتصادًا ولا أقرب منالًا. وهل كان هؤلاء القوم يستلطفون هذه الموسيقى فعلاً: ألحان باخ وبيتهوفن وفاغنر؟ لا أعلم. وربما كانوا في هذا الباب مثل "كانت" ومثل هذا الداعي يؤثرون الموسيقى الغليظة أي العسكرية.

ذهبنا إلى "بوتسدام"^(١) والألمان يعجبون بها كثيرًا ويرونها فوق "فرساي"^(٢) وأمّا "شارلو تنبورغ"^(٣) فهي "سان كلو"^(٤).

قضية الإعلام

- حصلت لنا كارثة. كانت القصور ودور التحف ذلك اليوم مقفلة الأبواب ولا أعلم السبب، فالعقيلة لمعرفتها الألمانية مثل غوته، أخذت تتحدّث مع القيم الذي استأنس لحديث سيّدة حسنة البرّة كهذه. فمن قصّة إلى قصّة أخبرها كيف يمكنها أن تنال مرادها من الدخول، بأن تعدل عن الرتاج الكبير إلى باب سرّي صغير، فتتسلّ منه إلى القصر وتجعل في يد البواب نحلاً يسكت به. وهكذا كان.

فلمّا دخلنا إلى قبو فريدريك، عليه علم النسر البروسي، أبصرنا أعلاماً فرنسوية لا تُحصى، مأخوذة في حروب نابوليون وحرب السبعين، مخرّقة مثقّبة بالرصاص مسوّدة من البارود، لا تزال عليها أعداد كتابتها وبعضها لم يبقَ منها إلاّ صعاعدها، من فوقها العلم الإمبراطوري. فلمّا وقع بصر العقيلة على هذه الألوية فاضت دموعها ولأياً أمكنتني أن أسكنها.

- يا سيّدي ما هذا! وماذا تقولين في الأنفاليد^(٥)؟ لا شكّ أنك رأيت هناك من الأعلام الألمانية بقدر ما رأيت هنا من الأعلام الفرنسية. هذه المسئلة أشبه بلعب الورق، هذا يخسر وهذا يربح. فإن لم يكن أحد يخسر، فكيف يمكن أن أحداً يربح؟ وهذا السجال هو الذي يضع

(١) مدينة بقرب برلين، فيها قصر "صان سوسي" بناه فريدريك الكبير.

(٢) مدينة بقرب باريز، كان فيها قصر اللويس الثالث عشر بقصدوه وقت الصيد، ثمّ زاد عليه لويس الرابع عشر المباني الفخمة الحاضرة.

(٣) أحد قسمي برلين الكبيرين.

(٤) محلّة تابعة فرساي على نهر السين.

(٥) قصر في باريز فيه آثار حربية وأعلام مأخوذة من الألمان كما في برلين أعلام مأخوذة من الفرنسيين.

الشعوب على الأرض الغبراء ومن كثرة ما يربح الواحد يخسر ومن كثرة ما يخسر يعود فيربح. ومنذ أئوف من القرون لا تزال قضية الأخذ والردّ في الرايات والأعلام قائمة على قدم وساق.

تضحية الطعام

بينما نحن خارجون من المكان الذي كنّا فيه، صادفنا ثلّة من الجند حاملين جفنة من يخنة البطاطا وكانوا ماضين راضين مسرورين وعليهم سيماء الهدوء التام. وكانت رائحة الطبخ قد استوفقتنا، لأنّ هذا النوع من الطعام، إذا كان مطهّواً جيّداً لا يفضّل عليه شيء. وإذا بشمقمق^(١)، من لون العُسر^(٢)، قد مرّ بعتّة، وبلغنا فيما بعد أنه المارشال الأكبر. فلم يكن إلّا كلاً ولا، حتّى رأينا هؤلاء الجنود قد خفّوا وأهرعوا وصارت مسامير نعالهم العسكرية توري شرراً كالزناد.

فقلت للعقيلة:

- الآن قد اعتراني القلق. فأخشى، إذا نشبت الحرب بيننا وبين ألمانية، أن تدور علينا الدائرة.

- ولماذا؟

- لماذا؟ تسأليني لماذا؟ أفلا تنظرين أمامك؟ أفلا ترين أدلّ الدلائل وأصدق الإرهاصات؟ أتظنين أنه يوجد في فرانسة جنود، ينبذون "يخنة" البطاطا وهي حسنة الطهو، لأجل القيام صفّاً أمام قائد كبير ولو أنه ميخائيل رأس الملائكة بأجنحته الذهبية؟

بوذا

اشترى أناطول فرانس مرّة تمثال بوذا من أحد باعة الآثار ولبث طول الضحوة يبحث عن مركز ينصبه فيه. ففكّر في وضعه في بهو الاستقبال، ثمّ رأى أنّ الإله لا يرتاح إلى مسكن فيه العذراء بقدها الطبيعي. فقال لي:

- لا يمكن أن نجعل بوذا مع العذراء في محلّ واحد. ثمّ أخذ الإله إلى غرفة الأكل ووضعته على رأس المدخنة وحسب أنه أحسن صنعاً. ولكنّي اعترضته بأنه لم تجر العادة في تزيين الغرف بالأصنام، إذا كانت مفروشة كهذه الغرفة بأثاث من القرون الوسطى.

فقال لي:

- إنّ بوادي هذا غلطة في التاريخ. وأقدر أن أقول، كما قال ذلك القسيس الذي أدخلنا إلى

(١) الشمقمق: المفرط في الطول، والأصل الفرنسي Escogriffe.

(٢) قيل النمر وقيل المولود من ضبع وذئب، والأصل الفرنسي Panthère.

كنيسة في نورماندية من القرن الرابع وفي صدرها مذبح فخم، من طرز أيام الملك لويس الخامس عشر، مصنوع من المرمر اللانغدوكي: "هذا المذبح خطأ تاريخي لكنه خطأ لذيذ" فأنا يمكنني أن أقول مثل هذا عن بواذي ولكن لا يجوز وضع إله في غرفة طعام، لا سيما ونحن لا نعرف جيدًا عقليته. أمّا الآلهة الذين عندنا فنعرفهم ومنهم جمّ قد أنزلوا عن عروشهم، بخلاف بوذا الذي هو في عنجهية قوته والذي هو أكثر الآلهة اليوم تبعًا. ثمّ أخذ التمثال ووضع في غرفة النوم على منضدة بين المدخنة والنافذة.

وفجأة وصلت العقيلة، وقالت له:

- وأيم الله هذا فكر عجيب وهو اقتناءوك هذا البوذا. أين عثرت عليه؟ ما أراه إلا مصنّعًا. رُزّه قليلًا. أفلا تراه خفيًا؟ هو من خشب الحور وأخاله من صنعة الطليان. أصحيح أنك ابتعته من عند بيّاع عاديّات؟ فلا شكّ في أنك دفعت فيه ثمنًا كاويًا. فأنت مستحقّ لذلك، إذ كان يمكنك أن تستصحبني في شرائه، لأنني ذات خبرة في البوذا وأنت حديث العهد بمعرفته. فأخذ الأستاذ يذب عن سمعة بوذاه، إلا أنه في اليوم التالي قال لي: "قد أعطيتك عذارى وقديسين كثيرين، لكنك خليّ من البوذا وهذا لا يجوز. فإن رجلاً كريماً مثلك لا يقدر أن يستغني عن بوذا، فخذ هذا".

قدم إنكلترة

قال: سأحدثك عن قدم إنكلترة.

- كنت من أيام في حديقة "مونسو"، فبصرت بخنفساء مطروحة على ظهرها تحاول النهوض. فمددت لها مظليّتي وساعدتها حتى قامت ودبت. وإذا بإنكليزية برزت. ومن أين عرفت أنها إنكليزية؟ كلّ ما فيها يعلن أنها إنكليزية المحتد: قامّة رجال وشعر مرسل بدون ترجيل وسحناء بلون الخمر وأسنان كأسنان البيانو وجميع المقايح. فإنّ الإنكليزية، إذا بدأت تسمع، فلا تقف عند حدّ. وكان وطنيكم "ريفارول" يقول: "إنّ الإنكليزيّات لهنّ ذراعان كلتاها عسراء" وكذلك، إذا كانت الإنكليزيّات حسناً، كنّ زهّرات. وأمّا هذه التي صادفتها، فكان أنفها في دليل "بديكر" وهي ماشية خطأ مستقيماً كأنها جندي معترّض. ثمّ داست برجلها خنفسائي المسكينة. وبأيّ رجل! حينئذٍ فكّرت في مصر والهند.

(١) أديب صحفي فرنسي مشهور بقوارص كلامه.

(٢) بديكر (Bædeker): الدليل المشهور الذي لا تخلو منه يد سائح.

التقليد والصابون

التقليد هو نوع من الهوس عند «موراً»^(١) فهو يبرهن لك بكلّ طريقة على أنك أنت مقلّد بدون أن تشعر. نعم، ويسألك بكلّ بساطة:

- أتغتسل يا صاحبي؟

- نعم، كسائر الناس.

- كسائر الناس؟ إذا تسلّم بمبدأ الغسل. وكيف تصنع؟

- آخذ صابوناً...

- قف! لماذا تأخذ صابوناً؟ إذ ليس كلّ الخلق يستعملون الصابون. ففي هذه الأرض الواسعة أقوام كثيرون، كما في إفريقية مثلاً، يستغنون عن الصابون. وإنّ الصابون وُجد جديداً.
- يا رب! إنني أستعمل الصابون كما كان يستعمله أبي وجدّي... إلخ.
- أفرايت؟ هو ذا أنت إذا مقلّد ومن الحزب الملكي.

اليدان

جاء رجل طلياني وترجّى أناتول فرانس أن يأخذ مثلاً عن يده، تلك التي نمقت «تاييس» و«كرنكيل» فرضي الأستاذ بذلك. وبينما كان الأخصائي المذكور يغمّس يد الأستاذ في الجفصين، أخذ الأستاذ يقول: أحسّ أنهم يؤلّهونني. ثمّ جاء الرجل بمثال من سكب الرمل عمّا كان هيأه من الجفصين. وكان عند أناتول فرانس يد من مرمر، أتى بها من رومة، فأخذ يقابل بينهما، وقال عن اليد التي من المرمر:

- لا يخامر قلبي أدنى شكّ بأنّ هذه يد إمبراطور. انظر إلى هذه الفسحة بين الإبهام والشاهد ويلحظ فيها أثر كُلاب. ماذا كانت تمسك هذه اليد؟ صورة خطبة أو أمر عامّ؟ وثاق أسر أو عصا قيادة؟ ثمّ عاد إلى مثال يده. فقال:

- أمّا أنا فلم أقبض إلاّ عُصيّة القلم.

ثمّ عاد إلى اليد الرومانية، وقال:

(١) موراً (Charles Maurra)، من الكتاب المعروفين اليوم في فرانسة. هو وليون دوده (Daudet)، ابن الكاتب الشهير ألفونس دوده، رئيساً تحرير الجريدة الملكية (l'Action Française)، ومن زعماء الحزب الملكي الكاثوليكي. وقد تقدّم تابين موراً لأناتول فرانس.

- انظروا ما أحلاها! يُرأى للإنسان بأنها يد امرأة: أرى فيها يد قيصر. أتعلمون أنه كان يونانيًا في بعض الأمور الجوهريّة؟ وما ثمّ من عار. فقد كان هكذا كسائر رجال القِدَم. ماذا ملّست هذه اليد؟ قد ضمّت وقد قادت وقد كتبت. وكان وقتئذٍ عصر الأدب الذهبيّ. ففي زمن قيصر لم يكن الأدب مهنة، بل كان ملكة عند رجال الدولة والقواد. أمّا اليوم فمشاركة القواد والساسة في الأدب خير لنا أن لا نذكرها. ثمّ يعود إلى اليد، فيقول:

- الراحة مقطّعة بخطوط ذوات معان. ولا أدري علم خطوط الكفّ وآسف على ذلك ولكن سيّدة من صواحباني تقرأ هذه الخطوط كما تقرأ أنت في جريدة. فلا محالة سأريها هذه اليد، إذ ما هي إلا يد قائد أو رجل فعّال أو كاتب أو هي يد قيصر بنفسه.

ثمّ عاد إلى الاستهزاء، فقال:

- أممكتني الاهتداء إلى ما وراء هذه اليد المرمرية؟ ولا يزال كثير من النقاد يزعمون أنّ مخيلتي ضعيفة. هذه اليد يا حبيبي - ولك أقول كلّ شيء - جاءني بها أبخل شحاذي رومة. وناهيك من قوم لا نظير لهم في بخلهم. فهذا الرجل كان نوعًا من "سيلان"⁽¹⁾ كان له أنف أفتس وجهه مقرّنة وعينان كلّ منهما بلون مختلف عن لون الأخرى ولحية تيس. وكان يروى حول دور التحف يسأل السياح، فإذا عرف فيهم من عنده مسكة في الآثار جاءهم ثاني يوم بقطع إمّا يد قيصر أو رجل الزهرة. فتسأله أين الأولنب الذي تثير منه هذه الدفائن؟ فيقول: يا مولاي هذا سرّ لا يُعطى وإنما أعرف مخابئ بين الكروم. وسأذهب هذه الليلة من أجلك.

فمن سيلان هذا جاءني هذه اليد وغيرها من نفائس الآثار. فهل كان سيلان يذهب حقيقة إلى الكروم ويبيعت هذه العاديّات من قبورها؟ لا أعلم. وأظنّ أنّ سيلان هذا كان يكسر الآثار على غفلة في المتاحف لأنّ حراستها سيّئة في إيطاليا كما في فرانسة. فكان يسرق الكسر ثمّ يبيعهها من هواة الآثار. نعم، كان يمثّل هذا الجاني بالشخوص التي أبقى عليها الدهر الذي هو أرحم من الإنسان. ولكن الضرر قد وقع، فلم يبقَ علينا إلا أن نجمع هذه الضنائن ونجيد حفظها وعندى فوق هذا تسريح من إدارة المكوس بإخراج هذه القطع من إيطاليا. وقد تيسّرت لي هذه الرخصة على يد محسنة أو على يد جميلة وأنّ ريالاً تعطيه من وراء الألب يصير الأيدي كلّها جميلة. فأنا غير مخالف للأصول أمام الناس وإن كنت مخالفًا لها أمام الله.

(1) سيلان (Silène)، إله كان ضحكة الآلهة في الأولنب. وقد ضبطنا الأولنب بالنون لأنّ من عادة العرب أن لا يأتوا قبل الباء إلا بالنون بخلاف الإفرنج الذين يقولون (Olympe أو Tombouctou) فيجعلون الميم قبل النون ويكتبونها تمبكتو ويقولون (Ambic) أي الأبيق ويكتبونها أمبيق.

ثم دخل زائر، فقال له أناتول فرانس:

- نفيس بين يد قيصر ويد خادمك هذا^(١). فافتح أنت بيننا أيهما اليد العليا؟ فأنعم الزائر النظر ثم فتح بكون يد أناتول هي العليا. وقال: هذا ظاهر للعيان. فقال له فرانس: هذا ظاهر للعيان، أين؟

- هناك يا أستاذي، هناك. أفلا ترى ضخم سلامي الشاهد؟ فهذه علامة العبقرية... العبقرية الأدبية. ومثل هذه العلامة كان عند فيكتور هوغو.

- أين هي علامة العبقرية الأدبية؟ وبسط أناتول فرانس يده الطبيعة.

فقال المتملق: هنا.

فقال أناتول فرانس: هذا يا حبيبي ورم!

فأخذ المداهن يشير إلى ما في يد أناتول فرانس من المعاني، وقال:

- ما رأيت في حياتي، بعد الخبرة الطويلة، يد شاب مثل هذه اليد.

فضجر أناتول فرانس وغير الحديث وترك الأيدي. وبدأوا يتكلمون على حصون باريز وأنه يراد هدمها. فقال المداهن:

- غير مأسوف عليها. فهي قديمة جداً.

- قديمة جداً. هي من ٤٤ سنة أو هي من عمري وعمر يدي هذه!

فضحك الحاضرون وخرج المتملق.

قصب السبق

كانت العقيلة على المائدة تطنب في وصف فصاحة "إدمون روستان"^(٢) وأناتول فرانس سامد، يأكل ولا يتكلم حتى انتهى الطعام، فقال وهو يمسح شفاهه ولحيته:

- روستان! روستان! مجده غير مدافع. نعم، غير مدافع في كونه نظم أسمع الأشعار

العصرية من عهد فيكتور هوغو.

(١) Serviteur وهي كلمة التواضع التي يكتب بها الإنجلي عن نفسه وفي بلادنا يقولون الداعي، والمحسوب، وعبدكم. وهذا في الأزمنة الأخيرة، أما في القرون الوسطى فكانوا في بلادنا يقولون في هذا المقام "الخادم" نظير الإفرنج اليوم. اقرأ رحلة ابن جبير عن الشام وكتابات عصر صلاح الدين.

(٢) إدمون روستان (Edmond Rostand)، شاعر روائي فرنسي، فصيح متفنن في القول قوي التصور، ولد في مرسيلية سنة ١٨٦٨ ومات في باريز سنة ١٩١٨، وكان من أعضاء الأكاديمية.

كنا نطالع فهرست سفته الزجاجي المحتوي تمثيل «تاناغرا»^(١) فقال:

- أتدري أنها صحيحة النسب. وليست محدثة مشبهة تشبيهاً. فإنه يوجد معمل^(٢) لذلك في

باريز وآخر في رومة.

- يظن الإنسان هذا التمثال ملعقة خردل.

- يا للإثم! هذا تمثال زهرة «عشروت»^(٣) قدمي الزهرات، وجدوه في حُرَب «ميسان»^(٤)

وبعث به إلي مدير البعثة الألمانية هناك. يجوز أن يكون غير عليها ألوف من السنين ويجوز أن

لا تكون بهذه القدمية. تأمل أن أحد الآثاريين، بعد اثني عشر قرناً، استخراج من «بوي»^(٥)

التمثال الشهير المعروف بالعذراء السمراء. فيدعي أنها من القرن الحادي عشر أو الثاني عشر.

والصحيح أنها من أيام رجوع الملكية. والتمثال الحقيقي كان الثوار قد ألقوا به في النار. فعادوا

وصنعوا مثله في أيام لويس الثامن عشر وورثت العذراء الجديدة من القديمة عمل المعجزات

فعدت بها جَدَّة. ومثال آخر من يمكنه أن يميز القديم من الحديث في رواق كنيسة «نوتردام»

بعد أن جددتها «فيوله لودوك»^(٦) فزهرتي، التي هي عندك ملعقة خردل، يجوز أن تكون نسخة

عن أخرى أقدم منها. وعلى كل حال، فهي من أربعة آلاف إلى ألفين سنة هكذا نازلاً.

ثم يُخرج تمثال إله الحب من قفص زجاج، وكان تمثالاً بديعاً، ويقول:

- هذا صحيح النسبة. انظر ما أطفه. يظنه الرائي ملكاً من تصوير رافائيل، أهداني إياه

الأرمن واشتروه فيما أظن بخمسة إلى ستة آلاف فرنك. قطعة منقطة النظير. وكان يحسن بهم

أن يهدوني غير هذا الشكل. نعم، إن هذا الولد في غاية الجمال ولكنتي كنت أؤثره جارية. فالحب

عندي هو المرأة. ولست بيوناني. في هذا المعنى...

(١) تاناغرا (Tanagras) تقدم شرحه.

(٢) استعمال معمل بمعنى (Fabrique) أو فابريكة الإفرنجية أي بمكان العمل ليس بعصري كما يظن، بل جاء في معجم البلدان لياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ ما يأتي عند ذكر دمياط: «أن بها غرقاً تُعرف بالمعامل، يستأجرها الحاكة لعمل الثياب» وقوله «تُعرف بالمعامل»

(٣) آلهة القبة الزرقاء عند الفينيقيين والسوريين اتخذها اليونانيون آلهة الحسن وعبدوها وعبدها الرومانيون أيضاً. ومن هذا المثال وغيره تعلم أن الغرب لم يزل يعبد آلهة الشرق من قديم الزمان.

(٤) ميسان (Mycènes) في بلاد اليونان.

(٥) بوي (Puy) في فرانسة.

(٦) فيوله لودوك (Viollet-le-Duc)، مهندس معمار إفرنسي، طائر الصيت، جدد مباني كثيرة من القرون الوسطى في أيام نابليون الثالث، وترك تأليف قيمة في علم الآثار، (١٨١٤ - ١٨٧٩).

الطبيعيّات الجديدة وما وراء الطبيعة الجديد

كان يتحدّث على سفرة مادام فلانة إلى الأب فلان، فيقول:

- اليوم، كما في زمان طيباريوس، ديانات تتكوّن تحت أعيننا ولا نشعر بها وقد يذهبون إلى أنّ الألهة الأوائل يُطرَدون بالقوّة من هياكلهم ويحلّ محلّهم آلهة محدثون. والصحيح أنّ الانتقال أبطأ وألطف مدخلاً من أن تشعر به القرون. فالانقلاب جرى في داخل الهياكل وفي داخل العقول. وبيان ذلك أنّ الكهنة أنفسهم تلقوا علم اللاهوت الجديد وهذا ترشّح إلى القديم. وجاءت شعائر جديدة فانطبعت بها الشعائر الرسمية. فالديانة التي أنت ممثّلها ونبراسها يا حضرة الأب ليست هي ديانتك الأصلية. وليس يفيدك أن تستشهد بوفرة عدد الكنائس وكثرة كنوزها وحرارة المؤمنين. فإنّ هؤلاء المؤمنين هم في الواقع غير مؤمنين وليس منهم واحد يقبل العقيدة كما هي، بل أمتهم في العقيدة هم الذين لا يريدون أن يفكروا فيها، أي المتديّنون بدون روية. وأمّا الآخرون نظيرك يا حضرة الأب ونظير العلماء من رجال الدين، فإذا كنّا نتحدث في مجلس خاصّ كهذا، فإنّك تعترف بأنّ عقيدتك ليست بعقيدة الجارية التي تخدمك، وأنّ آراءك على الأبدية والجحيم والمطهر هي في وادٍ وتصوّراتها هي في وادٍ. إنّك تسلّم بعصمة البابا لكن بقيود وشروط تجعل هذه العصمة كأن لم تكن. ولست ترى نفسك جاحداً في اعتراضك على كثير مما يرد في الكتب المقدّسة ولا تجد عقيدة "الحبل بلا دنس" موافقة لعصرنا العلمي الفنّي كما بحث لي بهذا مرّة. فمثل هذه العقيدة إنّما تتلاءم مع القرون الوسطى. أمّا اليوم، في عصر "پاستور"^(١) و"برتلو"^(٢)، فهي غير مقبولة. إذا أنت يا أبت برغم تقواك تقول ما يقول البروتستانت. وليس عليك أن تناكر في هذه التهمة، فالكنيسة كلّها هكذا. والوعظ اليوم أصبح عبارة عن مدافعات ومناضلات. ولقد أتيح لي أن أتحدّث مع كثير من المؤمنين والمؤمنات

(١) باستور (Louis Pasteur)، العالمة الكيماوي الفرنسي الذائع الصيت في الغرب والشرق. ولد في "دول" من الجورة (Gura) في ٢٢ ديسمبر ١٨٢٢ ومات بقرب باريز في ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٩٥. كان إتمام باستور تحصيل العلم في المدرسة المعروفة بالنورمال أي دار المعلمين وأخذ شهادة العالمية في العلوم الطبيعية سنة ١٨٤٧ ودرس الطبيعيات والكيمياء مدة طويلة في بعض مدن فرانسة إلى أن انتدبه دار المعلمين إلى إدارة الدروس العلمية فيها وصار معلماً للكيمياء في دار العلوم سنة ١٨٦٧ وفي ذلك الوقت حقّق قضية الاختمار وعلّلها بوجود حيوانات صغيرة ميكروسكوبية وحصل من هذه التجارب على نتائج عملية في عمل الخمر والخلّ وفي حفظ الخمر والجمعة. وهو الذي أوجد العلاج المناسب لأمراض دودة القز. ومن تحقيقات باستور في قضية التخمر استفاد الأطباء فوائد أخرى جليّة منها ما كشفه الجراحى الإنكليزي لистер، مخترع الضمّاد المطهر، ومنها قضية التلقيح. وسنة ١٨٨٥ بدأ باستور بتجارب تلقيح الكلبس فأثارت هذه المسألة ما لم يثّر غيرها من حركة الاهتمام. وتأسس مستشفى للكلب اسمه مستشفى باستور واقترنت بفرانسة في ذلك سائر الأهم المتمدّنة.

(٢) برتلو (M. Berthelot)، كيماوي إفرنسي شهير، ولد سنة ١٨٢٧ ومات بباريز سنة ١٩٠٧، وكانت له اليد الطولى في الكيمياء العضوية. وكان برتلو من رجال الدولة ووزر مدة.

والراهبات وذوي الأرواح الطاهرة البسيطة، فوجدتهم جميعاً متشبعين من هذه الأفكار وكلّ ينحت من العقيدة ما يلائم قامته. وكلّ متخذ لنفسه ديناً خاصاً به. أمّا الحقائق الكبرى فإما أنهم لا يحبّون أن يفكروا فيها أو كأنهم يفتنونها ليسهل عليهم بلعها. كم سرّاً مقدّساً عندنا؟ سبعة. لكن الناس صاروا يتناسونها، وأحبّها إلى الشعب هو سرّ القربان، فإذا سألت واحداً مثلي عن تناوله للقربان، أجابك: نعم، تناول القربانة الأولى وهو صغير، وكان ذلك في شهر مايو، وكان على المذبح ورد، وسبق تناول رياضة استمرت ثمانية أيام، وما أشبه ذلك ممّا حفّ بتناول القربان من الحالات. أمّا سرّ الثبوت مثلاً، فلا يكاد يتذكّره أحد، مع أنه سرّ جليل. أنت يا أبي معلّم اعتراف، ولو أنّ ربح النعمة الإلهية جرّتني إلى الاعتراف، لَمَا اعترفت إلاّ عندك. ولكنك تسلّم بأنّ الاعتراف اليوم تغيّر عمّا كان عليه في زمان القديس فنسان دو پول. فلا تقدرون أن تسألوا النساء تلك الأسئلة المعلومة، بل اقتصدتم في هذا الأمر كثيراً. ولماذا تسألون عن أشياء أنتم على ثقة من جهتها وعلى معرفة خطايا هي مثل خبزنا اليومي؟ أصبحوا لا يمدّون أمامكم تلك الموائد السمينة من الموبقات وأخذوا يقتصرون على الزهيد من صغار اللّمم. فلستم اليوم بمعلّمي اعتراف، بل أنتم اليوم مديرو ضمائر وعلماء أخلاق. ومن من الكهنة يقدر أن لا يحلّ رباط مذنب؟ فإنهم يستغنون عنه حالاً. وجهنم، أفتتكلّمون عنها كثيراً؟ أنا أعلم أنك لا تنكر وجودها ولكنك لا تعتقد بوجود أحد فيها. ثمّ ترمون البروتستانت بالتغيير في العقائد! مع أنكم معاشر رومة أكثر مسايرة لتغيّر الأوقات من غيركم، وهو ما كان به قوامكم إلى هذه الساعة. فقد التويّم مع جميع التحوّلات والأخفاف الاجتماعية. والطبيعيّات هي مربوطة كما لا يخفى بما وراء الطبيعة. وما قتل فلسفة مار توما وحكمة أرسطو إلاّ اختراع المطبعة الذي جعل بإزاء الكتاب المقدّس كتباً كثيرة لا تُحصى. وكذلك كشف العالم الجديد وإيجاد النظارات والمجهر والوقوف على الكبير الأكبر الذي لا يدرك وعلى الصغير الأصغر الذي لا يدرك، وعلى المساحات المجهولة وعلى السموات الجديدة والأرضين الجديدة. فهذه الطبيعة هي التي قتلت ما وراء الطبيعة.

واليوم نحن شهود انقلابات أخرى لا يطاق وصف أهمّيّتها، لكننا لا نشعر بها حقّ الشعور، مثل أشعة «إيكس»^(١) والمغناطيسية والكهربائية، فيجب أنّ الكنيسة تمتصّ هذه الأشياء كلّها أو تموت. وهي مفتقرة إلى فلسفة إلهية أخرى، كما هي مفتقرة إلى قناديل جديدة، فلا يزالون يستعملون في الكنائس الشموع التي يقسم التاجر أنها من النحل وقد تكون من الشحم.

(١) هي أشعة رونجنز بأسم كاشفها الألماني، بها يمكن التصوير لِمَا وراء الأجسام الكثيفة.

مع أنها بجانب النور الكهربائي^(١) تُعدّ لا شيء. وسيأتي يوم يعجز فيه الكاهن عن أن يقرأ عليها بعد أن اعتادت عينه الضياء الكهربائي الساطع. وهذه الفتيلة السابحة في الزيت العفن أمام بيت الجسد، فلماذا لا يعاض منها بأنفس المعادن وأعظمها سرّاً أي بقليل من الراديوم؟

زيارة أناتول فرانس لبروسون

قال:

- لا بدّ لي قبل سفري من أن أزورك وسأكون عندك غدًا نحو الساعة الثانية وأرى أين أنت وكيف أنت. وفي اليوم التالي، في الميعاد المضروب كان عندي، فابتهج بالمسكن والأثاث والحارة وكلّ ما هناك. فقال لي وهو ينظر في الأمتعة والرسوم:
- ما أسعدك، فقد نضدت بيتك كما شئت. أمّا أنا فوجب أن أنتظر إلى سنّ الخمسين حتّى صار عندي منزل كمنزلك.

فعارضته قائلاً، أين هذا من ذلك، فإنّ بيتك كناية عن دار تحف.

فقال:

- لا يُنكر أنّ مغنى سعيد أشبه بمعتمل^(٢) الدكتور فوست^(٣). وليس الواقع أني أحبّ هذه الأمتعة الغريبة وهذا الخرثي الذي ملأت به منزلي. ولو خيّرت لآثرت زيّ القرن الثامن عشر وزيّ القنصلية^(٤) ولكن العقيلة احتفظت بهذين العهدين واحتكرتهما، فلكيلا تقع بيننا الحرب، عدلت إلى أزياء القرون الوسطى. فإذا ذهبنا إلى بائع الآثار اقتسمنا خطبتنا بيننا، فعهد لويس الخامس عشر والسادس عشر هو حقّها، والقرون الوسطى بما فيها من القديسين والعذارى والذخائر هي حقّي. وليس المعنى أني أشتهي موت السيّدة العقيلة ولكنّي قد مللت هذا الرثّ الإكليريكي. وإنّي أراك أنت أيضًا سامتًا سمّت القرون الوسطى. ولك الحقّ في نضد منزلك على نمط فيكتور هوغو. فإنّ رجال الأدب كالأطباء يحتاجون الاسم والاعتبار ومن أجل هذا وجدّتي علّقت تلك التماسيح المحشوّة تبنًا في سقف منزلي. فنحن جميعًا لا نستغني عن شيء من التنطع.

(١) قبل الحرب العامّة أنير الحرم الشريف النبوي بالمدينة المنورة بالنور الكهربائي.

(٢) المعتمل: هو ما اخترناه لتعريب Laboratoire.

(٣) شخص خيالي عند الألمان بُنيت عليه أقاصيص وروايات تمثيلية كثيرة، وهو عبارة عن رجل باع روحه من الشيطان بحطام الدنيا.

(٤) أيام الثورة قبل أن يكون نابليون إمبراطورًا، وهذا العهد ينتهي سنة ١٨٠٤.

البصلة الذهبية

قال بروسون:

- ذهبت إلى بلدي "لانغدوك" وجئت منه بكثير من القطع القديمة ومن جملتها ساعة من تلك الساعات القديمة التي هي على هيئة البصل^(١). فأخذ أنا تول فرانس يقلب بلدة زائدة هذه الكرة المصنوعة من الذهب والمينا الصقيل ثم يعجب بالآتها التي تشبه السفايد الصغيرة. فألفته بهذه الطرفة القديمة، وقلت له: ألا أن الساعة غير صحيحة وأنها تمشي غير حاسبة أدنى حساب للشمس ولا للتقويم ثم تنام نومة أصحاب الكهف، فلا تستيقظ ولا تدق، وبعد ذلك إذا انتبهت أخذتها الحمى فقطعت الأربع والعشرين ساعة في أربعين دقيقة.

- يا ولدي، إذا كانت غير صحيحة فهو خير لي، ولهذا أنا أستحسنها. أتظن أنني أضع تحت إبطي بجانب قلبي آلة دقيقة صماء جاسية تكون بدون هوى ولا خيال. فالرجل الذي هو مثلي تليق به ساعة مثل هذه. فستكون لي هذه الساعة عضدًا في المواقف وإذا وصلت إلى محلّ العقيلة متأخرًا، فلأجل تسكين ثائرها، أُخرج لها بصلتي الذهبية هذه فيكون وقوع الشؤبوب عليها لا عليّ.

المجد

وبينما هو قاعد يتحسّى قدحًا من شراب البرتقال، قال لي:

- أريد أن أجلس في محلّك، فهل تريد أن نتبادل المقاعد؟

فعملت إشارة القبول مع مزيد الرغبة. فقال:

- لا تريح شيئًا كثيرًا.

- أنت أتر كتابنا وأعظمهم محبة عند الشعب.

- قد يكون. ولكنني بالغ التاسعة والستين من السنّ ومقيّد بنظام الحمية. فإذا تشهت نفسي شيئًا، جاء الطبيب ويده القضيب كأنه "سانشو"^(٢) في جزيرة "باراتاريا". فأنا ملك لكنني

(١) عهدنا منها أثارة في بلادنا.

(٢) سانشو (Sancho)، خادم الدون كيشوط، بطل القصة الخيالية الإسبانية التي لا يضحك الإسبانيول إلا منها. وكان الدون العظيم قد ولّاه جزيرة باراتاريا (Barataria) فاستقلّ بالحكم فيها وصادف من عناء الأمر والنهي ما يصادفه عظام الملوك. وقد روى صاحب القصة عنه روايات هي النهاية في باب الإضحاك.

محروم التدخين وشرب الخمر والرفث إلى الحسان. ولا يحظرون عليّ مع هذا إنشاء الكتب، ولو فعلوها لكانت هي الوصاة الوحيدة المعقولة. فلماذا يا حبيبي أعشق الحسان من الآن وأعشق في الليل والنهار وفي الصيف وفي الشتاء، فإنّما لهذا أنت في هذه الدنيا. وإذا فاتك هذا فعلى الدنيا السلام. فما سوى هذا إلا دخان وخيبة وأحلام. وبالاختصار، فلا علم إلاّ الحبّ، ولا مال إلاّ الحبّ، ولا سياسة إلاّ الحبّ.

- رسمك مؤيد يا أستاذي. وإنّما أظنّ أنّ الرتب البيانية والسياسية تسهّل كثيرًا تصريف فعل "أحبّ" والمثل يقول "لا سويسراني بدون مال" وكذلك لا سويسرانية بدون مال.

- موافق لك أنا على هذا. ومن أجل ذلك كانت لي مطامع، ومن أجل هذا صرت من أعضاء الأكاديمي. وأعلم أنه لا يحتقر الإنسان مدارج الشرف إلاّ بعد أن يرقاها. فيجب عليك أن تكون طمّاحًا ولكنّه يجب عليك أن تكون عاشقًا. فإذا صرت عضوًا في ديوان العلماء مثلي، تصير في جييك الرخصة لتعمل ما تشاء. فاليوم أنا إن أردت أن أذهب إلى "الأوبرا"^(١) بالخفّ وعلى رأسي قلنسوة النوم، بدلًا من اللباس والقبعة العالية، فمن هو المفتش الذي يعارض خاطر واحد من الرجال الأربعين؟ فما يُعدّ شذوذًا عند سائر الناس ويذهب بهم إلى بيت المجانين، يأتي من قبل مثل أناتول فرانس بدعة غريبة دالّة على حسن السريرة. فلا يقولون: أناتول فرانس اختلط عقله فأتى وهو بقلنسوة النوم إلى الأوبرا. كلاً، بل يحملون ذلك، إمّا على سلامة القلب أو على التنادر.

وعندما خرج قال للمرأة البوّابة:

- شاقني جدًّا النظام الذي شاهدته في هذا المسكن، ووددت لو أنّ عندي خادمًا^(٢) مثلك. وقد بلغني أنّ لك ابنتين وأنهما جمعتهما بين الجمال والكمال، فقلت لبروسون ليأت بهما إليّ مرّة لأتعرّف بهما. وسأوصي الناظر بهما. وداعًا أيّتها السيّدة وداعًا. تعاهدي جيّدًا كاتبني. خادمك يا سيّدتني.

فبقيت البوّابة مبهوتة لا تدري ما تقول.

الكستونات لا تزال سخنة

جئنا إلى ساحة البانتيون، فقال أناتول فرانس:

(١) الأوبرا (Opéra) أصله المرح الذي تنشد فيه أشعار على لحن الموسيقى وقد يصاحب ذلك الرقص.
(٢) لفظة الخادم تقال للمذكّر والمؤنث.

- على هذه الساحة رأيت تساقط القنابر^(١) سنة السبعين، وكان الصبيان يفرحون بهذه المقذوفات، فلا تسقط كرة إلا تهافت عليها جميع صبية الحارة يجمعون شظاياها. وكانوا يحملون تلك الشظايا والنار لا تزال تشتعل فيها ويصيحون: "الكستات ما زالت سخنة" فلا يستطيع المرء إلا أن يُعجب بشجاعة أولئك الصبيان. وكانوا يعطونهم على كل قبيرة يفرقونها ستمين. ولعمري، ليس بغال إعطاء ستمين جائزة على عمل يُبسل فيه الإنسان نفسه للهلاك. لي أنسة خاصة بهذه الحارة من باريز، فقد أقمت بها أيام صباي وكنت إذ ذاك معدماً لأن والدي كان غضب عليّ من أجل قرصي للشعر، وكان عنده هذا الرأي - وهو عجيب من تاجر كتب مثله - وهو أن نظم الشعر حرفة خسيصة كثيرة الغوائل. قد يجوز بيع دواوين الشعر للضرورة فأما نظمها والتوفر عليها فلا يجران إلا إلى السجن أو المستشفى. نعم، كان هذا المسكين محقاً لأن الشعر جاء بنا إلى الأكادمي.

وكنت ساكناً وقتئذٍ في غرفة محرّدة^(٢) كأنها عشّ خطّاف. فكنت إذا أردت أن أكتب أخرج إلى ما تحت الميزاب. فإذا اخلولقت السماء أن تمطر اضطررت أن أكتب وأنا على سرير النوم من شدة ضيق تلك الغرفة. وكانت لي جارات فكنت أعطينهم دروساً وهنّ يعطينني أيضاً، ولكن علمهن كان هو الأعلى، أي علم الحبّ.

لا، لا بانطيون

لا أعلم لماذا قلت له وقد مررنا أمام البانطيون:

- هنا يا أستاذي العزيز سترقد رقادك الأخير بجانب حبيبيك فولتير وأعدائك مثل جان جاك وهوغو.

فلم تخرج هذه الكلمات من فمي حتّى اغبرّ لونه ونأى عني مغضباً، وقال:

- حرّمي والله^(٣) أنك لقاسي القلب غليظ بأن تزرع طريقي بمثل هذه الأشجار المرّة. ثمّ من

(١) Obus تواضع كتابنا اليوم على تعريب هذه الكلمة بقنبلة وجمعها على قنابل. ولم أدر وجهه لأنّ القنبلة هي الطائفة من الناس ومن الخيل وهي بفتح فسكون ففتح، ثمّ إنّ القنبلة بضمّ فسكون فضمّ هي آلة يصاد بها أبو براقش، ثمّ إنّ القنبل بضمّ فسكون فضمّ بدون تاء هو الرجل الغليظ وهو أيضاً الغلام الحادّ الخفيف الروح. والقنبل أيضاً شجر وكذلك القنبل بفتح فسكون ففتح الطائفة من الخيل والناس من الثلاثين إلى الأربعين. فليس من مناسبة بين أحد هذه المعاني وبين هذه الكرة المحشوة بالمواد المفرقة. والذي أراه أنّ أول من استعمل هذه اللفظة بالعربي إنما استعملها بالراء لا باللام تشبيهاً لها بالقنبلة وهي طائر، ويقال قنبراء وقد تخفّف فيقال قنبرة بضمّ فباء مشددة مفتوحة، ويقال دجاجة قنبرانية أي برأسها فضل ريش قائم. والعامّة يقولون لهذا الريش الزائد قنبرة، فكان الذي سمى الكرة التي يقذفها المدفع قنبرة لمح مشاكلتها للطائر أو للدجاجة مع الريش الذي في رأسها والذي يمثله مقبض الكرة الرفيع.

(٢) بالحاء المهملة أي جملون، والأصل الفرنسي Mansarde.

(٣) أما والله.

قال لك إنهم يضعونني هناك؟

- لقد وضعوا زولا هناك

- هذه غمزة منك.

- كلاً، يا أستاذي العزيز ما هذا إلا بيان لإعجابي، وقد أكون أخطأت الكياسة لكنني حسن النية.
- أسامحك. ولا نتكلمن عن البانتيون^(١). وأنت ستودع البانتيون يوماً. ففي وصيتي مد هذه العشيّة ساكنب ذلك. فلا أضطجع على السرير إلا وإرادتي مضطجعة معي، فأوصي بأن يدفونني كسائر الناس في مقبرة الحارة. وأقول لهم: "إن كان لا مندوحة لكم عن وجود ساكن جديد للبانتيون فعلكيم ببروسون فإنه عبقرى. عبقريته في أن يُغمّ بقية أيام أستاذه الشيخ بأحاديث الموت. وهو يتقن زرع الطريق القصيرة الباقية لهذا الشيخ بأشجار البروق"^(٢) ودم المسيح^(٣).

ثم نزلنا في شارع "سوفلو"^(٤) فوقف في دكان كئيب من خزنة الكتب العتيقة فاشترى بخمسة وعشرين فرنكاً كتاباً "لكتيليان"^(٥) فوجدت الصفقة غالية، فقلت:
- كلّ هذا المال لمؤلف كان صديقاً "لدوميسين"^(٦).

- ماذا فعل معك دوميسين؟ ألم يصبّ في اختياره كتيليان مريباً لأولاد أخيه؟ على أنني لم أشتري هذا الكتاب لأجل دوميسينوس ولا لأجل كتيليانوس، بل لأجل "بوغيو"^(٧) الذي نشر هذا الكتاب من قبره، بعد أن كان رأى بدلاً يلفّ بورقه السمك المقدّد. أفلا تراه؟ هو مطبوع هذه الطبعة النفيسة في رومة. وماذا تقول في هذا التجليد الذي لا يزال في متانته، بعد أن مضت عليه ثلاثة قرون أو أكثر. وكنت آليت أن لا أشتري كتاباً من أجل نفاسة تجليده أو حسن نقشه

(١) لو قيل للشيخ إنك ستُدفن في السماء كما طاب له ذلك لأنه كلام يذكره بدنو الأجل.

(٢) البروق: بفتح فسكون ففتح، شجر يقال إنه إذا غامت السماء اخضرّ، وفي الأصل الفرنسي Asphodèle.

(٣) شجر تضفر من زهره الأكاليل التي توضع على نعش الميت، وفي الأصل الفرنسي Immortelle.

(٤) سوفلو (Soufflot).

(٥) كتيليان (Quintilien)، عالم لاتيني من رجال القرن الأول للمسيح، قيل كان مولده بإسبانية، وكان يعيب على أهل عصره اتّخاذهم الفصاحة والحلافة آلة للمدافعة أمام القضاة. وهذا يخطر في البال الحديث الشريف وهو: إنّما أنا بشر وأنه يأتيني الخصم فلعلّ بعضكم أبلغ من بعض فاحسب أنه صادق فاقضي له بذلك فمن قضيت له بحق مسلم فإنّما هي قطعة من النار فليأخذها أو فليتركها. وفي رواية: أنكم تختصمون إليّ ولعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجّته من بعض فمن قضيت له بشيء من حقّ أخيه فإنّما أقطع له قطعة من النار.

(٦) دوميسين (Domitien)، هو إمبراطور روماني، أخو تيطس وابن فسبانيوس، ملك من سنة ٨١ ب. م. إلى سنة ٩٦؛ وكانت أوائل أيامه سعيد لكنّه طغى أخيراً وسفك الدماء فقتلوه بمواطأة امرأته "دوميسيا لوجينا".

(٧) بوغيو (Pogge)، كاتب طلياني من فحول كتاب عصر التجدد، (١٣٨٠ - ١٤٥٩).

أو زينة طرّته^(١) ولكنها يمّين سكير. وإذ كنت قد حنثت فيها، فأريد أن أجازي نفسي وألطفك بهذا الكتاب، ليكون زينة لخزانة كتبك فتضعه على منصّة الشرف، مخالفاً لموضع سائر الكتب وظهره نحو الحائط وحرفه إلى جهة النور، بحيث تتلأأ أقفاله اللطيفة الغربية، فيكون لذلك وقع في نفوس زائريك، إذ كلّ مهنة لا غنى فيها عن المخرقة ولا سيّما حرفة الأدب. فأنت لا تقرأ كنتيليانوس ولا تحتاج إلى تفيقه وتقوّره، وأنتم معاشر أهل "لانغدوق" عندكم البيان ترتضعونه مع اللبن. فمّن جاءك واستلطف كتابي عندك كأني بك تقول له: هذا شيخ فإن أهداني إيّاه في عنفوان شبابي. وكان هو أيضاً من المؤلّفين وتألّفه اليوم مطروحة في زوايا النسيان يعلوها الغبار ككتب "كنتيليان".

الشوك للأحياء والورد للاموات

صرنا في حديقة "اللوكسنبورغ"^(٢)، فقال:

- أحبّ كثير هذه المعاشيب الخضر وهذه المخارف^(٣). فعندما كنت قيماً لدار كتب اللوكسنبورغ كنت أجد قصر مجلس الشيوخ هو المدرسة والحجر والحبس، وبستان اللوكسنبورغ هو النزهة والفسحة. وهي فسحة ملأى بالورد. وكَمّ مرّة كنت أستطيل الجلسات، فأترك المكتبة ولا أسأل عن آبائنا الشيوخ الذين هم أشبه الناس بالغلّمان، يلعبون حول حوض ماء ويعملون مباني من الرمل.

فقلت له:

- هو ذا أحد أصحابك. وأشرت إلى تمثال "لوكونت دوليل".

فقال:

- يا للعضية! هذا من القاذورات. وأعلم أنّ دوليل لم يكن صاحبي، وما كان أكثر من رصيف لي في حفظ خزانة كتب السنوات.

- هو شاعر عظيم.

- قد يكون. ولكنني ما عهدت في حياتي في بهيمة الأنعام أغبى منه. ما كان أزهاه! وما كان أجهله! هذا المترجم لهوميروس لم يكن يعرف كلمة من اليوناني وكان يلجأ دائماً إلى التراجم

(١) Ex-libris

(٢) محلّ انعقاد مجلس الشيوخ Le Sénoat.

(٣) الطرق بين الأشجار.

اللاينية والإفرنسية، وما تيسر له ولا مرة أن ينطح رأساً النصّ اليوناني الأثير. وأضف إلى هذه المساخر خلقاً سيّئاً. فما كان لوكونت دليل يحسن غير الهجو والقذع. وتراني مسروراً من أنهم جعلوا تمثاله بهذا الشكل فيبقى أضحوكة إلى الأبد.

- قل ما شئت. فإنّه لا شكّ - بعد زمن طويل - في أنهم ينصبون تمثالاً آخر لقيم آخر في خزانة كتب السنوات. وما أحسن نصفك الأعلى منصوباً هنا، بل قد ينحتون لك تمثالاً على طول قدك بثوب روماني.

- حسبك. حسبك. إنك تسمّم حياتي بتصوّراتك.

- وبجانب تمثال المرمر الرائع أو التمثال النحاسي تمثال غادة حسناء.

- حسن، فالآن صرت أقدر أن أتنفّس. فإن كانت هناك غادة حسناء فلا بأس أن أبقى إلى الأبد على عمودي. وأقعد عاقلاً...

- أو رمز من رموز رصيفك لوكونت دليل بأجنحة خافقة.

- كلاً، لا أبغي الأجنحة الخافقة ولا أهوى الجوّاري ذوات الأجنحة، ثمّ إنني أكره الرموز لا سيّما الرموز العصرية. وهي بحسب العادة عبارة عن غلبة البلاهة والتفاهة^(١) وأما أنت فمنحوس صغير وقد جدّت عندي الرغبة في أن أسترجع منك كتاب كنتيليان البديع الذي حرمت نفسي إيّاه لأجلك أيّها الجوّيحد للمعروف. فكلّ ما تنزّهنا به من المخارف والخضرة والحياض والأزاهير والحمامم البواغم، ممّا كان خيّل لي أننا في جنّات عدن، قد ذوت نضارته عندي بما نفثت من فمك الماغن وأصبح في نظري جبّانة. وعدت لا أنظر أمام عينيّ إلاّ هذا التمثال الجنازي الذي ما زلت أنت مصراً بهذه القحة على وصفه.

ثمّ سكت وصار يمضغ برؤوس لحيته. ثمّ قال:

- هذا التمثال لا خلاص لي منه. فإنّ النحاتين يجب أن يتعيّشوا. وستكون نفقته كبيرة وسيكون سمجاً. فما أولاهم بأن يؤدّوا هذه النفقة مذ اليوم. ولكن يقدّمون الأشواك للأحياء والأزهار للأموات.

(١) الأصل الفرنسي La niaiserie et la fadeur.

بالزك^(١)

كانت مادام فلانة...^(٢) شاكية ملازمة للفراش، فتقدّمت إلى العواد بأن يقرأوا لها بعض الكتب. فأشرت ببلزك. فقال فرانس:

- لا أحبّ التاكيف السمينه - خذوا هذا بالمعنى المجازي - فبلزك يخيفني لأنه ثقيل، ضخّم، سائل العرق، مختلط، مبتذل المواضيع، يحبّ المناقشات السياسية ويميل إلى الألباز والأحاجي. هو من قبيل سعاة البيوت التجارية لكنّه ساعٍ من الدهاء. وكثيراً ما ينزل بالزك عن طبقة "ساندو"^(٣) ومتى أجاد فليس بقاصٍ لكنّه مؤرّخ. وجميع تاريخ العصر الحديث هو في تآليفه.

فلم تعارض السيّدة... ولم تنافح عن بالزك إلا قليلاً، وانتهى الأمر باختيار "شاتوبريان" فأخذنا "مذكرات ما وراء القبر" وقرأت ذلك الفصل الشهير وهو:

"وضعت والدتي في "سان مالو"^(٤) ولدها البكر فمات وهو في المهد. وكان المنزل الذي يسكنه أهلي في زقاق ضيقٍ مظلم من سان مالو، يُقال له زقاق اليهود^(٥)... والغرفة التي ولدت أمّي فيها مشرفة على القسم الخراب من حيطان المدينة وكان من نوافذ هذه الغرفة يسرح النظر في بحر يمتدّ إلى أقصى أمد البصر متكسراً موجه على الصخور. فكنت حيّاً في حكم الميت عندما خرجت من بطن أمّي. وكان هدير الأمواج التي تثيرها العواصف، الدالّة على معادلة الليل والنهار، حائلاً دون سماع صراخي في المهد. وطالما قصّوا عليّ هذه التفاصيل فلم يكن حزنها ليفارق ذاكرتي. ولا يمضي يوم إلا وأتخيل ما كنت فيه، فأرى الصخرة التي ولدت عليها

(١) بالزك (H. de Balzac)، كاتب إفرنسي عظيم يقال إنّه سيّد كتاب القصص، نبغ في هذا الفنّ بقوّة تخيله وإصابة لحظه وشغوف حسه بالحقائق ودقّة تصويره لأهواء النفوس البشرية، وكان مكثرًا مع الإجابة وإن كان قد أخذ عليه في بعض المظان من جهة متانة التركيب. (١٧٩٩ - ١٨٥٠).

(٢) بعد أن أتممت ترجمة هذا الكتاب علمت أنّ السيّدة التي يشير بروسون، صاحب هذا الكتاب، وسيغور، صاحب الكتاب الآخر، إلى كونها ذات علاقة بأناتول فرانس هي مادام أرمان كاليافيه Madame Armand Caillavet. وقد نشرت إحدى السيّدات بحثًا عنها في "مجلة باريز"، ونقلت جريدة الطان في تاريخ ٢ مارس سنة ١٩٢٦ خلاصته وقالت إنّ المسيو إميل هنريو ذكر أنّ هذه السيّدة كانت متميّزة بذكائها وسعة إدراكها ووفرة أدبها وأنها هي التي حملت الكاتب العظيم على كتابة قصّته "الزنبقة الحمراء" وغيرها. وكانت تشهد قريحة فرانس بجوارها له، وكتب إليها مرّة "متى كنت بعيداً عنك رأيت نفسي بليداً".

(٣) ساندو (J. Sandeau)، قاصّ إفرنسي بليغ، ولد سنة ١٨١١ وتوفي سنة ١٨٨٣.

(٤) سان مالو (Saint-malo)، من سواحل فرانسة.

(٥) سبحان الله، أزقة اليهود ضيقة ومظلمة حتّى في سان مالو؟

والغرفة التي فيها رمتني أمي بالحياة والعاصفة التي تهددني^(١) في منامي. وكان السماء جمعت هذه الحالات كلها لتودع مهدي صورةً عن مصير أيامي“. عند ذلك زعق أناتول فرانس:
- أية عائلة هذه؟ لم تكن مادام شاتوبريان لتضع كسائر نساء البشر، بل كان يلزمها البحر والبرق والعواصف. وهكذا كانت ولادة الزهرة في يوم أسود. فنساء الناس يكفيهن جراب من الماء، أما شاتوبريان الصغير فيلزمه الأوقيانوس. لا جرم أن هؤلاء الجماعة كانوا بعداء عن البساطة. فقالت له مادام فلانة من فراشها:

- مهلاً، مهلاً، أنت القسوة بعينها. ما بدأت أشعر باللذة بنغمة القصص حتى جئت تقطع شاتوبريان إرباً إرباً وهو بعد في مهده فاصبر لمهاجمته أن يكون شبّ عن الطوق وذره الآن يرضع بسلام.

- يقشعرّ جلدي من شاتوبريان. إن هذا المتشدّق سمّ شبابي لأنّ والدي كان عابداً للفيكونت. وكان يحفظ من كتاب ”نبوغ النصرانية“ نسخاً مبعثرة ويضمّ أوراقها بعضها إلى بعض وهو في غرفته ومثلها نسخ كتاب ”الدليل“ وكانت هذه كتب مخدّته وكان يحفظها عن ظهر قلبه. ولشدة غرامه بالفيكونت انتهى بأن صار يتكلّم بالعظمة والتفخيم حتى أنه كان لأجل عجة بيض زائدة أو قليلة الدسم، أو شرحة لحم زائدة أو ناقصة الشواء يقعد فيويخ أمي بنسق شاتوبريان هابطاً من طور سيناء. وكان عنده عدد لا أحصيه من رسومه وتماثيله. وطالما أمرني عند المساء، لأجل أن يتلذذ، أن أقرأ له أشدّ الفصول طنطنةً من كتب محبوبه. ومن جملتها فصل على ”الزياح“^(٢) كان لا يملّ استعادته مع أنه من أبرد الخلط الذي يتصوّره العقل.

محبرة شاتوبريان

- لمّا خرجت من مدرسة ستانيسلاس كان أولئك الناس أقنعوا أبي بأنني لا أنفع لشيء، وأشاروا بتمريني على الأشغال التجارية. فلبثت نحو سنة أو أكثر أكتب فهارس ودفاتر ولم يكن ذلك العمل ليثقل عليّ. وإلى اليوم لا أجد شيئاً أستروح به عند التعب مثل الفهارس التجارية. وفي أحد الأيام كان أحد الأشراف من ذوي القصور والثروة الطائلة ومن أصحاب والدي يسأل عن واحد يحرّر له فهرستاً لخزانة كتبه العظيمة. فقال له والدي:

- ابني هو أحسن من يقوم بهذا العمل.

(١) مهددت الصبي: أمه حركته لينام، والعامّة تقول نمت بدون هدهدة. أراد أنه نام للحال من شدة التعب فهو من العامي الفصيح، والأصل الإفرنسي Bercer.
(٢) تطواف ديني.

فذهبت إلى قصر ذلك السري وأحسن استقبالي، ثم قال لي:
- انظر أيها الشاب إلى هذه المحبرة، فإنه من أسنى الشرف أن يغط الإنسان قلمه فيها.

فأخذت أحملق في تلك المحبرة، فلم يتهمًا لي أن أفهم لماذا يكون استعمالها بمثل تلك الدرجة من الشرف. فهي من هذا النوع المحفور بالسكين الذي يعمل من صنوبر سويسرة. وقد يوجد إلى اليوم في أسواق بعض القصبات بالأقاليم من هذه المحابر القديمة. ولو كنت تنظر كيف كان ذلك السري يعتمل بهذه المحبرة لظننت أنه ممسك بالقربان المقدس.

- "انتبه جيدًا أيها الشاب، فإن هذه محبرة شاتوبريان. وصلت إليّ من فلان" وبينما كان يقول هذا كنت أرى أنه يسمح بجميع ما عنده من الأسفار في تلك الخزانة التي كانت بالفعل ملوكية ولا يسمح بهذه الألعاب.

ولكن نزلت بنا قارعة. وهي أن صاحب المكتبة ذهب وتركني وحدي، فصعدت على سلم الخزانة وأخذت أبحث في صوان صوان عن الكتب القديمة وأنت تدري أنه ما من شيء أشهى إليّ من صيد هذه الكتب النادرة. فصرّت أحقق أماكن طبعها وسكرت برائحة قدمتها التاريخية، فتذبذب السلم من تحتي فتدحرجت ومعني نضد من الكتب وسقطت بها على المحبرة الثمينة. فنهضت سالمًا إلا من خدوش خفيفة. بخلاف المحبرة التي كانت في حالة تفتت الأكبادة. فإن أحد الوعيلين اللذين على قمّتها انكسرت يداها والآخر ذهبت قرونها والناسك فقد لحيته. فعرقت عرق الموت لما تجلّت لي الحادثة عن هذه الطامة الكبرى. فماذا يقول صاحب القصر عندما يأتي؟ سيقول إنني من المحرّبين. فعلقت أطوف في أرض الغرفة. لأجد ما انثر من المحبرة وأنا أمشي على أربعة وأخشى أن يفاجئني أحد وأنا على تلك الحال. فأظفرتني الله بيد الوعل الواحد وقرن الآخر ولم يبق إلا لحية الناسك. ثم إنني عثرت أيضًا على هذه اللحية. وكان ذلك فوزًا عظيمًا، فلجأت إلى الصمغ في الصاق هذه الكسرات وجعلت نوعًا من الجبارة على عراقيب حيوانات الدواة. وإذ كان لا بدّ من مضيّ وقت إلى أن يتمكّن الصمغ فأقمت سدًا من الكتب في وجهها حتى تبقى مستورة عن العيان.

وعند طعام الظهر قال لي صاحب القصر: كيف أنت وشغلك؟ إنني أراهن أنك تنظم شعرًا وأنّ لك فيه حظًا، لأنك تقدر أن تقول إنني حبرت من دواة شاتوبريان. فليسوا كثيرين بفرنسة أولئك الذين يقدرّون أن يدعوا هذه الدعوى.

ومضى حادث الدواة بدون أن يعرف.

فقلت أنا لأناتول فرانس وهو يقصّ القصة:

- بالله عليك أيها الأستاذ ألم تطرز هذه القصة بعض الشيء؟ أفلم يكن سقوط تلك الأسفار على تلك الدواة أمراً مقصوداً؟

- رجعت إلى شنشنتك في التعتت! فإنه جرت عادة الناس كلما رأوا رجلاً عمل في هذه الدنيا شيئاً من الجلبة أو صفوه هم مع أعظم الرجال بسبب أو بغير سبب، أخذوا يؤولون كلّ حركة من حركاته وينشدون فيها سرّاً، كأنه لا يجوز أن يعمل شيئاً كما يعمله سائر الناس. فقد يأتيني أناس يسألوني عن أشياء تافهة من أعمالهم في أيام الحداثة، كأنهم يريدون أن يستخرجوا منها مقدمات الدهاء والعبقريّة. ويظنون أنني عندما كنت ابن سبع سنوات، لا بدّ أن يكون في كنيّة امتصاصي لإصبعي دلائل على أنني أصير يوماً من رجال الأكاديمي. ويرمونني بالثناء والكتمان، إذا قلت لهم إنني كنت كسائر الأحداث وكنت أبعد الصغار عن التميّز وكنت في غاية الجبن. نعم، إنّه أليق بترجمة حالي وأوفق لك، أنت الذي لا بدّ أن تروي هذياني هذا كلّه فيما بعد، أن يقال إنني كسرت محبرة شاتوبريان عمداً، كراهية لأسلوبه، كما كان بوليكتوس Polyeucte الروماني يكسر الأصنام. وتزيد على ذلك أنني رميت المحبرة بمجلّد من كتب فولتير، ثمّ يزيد في رونق القصة. والحقيقة، أنني لم أكن ذلك اليوم إلاّ بليداً قليل اللبّق.

من الحمام إلى النار

على أثر أوبته من سفر إلى أثينا^(١) جاءت جوزيفين تقول: يا سيّدي قد وضعت أضيّيب الرسائل كلّها في الحمام. وبالفعل كان الحمام ملان بالمكاتيب والرسائل والكراريس والبرقيات. فقال لي:

- احرق كلّ هذا يا حبيبي.

فقلت له: فلعلّ هناك مكتوباً ذا بال.

- ما أغرّ شبابك! أفلا تعلم أنه لا يوجد أبداً شيء ذو بال في مكتوب. ثمّ الحظّ أنّ هذه المكاتيب قد مضى وقتها، فمهما كان الخبر منذ أربعة أشهر فقد مضى حكمه اليوم. إذا ففي النار ففي النار.

- وإذا قدر أنّ بين هذه المكاتيب مكتوباً من سيّدة حسناء...

(١) هي الرحلة التي كان يصحبها فيها نيقولا سيفور الذي تقدّم تلخيص كتابه.

- إنَّ سذاجتك توجب الشفقة. فاعلم أنه متى كتبت امرأة مكتوباً سواء كانت حسناء أو لخناء فيكون إمّا باستجداء دراهم أو بالتماس عارفة أو بسبّ وشتيم. وزد على هذا فالذين يكتبون مكاتيب سواء من الرجال أم من النساء، لا يكونون إلا من المزعجين. ولا شيء أكذب من هذا الترسل الذي قام مقامه اليوم الإنشاء المختصر أسلوب البرقيات والمكاتيب المستعجلة. وذلك كقولهم "اعمل لي هذه النعمة" و"أرجوك أن تقبل تأكيد وافر احترامي" و"خادمك المتواضع الطائع"^(١) فهذه الصيغ أصبحت غير مقبولة في عصرنا الديموقراطي. وزماننا واحسرتاه زمان أخذ وعطاء وقد حلت السفتجة محلّ الرسالة. فالتق هذه المكاتيب بأجمعها في النار. في النار.

- فربّما كان فيها مكتوب منّي.

- فلا كانت تلك الرسالة ولا أمتعني الله بها. أتراني مفتقراً إلى أسطار معدودة منك، مهما كان من رشاقتها، حتّى أقدّر قدر كيسك ولطفك؟ وجميع المراسلين ما خلاك ثقلاء مزعجون، إن لم يخسروك من نقدك، أخسروك من وقتك. أفكلّ ما كتب لك إنسان بعض سخافات ووضع عنوانك ولصق ورقة من وسم البريد بثلاثة سنتيمات، يحقّ له أن يدخل في صحبتك ويغيّر لك مواعيدك وعاداتك ويفسد عليك برنامج حياتك؟ في النار. في النار. يا حبيبي كما قلت لك. لست خبيثاً ولكنّي أحبّ أن أحرق بعض الناس مع رسائلهم.

- أفلا تسمح لي بأن أعمل هذه التجربة؟ وهي أن آخذ مكتوباً مختوماً بدون فحص والأعين مغمضة.

- لا. لا، أنا رجل صاحب مبادئ ولا أرضى بالخلل بالمساواة وأكون هكذا مشيت على المصادفة.

- على العناية الإلهية؟

- هما واحد.

- كنت أنتظر منك عطفاً أكثر من هذا. أفلم تقل لي أنت نفسك إنَّ حبّك الأول كان لمادام "دوسفينيه"^(٢)؟

- لا أنكر يا ولدي أنني لمّا كنت ابن عشر سنوات كان قلبي هائماً بمادام دوسفينيه. وكنت عثرت على مجلّد من ترسلها في دكان أبي وكان فيه صورة هذه السيّدة. فكنت أراها فتانة

(١) ماذا كان يقول فرانس لو أطلع على المجاملات الكتابية باللغات الشرقية والتي رشحت العربية من الفارسي والتركي ولم يكن العرب يعرفونها في صدر الإسلام.

(٢) دو سفينيه (Madame de Sévigné)، أشهر مترسّلة باللغة الفرنسية لا سيّما في رسائلها إلى ابنتها الكونتيسة دو غرينيان، (١٦٢٦-١٦٩٦).

بحسب الرسم الذي رسمها إياه "مينيار"^(١). وكان عنقها يجذبني أكثر من إنشائها. فمن مضحك هيامي أنني كنت أضع تلك الصورة على خدي وأوسعها قبلاً، وكلّ هذا كان من الطيب الطاهر، أفلا تراه كذلك؟

الطرفة المجهولة

قال:

أفتريد مثلاً لصناعة الترسل؟ مثلاً صحيحاً لا جدال فيه. هذا هو مكتوب العسكري الذي يهزأ به السفهاء:

"هذه الألوكة غايتها الوحيدة أن أعرفكم أنني بخير وأني أتمنى لكم مثله، وأنه إذا أمكنكم أن تبعثوا لي شيئاً من الدراهم أكون مسروراً كثيراً".

فهذا هو الفصيح الذي يصيب الغرض رأساً بدون زخرفة ولا شيء. فإنّ العسكري هو حرّ صادق يهاجم الكيس غير مخاتل ولا موارد. وهذا ما يجوز شأو شيشرون ومادام دوسفينيه وفولتير. ولئن غاب عنا معرفة الجندي الذي وجد هذه الصيغة البكر، فإنّه بدون شكّ قد كانت هذه الصيغة هي المستعملة في زمان "تورين"^(٢) وأيام نابوليون الكبير وفي عهده بوانكاره هذا. كلّما أعدت قراءة هذا المكتوب، وجدته عبقرى الأسلوب فلا كلمة زائدة ولا كلمة ناقصة، كأنه إحدى الكتابات الرومانية في العصر الطيب من أعصر رومة. انظر قوله: "هذه غايتها الوحيدة" غايتها الوحيدة خست الأكادمي أن تجد أبلغ من هذا. وماذا عساها تضع مكان هذه الجملة، أتضع جملاً من الجمل والصيغ الكاذبة المتملّقة التي تمجّ أكثر من إناء خردل. وربّما عاب الجهلاء فعل Assavoir، لبطلان استعماله ولكنّه اصطلاح عُدْملي^(٣) لطيف، كثيراً ما يدور في كتب الأوائل. وقد جاء في كلام رابليه. فهذا العسكري يكتب كما كان يكتب رابليه وكفاه بذلك مديحاً. وهي لهجة تشتمّ منها رائحة فرانسة الصالحة القديمة "أن أعرفكم أنني بخير"

(١) مينيار (Migniard)، اسم مصوّرين إفرنسيّين أحدهما نيقولا والآخر منيار عاشا في القرن السابع عشر. ونيقولا هو الأكبر ولا نعلم من منهما هو راسم مادام دو سفينيه.

(٢) الفيكونت دو تورين (Turenne) هو والبرنس دو كوندي فرقدان في سماء الجنديّة الإفرنسية. كانا القائدين في المعارك التي انتهت بنصرت الفرنسيس في فريبورغ ونوردلينغدن وسوميرهاوزن وهذه الأخيرة كانت أعظم عامل في صلح وستفاليه. وقد كان تورين يداً مع الكردينال مازرين ثمّ انقلب ضدّاً له ثمّ استماله الكردينال ودفع في نحو كوندي فهزم تورين كوندي في ريبض سانت أنطوان. وكان تورين قائداً للجيش الذي تغلب على الإسبانيول وفي حروب هولاندة وفلاندر، وهو فاتح الألزاس وانتهت حياته في ميدان الحرب بكرة أصابته في وقعة سالزباك سنة ١٦٧٥. وكان مولده في سيدان سنة ١٦١١، ومع مزايه العسكرية الباهرة كان متواضعاً وديعاً وحاز رتبة مارشال فرانسة. (٣) قديم جداً، والأصل الفرنسي Archaïque.

فالعسكري كالمدني يجوز أن يمرض، بل هو أكثر تعرّضًا للأمراض، بحيث أن العياء الذي يعدّه المدني نعمة، يعدّه العسكري نعمة، لأنه يتيح له الاستراحة في المستشفى ويرفع عنه السخرة والسرى وسائر مهنة الأبطال، التي مع مشاقها العظيمة، ثوابها فلس واحد في النهار. وعليه يريد العسكري أن يقول: «هذه غايتها الوحيدة أن أعرفكم أني في المستشفى» ويردّها بقوله: «وأتمنى لكم مثل ذلك» بدلًا من أن يقول: «وأرجو أن تكونوا مثلي، متمتعين بكمال الصحة على سرير وثير، ليس لكم عمل إلا أن تكبروا ناركم وتشربوا المياه المغلية». فهذا الجندي هو أنموذج الجنود والمرسلين وهو رجل طيب القلب. وعبرة كهذه من حقّها أن تبكي حنانًا لا أن تضحك. ولكن النوايغ هم دائمًا عرضة الهزؤ وأحاسن الأشياء مجهولة. فالعائلة الآن مطمئنة على صحة ابنتها وهذه هي النقطة الكبرى. لأنه في خدمة الوطن لا يعرف الإنسان ماذا ينوبه، فأقل شيء يفرضي بالجندي إلى ديوان الحرب. إذا الوالدان استراحا، فالأب يضحك والأم تحكّ طرف مقلتها والقلوب تبتهج والكيس سينفتح. فأنت ترى براعة الاستهلال وكذلك براعة الطلب، حيث يقول: «وإنه إن أمكنكم أن ترسلوا لي شيئًا من الدراهم... إلخ»، إنه إن... هكذا يتكلّم المنطقة والفلاسفة «دي كارت» «بوسويه» «مالبران»^(١) وأكرّر عليك، هذا الجندي يبذ الأكادميات الخمس «وإن أمكنكم أن ترسلوا لي شيئًا من الدراهم» هذا الولد الطيب غير متحكّم. ولا يكتب لهم بخشونة: «ارسلوا لي دراهم» أو «ما بقي معي شيء من الدراهم»، بل يقول بكلّ رفق: «إن كان هذا لا يثقل عليكم يا والديّ العزيزين» فأبى قلب من فولاذ يرفض التماسًا بهذه الرقة. نعم، سيعثون لك بدراهم. وستأتيك الحوالة قريبًا. وأنت تسرّ بها مهما كانت. فمن هنا يعلم الإنسان اعتداله في مطالبه وتوطينه النفس على الرضى بأحكام القدر. فالعسكري هو المثال للرجل المسيحيّ.

وبعد هذا، فماذا يفعل بالدراهم هذا الجندي الذي هو أنموذج جميع الفضائل الإنسانية والمسيحية؟ لا شك أن المولعين بسوء الظنّ يقولون إنه سينفق ذلك في القصف والشرب وإنه ليس لأجل أن يروح نشوان كان أهله يبقون الدم في العمل. فمن أين يعرفون ذلك؟ على أنه لو سكر ونادم - وهو ما يدلّ على ضعف معدته لا على ضعف إرادته - فلن يكون وحده في المعاقرة، كما يفعل المرأون والمؤثرون لأنفسهم، بل يكون مع الرفاق وجميع الزمرة حتّى مع الأعداء كقائد العشرة والضويبط. فهذا منزع مسيحي، بل روماني، بل كورنايلي^(٢). ولا يخفى أن آباءنا

(١) مالبران (Malebranche)، فيلسوف إفرنسي، يرى تحليل كل شيء حتّى الأجسام بوجود الله والوحي، (١٦٣٨ - ١٧١٥).
(٢) نسبة إلى كورنايل، ويكنّى بذلك عن علو النفس.

الأولین كانوا إنما يحتفلون في الأفراح والأكدار بإدارة الأقداح وهم قدوتنا في كل شيء. أفلم يقل هوراسيوس، إنه ما من سبة في أن يخلع المرء عذاره أحياناً من أجل صديقه. فهذا العسكري لم يقرأ كلام هوراسيوس ولكنه يعرف، بدون مطالعة في العلوم الأدبية، معرفة هوراسيوس فيجمع رفاقه ويذهبون إلى الحانة وربما يذهبون في المساء إلى غير الحانة. على أنني أنا لا أصدق أن مثل هذا العسكري العبقرى يكون من الخلعاء الفاسقين. فإن الأفكار العليا لا تأتي إلا من الفؤاد. وهذا العسكري له علاقة بدون شبهة مع بكر كاعب صافية مزدانة بجميع الفضائل، فهو يرنو إليها هائماً ويشد على يدها ولا يقول لها شيئاً صريحاً، بل هو ممتن يغلب عليهم الفكر. وكتابته هذه تدل على اقتصاده البديع في الكلام. أما تلك الغادة فهي وصيفة عند كاتب العدل أو عند الجابى وربما تكون ظنراً عند الطبيب وعليه ليست إلى الآن عذراء.

ولا ننسَ الجملة الختامية التي يقول فيها "ولدكم إلى آخر الحياة" فإن معناتها أنني مهما تقلبت الأحوال يا والدي العزيزين وأني ولو بنيت بنت الملكة أو بانية السمان الذي يبيع بالجملة، فإنني لن أنساكما وإني أتمثل أبداً لديكما كالرضيع أمام المرضع وإن اسمكما هو الذي أتسم له في الساعة الأخيرة من الحياة فأنا ولدكما حياً ميتاً".

فماذا تريد فوق هذا؟ وقس تضاول صيغ العصر الكبير إلى هذا الصوت الصادر من أعماق القلب. وتلك مثل قولهم "ولدكم وخادمكم الخاضع جداً الطائع جداً فلان" وما أشبه ذلك. كلما تأملت في هذا المكتوب تجلّت لي في الناس قلة الوفاء. فإنه هو المكتوب الذي يكتب من عسكري لأهله، منذ وجد العسكر وعرف القتال بين الناس. ولم يعرف أحد اهتم في كشف اسم الرجل الأول الذي وضع هذه الصيغة التي لم تخلق ديباجتها الأيام ولقد أثبتوا العظم لرجال كثيرين هم بزعمهم من أفراد الدهر وليس فيهم من فرى فرى هذا الجندي.

هوغو وبيرانجه

أشعر شعراء القرن التاسع عشر هو "بيرانجه" من جهة التركيب واللغة، فإنه يتكلم بلغة القرن الثامن عشر مع مطاوعة السجىة والذهاب مع الطبع، فليس في كلامه تصنع "جان باتيست روسو"^(١) و"لبرون بيندار"^(٢). وهو يمثل الأخلاق الفرنسوية، فشعره أكثره في صفة الخمر وفي

(١) جان باتيست روسو (Jean-Baptiste Rousseau)، شاعر إفرنسى غنائى مجيد، (١٦٧١ - ١٧٤١).

(٢) لبرون بيندار (Lebrun-Pindare)، شاعر غنائى إفرنسى، لُقّب نفسه بلقب بيندار اليونانى الذى يُعدّ من فحول شعراء العالم. وأين الثعلب من الأسد؟

الحبّ والمجد... وأما من جهة المشرب، فإنّه وطنيّ النزعة أو حماسيّ المشرب لأنّ الشّيين واحد. ولكن حماسته كانت دائماً من بعد المعركة. لأنّه هو نفسه روى بكلّ صراحة قصّة فراره من الخدمة العسكرية وقال إنّّه كان، كلّما رأى أناساً من الشرطة، رفع لهم قبّعتهم وطأطأ لهم رأسه على الأرض. وإذا كان أصلع من الأصل فكانت صلّعتهم تغنيه عن الرخصة العسكرية فكانوا يظنّونه ابن أربعين سنة.

تغيير السحناء

ل... تعشّي عند مادام فلانة...

إنّه لعجيب الشكل غريب الطور، كان هذا الرجل محمّراً وجهه كأنه غانية... نعم، هذا الضابط في البحرية^١ كان على كلّ من خديّه ملء قرطاس من الحمرة. وفي جفونه نحو من نصف إقّة كحل. لا يريد أن يشيخ، بل يجتهد أن يحتفظ بشبابه بهذه التحاسين ولكنّه غير مرتجع من الشباب شيئاً. وما أرى هذه الأدهان تمسكه إلّا كما تمسك الموميا المصرية في حالة أشنع في النظر من الهرم عينه. فليست هذه هي الحياة وإنّما هذا هو التحنيط. وقد كنت أراعاه ونحن على السفرة فكان يخطر ببالي هذا النوع من الطيور الصنعية المحشّوة التي عيونها من زجاج ممّا يحبّ الملاء^(١) وضعه على مكاتبهم.

قياس أقرن

كان مرّة بجانب رجل يحبّ البراز.

فقال له وهو خافض جناحه بنغمة هي غاية في اللطف:

- أستمحيك نعمة أن تتبدّل كرسيّاً آخر بالكرسي الذي أنت عليه وتجلس بعيداً بمقدار ثلاثة

كراسي.

- ولماذا؟

- يا سيّدي لست برجل أقابل الناس بما يكرهون فأرجوك أن تعفيني من أن أقول لك ما

يسوءك.

- وأيم الله ما دمت لا تصرّح بسبب دعوتك هذه إياي إلى الابتعاد فلن أبرح مكاني.

(١) الملاء: جمع مليء، وهو الغني المتمول، وفي الأصل الفرنسي Bourgeois.

- أنا يا سيّدي ممّن يجعلون الأدب فوق كلّ الفضائل فاترك من تلقاء نفسك هذا المكان
والآ فإنك تضطّرني أن أقول لك ما لا يرضيك.
- حسبك. أنا هنا وأبقى هنا.
- أقول لك وهذه هي المرّة الأخيرة: أتريد أن تبرح مكانك؟
- لا.

- إذا أنت أردت ذلك وتراني في غاية الأسف والله يشهد^(١) أنني ما أذخرت وسعاً حتّى لا
أسوءك. والسبب في كوني أرجوك التباعد قليلاً إنّما هو يا سيّدي سهوكة جسمك. فإنّ الرائحة
الكرهية تنبعث من أباطك وصدرك ورجليك. والشيطان نفسه لا يقدر أن يقيم بحذائك.
- أنت تحقرني. وغداً اثنان من شهودي يأتيانك، للاتفاق مع اثنين من شهودك على نوع
السلاح في البراز، أتريد بالسيف أم بالطبنجة؟
- أبراز يا سيّدي من أجل أنني أستنشئ منك رائحة كريهة؟ تروّ قليلاً، فليس هذا بكلام
معقول. إنّك إن قتلتنى لم يقلّ نتن رائحتك شيئاً، وإن قتلتك ازداد ننتك عن ذي قبل كثيراً.

دوشين^(٢) متلصص بحر

في هاتيك الأيام كان المطران دوشان لا يزال قسيساً ولكنّه كان قد صار من الخالدين ودخل
في أكاديمية الكتابات الأثرية والآداب. وهذه الأكاديميات، التي من الدرجة الثانية، هي كما لا
يخفى أشبه بالأقارب الفقراء لابنة الكردينال الشهير: فوقع مرّة جدال بن الأب دوشين وورصيف
له عالم باللّغة السلتيّة. وكان موضوع الجدل بأية لغة تكلم آدم وحواء في الفردوس، أباللّغة
السمبرية^(٣) أم بلغة سفلى البريطونيين؟ فصار كلّ من القرنين يقاتل الثاني بالشواهد والأدلة
فانتهت الجلسة وهما يختصمان. فخرجا يكملان الجدل في الدهليز وعند الباب وفي الشارع
وبين العربات والعجلات: ومن هناك بقي النضال يمتدّ إلى أن وصلا إلى منزل الأب دوشين
وجلسا على المائدة، وثمة حمي الوطيس عوداً على بدء.

وفي الآخر لحظ السلتيّ أنّ الوقت قد طال وأزفّ ميعاد ذهابه، فقال للأب:

(١) في الأصل الإفرتسي: والسماء تشهد.

(٢) دوشين (Ducheane).

(٣) السمبريون (Cimbres)، جيل من البرابرة الشماليين اجتاحوا هم والتوتونيون بلاد الجلالقة قبل المسيح بقرنين. وإذا راعينا القاعدة
العربية لزم أن نلفظ هذه الكلمة بالنون والباء فنقول "السنبريون".

- يا أبت أراك تتنفس الصعداء وأرى هناك على المقصف قرصى حلواء تفوح منهما رائحة الروم^(١) وهذه الحلواء اللذيذة تنبهي أن وقت طعامك مع السيّدة قيمة منزلك^(٢) قد حان فلا أريد تأخير هذا الميعاد اللطيف عنك. ولن أسألك إلا سؤالاً فرداً: أوجد بواخر بعد الآن إلى «أوتويل»^(٣)؟
- لا أقدر يا سيّدي أن أجابك لأنه ليس لي خبرة بسير سفن المياه الحلوة.

- حقاً يا أبي إنك كواحد من سلائل لصوص البحر البريتونيين لا يزال يغلب عليك الميل إلى الماء الملح. وخرج العالم السلتي بدون أن يصفح الأب الذي هو أيضاً لم ييسط له يده.

وبقيا متخاصمين نحواً من سنتين ثمّ تصالحا في جنازة كانا ماشيين فيها متقاربين فوقع الائتلاف بينهما على رأي متوسط. وهو أن أبونا آدم وحواء كانا يتكلمان تارة بالسمرية وطوراً بلغة البريتون السفلى. فالسمرية كانت لغة المحادثات العلمية والأدبية والمواضيع العالية، والبريتونية كانت تستعمل في أوقات الأنبساط والتبذل.

إعادة نظر

- أحسن تألفي هو ما لم يكن عليه أدنى إقبال مثل «التاريخ الهزلي» و«جان دارك». وأفقر تألفي هي التي جميع الناس يطرونها مثل «تاييس» و«الزنبقة الحمراء».

إيضاح

- لماذا أذهب نحو الاشتراكية؟ أولى بالمرء أن يذهب من نفسه من أن يُسحب بالقوّة.

حيلة تور^(٤)

- أخبرتك بحيلة تور؟ كلاً، يكون حسناً أن أحدثك بها، لأنها تستحق أن تُسمع. كان ذلك في العام الماضي إذ ذهبنا إلى بلاد التورين فطفنا في قصورها القديمة. فكنا نزور كلّ صبيحة قصرًا وكلّ ظهيرة كنيسة وكلّ عشية خزانة تحف، هذا بدون أن نذكر بائع الكتب وتاجر العاديّات.

(١) الروم (Rhum)، شراب يُستقتر من دبس قصب السكر.

(٢) Madame la Gouvernante.

(٣) أوتويل (Tuteil)، محلّ.

(٤) تور (Tour de Tours)، مدينة بفرنسة وقد ذكر أنه عمل فيها حيلة لطيفة على رفيقته وعبر عنها بكلمة (Tour) التي لفظها مثل اسم المدينة فكان جناساً تاماً. وقد مرّ بك أن أتتول فرانس مات في تور.

ففي أحد الأيام تركت العقيلة تستحم وانسلت. فبصرت بي ونادتني:

- أين تذهب يا سيدي في هذا الوقت؟

- إلى الكنيسة. إلى "سان غاتيين St - Gatien".

- أرجعت إلى الإيمان؟ لكن القسيسين الآن نيام.

- كلاً، يا سيدي أفلا تسمعين قرع الأجراس؟ على أي لست ذاهباً إلى هناك للعبادة، بل لمشاهدة البناء.

- انتظر دقيقة فأنا ذاهبة معك.

فوطنت نفسي على الصبر وعلمت أن صبيحتي تنكّدت. وسرنا معاً إلى البيعة فكانت الحسان تطلّ من النوافذ ضواحك. وهذه ملاحظة لعلك لاحظتها، فإنّ "بنات السرو" كعصافير الليل يعشّشن غالباً بقرب الكنائس. فإذا وصلت إلى بلدة لم تكن عرفتها من قبل - وهذا أمر اختبرته مراراً - وجدت في أكثر الأوقات السلوى البدنية بجانب السلوى الروحية. فهذه العلاقة بين التقوى والغزل تجدر بالبحث والتقرير. وهو موضوع لطيف لنقّاب في شرح الشباب مثلك، والخلاصة أنني، في زقاق صغير بقرب الكنيسة، بصرت بفتاة معتمدة على شباكها. مسدولة لها ذوائب يا ابني وأي ذوائب! غفارة من ذهب. ولها عنق! كاللبن يا حبيبي. فلم يخفَ عليها هيامي فعمزت بعينها. وكأنها تقول: "أنا حسناء ولست بصعبة. والحياة قصيرة. فتملّص من معك وتعال فوافني" وكانت الأجراس تقرع كأنها تقرع من أجلها. ولا شك أنه كان فيها من الإلهي أكثر ممّا في الكنيسة⁽¹⁾. فملك حبّها قلبي وامتألت جوانحي فرحاً وحمدت الربّ ولم أقدر أن ألبث ساكناً وأحسست أن النعمة بهظنتني بقرها. فأما العقيلة فكانت ماشية بجانب عابسة فأدخلتها الكنيسة القائمة الأعماق وقابلت الغمزة التي تلقّيتها بمثلها وأشرت إلى الغادة بأن تأتي إلى جهة المذبح. ثمّ قلت للعقيلة: يوجد وراء المذبح الأعظم قبر ولد للويس الحادي عشر لا أدري أفتى أم فتاة؟ لكن بناء هذا القبر هو إحدى العجائب. من لم يره لم يقدر أن يفهم شيئاً من فنّ النحت والبناء عند الفرنسيين وهو في لطف الصنعة وغرابة الشكل وسط بين دورَي القرون الوسطى والتجدّد. بناء عديم النظير متناهٍ في الفخامة لا يعرف مهندسه العظيم. فقالت العقيلة:

- هو ذا أنت مستطار جدّاً بهذا القبر. أفمن أجل ابن لويس الحادي عشر الذي مات يافعاً

نهضت اليوم هذا النهوض الباكر؟ جيد. فلنذهب وننظره.

(1) هذه مجانة لا تليق بمثل أناتول فرانس. وربما لم يقل ذلك إلا على وجه الإحماض ولم يكن يعلم أنه سيؤثر عنه.

- يا سيّدي يجب أن أقول لك: أمس عند "ليبودو"، بائع الكتب العتيقة، أهملت كتاباً بغاية الدور ويجوز أن هذا الحيوان يبيعه. فلم أتم الليلة الماضية من أجل هذا الكتيب. دعيني أذهب بضع دقائق وآتي وكتابي بيميني.

- جيّد. فلنذهب معاً إلى "ليبودو" فإن ابن لويس الحادي عشر لن ينتقل من هنا.

- كلاً، يا سيّدي لا أقدر أن أحمّل ذلك. ولا أدعك تتكلمين هذه المشقة. فاذهبي وتأملّي في قبر ابن لويس الحادي عشر، هذه الأعجوبة التي لا نظير لها، وهذا إلى أن أكون رجعت.

ثمّ خرجت وتلاقيت مع تلك المخلوقة التي أسبغ الله نعمته عليها. ورجعت فوجدت السيّدة في حنق شديد شعرها المستعار مشعث وهي تهزّ مظلّتها وتصخب وترجّ الكنيسة كأنها "آتاليه" في الهيكل.

- أين قبر ابن لويس الحادي عشر؟ لن أبرح البيعة حتّى أراه. لأبرقنّ إلى مدير المباني التاريخية. لأعرفنّ ناظر المعارف العمومية. إنّ هذا لا يجوز ولا يليق أصلاً. فإنك تذكر هنا قبراً لابن لويس الحادي عشر وهؤلاء يقولون إنّ غير موجود. وحاولت أن أسكن روعها فلم يسكن. وكان الخوري أرسل يستدعي الشرطة. فلما رأيت المسئلة وصلت إلى هذا الحدّ أثبت أنّي بطل فقلت لها الحقيقة وصرّحت لها بصوت جازم قائلاً: "هؤلاء الجماعة غير مخطئين فإنّ هذا القبر النادر المثال، مدفن ابن لويس الحادي عشر ليس هنا، بل في "أنجه"^(١).

فلما سمعت هذا الكلام أبلست وبقيت يومين لا تكلمني فربحت بذلك يومين.

فتوى

- إنّ "جوريس"^(٢) هذا وإن كان هائلاً فهو غاية في سلامة القلب فقد كان أمس على الغداء

(١) أنجه (Angers)، مدينة بفرنسة على مسافة ٣٠٨ كيلومترات إلى الجنوب الغربي من باريز، فيها كنيسة بديعة وقصر بدئ به في أيام فيليب أغوست وأنجز في أيام مار لويس.

(٢) جوريس (Jean Jaurès)، أشهر زعماء الحزب الاشتراكي في فرانسة ومن نوابغ الاشتراكيين في العالم. كان آية من آيات الله في الفصاحة واللسن وسداد الحجّة وقوة العارضة وقلماً قدر خطيب على مقارنته في البرلمان الفرنسي. كان من مبادئ جوريس، عدا الأخذ بأيدي العملة والطبقات المستغلّة (بفتح الغين) إلى مساواة الطبقات الملبئة المستغلّة (بكسر الغين)، السعي في تحرير الأمم المستضعفة التي بطشتها بين أمة وأمة وتقوية روح الشعوبية التي يقال لها (Internationale) والتي معناها تضامن طبقات العملة في كلّ أمة بعضهم مع بعض بإزاء الأحزاب القومية التي لا تفتأ تشعل الحروب في العالم. ولما أوشكت الحرب أن تنشب بين ألمانية وفرناسة سنة ١٩١٤ كان جوريس أقوى عامل في مقاومة انبعاث شرارتها وكان يصرح بأنّ سفير الروسية في باريز هو الذي قرّر هذه الحرب وأقنع رجال الفرنسيين ويجتهد في إحباط سياسته. فنارت على جوريس خواطر أحزاب اليمين وحملت الحفيظة الوطنية واحداً منهم على أن ذهب وقتل جوريس غيلة وكان عمره خمساً وخمسين سنة. ومن الغريب أنه لما انتهت الحرب الكبرى طلبت عائلة جوريس والحزب الاشتراكي مجازاة القاتل فكان من =

عند العقيلة وهناك أخذ على عادته يخطب في موضوع الهيئة الاجتماعية المستقبلية "كل إنسان يصير في مركزه. كل شيء يكون شائعاً بين الناس. لا يكون أغنياء ولا فقراء، بل الأموال سويطة"^(١) بين الجميع" ولما كان يحوم في سماء المدينة الفاضلة أردت أن أداعبه بغرز إبرة في منطاده، فقلت له:

- والتحف النفيسة، ماذا تصنع بها يا جوريس في جمهوريتك الكاملة؟ فأخذت العقيلة تنظر في أثاث بيتها وأدوات السفارة الفضية والتصاوير المعلقة، ثم قالت له:

- صحيح. أتبقون لي أدواتي الفضية وتصاويري وتمائلي؟

فقال جوريس:

- هذه تعود لطرز الإدارة.

فأردت أن أشحذ الشفرة جيّداً، فقلت له:

- قل جوريس: نعم أم لا. أتكون هذه التحف تابعة السيّدة أم للأمة؟

فهتف جوريس وهو يضرب بقبضته على المائدة: للأمة. للأمة.

فقالت السيّدة:

هذا هو. تدعو الناس إلى مائدتك فبعد أن يملأوا بطونهم يأخذون لك فضّتك تذكّاراً وطنياً.

فأفحِم جوريس، ثم قال:

- بديهي يا سيّدتي أن هذه الصور المتألّثة وهذه التماثيل الناطقة بغير لسان وهذه النوادر النفيسة إنّما هي ملك الجمهور.

ثمّ عندما وصل إلى هنا تناول قدحاً من الشامبانيه واستأنف الكلام بلهجة أقرب إلى الاعتدال:

= المحكمة أنها اعتدته معذوراً وخلت سراحه. فقابل العملة والاشتراكيون هذا الاحتقار للحقّ بمجاهرة عظيمة اجتمع فيها ثلاثون ألف عامل طافوا حاملين الرايات الحمر في شوارع باريز. وكان أناتول فرانس ذا نزعة صعلوكية يحطب في جبل الاشتراكيين ويحضر مجامعهم ويحبّ جورس. ومرة كان مدعواً عندي في أثناء المؤتمر الاشتراكي بلوسرن سنة ١٩١٩ عدد من زعماء الاشتراكيين الفرنسيين مثل مارسل كاشين وجان لونغه وبول ميسترال وفروسار ورينول فكان من جملة ما ذكره لي في مقام الافتخار أن أناتول فرانس هو منهم. فقلت لهم على سبيل استطلاع رأيهم فيه: ومن أناتول فرانس؟ فقالوا لي: هذا من الطبقات العلى التي لا فوقها في كتابنا. فقلت لهم: أصحيح أنه أكّتب كتاب فرانس في الحاضر والغابر؟ فأجابني كاشين، وهو اليوم زعيم الشيوعيين: أمّا هكذا فلا. أمّا هكذا فلا. (١) مختلطة.

- لكن، لما كانت هذه البدائع تؤلف مجموعاً وكان بينها تناسب، يكون بربرياً إدخال الخلل عليه، وكنا نحن معاشر دعاة الانقلاب لسنا من المخربين، فتبقى هذه التحف وديعةً عندك إلى أن يكون تمّ الانقلاب الاجتماعي وتكونين أنت القيمة المسؤولة عليها.

السيدة الأرخنتينية

رغبت إحدى سيدات الأرختين إلى الأستاذ أناتول فرانس أن تعرّفه بولديها، لأنه هو أكبر كتاب العصر الحديث وهي وأولادها لن ينسوا شرف معارفته هذا وسيجرون به ذيول الفخار في جميع أميركا الجنوبية. وقرأت الرقعة للأستاذ: مادام فلانة هي من أصحابي وولداها يقرآن عليّ الأدب والنحو الإفرنسي.

فسألني:

- كم عمر هذه السيدة؟ يتخيّل الإنسان بهذا الطلب أيام ما كان شيخ "فرناي" (١) على فراش الاحتضار يبارك أولاد "فرنكلين" (٢) إلّا أنني لست ممّن يقدر على صاعقة السماء وما أنا بالشيخ الكبير شيخ فرناي، ولا أحسن إعطاء البركة ولا سيّما البركة على الفتیان. فلو كان ولداها فتاتين كان أوفق.

- هذه السيدة يا أستاذي تحبّك إلى درجة العبادة وعندها في بهوها جميع صورك. وقد ذهبت عمداً إلى مرفأ "مالاكيه" (٣) حتّى تتأمل وتخشع أمام باب البيت الذي جئت فيه إلى الدنيا. ودخلت إلى المخزن الذي كان فيه والدك وفيه اليوم تاجر عاديات وأخذت كسرة من زجاج الدكان وحفظتها في علبة صغيرة كأنها قطعة من عود صليب الصلبوت.

- أقول لك كم عمرها؟

- ليس من السهل أن أحدّد ولكنّها عبهرة (٤) حسنة (٥) الشطاط والتمام وبالجملة فمن الجمالات (٦) الناضرة.

(١) فرناي (Patriarche de Ferney): إشارة إلى فولتير لأنه كان يقطن مكاناً اسمه فرناي على شاطئ بحيرة جنيف.
(٢) فرنكلين (Benjamin Franklin)، رجل سياسي صحفي معدود من بُناة الاستقلال الأمريكي، وهو مخترع حربة الصاعقة، (١٧٠٦ - ١٧٩٠).

(٣) مالاكيه (Malaquais) على ضفة النهر، وهناك كان بيت والد أناتول فرانس كما مرّ.

(٤) العبهرة المرأة العظيمة، وفي الأصل Majestueuse.

(٥) القذ الطويل.

(٦) بضمّ الجيم والجمال مشدداً أو مخففاً: الجميل.

- أحمرء هي أم سمراء؟

- هي سمراء ذات عيون! وشعور! وعنق أعيد!

- يا ولدي لك أسلوب في تقديم زنبيل الخبز المبارك يشهي الإنسان الأكل. قل لهذه الساحرة الأرختينية أنني تحت أمرها، لا بل تحت أقدامها. وإنها في أي وقت جاءت، فأنا حاضر إلا أنني أسأل، أفلا يمكن إتيانها وحدها بدون أولادها، إذ لا أجد من الموافق تقديم غلمان جامزين كهؤلاء إلى أحد أعضاء الأكادمي.

ثم جرى البحث في المكان الأوفق للإتيانة، فأما عند العقيلة فالأثاث أفخر إلا أنها أغير من نمره، فربما قلعت عين الأرختينية غيرة وحسدًا. وأما مغنى سعيد فلا بأس به، وشكل المغنى مؤثر إلا أن الفراهة ليست كما يجب: وما لا مناص منه تقديم الشاي وأقراص الحلواء للسيدة وأولادها الآتين لا محالة. فإن كانت جوزيفين ذلك اليوم ساكنة النفس مرتاحة إلى الخير، فكل شيء يكون على طرف الثمام؛ ولكن يا قديس سقراط إذا كانت جوزيفين ذلك النهار في أحد أيام بؤسها، فلا أمل أن نجد قطعة من السكر وتصبح المناشف والأغطية والملاعق في جبل الفقراء^(١) ويجب تنظيف المدخنة من السخام وربما يحصل انفجار في آلة الغاز، فأولى بنا أن نحتاط للأمر من قبل. أظن أن علاقتك حسنة مع جوزيفين وأن لها عاطفة لها نحوك، فانت استثمر هذه العاطفة بالكلام. واطهر لها أنك تبوح لها بما لا تبوح به لغيرها ومجدها تمجيدًا، لأنها أزهى من ديك حبش. فقل لها مثلاً: "إن هذا الشيخ لا يطاق من سوء خلقه. وإن أميرة من البلاد البعيدة قد سمعت وهي في قصرها بما أنت قائمة به من ترتيب بيت أناتول فرانس وبحدقك في عمل الشاي فجاءت عمدًا، لأجل أن تتحقق هذا الأمر بنفسها. وهي تريد إتيان مغنى سعيد لتقدم لك أولادها يا جوزيفين لكن الشيخ غيور كالنمر فيدعي أن هذا شيء مزعج. وأنه ليس في المغنى حلواء ولا ملاعق ولا أدوات فضية وأنت طول حياتك ما أحسنت عمل طاسة شاي. وأخيرًا فإنك لا تحبين أن تري أحدًا في البيت وإن وجهك بإزاء الأضياف وجه بومة" فإذا قلت لها هذا تطيب أخلاقها وتذهب حتى إلى الحدائق العمومية لتسرق أزاهير تزين بها المائدة. وبالفعل جوزيفين ذهبت إلى مخزن الشموع وابتاعت مقدارًا عظيمًا منها وزينت البهو الكبير الأدنى بهذه الشموع حتى صار كأنه نعش.

(١) Mont de Piété: محل يرهن فيه الفقراء أمتعتهم. وقد ورد ذكر الدهقانة جوزيفين هذه في كتاب سينفور أيضًا ووصف كيف كانت منسلطة على فرانس.

ووضع فرانس على رأسه كمة أيام الاستقبال وتفخّل^(١) وأقام شاريه، ولما أقبلت الزائرة الكريمة، خفّ وأخذها بيديه وقبّل يدها. ونشب في مجاملات غزلية من حين وصولها إلى أن استقرّت في بهو الاستقبال فقدمت السيّدة ولديها اللذين كانوا حفّظوهما خطبة تعظيم ولفظاها. فقال لهما الأستاذ:

يا ولديّ تريدان إبداء ما عندكما من الإعجاب بتأليف هذا الشيخ، فأنا الذي قد بهره ما أنتما عليه من اللطف ومن مخايل الأنفة. حقًا يا سيّدتى عندما أرى آثارك أنت أجد آثارى ضئيلة جدًا.

وكان الأولاد أتوا بنسخ من تأليف فرانس المسمّى "سلفستر بونار" لأجل أن يكتب لهما اسمه عليها. فقال:

دائمًا سيلفستر بونار. وهو أسمح تألفي وأشدّها إملالًا. عملته على نيّة أن أنال جائزة الأكاديمي وقد أحسنت عمله أو قل أسأته بحيث نلت تلك الجائزة.

وكان الولدان لابسين ملابس مدرسة "إيتون"^(٢) فسألتهما الأستاذ:

- وأنتما يا ولديّ أخذتما جوائز في إيتون؟

فاستلقت السيّدة على ظهرها من الضحك.

- وكان الولدان مجتهدين إلا أنّهما غريبان في إنكلترة فلم يكونا يقدران أن يساويا أولاد الإنكليز ولكنّهما كانا يتكلّمان بالإنكليزية كأبناء هذه اللغة ويقرآن "ديكنس"^(٣) بصوت عالٍ.

فقال أناتول فرانس:

"أحبّ ديكنس كثيرًا فإنّه من أعظم الكتّاب وكثيرًا ما شبّهوه بـ "دوده"^(٤) لكنّهم نقصوا قدره بذلك. فإنّه لا ينكر أنّ دوده كاتب بارع ولكن يعوزه عمق الغور وأكثر بدائعه سطحية. أمّا ديكنس فتأليفه اجتماعي قائم على مبادئ، بخلاف دوده الذي ليس له غرض عام. ومن مزايا ديكنس محافظته على مكانته وشعوره بشرف صنعة الكاتب".

(١) تفخّل: لبس أحسن ثيابه.

(٢) إيتون (Eton): مدرسة بإنكلترة.

(٣) ديكنس (Ch. Dickens)، قاصّ إنكليزي، ولد في لاندبورت سنة ١٨١٢ ومات سنة ١٨٧٠. كان من المكثرين مع الإجابة وأنحى في جميع قصصه على رذيلة الرثاء والأثرة وغمز كثيرًا الهيئة الاجتماعية الإنكليزية بغير استثناء، وهو من أنبغ أهل القصص عندهم.

(٤) دوده (Alphonse Daudet)، قاصّ فرنسي شهير، له تأليف يقرأها الجميع معجبين بدقّة لحظه وحرارة قلمه، ولد في نيم (بلد بروسون، صاحب الكتاب) سنة ١٨٤٠ ومات سنة ١٨٩٧.

ثمَّ وَّعَّ بِخَطِّهِ عَلَى الْكُتُبِ، وَقَالَ:

- وَأَنْتِ يَا سَيِّدَتِي، أَفَلَا تَرِيدِينَ مِنِّي شَيْئًا؟ أَفْتَذْهَبِينَ مِنْ هُنَا وَأَيْدِيكَ فَارِغَةً؟

فَتَحَيَّرَتِ الْحَسَنَاءُ الْأَرْخَنْتِينِيَّةُ فِي الْجَوَابِ، ثُمَّ قَالَتْ:

- أُرِيدُ أَنْ أَطْلُبَ مِنْكَ شَيْئًا وَلَكِنَّ الْمَوْضُوعَ هُوَ بَغَايَةُ الدَّقَّةِ. وَأَخْشَى أَنْ أَكُونَ أَتَيْتُ بِمَا يَخَالِفُ أَدَبَ الْمَعَاشِرَةِ.

- أَكَلْتُ هَذَا. فَمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ هَذَا الْمَوْضُوعُ؟

- هُوَ مَوْضُوعُ نَفْسِكَ.

- نَفْسِي؟

- نَعَمْ، نَفْسِكَ. لِأَنِّي قَلِقَةٌ مِنْ جِهَةِ نَفْسِكَ.

- آه مَادَامَ، فَلَوْ أَنَّكَ تَقْلِقِينَ مِنْ جِهَةِ جَسَدِي.

- لَا تَضْحَكِي. فَإِنَّكَ بَدُونَ دِينٍ. وَنَرَاكَ تَعْمَلُ كُلَّ مَا فِي وَسْعِكَ لِتَهْلِكَ. وَلَمَّا كَانَ قَلَمُكَ

سَاحِرًا فَإِنَّكَ تَهْلِكُنِي أَنَا مَعَكَ. لَكِنِّي سَاقِفٌ فِي رَأْسِ الْمَزَلَّةِ الْمَدْحَاضِ وَأَجْتَهِدُ أَنْ أُنْقِذَكَ.

- أَتَبْتِي جَيِّدًا يَا سَيِّدَتِي فَإِنِّي سَأَتَعَلَّقُ بِذَيْلِ ثُوبِكَ، وَمَهْمَا صَنَعَ الشَّيْطَانُ فَلَنْ يَزْحَرْحِنِي مِنْ

هُنَالِكَ.

- أَفَلَا تَفَكَّرِي يَا سَيِّدِي فِي الْآخِرَةِ؟

- أَبَدًا. أَبَدًا^(١).

- أَفَتَكْفِيكَ هَذِهِ الدُّنْيَا؟

- نَعَمْ، يَا سَيِّدَتِي فَلَسْتُ بِرَجُلٍ طَمَعٍ^(٢).

- كَمْ أَتَوَجَّعُ لَكَ أَنْتِ الَّذِي أَحْرَزْتَ كُلَّ هَذَا الْمَجْدِ.

- يَا سَيِّدَتِي، إِذَا كُنْتُ جَالِسًا عَلَى الْغَيْمَةِ الَّتِي تَجْلِسِينَ أَنْتِ عَلَيْهَا، اسْتَوَى عِنْدِي الْمَاءُ

وَالخَشَبُ وَلَمْ أَبَالِ أَنَا فِي صَفِّ التِّيُوسِ أَمْ فِي صَفِّ الْحَمَلَانِ.

- لَا تَتَلَقَّيْ شَيْئًا بِصُورَةِ الْجِدِّ. مَعَ أَنَّ الْمَوْتَ أَمْرٌ عَظِيمٌ.

- كَلَّا، يَا سَيِّدَتِي فَلَا شَيْءَ أَهْزَلَ مِنَ الْمَوْتِ وَلَيْسَ فِي الْجَنَازَةِ مَنَظَرٌ أَقَلَّ مَعْنَى مِنْ مَنَظَرِ الْمَيِّتِ^(٣).

(١) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (سورة الحاثية).

(٢) أَرَادَ أَنْ يَقُولَ عَنْ نَفْسِهِ مَا قَالَ أَحَدُهُمْ لِأَبِي الْعَلَاءِ الْمُعَرِّيِّ إِذْ قَالَ لَهُ هَذَا: لَسْتُ أَزَاحِمُهُمْ عَلَى الدُّنْيَا. فَاجَابَهُ ذَلِكَ: وَلَا عَلَى الْآخِرَةِ.

(٣) صَاحِبِنَا فَاتِ الْمُعَرِّيِّ وَرَبِّمَا فَاتِ أَبِيقُورِ نَفْسِهِ.

- قد تلقيت تربية صالحة مسيحية وكانت أمك برةً وبدأت بدءاً حسناً وستعود كما بدأت.
- قد عدت يا سيدي، فأنا أذهب معك حيث أردت.
- أإذا طالبتك بوعدك، أتريد أن تذهب معي إلى الكنيسة الإسبانية؟ فهي على دورة دولاب من هنا.
- هذه كنيسة؟
- نعم.
- لكنّها خالية من الأبهة.
- لا حاجة إلى الأبهة وإنما المقصد النعمة.
- إذا رجعنا إلى النعمة فيوجد من النعمة حيث أنت أكثر ممّا في كلّ معابد باريز. حقاً المعجزات هي هنا.
- لا نضلنّ الطريق. تعال معي إلى الكنيسة.
- ولماذا لا؟ يقولون هذا قصص من زمان رجوع الحكم الملكي.
- ليست القضية قضية قصص، بل ثمة معلّم اعترف خيرةً يغسلون لك ضميرك جيّداً.
- أريد أن أعترف. ولكن لك يا سيدي.
- واحسرتاه! ماذا أصنع بذنوبك؟ وأنا حسبي ذنوبي. وأنت من جملة ذنوبي، بل أنت كبيرة آثامي.
- جعلتني لا شيء يا سيدي.
- نعم، أنت كبيرة خطاياي لأنّ معلّم اعترافي يعني من أن أقرأ كلامك.
- وتريد أن تأخذني إلى هذا الجلف. فهو سيحظر عليّ أنا الكتابة.
- كلاً، بل يشير إليك بكتابة المواضيع الطاهرة ويتقدّم إليك في أن تنفق في خدمة الديانة ما أوتيته من النعم الإلهية التي قلّما أوتيها أحد.
- أتريني أعمل غير هذا؟
- سواء أردت أم لم ترد فالنعمة^(١) تعمل عملها.
- هي عاملة. هي عاملة.

(١) الأصل الفرنسي (Grace) وترجمتها «النعمة» والنصارى يريدون بها «اللفظ المخزون».

- لماذا لا تأتي لتتلو صلاة صغيرة أمام تمثال العذراء؟
- لا نقل صلاة صغيرة، بل رياضة تسعية^(١)، تسعية. أعملها أنا وإياك. لماذا لا نعملها؟ فعندنا من تماثيل العذراء والقديسين بقدر ما في كنيستك التي في شارع "ألما Alma".

الديناميت في وريقات اللف

- هناك حقائق مرّة المذاق على الطبقات المتأثّلة والحكم الحاضر والمفهوم العامّ.
فمثل هذه الحقائق يجب عرضها على الناس بصورة تدلّ على عدم الاعتناء. فإننا قوم نكتب للملاء الذين هم في الواقع وحدهم القراء. فلا تهتكّن ستر الهيكل بيد خشنة، بل اهتكه تدريجياً وأخرقه أثر ذي أثير بثقوب صغيرة خفية وبحجّة أنك تريد أن ترقعه. إقطع من هنا ومن هناك خرّقاً واعمل منها الأعيب صبيانية وسهّل على القارئ أن يفهم هو من نفسه ما لم ترد أنت أن توضّحه له... يظنونني ماجناً ويقولون عني أحياناً مشعوذ وأحياناً سوفسطائي... والحقيقة أنني قضيت حياتي أفرق ديناميتاً في قصاصات ورق.

سماط تاريخي

أميركية طلبت التعرّف بالأستاذ وأقامت الدنيا وأقعدتها وأتت بشفاعات من وزراء وأكاديمين وتجّار عاديّات حتّى تفوز بنعمة قبوله لها.
فسأل أنا أتول فرانس قيمة منزله جوزيفين عن الأميركية: أحسناء هي؟ فأجابت جوزيفين بإشارة من يصف زنبيلاً مفعماً إلى طفافه. فقال أنا أتول فرانس:
- جيّد أنا أقبل زيارتها.

فجاءت السيّدة. وكانت من ربّات الجمال إلّا أنها كانت ناضجة. فدعت الأستاذ إلى العشاء. فرضني وقرّر أن يذهب. إلّا أنّ الرعناء لم تلبث أن كشفت بغيتها، فقالت له إنّها ترجوه أن يكتب لها في نهاية الطعام خاطراً لطيفاً ويوقع بإمضائه ويضع التاريخ وذلك على سماط عندها صار تاريخياً من كثرة ما عليه من الكتابات والتواقيع. فإن أكثر أعظم العالمين القديم والجديد أكلوا على هذا السماط وكتبوا عليه. وقد طرزت الأميركية هذه الخطوط فبلغت نحواً من ثلثمائة

(١) تسعية أو (Neuvième) ومعناها رياضة تستمرّ تسعة أيام.

إمضاء منها «ديبوسي»^(١) و«ماترلينك»^(٢) و«ماسينييه»^(٣) و«روستان»^(٤) وأحد الكرادلة^(٥)... إلخ. فلما سمع فرانس هذا الكلام تشكى من معدته وكبدته، وقال إنه مواظب على الحمية وإن طيبه يمنعه أن يأكل في المدينة، وإنه نسي ذلك، وإن هذه المسئلة تتعلق بها حياته وموته. وصرف الأميركية المفتونة به نحو الباب.

النفير العام وباخوس^(٦)

- كنت عند العقيلة في مربعها بالبرية فأخذت أتحدث إلى واحد من المزارعين فعلمت أنه حضر حرب السبعين وأن أحسن رواياته عنها اثنتان. الأولى: إصابة رصاصة قائد مائة من الدارين في أسته. وقد مات في هذا المسكين منها. وصاحبنا يكاد يموت من الضحك عندما يذكر هذه القصة. والثانية: حكاية المحتال الذي عهد إليه بجلب خيل، كانت الحكومة ضبطتها وأمرته بالمجيء بها إلى ساحة الحرب. فهذا الرجل كان يذهب من محلّ إلى محلّ وكلّ محلّ يصل إليه كان يستقبله فيه شيخ البلدة ويقدم العلائق للخيل والقرى للموكل بها، فيجد مأكلاً ومأوى وزاوية فيها نار يصطلي عندها. فما كان يتمنى شيئاً سوى أن يدور من قرية إلى قرية بهذه الخيول إلى أن تكون وضعت الحرب أوزارها.

وكان عند الصباح ينهض فيستعلم عن الطريق، التي تؤدّي إلى محلّ الجيش، فإذا حققوا له الطريق سار هو بالعكس حتى لا يصل أبداً. وما زالوا يدلونّه على الطريق وهو يمشي إلى الجهة المخالفة إلى أن انتهت الحرب، فقضى تلك المدة أكلاً شارباً لاهياً، وقد يسبّونه فلا يبالي بشرط أن يضلّ الطريق. ولم يكن الفلاح الذي يحدثني ينطق بكلمة لوم بحقّ هذا الفارّ من الحرب، لأنّ محدّثي هو عينه من البُط، بل كان يروي قصّته بشيء من الإعجاب أو من الحسد.

- إذا نشبت الحرب يمشي فلاّحك هذا إلى القتال مع جميع أهل قريته.

- نعم، إذا مشى معلّم الأولاد والخوري في طليعة النافرين إلى الحرب. ويوم النفير يضعون دنّاً من الخمر أمام كلّ حانة فيكون لباخوس فيه الحكم الأول.

(١) ديبوسي (Debussy)، مؤلف موسيقي شهير، (١٨٦٢ - ١٩١٨).

(٢) ماترلينك (Maeterlinck)، كاتب بلجيكي، ولد في غاند سنة ١٨٦٢.

(٣) ماسينييه (Massenet)، شاعر فرنسي، ولد في سانت إتيان سنة ١٨٣٢ مات في باريس سنة ١٩١٢.

(٤) روستان (Rostand): تقدّم ذكره وذكر استئصال أناتول فرانس لشعره.

(٥) لعلّ وجود اسم روستان واسم الكردينال كان من أقوى الدواعي لعدول فرانس عن قبول دعوة الأميركية.

(٦) باخوس (Bacchus)، إله الخمر عند الرومانيين وهو المسمّى بديونيسوس عند اليونانيين. وفي الأساطير أنّ باخوس هو ابن جوبيتر وأنه كان له مواقف محمودة في نصرته أبيه في حرب الآلهة مع الجبابرة.

الآلهة الصامتة

صادفنا مرة جنازة. فحيًا أناتول فرانس الجنازة بإعظام خارق للعادة. فقلت له: لماذا خفض هذه القبة. فإن كان للصليب أو للكاهن فأنت جاحد. وإن كان للميت فلا أظنك ممن يسلم عليه لو كان حيًا. فلزم أن يصير من الغابرين حتى صرت تميل إليه؟

ففكر قليلاً وقال: "كنت أحيي مصيري" فقلت له: لماذا لا تحيي هذا الوضم، فإن هذا اللحم الذي عليه يكون طعام الإنسان كما يكون هذا المحمول على النعش طعام الدود. مصير واحد.

فقال:

- ما أقدرك على المغالطة.

ثم قال:

- لنعش بسلام حتى نموت بسلام، فإن الصعوبة ليست في الموت، بل في الحياة. فلا تدعون كاهنًا مزعجًا إلى فراش احتضاري، ادعوا لي امرأة حسناء. وأحب أن أيدًا جميلة تغمض عيوني عند الرقاد الأخير^(١).

وكان كأفراد العامة في نزوعه إلى الاجتماعات التي تقع في الساحات وشهود حوادث الطرق، فأينما تذهب العامة يذهب وينظر ويؤوّل ويفسّر ويقايس ويقابل. فأحدى المرار وجدنا الرصيف الذي أمام "الأنستيتو" مسودًا من الخلائق فقصدناه وتغلغلنا في وسط الجمع فشاهدنا مسطوحًا على الجرف جسد رجل غريق واقفًا عنده شرطي. وكانت الجثة حالكة السواد كالأبنوس. وقد رسب على أطمار الغريق من مياه النهر شيء جمد فصار كالرماد. وكانت أظفاره البيض في أيديه الزرق المتشنجة مما لا تطيب النفس برويته. فسالت قريحة الجمع بالكلام الزقاعي: "هذا زنجي رمى نفسه في الماء ليصير أبيض" وما شاكل ذلك.

فقال أناتول فرانس وقد تنهّد:

- هذا المزاح أليم في النفوس، لا سيّما أننا في باريز أبرّ بلاد الناس بالموتى. انظر إلى الجبانات ولا سيّما جبانات الضواحي فتجدها في الفصول الأربعة حدائق غنّاء. وإذا مرّت جنازة حسر

(١) وصية تذكّرنا من بعض الوجوه بوصية الحطيئة وهو يموت.

الجميع عن رؤوسهم متفقين طراً على حرمة الأموات. وترى أشد النساء إلحاداً يرسم إشارة الصليب. فهذا الشعب نفسه يحتقر بقايا هذا الرجل الآن. الجواب لأنّ هذا الميت لم يتبع العادة والعرف. فهو ميت فقير لا يستحقّ الرحمة، لكن لو وضعوه على نعش لانقلب الهازلون رزناً وحسروا عن رؤوسهم. إذا يوجد فنّ اسمه فنّ الموت. كما يوجد علم اسمه علم الحياة. والشعب يحبّ الجنائز الحافلة. فإذا أبصر هذه الجبال من الزهر مارة في الطرق، شعر برحمة وحزن على قدر الثروة التي تدلّ عليها تلك الأكاليل. وقد يشعر بشيء من الرضى لأنه لا يكره أن يرى الجبارين وسعداء الحياة الدنيا ذاهبين إلى التراب.

كيف أريد أن أُدفن؟ أريد أن أُدفن مثل "سان بوف" (١) الذي ذهب ذهاب رجل رجل عاقل بدون أن يحدث أدنى جلبة، كأنما كان يمشي على رؤوس أصابعه (٢). فلا أرسلت أوراق نعي ولا عملت حفلة دينية. وهكذا، فلنصنع ونكف الناس مؤونة هذه الرموز الثقيلة الباردة وإذا كان لا بدّ من سفر، فليكن بأخصر الطرق. وإني أربأ بالنساء عن أن أحزنهنّ بملاقة مركبتي الأخيرة.

حضرت جنازة سان بوف فكانت مدنيّة. وكان على التابوت إكليل بنفسج بديع مرسل من عند مادام "جان دوتورباي". ولما أنزل الجسد في اللحد، صعد الشاعر "لاكوساد" على أكمة وقال هذه الجملة البسيطة: "وداعاً يا سان بوف، ووداعاً أيّها السادة المشيعون، وشكراً بالنيابة عنه". فهذا هو أتمّودج الجلال والنظام في الجنائز. فمن أراد أن يشيع أو من قدر أن يشيع فليشيع. ومن أسخف السخف الإطالة في المقابر ولا حاجة إلى الخطب في فناء الإلهة الصامتة (٣)!

(١) شارل أوغوستين دو سانت بوف Sainte-Beuve، من أشهر المحقّقين في فنّ الأدب عند الفرنسيين، له كتابات ممتعة في النقد الأدبي وفي تراجم الأدباء وتشريح مذاهبهم، (١٨٠٤ - ١٨٦٩).

(٢) لم يتيسّر لأناتول فرانس الذهاب من هذه الدنيا على رؤوس أصابعه، بل كانت له جنازة من أحفل ما عهد بفرانسة.

(٣) هذا النمط في الجنائز هو السنة الصحيحة عند المسلمين وبها أوصى أستاذنا الإمام الشيخ محمّد عبده، رحمة الله، ليكون العمل بها عند وفاته. وقال أحمد شوقي متنبّي العصر: "جلال الموت في الموت".

فهرست المحتويات

٥	• مقدمة الناشر
٧	• مقدمة
١١	- وفاة أناتول فرانس وترجمة حاله
٢٦	- ملخص خطبة المسيو فكتور باش باسم جمعية حقوق الإنسان
٢٨	- ملخص خطبة المسيو بلوم، نائب باريز ورئيس الحزب الاشتراكي
٣٠	- خلاصة خطبة المسيو بول بانلفه، الذي كان يومئذ رئيس البرلمان،...
٣١	- خلاصة خطبة المسيو فرانسوا ألبير، وزير المعارف الفرنسية
٣٤	- خطبة جبرائيل هانوتو باسم الأكادمي الفرنسية
٣٥	- خلاصة خطبة المسيو جورج لكونت، رئيس جمعية رجال الأدب
٤١	• كتاب نيقولا سيغور على أناتول فرانس
٧٢	- خلاصة الكلام على هذا الرجل
٧٣	- الغرض من نشر هذا الكتاب بالعربية
٧٨	• كتاب جان جاك بروسون نحو من المقدمة
٧٩	- شاب من الأقاليم يأتي إلى باريز
٨٣	- أيتها الطبيعة احفظيني مما وراء الطبيعة
٨٤	- المعلم
٨٥	- الصباح حبيب آلهة الشعر
٩١	- المغطس الجنّي
٩٢	- انظر إلى نفسك
٩٢	- يا لها من كمّة
٩٣	- حامية المنزل
٩٤	- مخطوط جان دارك
٩٦	- قبل غير مطبوعة
٩٧	- الكياسة والذوق

١٠٠	- صندوق المراثي
١٠١	- سيناً في الفونوغراف
١٠٢	- المطارحتان
١٠٤	- المظلة الجنّية
١٠٥	- دستور الإيمان
١٠٥	- ملاهي نهار الأحد
١٠٦	- استنطاق
١٠٧	- إثبات وجود في غير محلّ الجرم
١٠٨	- مشدوه وسهوان
١١٠	- الصحو من النشوة
١١١	- الرسوم
١١٣	- معرض ثياب بيض
١١٤	- العصر الجيدّ
١١٤	- مولع ببقايا القديسين
١١٥	- الصبايات الأول
١١٧	- خطأ في الإملاء
١١٧	- سيّدتي البلاغة
١١٨	- توخّي العالي من الإنشاء مرض
١١٨	- عند هويسمان
١٢٠	- الثبت
١٢٠	- طالي وكليو
١٢١	- علم التعبية الأكاديمية
١٢٢	- حجاب المستقبل
١٢٢	- هذا الولد نائم
١٢٣	- المجد والبابونج
١٢٤	- التسلية البرية
١٢٥	- فداء الكتب العتيقة
١٢٦	- صحن نيفير

١٢٨	- عصا شاتوبريان
١٢٩	- المودّة والعادة
١٣٠	- من الرُّقاق الضيّق
١٣٠	- عريف شمبانية
١٣٤	- جان دارك ورابيه
١٣٤	- خزانة الكتب
١٣٥	- العذراء جان دارك ذيل طيّارة
١٣٧	- النذر
١٣٧	- لطيفة
١٣٨	- مطامع قييني
١٣٩	- غيبة الأحباء
١٣٩	- إنّما الفضيلة عجز
١٤٠	- علم الصبابة
١٤٠	- لا شيء على عروة ثوبه
١٤١	- وُريدات مار فرانسيس
١٤٢	- التيس في الدير
١٤٣	- الأكادمي بدون قبة
١٤٥	- مهنة الموت
١٤٦	- المجنون المرسلّي
١٤٧	- مروحة الجلد
١٤٩	- الركبة العسكرية والركبة الطاهرة
١٥٠	- حديقة الأمثال الغنّاء
١٥١	- الجنرال يتمرن
١٥٣	- الصورة المركّبة
١٥٤	- الهيكل المتألّم
١٥٤	- قبلة المجذوم
١٥٧	- الأول والثاني والثالث
١٥٨	- الإحسان الباطل

- ١٥٨ - أغبى من شاعر
- ١٥٩ - دفتر الجوائز والأشعرة
- ١٦٠ - بسطة الجسم لا العلم
- ١٦٣ - التلميذ الذي به صرع
- ١٦٤ - لذة الألم
- ١٦٤ - هل أنقذ «رينيه» الكنائس الكاندرائية؟
- ١٦٧ - نمس الموائد
- ١٦٨ - مديح مار لويس
- ١٧٠ - مديح الملكية
- ١٧٢ - شيء ملوكي
- ١٧٣ - ذوقه في الطبيعة
- ١٧٣ - بحذاء مخدة العمّة
- ١٧٤ - فيرجيل خادم المنزل
- ١٧٥ - الرجوع إلى الآباء
- ١٧٧ - خطأ في موعد
- ١٧٩ - كبير وكامل
- ١٧٩ - ليس لي إلا نفس واحدة
- ١٨٠ - الحرمة لمار بولس
- ١٨١ - الحبّ الظالم
- ١٨٢ - ملك الأكاسير
- ١٨٣ - المطران كابريبير عند أناتول فرانس
- ١٨٦ - خذوا حذرکم من الفيكونت
- ١٨٧ - المطارين تتعاقب
- ١٨٩ - ستصير خالدًا لأجل خطاياك
- ١٨٩ - النحو والكاتب
- ١٩١ - عين جوقانس
- ١٩٢ - ربطات رقبة هريديا
- ١٩٢ - البرهان بالمستحيل

١٩٣	- نابليون مهرج عالٍ
١٩٤	- كلمة تاريخية
١٩٥	- قيصر لا يكون رخوًا
١٩٦	- فلتسقط المخالب!
١٩٦	- تاريخ طبيعي
١٩٧	- جندي قائد عشرة
١٩٨	- أعظم البطون جرماً
١٩٩	- لا حاجة بي إلى المجد
١٩٩	- الرجل العظيم ليس بـرجل
٢٠٠	- عجز قيصر
٢٠١	- جوبيتر أشبه بسكابين
٢٠٣	- جعل لي أنفي أعوج
٢٠٤	- برلين ثكنة عسكرية
٢٠٨	- قضية الأعلام
٢٠٩	- تضحية الطعام
٢٠٩	- بوذا
٢١٠	- قدم إنكلترا
٢١١	- التقليد والصابون
٢١١	- اليدان
٢١٣	- قصب السبق
٢١٤	- الزهرة والعذراء السمراء
٢١٥	- الطبيعيات الجديدة وما وراء الطبيعة الجديد
٢١٧	- زيارة أناتول فرانس لبروسون
٢١٨	- البصلة الذهبية
٢١٨	- المجد
٢١٩	- الكستنائات لا تزال سخنة
٢٢٠	- لا، لا بانطيون
٢٢٢	- الشوك للأحياء والورد للأموات

٢٢٤	- بالزك
٢٢٥	- محبرة شاتوبريان
٢٢٧	- من الحمام إلى النار
٢٢٩	- الطرفة المجهولة
٢٣١	- هوغو وبيرانجه
٢٣٢	- تغيير السحناء
٢٣٢	- قياس أقرن
٢٣٣	- دوشين متلصص بحر
٢٣٤	- إعادة نظر
٢٣٤	- إيضاح
٢٣٤	- حيلة تور
٢٣٦	- فتوى
٢٣٨	- السيِّدة الأرخنتينية
٢٤٣	- الديناميت في وريقات اللفّ
٢٤٣	- سِماط تاريخي
٢٤٤	- النفير العام وباخوس
٢٤٥	- الآلهة الصامته
٢٤٧	• فهرست المحتويات





١٨٦٩ - ١٩٤٦

"لم يعهد التاريخ دوراً من الأدوار خلّص من علاقة الشرقيين بالغربيين... وقد عمّ هذا التحاكَ، جميع أحوال الحياة وأركان العمران.

... إذاً الأخذ والعطاء بين الشرق والغرب قديمان... لم ينحصرا في الأمور المادية... بل شملا الأمور المعنوية والمسائل العقلية والشؤون الاجتماعية، إلا أنه لم يعرف التاريخ فيما مضى أي قبل ظهور الآلات البخارية والكهربائية، دوراً أثرت فيه العلاقات بين الشرق والغرب... كما في هذه الأيام الأخيرة التي ألقى فيها الغرب بجرانه السياسي على الشرق.

... فاضطرّ الشرق إذاً أن يأخذ عن الغرب، طوعاً أو كرهاً، كل ما يتسنى له أخذه من أسباب المدنية... ويطبع بها مدينته العريقة، ويلقي على غرابتها ديباجته الشرقية احتفاظاً بقوميته، وليس المقصود أن محاضرات العرب بالآداب لا تُعدّ من الأدب... كلا فقد دخلت في العربية علوم الأمم المتمدنة وآدابها... فازدادت بها كمالاً وكسبت بها صقالاً...

والقسط كلّ القسط... هو أنه لا ينبغي لناشئة العرب أن يعدّلوا بهذه الأمم العربية البرّة أمّا، ولا يجعلوا لها من بين اللغات ندّاً.

ولمن أراد أن يكون خريجاً في العلوم السّياسية والأدبية فاللّسان الإفرنسي طراز المجالس... ووشي المحافل. وسترى ممّا سيأتيك من قصص هذا الكتاب وترجمة صاحبه "أناطول فرانس" آية فرنسة الحديثة في فنّ الإتياء."

شكيب أرسلان